منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية

سلسلة الدراسات المترجمة (7)

عمر المختار

وإعادة الاحتلال الفاشي لليبيا

تأليف

أنزو سانتاريللي

رومين رائنيرو

لويجي قوليا

جورجو روشا

ترجمة

عبدالرحمن سالم العجيلي

تقديم

د. عقيل محمد البربار



الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

2005

منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية

سلسلة الدراسات المترجمة (7)

عمر المختار

وإعادة الاحتلال الفاشي لليبيا

تأليف

أنزو سانتاريلي — لويجي قوليا

رومين رائنيرو — جورجو روشا

ترجمة

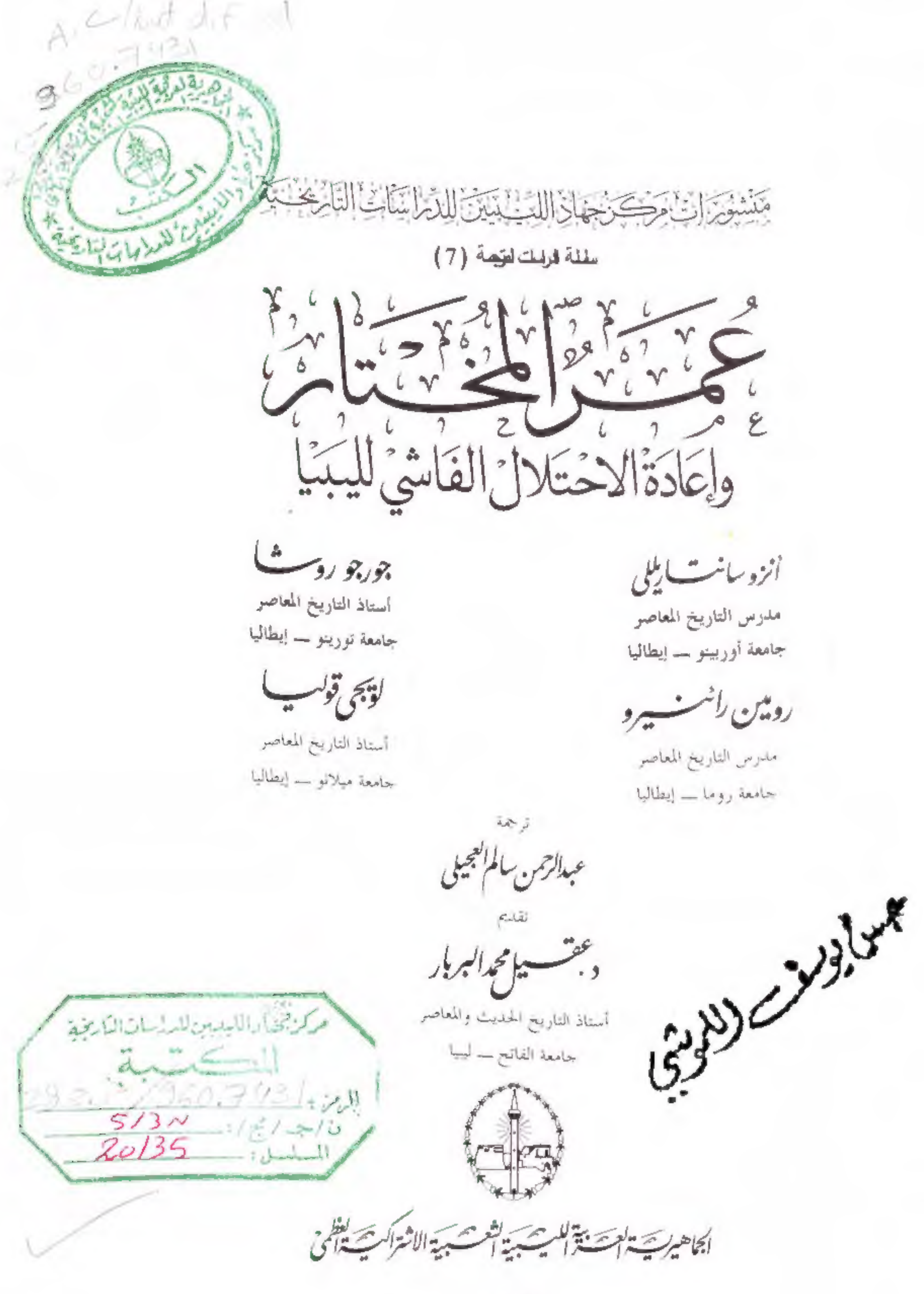
عبدالرحمن سالم العجيلي

تقديم

د. عقيل محمد البربار

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

2005



منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية
سلسلة الدراسات المترجمة (7)

عمر المختار

وإعادة الاحتلال الفاشي لليبيا

أنزو سانتاريللي
مدرس التاريخ المعاصر
جامعة أوربينو — إيطاليا

جورجو روشا
أستاذ التاريخ المعاصر
جامعة تورينو — إيطاليا

رومين راثنيرو
مدرس التاريخ المعاصر
جامعة روما — إيطاليا

لويجي قوليا
أستاذ التاريخ المعاصر
جامعة ميلانو — إيطاليا

ترجمة

عبدالرحمن سالم العجيلي

تقديم

د. عقيل محمد البربار

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

جامعة الفاتح — ليبيا

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

2005

مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية

طرابلس ـ ليبيا

الطبعة الثانية 2005

رقم الإيداع : **2005/6745** دار الكتب الوطنية/ بنغازي

ردمك : **ISBN 9959-23-103-8**

الوكالة الليبية للترقيم الدولي الموحد للكتاب

بنغازي ـ ليبيا

هاتف : **9090509 ـ 9096379 ـ 9097074**

بريد مصور : **9097073**

البريد الالكتروني : **nat- lib- libia @ hotmil.com**



SANTARELLI-ROCHAT-RAINERO-GOGLIA

OMAR AL MUKHTAR E LA RICONQUISTA FASCISTA DELLA LIBIA



MARZORATI EDITORE

المحتويات

تعريف بالمؤلفين

أولاً ـ إينزو سانتاريللي (Enzo Santarelli) :

مدرس التاريخ المعاصر في جامعة أوربينو (Urbino) وأهم دراساته ومؤلفاته:

1. «تاريخ الحركة الفاشية وعصرها» (1967)م.

Storia del Moumento e del regime fascista -1967

2. «كتابات بينيتو موسوليني التاريخية» (1979)م.

Scritti politici di Benito Mussolini

3. «مراجعة الماركسية في إيطاليا» (1964)م.

4. «الاشتراكية الفوضوية في إيطاليا».

وهو المؤلف الذي أعيد طبعه مع بعض الإضافات في عام 1973.

5. «العالم المعاصر حسب التسلسل التاريخي (1870 ـ 1974)م».

ثانياً ـ جورجو روشا (Giorgio Rochat) :

أستاذ التاريخ المعاصر في جامعة تورينو. له تآليف متنوعة حول التاريخ الإيطالي العسكري والاستعماري نذكر منها:

1. «عسكريون ومدنيون في إعداد الحملة على آسوييا» (1971م).
2. «الاستعمار الإيطالي»
3. «مناهضة الروح العسكرية اليوم في إيطاليا»
4. «كتاب بيرو بادوليو» (وذلك بالتعاون مع «إيتالو بالبو»، طياراً ووزيراً للسلاح الجوي).

ثالثاً ـ رومين رائنيرو (Romain Rainero) :

أستاذ التاريخ المعاصر بكلية العلوم السياسية ـ جامعة ميلانو. نشر عدة مؤلفات عن التاريخ الآسيوي الأفريقي والتاريخ المعاصر، منها:

1. «يقظة أفريقيا السوداء»
2. «تاريخ الجزائر»
3. «التمييز العنصري في جنوب أفريقيا»
4. «الحركة الإيطالية المناهضة للأستعمار من عصب إلى عادوا»
5. «الجنس البشري والقانون في القضية الاستعمارية»
6. «الادعاءات الفاشية حيال تونس»

رابعاً ـ لويجي قوليا (Luigi Goglia) :

وهو يقوم منذ سنة 1971م بالتدريس والبحث أولاً في معهد التاريخ الحديث في جامعة روما وبعدها في معهد الدراسات التاريخية السياسية في نفس الجامعة، نشر بحوثاً حول القضية الفلسطينية في أعوام 1970، 1971، 1979م وبحوثاً حول القومية العربية (1974) وحول عمل إيطاليا السياسي خلال حرب الحبشة 1935 ـ 1936م.

تقديم

هذا الكتاب الذي أعده كل من اينزو سانتاريللي Enzo Santarelli وجورجو روشا Giorgio Rochat وروميين رائيبيرو Romain Rainero ولويجي جوليا Luigi Goglia وجميعهم أساتذة وباحثون في جامعات إيطالية كبيرة، بحث متأن يغطي الفترة الاستعمارية الإيطالية لليبيا ثم المقاومة الليبية في السنوات 1923 ـ 1931م وهذه الدراسة ربما تعتبر الدراسة الوحيدة التي عالجت هذه الفترة بشكل جدي تصدر في إيطاليا وبأقلام باحثين إيطاليين منذ مدة طويلة ذلك أنه مثلما أشار روشا، فإن الكتابات الإيطالية التاريخية التي ظهرت بين الحربين العالميتين وحتى في الفترة بعد الأربعينيات، مخيبة للأمل وجاءت تدافع عن العصر الفاشي لقد كانت الفكرة في إيطاليا هي التقليل من تناول العصر الفاشي، وإظهار الأحداث والدراسات مقسمة حسب مختلف القطاعات في أبهى ثوب والدفاع إلى أقصى الحدود عن الروايات الإعلامية التي كان يروجها النظام الدكتاتوري دون بذل أدنى جهد لنقد التاريخ الرسمي أو قصور التوثيق.

ونتيجة هذا الاتجاه السياسي الثقافي هي أن الدراسات المتوفرة عن الاحتلال الإيطالي لليبيا ـ إذا استثنينا الفترة المبكرة من الحرب (1911 ـ 1912) مصدرها في أغلب الأحيان أجهزة الدعاية الوطنية الفاشية في عقد الثلاثينيات وفترة ما بعد الحرب وحتى من بين أفضل الدراسات الإيطالية يظهر عدم تفهم كامل للمجتمع الليبي وأحيانا ـ على حد قول روشا ـ احتقار سافر له ولمقاومته الطويلة للاحتلال الإيطالي. وعليه، فهي تطوع المصادر الوثائقية لمتطلبات الدعاية. وفي الفترة اللاحقة، يلاحظ الباحث قلة وندرة الدراسات الإيطالية لفترة الاستعمار الإيطالي في ليبيا ولمستواها المتدني، والمعرض في غالب الأحيان حتى من دارسين يفترض أن يكون تشربهم لطرق البحث الحديثة قد ولد فيهم نوعا من الموضوعية.

من هذه المنطلقات مجتمعة تكتسب هذه الدراسة أهميتها فهي أولاً، دراسة تحليلية جادة وموضوعية إلى حد كبير للوجود الإيطالي وللعمليات العسكرية بين الإيطاليين والمجاهدين تعتمد بالدرجة الأولى على الوثائق الإيطالية ذات العلاقة بالمقاومة الليبية مثل محفوظات الجنرال غرزياني، ومحفوظات الكتب التاريخية للجيش الإيطالي، ثم محفوظات وزارة أفريقيا المنحلة.

ثانياً، أن الدراسة ثمرة جهد جماعي قام به أربع من أشهر الأساتذة والباحثين الإيطاليين الأمر الذي عزز من النتائج التي توصلوا إليها في دراساتهم. فعلى الرغم من أن كل واحد درس جانباً من جوانب الوجود الإيطالي والمقاومة الليبية في فترة الفاشية إلا أن النتائج التي توصل إليها كل واحد منهم متفقة ومكملة لبعضها البعض فالموضوعية التي اتسم بها تناولهم لموضوعاتهم إضافة إلى كثرة ونوعية المصادر التي اعتمدوا عليها جعلت دراستهم على مستوى عال من الأهمية إسي فقط آمل أن يكون هذا الكتاب فاتحة فترة غنية بالدراسات والبحوث التي يقوم بها باحثون إيطاليون لفترة الاستعمار الإيطالي لليبيا والمقاومة الليبية لصد الوجود خاصة أنه توحد بين أيديهم الآلاف من الوثائق التي قد لا تكون متوفرة لغيرهم من الباحثين.

والكتاب مقسم إلى أربعة أبواب رئيسية هي:

الباب الأول: الفلسفة وراء إعادة احتلال ليبيا 1922 ـ 1931م.

الباب الثاني: قمع المقاومة في برقة 1927 ـ 1931م.

الباب الثالث: أسر عمر المختار ومحاكمته وإعدامه في إطار السياسة الفكرية الفاشية (لإعادة) احتلال ليبيا.

الباب الرابع: القبض على عمر المختار ومحاكمته وشنقه، في الصحافة الإيطالية

في الباب الأول الذي كتبه إينزو سانتاريللي تمت دراسة انتقال وتطور الفكرة من احتلال عن طريق النظام قبل وصول الفاشية إلى السلطة، إلى تلك بعد وصولهم ـ أي تطور العقيدة وراء الاحتلال. إن هذا التطور اتضح في فترة التحول من الليبرالية والوطنية المتطرفة إلى الفاشية. فالاستعمار الإيطالي وغرو إيطاليا لليبيا من الأصل جاء ـ على حد قول المؤرخ جواكينو قولبي:

«نتيجة التطور الذي حدث في هذه الفترة التي كانت تستمد قوتها من النزعات البرجوازية والوطنية المتطرفة حتى بلغت مستويات معينة في المطالبة بالتوسع، سواء داخل المجتمع الإيطالي أم فيما وراء الحدود. وبصورة أدق نقول: إن تعثر سياسة جيوليتي الإصلاحية وأيضاً أزمة 1907م الاقتصادية، قد سهّلت انتعاش السياسة الإمبريالية التي كانت قد أخفقت في عهد كريسبي، ولو بإبعاد أخرى».

بعد ذلك حدثت ثلاثة تطورات رئيسية:

1. بروز مصرف روما في ليبيا منذ إبريل 1907م. وقد بدأ هذا المصرف يحتاج مساعدة الدولة الإيطالية بعدما تربع في ليبيا ومد مخالبه إلى المشرق.
2. ظهور (الجمعية الوطنية) بهدف توعية الرأي العام الإيطالي وحمله على الاهتمام بموضوع التوسع وترسيخه.
3. ربط الحركة الوطنية المتطرفة، من خلال هيئة تحرير مجلة: L' idea Nazionale، وهي المجلة الناطقة باسم هذه الحركة، بأوساط الصناعات الثقيلة التي كانت قد كونت، في تلك الآونة ـ رابطةً احتكارية للحديد والصلب.

لقد هزم اليسار العمالي بالتدريج. فعلى سبيل المثال صار النقابي السابق لويجي رانزا Luigi Ranza (وزير الأشغال العامة) يصرخ بأعلى صوته داعياً إلى تعمير زراعي إستيطاني في برقة بالذات. وكذلك فعل النقابي (الثائر سابقاً) باولو أورانو Paolo Orano لدرجة أنه ألف كتاباً يثني فيه على الجنرال غرزياني ويمجده[1].

لقد بنيت الحركة الإيطالية الاستعمارية في ليبيا منذ بدايتها على عقيدة استيطان مضطرد ضمن توسع جغرافي سياسي في حوض البحر المتوسط. فغلاة الوطنيين حلموا في أن يحقق قيام (إيطاليا ما وراء البحار) الاكتفاء الذاتي والتكامل السكاني، القويم اقتصاديا. والفاشية اختارت ملء أراضي المستعمرات بالمستوطنين الطليان كحل لمشكلة تكاثر السكان في الوطن الأم. وكانت وراء ذلك كله حركة توعيةٍ وتكييف عقائدي، متواصل وقوي، وتمادت في تكييف الرأي العام بما يتماشى مع نظرية أو أسطورة التكامل السكاني التي طرحها موسوليني، بصورة منهجية من الخطاب الذي

[1] Paolo Orano,Graziani Generale Scipionico- Roma: 1936

ألقاه في يوم (عيد الصعود) لسنة 1927 م والتي تتلخص في:
أ ـ مشكلة توفير منفذ لاستيطان العدد الفائض من السكان.
ب ـ حمل الفريق المستأثر بالحكم إلى التمسك بمطامعه الإمبريالية.

ويشير المؤلف إلى أن أيديولوجية إيطاليا الاستعمارية واستراتيجيتها خاصة فيما يتعلق بليبيا، عقيمة فكريا ومنهجيا. وأما الثقافة الإيطالية فإنها لم تقدم للساحل الرابع أو تأخذ منه إلا النزر اليسير الذي يكاد لا يذكر، ومرد ذلك ـ ولو جزئيا ـ الطريقة التي اتبعها ـ حتى قبل العهد الفاشي وطوال ثلاثين عاما من السيطرة ـ في عدم الاعتراف للأهالي العرب بشخصية وكيان ثقافي مستقل ووطني الطابع، وكذلك الطريقة التي قضت بها على حركة المقاومة.

ويخرج المؤلف بنتائج عدة من بحثه:

1ـ إن «مقاومة الغزو الإيطالي في ليبيا. شعبية محضة ويكفي لإثبات ذلك إلقاء نظرة على المعارك ومن كان يخوضها». وهو أمر رفضت الحكومة الإيطالية اعتباره آنذاك كما رفض بعض المؤرخين ممن درسوا الفترة، شعبية المقاومة

2ـ إن الفاشية لا تختلف عن النازية في شيء عدا أن الأولى كانت تنطلق من كيان إنتاجي أكثر تخلفا ويضيف أن النتائج العملية القطيعة التي أسفرت عن حملة إبادة عمياء وحشية ظهرت من خلالها وبصورة مخزية جوانب التعصب الأعمى التي كانت كامنة في (الإمبريالية الفاشية)، وواجهتها الاستعمارية التي لا يمكن مقارنتها بأي عمل قمعي معاصر قامت به حكومات أوروبية استعمارية، سواء في الشمال الأفريقي أم في الشرق الأوسط أو أية بقعة أخرى في العالم.

3ـ وجود عنصر (روح الرسالة أو الروح الصليبية الكاثوليكية المنشأ في الغزو الإيطالي لليبيا).

4ـ لقد أعقبت سيطرة الفاشيست حركة قومية وتكييف عقائدي، متواصل وقوي، وتمادى إلى ترسيخ هذا الشعور وتكييف الرأي العام بما يتماشى وطموحاتها إن من بين نتائج هذا التكييف مساندة العمال للاستعمار الإيطالي على نحو ما سلفت الإشارة إليه.

5ـ أن حشر الأهالي في المعتقلات لم يكن إجراءا عرضيا بل كان عملا مدروسا، وكان

يتفق مع تصاعد سياسي واستراتيجي وعقائدي للفاشية الاستعمارية.

وفي الباب الثاني (قمع المقاومة في برقة 1927 ـ 1931) والذي كتبه جورجو روشا يجد القارئ كما هائلا من المعلومات عن سياسة القمع التي وضعتها السلطات الفاشية للقضاء على المقاومة والدراسة مقسمة إلى. **أولاً**، مصادر هذه الدراسة وحدودها؛ **ثانيا**، العمليات فوق الجبل الأخضر إلى سنة 1928م؛ **ثالثاً**، استئناف حركة المقاومة من عام 1928م؛ **رابعاً**، هدنة عام 1929م؛ **خامسا**، العمليات على الحبل في سنتي 1930 / 1931م؛ **سادساً**، ترسيخ الاحتلال الإيطالي حيث ناقش ميادين الاعتقال ثم حلها.

وقد اعتمد روشا في دراسته على نمط معين من الوثائق الإيطالية المحفوظة في (أ) محفوظات الجنرال غرزياني؛ (ب) الكتب التاريخية للجيش؛ (ج) محفوظات وزارة إفريقيا المنحلة وهو يشدد على أهمية الدراسة الوثائقية (الإيطاليه) على الرغم من محدوديتها فهو على سبيل المثال يعيب على المصادر الإيطالية قصورها بصورة عامة ثم تدرجها، وأحيانا عدم نزاهة رواياتها ووصفها للمقاومة ووجد أيضا أن معظم الوثائق المتعلقه بفترة إقامة المعتقلات غير موجودة ربما لأنها أتلفت أو أحرقت عن عمد. كما انتقد بشدة مسلك المؤسسات الرسميه والمؤرخين الذين لم يقوموا بأية دراسات نقدية.

ويعتبر روشا رائدا بين الإيطاليين والعربيين بصورة عامة في موضوع دراسة القمع الفاشي للمقاومة في ليبيا فبالإضافة إلى هذه الدراسة المتضمنة في هذا الكتاب قام في سنة 1973م بإعداد دراسة تخصصية أخرى حول عمليات القمع، وتكتسب ملاحظاته واستنتاجاته عن المعتقلات (معتقل الأبيار، معتقل سلوق، معتقل المقرون، معتقل البريقة، معتقل العقيلة، معتقل اجدابيا، معتقل النوفلية، ثم المعتقلات الصغيرة في دريانة وسيدي خليفة وبنغازي وسواني الثرية) أهمية خاصة ذلك بأن المعلومات التي استقاها مأخوذة من مصادر إيطالية رسمية.

وقد وصل روشا إلى عدة نتائج منها:

1 ـ الجذور الشعبية للمقاومة في برقة خاصة وليبيا بصورة عامة، وهو أمر فشلت الحكومة الإيطالية في إدراكه فضيعت ـ على حد قول روشا ـ الوقت الطويل

والجهد الكبير في التعامل مع بعض زعامات اعتقدت أنه بدهم حل المشكلة إن عجز القيادات والأوساط الاستعمارية الإيطالية عن تقييم عمق جذور حركة المقاومة وفهم مسلك زعماء المقاومة قد تولد عنه ذلك (الأسلوب الشائن لقمع المقاومة).

2 ـ إن حكم الإعدام كان قد صدر على المختار ـ (من خلال البرقيات المتبادلة بين المسؤولين الإيطاليين (بادوليو، دي بونو) في كل من طرابلس وبنغازي وروما) قبل صدور الحكم الفعلي وعليه فإن تقديم المختار أمام المحكمة الخاصة التي افتتحت جلساتها رسمياً بعد ظهر يوم 1931/9/15م، ما كان من شأنه إلا أن يستكمل جوانب المسرحية الهزلية المبكية التي لم يكن لها مظهر مثير إلا هيبة عمر المختار ووقاره وعزة نفسه).

3 ـ وعن غرسياني يكتب روشا إن (غرسياني كان شخصا فظا، كانت مؤلفاته تشكل ـ في المقام الأول ـ نصباً تذكاريا للدعاية لنفسه التي كانت تتقبلها، بدون نقاش أو نقد، محافل كتبة التاريخ الاستعماري الرسميين. فهو متسلق ووصولي ذو شخصية مريضة ـ حتى الهلوسة ـ على تأكيد شخصيته وتمجيدها إلى درجة تدفعه إلى اعتبار الأصدقاء والأعداء ـ على السواء ـ مجرد قطع يستخدمها لفوره الشخصي.

4 ـ أخيراً يؤكد روشا على الرغم من عمق وغزارة المعلومات التي سطرها إلى أن «سردنا للأحداث لا يمكن اعتباره نهائياً رغم أنه ثمرة أوفر جهد وأكثر استنادا إلى الوثائق أجري حتى الآن...». والسبب على ما يبدو هو أن الكثير من الوثائق غير متوفرة للاطلاع الآن وقد تصبح متوفرة للباحثين في وقت لاحق ـ إن لم تكن قد أعدمت عن قصد من قبل السلطات الإيطالية آنذاك.

وفي الباب الثالث الذي كتبه روميو رائنيرو (أسر عمر المختار ومحاكمته وإعدامه، في إطار السياسة الفاشية لإعادة احتلال ليبيا) تم التوصل إلى عدة نتائج من خلال دراسة جادة للسياسة الفاشية.

أولاً: كان للصراع الذي كان جارياً بين بادوليو وغرزياني ورغبة الأخير في تأكيد شخصيته ومركزه ضد مركز رئيسه دور مهم في السياسة التي اتبعها الأخير في برقة.

ثانياً: كان المجاهدون في نظر إيطاليا رحال عصابات خارجين عن القانون يتعين إعدامهم رميا بالرصاص حال القبض عليهم ممتشقين السلاح. في حين عامل المجاهدون الجنود الإيطاليين ممن تمكنوا من القبض عليهم كأسرى حرب وهذه مفارقة حضارية تجلى فيها جنود المقاومة ونزلت فيها الحكومة الفاشية إلى الدرك الأسفل على حد قول المؤلف.

ثالثاً: لقد أحاطت السلطات الإيطالية عملية الإعدام بالبهرجة والصخب وهو الطابع المميز للنظام الفاشي وذلك عندما أخفقت هذه السلطات في إثارة مشهد المحكوم عليه وهو يبدي يأسه أو ندمه علانية.

رابعاً: إن اختفاء عمر المختار لم يحل مشاكل سياسة الحكومة الاستعمارية، كذلك لم يحل ميادين الاعتقال أو ساعد في حل مشكلة الأهالي بتقبل الوجود الإيطالي. فالأهالي على الرغم من أنهم أجبروا قسراً على قبول السلطات الإيطالية، لكنهم لم يقبلوا أبدا هذا الوجود وجدانيا وظلوا يتوقون لساعة التخلص منها.

وفي الباب الرابع (القبض على عمر المختار ومحاكمته وشنقه، في الصحافة الإيطالية) الذي كتبه لويجي جوليا (Luigi Goglia) تم التأكيد على ضرورة القيام بدراسة الاحتلال الإيطالي لليبيا والمقاومة الليبية من جديد وبطريقة موضوعية نقدية. وهو يشير أيضا إلى (أن القليل من الإيطاليين يتذكرون المختار زعيم المقاومة... خاصة بعد ما ظل البعض - في الماضي - يصرّون بعنت، وبدافع من شعور وطني خاطئ يستحق الشجب والمؤاخذة، على التزام الصمت وتشويه الحقائق) ثم يخلص في دراسته إلى عدة نتائج:

أولاً: أنه لا معنى إلى التفريق بين إيطاليا الفاشية وإيطاليا ما قبل أكتوبر 1922م فيما يتعلق بمحاولة دحر المقاومة الليبية فكل الصحف (ومن ثم كل القوى السياسية) على اختلاف مشاربها أدانت المقاومة وحرضت على أهمية استعمال كل الوسائل للقضاء عليها.

ثانياً: يؤكد الكاتب (مثلما فعل روشا) من خلال دراسة دقيقة للوثائق ذات العلاقة أن قرار الإعدام كان قد اتخذ من قبل بادوليو والي عام ليبيا ودي بونو وزير

المستعمرات قبل تشكيل المحكمة الخاصة التي حاكمته يوم 1931/9/15م

ثالثاً. لاحظ المؤلف ـ مثلما فعل روشا في دراسته ـ وجود ورواج عصر الكذب وافتعال أشياء لم تحدث حتى احتكاما لمصادر إيطالية أخرى

رابعاً: كان يعوز السلطات الإيطالية الذكاء وتقدير الظروف السياسية وبعد النظر فهي نعتت المجاهدين رسميا وفي الصحافة بأقل الألقاب وجردتهم من صفات البشر في حين لم تهتم الصحف الإيطالية بخبر اعدام عمر المختار هناك تعمد لعدم إبراز الخبر أو الحديث بشكل خاص فقد اكتفت هذه الصحف بنقل أخبار وكالات الأنباء وبلاغات وكالة ستيفاني وعندما علقت هذه الصحف، (أعدرت تعليقاتها إلى حد الإسفاف لتهبط إلى مستوى إدانة عمر المختار بألفاظ وضيعة والتهجم عليه بالتشهير والشتيمة)

خامساً: وعن شيخ المجاهدين، يشير الكاتب:

«لقد كان عمر المختار هو المقاوم الليبي الذي عبر ـ عمليا ـ عن أسمى معاني النضال ضد الحكم الإيطالي سواء من حيث مواهبه العسكرية، التي أثبتها منذ أوائل هذا القرن في الكفاح ضد التغلغل الفرنسي إلى داخل مناطق الجنوب الليبي، أم لكفاءته السياسية وولائه وإخلاصه وهيبته كرجل دين ورع كانت تضفي عليه هالة من الاحترام والتقدير وتعطيه نفوذا معنوياً عظيماً.

لقد كان هناك قادة آخرون للمقاومة لكن لم تكن تتوفر فيهم الصفات الأخرى التي أثبتت شخصيته كمناضل يفرض احترامه وطاعته، على مدى عمره النضالي، حيث كان دائما يربض في الخط الأمامي كلما تعرضت مصالح شعبه للخطر إلى حد التضحية بحياته عن وعي وإدراك».

بقيت ملاحظات أود الإشارة إليها:

أولاً كنت أتمنى كقارئ لهذا الكتاب أن أجد معلومات مفصلة عن أولئك الذين أخذتهم الحكومة الاستعمارية الفاشية إلى إيطاليا كمساجين، وعن الدور الذي لعبته الكنيسة الكاثوليكية(الفاتيكان) في هذه الفترة ثم عن المحاكم الطائرة وعن دور سلاح الطيران الإيطالي في عمليات القمع.

ثانياً: من حيث مصادر الكتاب، كنت أتمنى لو تعرض الباحثون وأجروا مقابلات شفوية مع بعض الإيطاليين ممن اشتركوا في عملية استعمار ليبيا ولا شك أن الكثيرين منهم لا يزالون أحياء، ولا أعتقد أن منهم من يرفض الحديث. فقد يكون لديهم ما يقولون عن هذه الفترة.

ثالثاً: الملاحظة الثالثة تتعلق بموضوع العلاقة بين السنوسية والمقاومة في الفترة 1923 ـ 1932م هناك إشارات واضحة من الوثائق الإيطالية بل والغربية بصورة عامة تربط بين السنوسية وحركة الجهاد مفادها أن الأخيرة كانت تقاد ومسيطرا عليها من قبل السنوسيين ـ وعلى الرغم من أن المرء يمكن له أن يفهم محاولة الربط كهذه ـ لجعل المقاومة تظهر بمثابة ردود فعل دينية لدى الرأي العام الإيطالي،

رابعاً. فإن المرء يبقى حائراً أمام أخذ بعض الكتاب بهذه الآراء ـ ولو ضمنيا ـ وذلك لأنه معارض للحقيقة فإدريس السنوسي هرب إلى مصر بعد أن وقع معاهدات مع إيطاليا مضمونها الإجهاز على المقاومة (اتفاقيات الرويثية (1916) عكرمه (1917)، الرجمه (1920)م إلخ، ثم قبول الوجود الإيطالي أما هلال السنوسي والرضا السنوسي فقد استسلما وتعاونا مع الإيطاليين ضد المقاومة. لقد سعيا إلى العيش في ترف إضافة إلى ما سلف رفض شيخ الشهداء بنفسه هذه العلاقة عندما سئل في المحكمة الصورية عن إذا كان يحارب باسم إدريس. بل أنه في رسالة مشهورة مؤرخة بتاريخ 15 رجب 1324هـ بعث بها شيخ الشهداء إلى أحمد الشريف يدين فيها بشدة الموقف المتخاذل الذي اتخذه إدريس:

«بعد السلام عليكم. . نخبركم بأننا وجميع أهل وطنكم العزيز في حالة صعبة وخوف شديد من العدو...

والسيد إدريس هرب إلى مصر وتركنا في النار الحمراء وإننا والله ثم والله ثم والله نحاسبكم بين يدي الله على فعلكم هذا، سبحان الله تأخذوها وهي حلوة وتتركوها وهي مرة»[1].

---

[1] للاطلاع على هذه الرسالة كاملة، انظر د إدريس صالح الحرير في كتاب عمر المختار، إشراف د.عقيل البربار طرابلس: مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي، 1981م.

بقيت كلمة في هذا التقديم. لقد حرصنا قدر الإمكان أن تكون الترجمة مطابقة تماماً للأصل، وتحمل الكلمات والمعاني التي أرادها المؤلفون ـ كذلك فإننا تركنا كل الملاحق دون تغيير على الرغم مما فيها أحيانا من عبارات تصل درجة الإسفاف ومقصدنا من هذا الحرص على نقل الأشياء بأمانة علمية كاملة، ثم التوضيح للقارئ في اللغة العربية حد ودرجة الإسفاف الذي وصلت إليه بعض الصحف وبعض الأوساط المثقفة والرسمية الإيطالية في تلك الفترة ونحن نعتقد أن هذا الإسفاف يمثل إدانةً صريحة لكل هذه الأوساط.

د. عقيل محمد البربار
قسم التاريخ ـ جامعة الفاتح

الباب الأول

الفلسفة وراء إعادة احتلال ليبيا
(1922 ـ 1931)

اينزو سانتاريللي
Enzo Santarelli

الفلسفة وراء إعادة احتلال ليبيا (1922 ـ 1931)

اينزو سانتاريللي

إن الجانب الاستعماري في الحركة الفاشية، لم يبحث أو يدرس منهجيا في إيطاليا إلا نادرا وبطريقة غير متعمقة، مع أنه لا يقل خطورة عن العمل الداخلي ولا ينفصل عن كنه عهد الدكتاتورية، بل يتسلل إلى جميع ثنايا العهد الفاشي وسياسته.

ومن جهة أخرى فإن إصدار حكم شامل ومسبب على الحركات الفاشية في أوروبا في عقدي العشرينات والثلاثينات، يتطلب إجراء مقارنة بين الفاشية الإيطالية ـ وهي الوحيدة التي استتبت في دولة تسيطر على عدد من المستعمرات وقادرة على القيام بحملات استعمارية ـ والفاشية الألمانية.

ويجوز لنا أن نبدي ملاحظة بهذا الصدد، ولو في خطوط عريضة إلى أبعد حد وهي أن نموذج الفاشية الإيطالي، الذي استحوذ على تقاليد الحكم، كان ينتشر في أوروبا الجنوبية في العشرينات، في الوقت الذي كان فيه النموذج (الوطني ـ الاشتراكي) (النازي) يسيطر في العقد اللاحق، على قلب أوروبا ذاتها نتيجة أزمة 1929م، إلا أن تفاقم الأزمة الاقتصادية سوف تكون له انعكاساته على سياسة موسوليني الاستعمارية وعلى كامل استراتيجية الاستعمار الفاشي وعقيدته ففي ليبيا وبعد إعادة احتلالها في عامي 1930 و1931، ينقلب طابعه إلى استعمار استيطان (جماعي) ضمن نطاق سياسة طموحة تستهدف الهيمنة على حوض البحر الأبيض المتوسط، مشربها إمبريالي يتفق مع الاتجاهات السابقة التي ما لبثت أن أدت بعد فترة إلى العدوان على الحبشة وغزوها، وفقا لمخطط أوسع نطاقا وأبعد مدى

وفي هذا الإطار، فإن طرد أهالي الجبل الأخضر من مواطنهم بالجملة وحشرهم

في معسكرات الاعتقال، لم يكن إجراء عرضيا، بل كان يتفق مع تصاعد سياسي واستراتيجي وعقائدي للفاشية الاستعمارية التي أصبحت الآن تضم في صفوفها قسما من عناصر غلاة (صورة) الوطنيين السابقين الذين تلاحموا مع المتعصبين في الحزب الوطني الفاشستي Partito Nazionale Fascista- P. N. F وفي ذات الوقت بلغت نتائج مثل هذه العملية الفظيعة، التي أسفرت عن حملة إبادة عمياء وحشية ظهرت من خلالها وبصورة مخزية جوانب التعصب الأعمى التي كانت كامنة في (الإمبريالية الفاشية)، وواجهتها الاستعمارية التي لا يمكن مقارنتها بأي عمل قمعي معاصر قامت به حكومات أوروبية استعمارية، سواء في الشمال الافريقي أم في الشرق الأوسط أم في أية بقعة من العالم[1].

ولهذا فإنه من الأهمية التوقف لدراسة فترة 1922ـ1931 عن كثب وتسليط الضوء على لحظة التحول أو بالأحرى على تحليل ملابسات لحظة تطوير طابع العلاقات بين المستعمرة والوطن الأم، الذي ظهر، أول ما ظهر، في ليبيا، في حوالي عامي 1926ـ1927.

وإجراء استطلاع محدود على الوسائل التي لجأت إليها الفاشية والاتجاهات التي اتبعتها، على المستوى الشعبي، قد يفيد في فهم الخلفية التاريخية للقفزة (النوعية) التي حدثت في عامي 1930ـ1931، وهي مسألة لم تحل بعد

هذا وقد لوحظ مراراً، خاصة، في السنوات الأخيرة، ولاعتبارات متباينة، ما يشبه التخلي، الشامل تقريبا، عن إعادة نظر نقدية في ماضينا الاستعماري[2]؛ وحتى إجراء استطلاع شامل حول كتابة تاريخنا الوطني بروح انتقدية ذاتية، بإشراف (روجيرو رومانو) توقف، لإصرار المشرف، وهو محق في إصراره هذا، على

---

[1] راجع اينزو سانتاريلي ـ تاريخ الحركة الفاشية والعهد الفاشي ـ روما ـ 1967 ـ مجلد (1).حيث يتناول بالبحث (إبادة أهالي برقة) في نطاق الاندفاع نحو المستعمرات والبحر الأبيض المتوسط، الذي حدث بعد عام 1926 ـ (الباب السادس ـ بناء الحكم الفاشي)

[2] راجع جورجو روشا، في مقدمته لكتاب ج سيقري (إيطاليا في ليبيا من عهد جوليتي إلى القذافي) ـ ميلانو، 1978 ـ صفحة (7)

التمسك بهذه النقطة التي كان يوليها أهمية رئيسية.[3]

ومارال لويجي فيدرزوني Luigi Federzoni ـ وهو وزير سابق للمستعمرات في العشرينات ـ يحرأ ـ حتى سنة 1967م ـ على الإفضاء بكلام كهذا: [إن من أفضل الأعمال التي تم انجازها بعد (الزحف على روما) كان إعادة احتلال ليبيا في فترة 1922 ـ 1931]. ومن خلال نظره كهذه للتاريخ، أعاد الكرة ليرد اعتبار (الحركة الحارة لترسيخ الاستيطان الإيطالي على أرض ليبيا، بنقل أعداد ضخمة من عائلات المزارعين الإيطاليين إلى هناك، دفعة واحدة[4].



عمر المختار وهو مكبل بالسلاسل أمام مدخل سجن بنغازي في 12 سبتمبر 1931

[3] روجيرو رومانو ـ كتابة تاريخ إيطاليا، اليوم ـ ميلانو 1967 ـ صفحة 90 ـ 102

[4] لويجي فيدرزوني ـ (إيطاليا أمس لتاريخ الغد) ـ ميلانو، 1967 ـ ص 137 ـ 138 وص154 ـ 155

إنه موقف مجاز لتبرير مواقف سابقة، بدون شك، ولكنه موقف لم تحتج عليه أو تعارضه بما فيه الكفاية الأوساط المهتمة بكتابة تاريخنا الوطني المتعلق بماضينا الاستعماري.

أما الدراسات المتحددة حول الحبشة، فكانت ولا تزال أوفر وأصدق من الدراسات الأخرى، ربما بسبب النكسة الوطنية التي حلت بالبلاد سنة 1896م والصدمة الثانية التي تعرضت لها إيطاليا في عامي 1935 ـ 1936[5]

فالقضية تبدو لنا أنها تلامس أسطورة (طباع الإيطاليين على المستوى الشعبي) كما ظهر على أثر انهيار الحكم الفاشي، حيال الشعوب التي كانوا قد احتجوا بها إبان الحروب الاستعمارية، وحربي أوروبا، وعلى وجه الخصوص الرأي الأسطوري القائل بأن (الإيطاليين ناس طيبون)[6]. باختصار أنها تركز على إبراز جوانب مختلفة من الآراء العاطفية والتاريخية حول نشأة الحركات الفاشية في أوروبا وطبيعتها وأبعادها على أساس أن الفاشية الإيطالية معتدلة والنازية مستبدة، في الوقت الذي نرى فيه أن الأولى تختلف عن الثانية فقط من حيث أنها كانت تنطلق من كيان إنتاجي أكثر تخلفا، إلا أنها تمكنت من تطوير نفسها وفرض سيطرتها على منطقة مهيأة لذلك وفي فترة سانحة للظهور في شكل حملات وعمليات قمع استعمارية، في أغلب الأحيان وهذه الحملات والعمليات القمعية أخذت، مع ذلك وعلى الصعيد المحلي، طابعا استبدادياً، شأنها شأن تصرفات النظام الفاشي في المجالات الأخرى، وبالتالي لا يمكن فصلها عن الحملات الوحشية التي شنت في البلقان، في فترة لاحقة، على حركات التحرير من خلال حرب العصابات.

---

[5] يراجع روبيرتو باتاليا، حرب افريقيا الأولى ـ توريبو 1958، وانجلوديل بوك، حرب الحبشة، 1935 / 1941ـ ميلانو، 1965، ولنفس المؤلف (الإيطاليون في أفريقيا الشرقية) المجلدين الأول والثاني ـ باري 1976 و 1979.

[6] راجع عرض كتاب سيقري السابق الإشارة إليه بقلم لويجي كولي في مجلة (التاريخ المعاصر ـ السنة السادسة ـ عدد 2 يونيه 1975 ـ ص 365 ـ في فترة ما بعد الحرب تعرض فاسو كورس في كتابه (الإنسان الإيطالي ـ الواقع والأوهام) روما 1945، لطباع الإيطاليين سرعة إنتقاديه، دون أن يتناول تجربتهم في المستعمرات.

ومن جهة أخرى، فإن (عقدة الاستعمار) تشكلت عنصرا متلازما للفاشية امتد ليشمل بطريقة أو بأخرى، سائر الحركات الفاشية الكبرى والتقليدية من الفاشية الألمانية إلى الفاشية الايبيرية (الإسبانية) إلى الفاشية الاسكندنافية بزعامة (كويزلنغ (Quisling)[6] وكل هذه الوقائع الثابتة تحملنا على إعادة النظر، فيما يتعلق بإيطاليا، في قضايا خطيرة سواء في مجال كتابة التاريخ بمعناها أم في مجالي تعليله وتوثيقه

وإحدى هذه القضايا تتعدى الحدود الشخصية والموضوعية لمناهضة الفاشية بمدلولها الشعبي كظاهرة تقليدية، لتندرج تحت قضية مقاومة الحركة الاستعمارية التي غلبت عليها، بالنسبة للطبقات الحاكمة أو المسيطرة، الدوافع الاجتماعية والاقتصادية الداخلية على الدفع الأقل انتشارا، والمتوفر في (دولية) اشتراكية ناضجة سياسيا وثقافيا[7].

ثم أنه لا بد لنا من ذكر (روح الرسالة) أو (الروح الصلبية) الكاثوليكية المنشأ التي طغت على الحركة الوطنية والاستعمارية الإيطالية إبان حرب ليبيا، والتي كان لها قطعا، تأثيرها القوي على اتجاهات البرجوازية الصغيرة والمتوسطة واستغلها قسم من الصحافة فيما بعد[8].

وهناك مسألة أخرى ربما تكون أقرب على الواقع الراهن، تتعلق بالتفريق الذي كانت هناك محاولات لإبرازه بين الاستعمار في العهد الليبرالي والاستعمار في العهد الفاشي، وهذه المسألة تطرح، بدورها، وتحلل بطريقة مختلفة، داخل التيارات الديمقراطية بكتابة التاريخ الإيطالي، في نقطتين منها، على الأقل. (أ) مساهمة العناصر الإداريه الاستعمارية، الليبرالية النشأة والتكوين، ومفاهيمهم (ب) نقاط التمييز بين فترات السياسة الاستعمارية السابقة على العهد الفاشي والسياسة

[6] هو الحاكم النرويجي الذي عينه هتلر عاملا على النرويج فكان قاسيا على مواطنيه ووفيا لهتلر اكثر من أخلص زعماء (النازي) حتى أصبح اسمه علما على من يسارع في تنفيذ أوامر المغازي الأجنبي ويبطش بشعبه أكثر منه.

[7] راجع رومين رانيرو - المناهضة الإيطاليه للاستعمار من عصب إلى عادوا - 1869 - 1896 - ميلانو - 1971.

[8] (لويجي قانابيني) - الوطنية الكاثوليكية - باري 1970 - الباب الرابع.

الاستعمارية الفاشية.

وواضح أن المؤرخين الماركسيين والديمقراطيين متفقون، رغم اختلافات معينة، على انتقاد ما أسماه روشا (علم التاريخ الاستعماري الوطني القومي)[9].

ولهذه الأسباب، في جملتها، فإن الندوة حول عمر المختار مناسبة مشجعة لإعادة تقييم الأمور وإجراء المزيد من التفكير والتأمل.

إن ما كانت تعنيه حرب ليبيا بالنسبة إلى إيطاليا، أو ما عرف (بالحملة على طرابلس) معروف، وأمكن التوصل إلى نوع من التوافق حول هذه النقطة، على الأقل. ومن الممكن أن ننطلق من واقعية عالم التاريخ (جوآكينو فولبي G. Volpi) التي تسلط الضوء على التطور الذي حدث في هذه الفترة التي كانت تستمد قوتها من النزعات البرجوازية والوطنية المتطرفة حتى بلغت مستويات معينة في المطالبة بالتوسع، سواء داخل المجتمع الإيطالي أم فيما وراء الحدود، وبصورة أدق، نقول إن تعثر سياسة جوليتي الاصلاحية وأيضا أزمة سنة 1907 الاقتصادية، قد سهلت انتعاش السياسة الامبريالية، التي كانت قد أخفقت في عهد كريسبي Crispi، ولو لأبعاد أخرى.

في فترة عامي 1910 ـ 1911 أخذت تلوح في الأفق ثلاثة وقائع جديدة بنك[*] (مصرف) روما، الذي بعدما تربع في ليبيا ومد مخالبه إلى المشرق، أصبح في حاجة إلى دعم من الخارج، أي من الدولة الإيطالية، ليرسخ مركزه ويعزز نشاطه في المستقبل، بعد أن تضعضع بصورة خطيرة، ثم قيام حركة منتظمة لنوعيه رأي عام ما انفك يوطد ارتباطه بالأوساط الليبرالية وانتهى به المطاف إلى تكوين (الجمعية الوطنية). والواقع الثالث هو ربط خيوط الحركة الوطنية المتطرفة، خاصة من خلال هيئة تحرير (المجلة الناطقة بلسانها) L'Idea Nazionale بأوساط الصناعات الثقيلة التي كانت قد كونت، في تلك الآونة (رابطة احتكارية للحديد والصلب).

والمؤلفات التاريخية التي صدرت مؤخرا عن الحركة العمالية والاشتراكية، تقدم

[9] جورجو روشا ـ الاستعمار الإيطالي ـ تورينو 1973 ـ ص 300

[*] أبقيت تسمية هذا المصرف الأهلية (بنك روما) كما هي عالقة في ذهن الشعب

لنا وثائق تثبت حدوث تصدع في صفوف الحزب الاشتراكي. ليس ذلك فحسب بل تثبت أيضا وقوع خلافات بين مختلف قياداته التي سادتها بلبلة من الشكوك والارتياب. ولم تثر الانتفاضة في داخل الحزب لتدارك الموقف وإنقاذ الحزب من التفكك إلا بعد إنتهاء الحرب في ليبيا، واندلاع قلاقل (الأسبوع الأحمر)[10]. ومن خلال تيار تحوّل محور السياسة في البلاد نحو اليمين، شقت طريقها كتلة كانت تنادي بالتوسع الاستعماري وتضم في أقصى طرفيها، الجناح الوطني والجناح النقابي الثوري وكل ذلك أصبح ثابتا منذ زمن، وقد لا تكون هناك فائدة من العودة إليه، لو لم يكن هناك دافع للإصرار على إبراز ما كان يشكل أخطر تراجع مشوه في الديمقراطية الإيطالية المناهضة، تقليديا للاستعمار.

لقد أخذ يلوح في الأفق، فعلا، تحالف سياسي ـ عقائدي بين الرأسمالية الكبيرة والبرجوازية الصغيرة والمتوسطة وبين شريحة هامشية من الفئات الشعبية، ذلك التحالف الذي عبر عنه (بإيطاليا البروليتارية) وكان يشكل السابقة غير المباشرة للسياسة الفاشية الاستعمارية التي اتسمت بها الحركة الأدبية وأسفرت في النهاية عن شن الحرب على الحبشة أنها الامبريالية الإيطالية التي وصفها (ميشيل Michels) (بامبريالية الفقراء). وقضية هذه الامبريالية كان قد انتقدها (ليبين) وتناولها (قرامشي) في بحثه حول (قضية الجنوب) في سنة 1926، وتعرضت كذلك للتحليل ثانية، على مستوى دولي في الآونة الأخيرة بأقلام مؤرخين متخصصين، من أمثال (ميج) و(وبستر) جاءت بنتائج متباينة[11].

إن ما يهمنا هنا ليس الدخول في تحديد معنى نظري بحت (للامبريالية الإيطالية) وطابعها المميز أو خصائصها التي تتغير مع مرور الزمن، بقدر ما يهمنا تحديد الدور

---

[10] ماوريتزيو ديلي انوتشينتي ـ (الاشتراكية الايطالية وحرب ليبيا) ـ روما، 1976 ـ وقد يحسن بنا أن نتذكر حدوث ضعف في معارضة الاشتراكيين للاستعمار، من خلال المقالة الشهيرة التي أجراها (انطونيو لابريولا) حول (طرابلس والاشتراكية والتوسع الاستعماري) (1902)

[11] راجع ج ب ميج ـ (الإمبريالية الإيطالية) من 1870 إلى أيامنا هذه ـ ميلانو 1976، وريتشارد أ وبستر (الإمبريالية الصناعية الإيطالية 1908 ـ 1915 ـ و(دراسة حول العهد السابق على الفاشية) تورينو 1974، ولو أنه يهتم أكثر بالتسلل إلى البلقان.

الدي لعبه المفكرون من غلاة الوطنيين وسيطروا به على الرأي العام إعتبارا من سنة 1911، حيث أنهم سوف ينقلون أفكارهم وطرحهم للقضايا الاستعمارية وعقائدهم و(رسالتهم) إلى داخل الحركة الفاشية وإلى مؤسسات نظامها فيما بعد، فكانوا هم بالذات الذين سوف يجدون المبرر لاستمرارية التحول من التقلبات الكبرى الناشئة عن الحرب العظمى والسياسة الليبرالية إلى سياسة النظام الفاشي.

في نهاية الحرب الأوروبية تظهر أولى بوادر ذلك الجانب من الاستعمار الإيطالي الذي يركز على الاهتمام بليبيا بالذات، وبدورها في البحر الأبيض المتوسط وبإعادة احتلالها و(إستثمارها) وبعودة السلام إلى أوروبا، التي خيبت نتائجها الآمال في استمرار التوافق بين إيطاليا وحليفاتها على صعيد المستعمرات، تتوفر الظروف (غير المباشرة) لإعادة التكتل بين الرأسمالية الكبرى والبرجوازية الصغرى والمتوسطة، وللقيام بمحاولات في سبيل استرداد تعاطف الفئات الشعبية الإيطالية، وسط صعوبات أشد من تلك التي كانت قائمة في سنة 1911 - وطول هذه الفترة ما لبثت أن نمت وترعرعت حركة إعلامية وأدبية، استعمارية الطابع، أفلحت في التعبير عن أبعاد فترة انتقالية طويلة وعويصة في 1927 - 1928م، عندما قطعت أشواطا بعيدة في هذا المجال وسوف يتحول الحديث إلى (تخلف إيطاليا مريس عن الركب في أفريقيا) في بداية العصر الحديث، ثم في فترة مؤتمر برلين، إلا أن هناك اتجاها لإخفاء قصور تكوين الدولة الإيطالية وحدود الرأسمالية فيه، ذلك الضعف الذي يظهر من جديد في أشد مظاهره، عندما يتعرض النظام الاستعماري وعلاقاته بالبلاد الاستعمارية في أوروبا في مجموعها لأزمة واسعة وعميقة الجذور، هزت العالم بأسره. وما زال المفكرون من غلاة الوطنيين هم الذين يقومون بالدور الطليعي لإمبريالية جديدة، وهي الإمبريالية الفاشية، التي تحاول اختصار الطريق لاجتياز هذا (التخلف التاريخي) متهمة الإمبراطوريات المنافسة بالجشع والأنانية المتسلطة على النظام الدولي، الذي استقر في أعقاب الحرب العظمى، وخمول الحكومات الليبرالية وتفاهتها.

هذا وكانت إيطاليا قد خرجت من الحرب وهي تدرك إدراكاً متضاعفا لحدود إمكانياتها وعجز مقومات أجهزتها الإنتاجية. انعدام الفحم والحديد لصناعتها الثقيلة والتحويلية، وهو ما يدفعها إلى استخدام الطاقة الكهربائية في مجال النقليات، فيض

اليد العاملة الذي زاد من وطأته وقف الهجرة إلى ما وراء الأطلسي، وضعف الزراعة التي لم تعد تسد حاجيات السكان المتزايدة للمنتجات الزراعية، عدم انتاجية المستعمرات وعدم تكاملها مع السوق الوطنية فضلا عن أنها أفقر بكثير من الممتلكات البريطانية والفرنسية فيما وراء البحار. فاضطرت الشريحة الأكثر اعتدالا وتمسكا بالتقاليد في صفوف الليبراليين، إلى ملاحظة أن الرأي العام (كان يظهر اهتماما قليلا بشؤون المستعمرات) ومع ذلك كانت تعتزم أ) ترسيخ سيطرتنا في الأماكن التي جعلتها الظروف الراهنة غير آمنة إلى حد معين (ب) (مد نفوذنا بالتدريج إلى الأهالي المتاخمين. (جـ) (اصلاح أوضاع المستعمرات لاستثمارها حيث أن حياة الشظف فيها تسبب لنا ضررا معنويا وماديا جسيما). وهكذا تعود الأوضاع لتدور في حلقة مفرغة ويعود الاستعمار إلى المتناقضات التي كان يتسم بها قبل الحرب. ومن الناحية العملية، كان عضو مجلس الشيوخ (شالويّاه) Scialoja رئيس اللجنة الملكية لشؤون ما بعد الحرب، قد ألمح إلى احتمال تنفيذ خطة تتضمن (برنامجا ضخما للأشغال العامة ومشاريع لتوسيع الموانئ وتطويرها وللسكك الحديدية والطرق ومرافق المياه، الخ.) وكان يعترف (تمشيا مع التقاليد السابقة) بأن المسألة الدينية، خاصة في ليبيا، تكتنف أهمية جوهرية، محذرا من (أن أية تسوية عادلة وقوية لعلاقاتنا بالأهالي الأصليين في المستعمرات لا يمكن تحقيقها دون أن نأخذ في اعتبارنا أوضاعهم الاجتماعية والروحية)[12].

وبعد ذلك بقليل كتب موسوليني، على صفحات (البوبولوديتاليا Popolo d' Italia)[ب] يقول:

«... فيما يتعلق بليبيا، فمن الواضح أنه لا يمكن (سحب) الحاميات الضرورية

---

[12] راجع فتوريو شالويا (مشاكل الدولة الإيطاليه بعد الحرب) ـ بولونيا ـ 1918 ـ صفحة 269 ـ 299

[ب] لسان حال الحزب الفاشي. كان قد أصدرها ورأس تحريرها ب موسوليني نفسه بعد انسحابه من الحزب الاشتراكي، ثم خلفه في رئاسة تحريرها شقيقه أرنالدو، إلا أن بينيتو ظل يتابع نشاطها عن كثب وكثيرا ما كان ينشر فيها مقالات تهجمية، بلهجة تهكمية لاذعة في الصفحة الأولى وفي برواز خاص وبدون توقيع.

لضمان أمننا) ـ كان ذلك في مستهل عام 1919، قبيل موعد عقد التجمع الذي كان من المقرر أن يبث في تأسيس (تنظيمات القتال الفاشية)[13]. والجدير بالملاحظة هو أن موسوليني كان يركز على العنصر العسكري أكثر من (شالويا) كما أنه من المناسب أن نلاحظ كذلك أن صحيفة (البوبولوديتاليا Popolo d' Italia) كانت تنادي، في تلك الأسابيع بتلبية مطالب الصناعات الرأسمالية الكبرى واطلاق يدها للعمل خارج الحدود الوطنية في اتجاه الشرق بالذات، وذلك ببلاغة ولهجة تلهب المشاعر وتثير العواطف بقصد جمع ما بقي لدى الفئات المنتقاة من البرجوازية الصغيرة، التي خرجت لتوها من الحرب من ترسبات روح رومانتيكية معينة، وكانت مهمة الوزراء الذين تعاقبوا على تولي شؤون وزارة المستعمرات، في آخر فترة من العهد الليبرالي، أي فيما بين سنة 1918م وأواخر سنة 1922، ترتكز على الشروع في إعادة احتلال ليبيا وفتح ملف (الخصومة حول المستعمرات).

وقاسباري كولوزمو Gaspare Colosimo، وكان رجل سياسة وينحدر من الجنوب و(راديكالي) النزعة، كان قد تولى مسؤوليةالمستعمرات من سنة 1916 إلى 1919 في منصب ثانوي بالحكومة، وكان قد تأثر، دون شك، بوجهة نظر غلاة الوطنيين حول طرح قضية المستعمرات، ممن كان يحلو لهم إجراء مقارنات بين قيمة و(حجم) الممتلكات الإيطالية ـ مساحة وثروة وسكاناً ـ والامبراطوريات الاستعمارية الأخرى.

في مستهل عام 1922، جاء دور (جوفاني آميندولا G. Amendola)، وهو رجل سياسة آخر من الجنوب، يختلف اختلافاً كبيراً عن سلفه ومؤسس (الاتحاد الوطني الديمقراطي) المناهض للفاشية، في فترة لاحقة، ليرسخ حملة إعادة احتلال قطر طرابلس التي سبق أن شرع فيها باحتلال مصراتة[ح]. وكان في هذه الفترة بالذات

[13] بينيتو موسوليني ـ مقال (الا تزار المألوف) في (البوبولوديتاليا) عدد22 مارس 1919.

[ح] كان والي طرابلس ـ فولبي هو الذي استأنف الحملة لإعادة حتلال قطر طرابلس ولأن تبلورت الفكرة لديه منذ توليه مهام منصبه في أغسطس 1921، إلا أنه لم يتمكن من تنفيذها، بإعادة احتلال مصراتة البحرية، إلا بداية من 26 يونية 1922 (راجع كتاب فولبي (انبعاث طرابلس الغرب) ـ ميلانو، موندادوي 1926).

أن شكل موسوليني أول حكومة فاشية، تولى فيها منصب وزير المستعمرات لويجي فيدرروني وهو من الحزب الوطني المتطرف ويكتنف تعيينه، لمدة تربو على عامين (أي يوليه 1924 إلى نوفمبر 1926 حيث خلفه في المنصب لانزا دي سكاليتا Lanza di Scalla الذي كان ينتمي إلى الحزب الوطني للفلاحين، المنحل) أكثر من مغزى، وأعيد تعيين فيدرروني من جديد طوال عام 1928، حيث حل محله فيه موسوليني نفسه، الذي عين فيما بعد الجنرال دي بونو، (الرفيق الرابع) في قيادة الزحف على روما، في منصب وزير المستعمرات الذي احتفظ به من سبتمبر 1929 إلى يناير 1935 (والرفاق الأربعة هم بالبو ودي بونو وبيانكي ودي فيكي).

في فترة ما بعد الحرب، انصب الاهتمام من جديد، ولعدة أسباب على ليبيا على أساس أنها بلاد ترتبط في جملتها بالمخطط الذي يعكس الأماني التي تراود إيطاليا بشأن البحر الأبيض المتوسط وأنه لا مناص من استردادها بالطرق السياسية أو بقوة السلاح وأخيرا لكونها إحدى الممتلكات التي تتطلب الاستصلاح تمهيدا لاستغلالها وجعلها نقطة انطلاق لسياسة استعمارية أكثر نشاطاً وأكثر تمشيا مع متغيرات التاريخ.

وقام ببناء قاعدة الانطلاق هذه للسياسة الإيطالية تجاه ليبيا، واختبرها (الكونت) جوسيبي فولبي Giuseppi Volpi خلال فترة ولايته[14]. وكشف حساب عمله خلال أربع سنوات ولايته يمكن اعتباره مرجعاً أساسياً سواء للوقوف على حقيقة الاستراتيجية أم الفلسفة الاستعمارية الإيطالية في مرحلة التحول من النظام الليبرالي إلى الحكم الفاشي التي اعتبرت دليلاً على استمرارية العهدين وكشاهد على اختيار جوهري في الموضوع، أي استعمار زراعي استيطاني ينفذ عن طريق مناهج رأسمالية يعهد بها إلى

(14) يراجع الكتاب (انبعاث قطر طرابلس الغرب ـ ذكريات ودراسات عن أربع سنوات من ولاية الكونت فولبي) ـ ميلانو 1926، مع رسالة لموسوليني (23 أبريل) تصفه بأنه مرجع (كلاسيكي)، وتقديم بقلم دي سكاليتا ومقدمة بقلم فولبي نفسه وبعد فترة وجيزة من ذلك، أشيد بفولبي، الذي كان منذ عهد جوليتي من العناصر البارزة في (الجمعية الامبريالية بالبندقية) (ر أ ويبستر) بأنه (السياسي الوحيد من العهد السابق الذي فهم بعمق عظمة النظام الفاشي) ـ راجع ايدواردو سافينو ـ (الأمة العاملة) ـ ميلانو 1928 ـ صفحة (27).

مستعمرين من الوطن الأم، وتدعمهم الدولة وعلى هذه الأسس تمت إعادة احتلال القطر الثاني من (الساحل الرابع La Quarta Sponda) أي برقة ولكن الأمر لم يكن بهذه السهولة، فلا بد من توفير الأرض قبل استصلاحها واستثمارها الأمر الذي لم يتحقق إلا في فترة متأخرة تقدر بعشر سنوات، على وجه التقريب، وذلك بسبب المقاومة العنيدة التي واجه بها الأهالي الاحتلال الإيطالي، والعمليات العسكرية التي بدأت بالمنطقة الواقعة بين خط العرض 29 وخليج سرت، عندما كان قد عاد فيدرزوني إلى منصبه كوزير للمستعمرات وغداة زيارة موسوليني لطرابلس، أخذت طابع حملات تظهر على نطاق واسع وكان القصد منها إعادة ربط شطري ليبيا، بعد انقطاعه لفترة طويلة، كما أنها كانت مقدمات تمهد الطريق لشن الهجوم على فزان، أولاً، ثم على برقة، من بعده، وأيضاً لتكريس الاحتلال الإيطالي على كامل تراب طرابلس الغرب[15] ومن إن استتبت الأمور في قبضة الحكم الفاشي، وترسخت الدكتاتورية، حتى دخلت (إعدده) الاحتلال الإيطالي هذه مرحلتها الثانية، بعد الحصول على الضوء الأخضر من كل من باريس ولندن، لاحتلال غدامس والجغبوب الواقعتين على أقصى طرفي المستعمرة.

(3) قبل التعرض إلى الجانب السياسي والاجتماعي الذي حدث من خلاله، في عامي 1926 / 1927، التحرك الاستعماري الجديد الذي سوف يفضي إلى حملة القمع الرهيبة على برقة، يحسن بنا أن نتناول شيء من التعليق الاتجاهات والمشارب

---

(15) راجع (أودوريكو رابر) ـ (العمليات الليبية على خط العرض الشمالي 29) ـ روما ـ السالف الذكر ـ (موجز وعرض نقدي، نشر بمعرفة وزارة المستعمرات).وحول الوضع في منطقة بنغازي في الفترة الليبرالية، فمن الأهمية بمكان ملاحظة شجب (افريكانو) في المقال التي نشرته (لاتريبونا كولونيالي في 24 يولية 1920 بعنوان (برقةفي الساعة الراهنة) للأساليب المتبعة، الذي جاء فيه بالخصوص (ان (التحصر) لا يعني العطش ( ) ولا يعني التدمير (..) فإن هذه المبادئ استبعدت في الكامل، في الماضي وحتى فترة قريبة منا فالاحتلال العسكري كان عمل تدمير مستمر) إلى اخر المقال ـ وحول اخر وزارة للمستعمرات، يراجع (رسرو دي فيلتشي امبدولا)، وزير المستعمرات، في أ أ ف ـ جوفاني امندولا بمناسبة مرور خمسين سنة على وفاته ـ روما ـ صفحة 161 ـ 175.

التي سلكتها الحركة الأدبية والاعلامية في فترة التحول من الليبرالية والوطنية المتطرفة الى الفاشية، للتعبير عن (الأيديولوجية) الاستعمارية الإيطالية. فعادت ليبيا، أو أصبحت، الربيبة المفضلة لطغمه حاكمة معالية في تطرفها الوطني ولفئة معينة من الصحافيين الذين اكتسبوا، من خلال الحرب العظمى ومن قيام الحكم الفاشي، ثقلا متزايدا في حياة إيطاليا فتطور الوضع تدريجيا مع اتجاه مفروض فرضا ذلك ان ابريتريا والصومال ما زالتا بعيدتين، نائيتين، دون أن توجد في البحر الأبيض المتوسط نقاط اندفاع مناسبة للتوسع. ونسيج العقيدة الاستعمارية، ما زال خشنا ولم تتحدد بعد الأهداف ولا معالمها على وجه الدقة أضف إلى ذلك تعدد مصادر الدعاية الموجهة للجماهير العريضة، التي ما زال بعضها متروكا للمبادرات الخاصة، الفردية وبالتالي فإن النقاش ما زال يتعثر، بالنظر إلى الصعوبات التي كان ما زال يتعين على الحركة الفاشية وحكومتها اجتيازها حتى عام 1924، على الصعيد الداخلي، وما يصاحب ذلك كله من اعتراضات وعراقيل كأداء تقف في وجه الاستقرار الاقتصادي والمالي لقد أبرز (سالفيمني Salvemini) كيف إن المطالب الفاشية، في مجال السياسة الخارجية، ظلت تترنح، منذ اللحظة الأولى بين أهداف متباينة ومتضاربة دون أن تحسم الموقف بتحديد هدف[16] واكتفت في كل مرة، بالتركيز على برنامج رأته قابلاً للتنفيذ ولا شيء يعترض سبيله ويتخذ موقف مماثل بشأن التوسع الاستعماري، ناشيء سواء عن تعدد المطالب التي كان يتمسك بها غلاة الوطنيين إبان الحرب أم عن البلبلة التي أحدثتها الاتفاقيات، أو بالأحرى الخلافات بشأن المستعمرات أثناء انعقاد مؤتمر الصلح، ومن هنا قيام حركة تأليف إعلامي انقسمت على نفسها في فترة لاحقة، عند وضع (البليوغرافية) الفاشية المنتظمة، وتشعبت إلى ثلاثة اتجاهات، بحسب البلاد أو الأقاليم التي كان ينظر إليها لأغراض تحقيق توسع استعماري إضافي: أ) اتجاه نحو الشرق (ويرتكز على آسيا الصغرى وبالتالي على تقاسم تركة الامبراطورية التركية. ب) واتجاه ليبي (فتح الطريق إلى تشاد والجغبوب والسلوم). جـ) واتجاه حبشي (الحماية على أديس أبابا، وإدخال تعديلات ضخمة على حدود ايريتريا

[16] قائتانو سالفيمني ـ موسوليني الدبلوماسي ـ باري 1952 ـ نفس المصدر.

والصومال[17]

إلا أن هذه الاتجاهات لم تكن منفصلة بعضها عن بعض، بل كانت في الواقع مترابطة في عدة نقاط، ويستحق هذا الموضوع، أن يدرس بتعمق، وعلى كل حال فإن ليبراليين ووطنيين متطرفين، كانوا متضامنين في تحقيق خطة قصوى أعم فائدة، على حساب الامبراطورية العثمانية، وهو ما تبلور، فعلا، في اتفاقيات (سان جوفاني دي موريانا) San Giovanni di Moriana وتبجر فيما بعد، على اثر الثورة الكمالية (نسبة إلى كمال أتاتورك)، فلم يبق إذا، إلا الاتجاه إلى ليبيا، والأقرب منالا، حيث كانت تتركز عليها، في المقام الأول، المزاعم والمطالب التي لا تحصى وتكتنف في ثناياها أطماعا واسعة تتطلع إلى السيطرة على بقاع معينة في أفريقيا وفي حوض البحر الأبيض المتوسط

وحول هذا المخطط (الأدنى) الذي كان يفترض، أساسا، إعادة احتلال ذلك الإقليم وإخضاع سكانه للسيطرة الإيطالية، تضافرت الجهود وتكاثفت الدعاية، التي بدأت بطليعة قليلة العدد في الوطن الأم وفي صفوف من كان تكوينهم ومشربهم استعماريا، لتنمو وتترعرع وتشكل جماعة من الصحافيين والكتاب المغمورين، من الدرجة الوسطى، الذين ما لبثوا أن تولوا لفت انتباه الحكومة وأصحاب الأعمال الحرة إلى (الساحل الرابع).

إلا أن المسألة، في الواقع، لم تكن سوى عودة إلى الوراء والاعتراف بضعف قواعد الانطلاق المتوفرة لإيطاليا، رغم الإصرار على عدم الإفصاح بذلك علانية، نحو أفريقيا والشمال الأفريقي نفسه، الذي كانت الاشادة به وبثرواته وإمكانياته قائمة على غير أساس، من الناحيتين الاقتصادية والجغرافية والسياسية فعلى الرغم من أن الأهداف والتطلعات إلى المستقبل كانت تتركز على البحر الأبيض المتوسط أو

[17] البيرتو جاكاردي ـ تاريخ ساهم كتابة التاريخ الاستعماري الإيطالي، حتى سنة 1939 ـ في (سلسلة جغرافية إيطاليا، ما وراء البحار) ـ سنة 1939 ـ روما، 1940 ص 30 ـ ويوجد تحليل (أو اعتراض) مبكر للأماني الإيطالية، خاصة فيما يتعلق بالحركة الأدبية الوطنية في فترة 1914/ 1918، في كتيب ابرنيست ليمون ـ السياسة الاستعمارية الإيطالية ـ باريس 1919، صفحة 36 ـ 74

الشرق، إلا أن ليبيا، بسكانها، أصبحت لأكثر من اعتبار ومن عدة جوانب، بمثابة كبش الفداء أو المحك لاختيار امبريالية مترنحة، لا يرضيها شيء.

وفي بداية هذه المرحلة من الحركة الاستعمارية، يمكن أن يؤخذ كأساس المخطط السياسي لما وراء البحار، البرنامج الشمل الذي اصدرته، في عم 1917، دار نشر الحركة الوطنية[18] وألحقته بسلسلة من البحوث التي تتداخل فيها، بأشكال متفاوتة النزعة المنادية بالاتجاه نحو أفريقيا بالذات، والدعوة إلى الاتجاه نحو الشرق الأوسط والبحر الأبيض المتوسط[19].

وما لبثت الاشادة البيانية الضحلة المحتوى والمفعمة بروح روما الخالدة، التي كانت قد بلغت أوجها في عام 1911 وأيضا بمناسبة عقد الاتفاقيات مع السنوسيين[20]، أن تصاعدت ونمت حجما وحدة حتى تولدت عنها الجوانب الأقل نبلا، التي أسفرت عن تشديد البطش والتنكيل بالأهالي العرب، ومن ناحية أخرى فإن الاهتمام بالتركيز على خارج حدود البلاد، قد اتضح من كتاب وضعته (مارقيريتا سارفاتي M Sarfatti القريبة جدا من رئيس الحكومة (موسوليني) في إدارة تحرير المجلة الفاشية (جيراركيا) Gerarchia ونشرته في سنة 1924 عن (الإيطاليين في تونس)[21] وفي تلك الفترة، تجد مكانها وتزدهر اتجاهات ونزعات تمجد البطولات في شكل (ملحمة استعمارية) تتقد (رجولة وروحا قتالية جامحة). كما قيل في كتاب وضعه ماريوديثي قازليني M. Gaslini يشيد فيه بمناقب الجنرال (كانتوري Contore)،

---

[18] جوفاني اليساندرو روسو ـ حقوق إيطاليا فيما وراء البحار ـ روما، 1916.

[19] راجع باولو داقوستينو أورسيني ـ (إيطاليا في السياسة الأفريقية) ـ بولونيا، 1926 ـ وفيرديناندو نوبلي اسويرو ـ ظلال وأضواء فرتين ـ ميلانو، 1926 وقاساري امبروزيني ـ إيطاليا في البحر الأبيض المتوسط ـ فولينيو ـ 1928.

[20] الدو كيريتشي ـ إيطاليون وعرب في ليبيا ـ ملاحظات مسافر ـ روما 1919 ص 63

[21] مارقيريتا سارفاتي ـ (تونيسياك) ـ ميلانو ـ روما ـ 1924 ـ مع مقدمة (لابيوس) (وهو بحث قصير لموسوليني، ربما لم يكن كله من معينه، وأهمل ذكره في (الأعمال الكامله)) وكتاب سارفتي تفترض حدوث (تدفق عارم ومتواصل لمستوطنين إيطاليين في تونس على ليبيا، يعوض عنه (بحقن دم إيطالي جديد) في تونس صفحة 102 ـ 103.

(في زحفه الرائع على جنوب بنغازي) وها هو بادوليو يثني على هذا الكاتب ويبجله بقوله: (لتكون هذه الذكرى عظة وعبرة لإقناع الصاط والحسود بأن الجيش بدون روح الاقدام والشجاعة، ليس سوى آلة بدون وقود)[22].

ولكنها كانت مظاهر لتأليف وآداب متشتتة وهابطة المستوى، في جملتها، تتميز بأراء واضعيها الشخصية وهم يصولون ويجولون في ربوع أفريقيا من طنجة إلى تونس، إلى ليبيا والحبشة حتى تورطوا في متاهات لا أول لها ولا آخر وتناولوا مواضيع لا صلة لها بعملهم ولا هم يدركونها، كالحديث عن خط سكة الحديد عبر الصحراء، ولذلك تكمشت هذه المؤلفات (الأدبية) وانحصر نطاقها في المجال المحلي، لقصر نظرها وبعدها عن الواقع، ومع ذلك كان كل نتاج لها يعد توجيها شبه رسمي ويقابل كذلك، بالترحاب، شأنها شأن الترهات الأخرى.

إلا أن عناصر أخرى، أكثر جدية وارتباطا بالواقع، مالبثت أن شقت طريقها، وهي أكثر تنظيماً في مجال السياسة، رغم اضطرابها ـ في فترة 1926 / 1927 ـ هذا وكانت الصحف الدورية قد تضاعف عددها على ما كان عليه قبل الحرب، وكان فرانشيسكو كوبولا F. Coppola قد تناول موضوع (التوسع الإيطالي في العالم) على صفحات مجلة (بوليتكا Politica)، دون أن ينحدر، في تحليله، إلى الإسفاف بقضية الاستعمار، ليرتبط بقضايا السلام، إلا أن النتائج التي استخلصها كانت متأثرة إلى أبعد حد بثقافته (الإنسانية) التي لا تجدي نفعا كبيرا لعرض حلول واقعية ملموسة ولتحديد آفاق بعيدة عن الخيال، بالنسبة لبلاد كإيطاليا، كانت تعاني من فقر الإمكانيات والوسائل الاقتصادية والمقومات الضرورية الأخرى.

ولا بد لنا من إضافة القول بأن الكتاب الموسع الذي نشر اسم فولبي (Volpi) (انبعاث طرابلس الغرب) كان يمثل جملة الاتجاهات العقائدية على اختلافها، التي

---

[22] راجع ماريوديني فارليبي ـ مع الجنرال كانتوري في مطاردة السنوسي الكبر ـ ميلانو 1926 والفقرة المقتبسة عن بادوليو، مدونة بالقائمة رقم ـ 2 ـ لمكتبه (نابي) بولونيا، 1979، وكانت قد وردت في رسالة تحمل تاريخ 19 فبراير 1927 ـ أما عمليات فيلق كانتوري فيرجع تاريخها إلى صيف 1914.

اتسمت بها الطرية الاستعمارية الإيطالية في فترة ما بعد الحرب، إلا أن الاهتمام، في هذا العمل، كان على الأقل يركز على استصلاح تلك الأراضي واستثمارها، رغم بعض الانحرافات الخارجة عن الموضوع (التي لا تستبعد منها روح (التراث) الامبريالية التي كان يتغنى بها من يدعى (روبيرتو باريبيي R. Paribeni) لم تكن سوى زخارف وحشو. فكانت العلة لمساهمة أشخاص تربوا في كنف النظام الامبريالي على يد عقاندي غلاة الوطنيين الذين ظلوا يتصرفون بقصد فرض استراتيجيتهم وهيمنتهم، و(منظرون)، من أمثال كوبولا أو اعلاميون من أمثال بيدراتزي (Pedrazzi) كانوا هم المسيطرين، في واقع الأمر، وحتى الحركة الفاشية، بوصفها هذا، كانت تعوزها، قبل استيلائها على مقاليد الحكم وبعده، الوسائل والمؤسسات المستقلة، سبب أن أرسخها مكانة وأعظمها شأناً، ظل معهوداً بها إلى قيادات تقليدية، على تفاوت درجاتها، وأيضا بسبب أن تسير شئون السياسية الاستعمارية، ظل، بدون انقطاع تقريبا، بيد عناصر الحزب الوطني القديم، الذين كانوا متضامنين ومتلاحمين فيما بينهم. وأثناء تولي (لانزا دي سكاليتا)شئون الوزارة من يوليه 1924، كان وكيل وزارة المستعمرات الشاب روبيرتو كانتاليبو Roberto Cantalupo الذي كان قد اكتسب خبرة معينة في الشئون الدولية في مؤتمر باريس وكان من أنصار الحركة الوطنية.

ومن ميلانو ظل آرنالدو موسوليني، مدير تحرير صحيفة (البوبولوديتاليا Popolo d' Italia يعني بالمستعمرات إلى عام 1926 بشكل هامشي (وأولى مقالاته الملتزمة كانت عام 1930)[23] إلا أن شقيق (الدوتشي) هذا كان حذراً، يكتفي باسداء النصائح، ولا يتناول موضوع المستعمرات إلا في خطوطه العامة العريضة، انتظارا لتبلور المشاكل، ولم ينفك عن القيام بالوساطة وإسداء النصح بالاعتدال، ومع ذلك

---

[23] راجع ارنالد وموسوليني النضال من أجل الانتاجة ـ ميلانو 1937 ـ الذي يتضمن من جملة مواضيعه الأخرى، (مظاهر الأنانية فيما وراء البحر) ـ (الأنشطة والمستعمرات) (مستأجر الأراضي في العالم) وتاريخها جميعا 1930 ـ وقبل ذلك بقليل كانت (الجمعية الفاشية لصناعة الصوف قد أولت اهتمامها بمنتجات برقة (يراجع أرماندو ماوجيي وغيره) (أغنام وأصواف افريقيا الشمالية) ـ بيسيلا، 1929، وهو تقرير حول نتائج تجربات قامت بها الجمعية الإيطالية لدراسات تربية الأغنام في المستعمرات)...

كان هو بالذات الذي يطرح، بصورة عائلية تقريبا، العديد من المشاكل المتعلقة بالاقتصاد الوطني وتسييره.

فالدوافع الأكثر قوة لإثارة مسالة المستعمرات من جديد، مصدرها، إذا، قطاعات ثانوية وغير قيادية في النظام الحاكم، وكان يقوم فريق نضالي بممارسة ضغطه، أساساً، في المجال السياسي، جهود هؤلاء جمعيا، مستندة إلى الأوساط الاستعمارية التقليدية وتأثيرها القوي، لتهيئة الحو وإقامة الأسس لاحتواء الرأي العام، بحيث تخلق المقدمات الضرورية إن صح هذا التعبير، لتكوين عقيدة جماهيرية. وهذا ما يميز المدرسة الفاشية عن المدارس والفرق الأخرى. فبالنسبة للفاشيست كانت تهمهم، على ما يبدو، إثارة (روح الامبراطورية) في المقام الأول، قبل اهتمامهم بالاستعمار، وهي هذا الاختيار، الذي لا يرتبط بفترة توعية محددة، يستأثرون بالقيام بدور همزة الوصل والتوجيه والتكامل الذي وإن أتى متأخرا وغير واضح المعالم، إلا أنه دور كان موجودا بعمق في صلب التجربة السابقة[24] وحتى بالنسة إلى موسوليني نفسه، يبدو أن الاستعمار بمعناه التقليدي قد أخذ يستبد به أكثر فأكثر وأخذت تستهويه خطة مستقبلية أوسع نطاقا، امبراطورية الطابع، كما يستشف ذلك من الخطاب الذي القاه في نابولي في شهر اكتوبر 1922، أي قبيل الرحف على روما، واستند فيه إلى أسطورة البحر الأبيض المتوسط وإنه (بحرنا More Nostrum) واسطورة أفريقيا، من جهة أخرى، مرتبطة بعمق ارتباطاً وثيقا بوحدان الجنوب، فوجد فيها موسوليني ضالته المنشودة لإثارة المشاعر والدعوة إلى التمسك بهذه الأسطورة من خلال ما أعربت عنه الفئات المتوسطة والشعبية، في الأرياف على الأقل، وبرهافة حدسه هذا، إنما برهن

---

[24] يراجع فرانكو شارلانتيي ـ أفريقيا الرومانية ـ ميلانو 1928، مع مقدمة لايميليو دي بونو والمؤلف، هو عقائدى غامض (لامبريالية روحية) كان يعيد طبع مقالات ومراسلات عن القطر التونسي وقطر طرابلس، سبق له أن نشرها في (البوبولوديتاليا) ـ وكان دي بونو يعرف هذا الكتاب بأنه كان (عملا وطنيا وفاشيستيا شافيا) غير أنه يبدي كذلك بعض الاعتراضات على بضع نقاط منه [يانشارلتيي، فلنركز الآن على (أفريقيا إيطاليا)] وحول اسهام الدراسات الكلاسيكية في (عبادة) روح روما من خلال الامبريالية الاستعمارية الإيطالية، يراجع لأحد صورة عامة، ماريبلا كابيتا ـ علماء الاثار والامبريالية الفاشية ـ باري، 1979.

على أنه كان معلما في النفاذ إلى أعماق وجدان مستمعيه والحصول منهم على الاتفاق معه في الرأي. وعندما تحدث عن البحر الأبيض المتوسط في نابولي، ربما كانت ما زالت عالقة بذهنه دواعي الضغط نحو (احتلال طرابلس) التي كان شاهدا عليها في شبابه، وفي مخيلته... آفاق أخرى وسواحل أخرى.

(4) في الفترة ما بين صيف 1924 ونهاية سنة 1926، وبعد أزمة (اغتيال) مانيوتي وخطاب 3 يناير 1925، تم حل الأحزاب اليسارية والتنظيم (العمالي ضد الطبقة) ومنعت كل معارضة ديموقراطية أخرى منتظمة، بصورة نهائية، وابعادها عن الحياة العامة في البلاد، وفيما يتعلق بحرية الاختيار وتحديد المنهج على مسرح السياسة الخارجية وحتى في ميدان الحركة الاستعمارية ذاتها، حصل تغيير في تكوين المؤسسات وتنظيمها تلاحظ نتائجه من خلال ما أدخل من تحويرات سواء على الهيئات والمؤسسات الحكومية في روما وفي المستعمرات، أم خلال أضفاء الطابع الفاشي على المعاهد المختلفة، كالمعهد الاستعماري الإيطالي L' Italian Coloniale Istituto[25] وليس هذا هو المجال لتعميق البحث عن الصلات التي كانت تربط بين هزيمة اليسار العمالي تدريجيا، وبصورة أعم تبين هزيمة الديمقراطية الإيطالية في مجموعها خلال عامي 1925/1926 وظهور علامات ما برحت تتضح أكثر فأكثر حول السياسة الفاشية في اتجاه ليبيا، بعدما أشبعت بالعقيدة والاستراتيجية الفاشية وأصبحت آداة طيعة لهيمنة موسوليني. فبعدما كانت هذه السياسة تسير في الاتجاهات التي أختطها غلاة الوطنيين، أصبحت الآن تتمشى مع روح النظام الفاشي

في الوقت التي ترسخت فيه دكتاتورية الطبقة الواحدة في البلاد، منذ خريف عام 1922، كانت تأثيرات نهاية النظام الديموقراطي قد وصلت، تدريجيا، إلى

[25] في نهاية عام 1927، تم حل مجلس إدارة المعهد، وعين رئيسه، (الكونت) بيير قائتانو فيسي، الذي كان وكيلا لوزارة المستعمرات، (مفوضا) لاعادة تنظيمه وفيبي المرتبط بالأوساط الرأسمالية، وكان قد تبنى إقامة أول معرض إستعمري في معرض ميلانو، سنة 1922، كان ينتمي إلى صفوف الليبراليين، ولكنه كان يحظى بترحيب غلاة الوطنيين في الحرب الفاشي وأسس المعهد الاستعماري الفاشي تحت رعايته، وفي عام 1930، تولى إدارة تحرير مجلة (اولتريماري) L'ottremare.

أراضي المستعمرات من خلال عمليات قمعية تواصلت لعدة سنوات، هي ذات سنوات تأزم الوضع في الوطن الأم. لتتبلور في سلسلة من الأحداث، كانت لها أصداء مباشرة، في أقرب بقعة من بقاع ما وراء البحار، آلا وهي ليبيا (وهو ما يمكن تلخيصه، جوهرياً، في إعادة احتلالها والشروع في عمليات الاستصلاح الزراعي، بعد صدور المراسيم القاصية بمصادرة الأراضي في قطر طرابلس والشروع في تنفيذها). فكان في تلك الآونة بالذات ان قام موسوليني، في شهر ابريل 1926، بتلك الزيارة إلى طرابلس، التي يمكن أن يحدد بها تاريخ الانطلاقة الكبرى نحو تنفيذ خطة العمل الفاشي، على المسرح السياسي، في منطقة البحر الأبيض المتوسط وأفريقيا، بداية من الشمال الأفريقي بالذات. كما أنها كانت المرة الأولى التي يقوم فيها رئيس للحكومة الإيطالية بتفقد أحوال إحدى المستعمرات، وهي بالتالي نقطة تحول في السياسة الإيطالية وكانت الزيارة بناء على دعوة ملحة ومتكررة من الوالي الجديد دي بونو De Bono كان قد وجهها إليه قبل موعدها بأشهر، والهالة الدعائية والبهرجة التي أحيطت بالزيارة في إيطاليا، بداية من تعبئة كبار أعضاء المجلس الوطني الأعلى للحزب الوطني الفاشي ـ P. N. F ـ كانت شيئاً مهولا لم يسبق له مثيل، وبالتالي فإنها طغت أيضا على خطورة الخطب التي ألقاها (الدوتشي) في طرابلس والكلمة التمهيدية التي ألقاها وهو على متن السفينة (كافور) Cavour (وقال فيها، من بين ما قاله: (نحن ننتمي إلى البحر الأبيض المتوسط ومصيرنا مرتبط بالبحر)). قد تبدو (كلاما مأثوراً وشعارات مترددة، تذكرنا بدانونزيو D'Annunzio ولكنها كانت أيضا، في واقع الأمر، تركز على (مشكلة المنافذ)فضلاً عن أن الرحلة ذاتها سرعان ما انقلبت إلى (استعراض بحري مثير)[26].

هذا وكانت قد نشرت قبل ذلك بفترة وجيزة، على صفحات (البوبولوديتاليا) مراسلات أحد الفنيين (الخبراء بشؤون الزراعة) الذي واصل الاضطلاع بمهمته حتى خلال عام 1926 تنفيذاً للتعليمات التي تلقاها من آرنالدو[د]، الذي سوف يجسد

---

[26] راجع فابيو كورين ـ (تاريخ إيطاليا المصاد) ـ توريبو، 1948 ـ صفحة 434

[د] شقيق بينيتو موسوليني ورئيس تحرير صحيفة (البوبولوديتاليا) التي كان قد أسسها (الدوتشي)

صيغة (تطوير الوعي الاستعماري الجديد) ويشرها بهمة والتزام. بمعنى أن (الفكرة الاستعمارية كان لا بد من التعريف بها وبثها كبرنامج عملي لأي استثمار اقتصادي)[27].

أما الدرب الذي كان يجب السير عليه، فكان هو نفسه الذي سبق للكونت فولبي أن سلكه في تلك الفترة الزمنية إلا أن الوضع أصبح الآن مهيأ لقيام السلطات العليا بإعادة تقديم صورة لروح استعمارية شعبية، عن طريق العودة إلى أساليب وتقاليد سنة 1911، بعد توقفها إلا أنها مهمة أصبحت صعبة لم يعد غلاة الوطنيين عند مستواها بمعاهدهم ومؤسساتهم التي أصبحت تقتصر على جماعات منتقاة، كما أنهم لم يعودوا قادرين على فعل شيء إلا عن طريق مؤسسات النظام الفاشي وصحفه التي ظلوا يساهمون فيها ويدفعون بها إلى الأمام.

أما في طرابلس نفسها فيكتفي موسوليني بإلقاء كلمة مقتضبة في الأعيان وبعض الخطب الحث والتشجيع لكبار الموظفين المعمرين Coloni، مع ديباجة منمقة لا بد منها موجهة إلى رجال (الميليشيا) الفاشيست للإشادة بجليل أعمالهم

ومع ذلك، فهناك لمحتان في كلمته تكتنفان معزى خاصا، يقول في الأول (إن القدر هو الذي يدفعنا صوب هذه الأرض، والقدر لا يستطيع أي كان أن يقف في طريقه، والأدهى من ذلك هو أن لا أحد يستطيع أن يثني عزيمتنا الجامحة)، وفي الثانية يقول: أنه أراد (أن يركز اهتمام الإيطاليين على ما وراء البحار).

وعندما تناول الكلمة في أول ندوة زراعية استعمارية، كان قد اختتم بها زيارته، أوجز بحماس جميع عناصر العقيدة الفاشية الاستعمارية: بداية من (القدر) المألوف ـ قدر إيطاليا وقدر روما ـ ومروراً بالتعطش إلى الأرض (لأننا كثيرو الإنجاب ونحرص على أن نبقى كذلك) وبالدعوة على (إتباع فنون الزراعة العصرية القادرة على تحقيق كل المعجزات)، ونهاية بالاعتزاز والإشادة (بالجنس الإيطالي الذي يمثل أعجوبة

---

[27] أندريا كرافينو طرابلس الغرب، من وجهات النظر الاقتصادية ـ (المستقبل الزراعي في المستعمرات) ـ ميلانو ـ 1927ـ بمقدمة بقلم آرنالدو موسوليني ـ ص 3 ـ 12 ـ تولى كرافينو، بعدها مهمة المقرر الأول للندوة الزراعية في طرابلس.

فريدة في تاريخ البشرية)[28].

وفي 21 ابريل[هـ]، يحتفل في إيطاليا، لأول مره (بيوم الاستعمار الإيطالي) بإقامة الملتقيات وإلقاء الخطب، خطب غلاة الوطنيين السابقين في المقدمة بطبيعة الحال من حيث أنهم يمثلون، دون شك، عنصر الاستمرارية و(الاختصاص) في هذا الميدان من الدعاية الامبريالية[29].

وكان قد نظم لهذا الاحتفال (باليوم الاستعماري الأول) كانتالوبو Contalupo وسوف يتكرر الاحتفال به في العام التالي، وما زال كانتالوبو نفسه هو الذي يصدر في خريف عام 1927، مجلة (أولتر يماري) - ما وراء البحار - التي تنسق فيها نغمة (البحر الأبيض المتوسط) مع معروفة (التعلق بأفريقيا) وستركز في السنوات التالية على تناول مشاكل ليبيا وشئونها بنوع خاص.

وجبّت هذه المجلة أربع صحف سابقة العهد عليها المجلة الاستعمارية الإيطالية، لسان حال الهيئة التي تحمل نفس الصفة، وكان يزيد عمرها على عشرين سنة و l'Idea Coloniale الفكرة الاستعمارية - التي كان قد أسسها روبيرتو بورجس دافانزاتي، وأصبحت تصدر فيما بعد بعنوان (لاتريبونا كولونيالي) - المنبر الاستعماري - و(لاريفيستا ديلي كولونيي أورينيتي) - مجلة المستعمرات - الشرق - التي كانت تصدرفي بولونيا، و(ايسوتكا) التي كانت تصدر في ميلانو، ومديرها (أديب استعماري في روحه ونزعته) هو ماريو ديئي قارليني - وبرنامج (أولتريماري)، التي كانت تشر

---

[28] يوجد النص الكامل لهذه الكلمات في مجموعة (الأعمال الكاملة) بينيتو موسوليني - المجلد - 22 - فلورنزا - 1957 - ص 112 - 118.

[هـ] ذكرى تأسيس روما، التي كان يحتفل بها كل سنة.

[29] يتبنى، خلال العام، ماريوديئي قارليني فكرة تكوين (فريق الشباب الامبرياليين للاستعماريين) - وللاطلاع على دساتير هذا (الفريق) تراجع مجله (ايسوتكا) السنة الثانية - عدد 1 - بتاريخ 15 مارس 1927 - وفي غمرة الاحتفالات، كان الخطاب الذي ألقاه وزير المالية السابق في ميلانو، يوم 24 مايو 1927، أبرز شهادة على ذلك حيث قال (إن ندرة المواد الخام، وتزايد عدد السكان، وعقم التربة والمواقف المسبقة، ليست إلا بيانات مادية بحتة لا يمكن اعتبارها، وحدها حاسمة) - يراجع أليبرتو ديه ستيفاني - (الامبراطورية) - ميلانو، 1928 - ص 1 - 19

وقائع (العهد الاستعماري)وتعكس اتجاه الحكومة بصورة شبه رسمية، كان مبنيا على منهج يرى إلى (إحلال عهد سياسة استعمارية تقوم على الاقتصاد) ويرتكز على خمس نقاط تكفي لأخذ فكرة كاملة عن المشروع (الوطني الفاشي) المقرر تنفيذه بشأن قضية المستعمرات في تلك الفترة، وفيما يلي خلاصة هذه النقاط:

(1) استغلال المستعمرات التي بأيدينا ومعها جزر بحر ايجه ـ الدوديكانيز ـ بأقصى السرعة وبصورة مكثفة. حتى نجعل منها القاعدة الحقيقية والمستقلة (.) لتوسعنا الاقتصادي في البحار التي تحيط بنا وفي الأراضي المجاورة لنا

(2) اتخاذ موقف مشاركة في الحركة التجارية وتوظيف رأس المال واستخدام اليد العاملة (..) في أفريقيا التي يسيطر عليها غيرنا، وفي الشرق (...) بحيث يتواصل امتداد النفوذ الإيطالي بدون انقطاع في حوض هذا البحر وسياسيا، لا بد أن يدخل في نطاق هذا العمل البحر الأحمر أيضاً (.) وعلى المنتجين أن يتعاونوا على التحول من الطور الاستعماري إلى الطور الأفريقي وطور البحر الأبيض المتوسط.

(3) دراسة المرافق الاقتصادية والفنية للموانئ وتنفيذها، وكذلك الأمر بالنسبة للمشاريع المتعلقة بالنواحي التجارية والزراعية والمصرفية وإصلاح الأراضي في مستعمراتنا، وتكتنف هذه النقطة أهمية قصوى وحاسمة.

(4) تطوير سياسة (إسلامية) على كامل حوض البحر الأبيض المتوسط

(5) تسهيل السبل لنشر آداب (ما وراء البحار) (. .) وذلك أن أية سياسة استعمارية لا تصاحبها آداب رفيعة تظل أبداً ناقصة[30].

فوضعت الخطوط العريضة لهذا البرنامج، ولكن النقاش ظل متواصلا حول عدد من الصيغ، التي تتناول العلاقة بين الاستثمار والسياسة الاستيطانية. إلا أن هذا النقاش تغلبت عليه نظرية وردت في كتاب صادف نجاحاً كبيراً L'Italia Mussulmana (إيطاليا الإسلامية)[31] كان قد صدر عن دار النشر (لافوتشه La Voce في سنة

[30] راجع (الأفكار من أجل العمل) في (أولتريماري) سنة ـ 1 ـ عدد ـ 1 ـ نوفمبر 1927، مقال وقع عليه بالأحرف الأولى ـ ر.كانتالوبو

[31] روبرتو كانتالوبو ـ إيطاليا الإسلامية ـ روما، 1928، أعيد طبعه في 1929، 1932 ـ كتب مؤلفه

1928 إلا أن طرح هذا الموضوع - الذي يقع في منتصف الطريق بين السياسة وتعميق الألفاظ والجمل - من قبل رئيس تحرير المجلة، إنما كان في الواقع تحايلا على بعض مقدمات البرنامج التي كان من المفروض أن تتضمنها المجلة في منهجها بعد إلغاء المجلات الأربع المذكورة، كما كان يطالب فيدرروني Federroni وكانت اللجنة السياسية لمجلة أولتريماري تضم شخصيات بارزة في عالم المال والاقتصاد، من جوفاني بيانكيني إلى دي ستيفانو، ومن قويدو بونق على جينو اوليفتي، إلى البيرتو بيريللي، وغيرهم... إلا أن النداء الموجه إلى من بيدهم الانتاج، حتى يلتزموا بطريقة مباشرة بتوسيع نشاطهم ليشمل منطقة البحر الأبيض المتوسط وأفريقيا، سرعان ما انكشف عن طابعه الوهمي، ومن الناحية العملية على أرض الواقع، فإن تنفيذ هذا البرنامج بكامل نقاطه، بالتنسيق المنطقي والطرق العلمية البعيدة عن الدعاية، التي بلغت أوجها في عام 1927، قد أخفق في جملته وتعرض لأولى النكسات الموجعة[32].

(5) على حد ما ورد في كتاب (إيطاليا الإسلامية) فإن وظيفة ليبيا تنحصر في إن تكون جسرا ممتدا نحو الشرق (لأن التدبير للتسلل إلى الشرق لن يتأتى بدون تعاطف الشرقيين). وبالتالي فإن الخط الاسترشادي لغلاة الوطنيين والرامي إلى التوسع إلى ما وراء ليبيا، ما زال سليماً، لم يمس، ولذلك فإن الخطة المقتصرة على ليبيا (من ناحية (السياسة الاستعمارية) والسياسة (العسكرية) و(الخارجية) تندرج في نهاية الأمر تحت بند مطلب تكتيكي، بمعنى أنها ترمي إلى (استكمال احتلال المستعمرة وتوحيدها) لقلبها إلى قاعدة عريضة، آمنة ومستقلة في البحر الأبيض المتوسط[33]. ويلاحظ أنه

يقول (هذا هو كتاب السياسة الاستعمارية والأفريقية والشرقية وإزاء البحر الأبيض المتوسط لإيطاليا فتوريو فيتو وإيطاليا النظام الفاشي، لذلك فهو كتاب في السياسة الخارجية ( ) كتاب ما يجب أن تكون عليه سياسة خارجية بلادنا، التي لا حيدة عنها)

[32] إلا أنه حدث، في شهر أغسطس 1928، أن جبت مجلة (أولتريماري) أيضا مجلة (المستكشف التجاري) التي يرجع تاريخ تأسيسها إلى سنة 1877.

[33] روبيرتو كانتالوبو - ذات المصدر - طبعة 1929، ص 245 - 154و 157، خاصة في الباب الذي بعنوان (برنامج لليبيا)

بعد ضمان استقرار الوضع داخل الوطن الأم (وذلك عن طريق حكومة ثابتة لا تتغير وبرلمان مروض يتكفل باستمرارية الحكم، وصحافة طيعة ومستعدة للتعاون لمنع عناصر مناوئة من التحدث بلسان ما يسمى بـ (الرأي العام) وبيروقراطية تشكل وحدة واحدة مع الدولة) طرحت مسألة قلب الأجهزة التابعة لوزارة الخارجية إلى دواوين (فاشيستية) على أنها ضمان إضافي، أما في المستعمرة فقد عملت الحكومة الفاشية على (استكمال جهازها العسكري بصورة ملحوظة[34] إلا أنه يبين مع ذلك، الصعوبة الكامنة في (سياسة) موجهة للمسلمين ومتناقضاتها، (فلئن كان المسلمون يشكلون تسعة أعشار رعايانا من الأفارقة) وكانت توقعات المستقبل تتعلق بإسلام قيل أنه يمر بمرحلة (فقر وتردد) رغم تمتعه (بحس رهيف ومتحفز) زاد من حدته انبعاثه في أعقاب الحرب، إلا أنه لم يكن هناك ما يحول دون خطر إستياء العلاقات مع الأهالي في المجال الديني بالذات[35]. فكان الجانب المتغلب، في صفحات هذا الكتاب التي تعكس الرأي العام في إيطاليا وتساهم في تكوينه وقهره، الإفراط في تقييم العنصر الديني مع قلة تقدير واضحة للدافع الوطني وحتى الشعبي للمقاومة العربية، إلى درجة التغاضي والسكوت عنها. وهذا ما يوفر لنا التفسير لتذبذب الإعلام الإيطالي في هذه الفترة، الذي ظل ملاحظا وظاهراً للعيان، خلافاً لما كان عليه في العهود (الليبرالية) السابقة، والعقيدة ومتناقضاتها التي نلمحها في (إيطاليا الإسلامية) كانت مع ذلك متشعبة الجذور في الثقافة والسياسة الإيطالية، بحيث يجدر بنا أن نعرض لها بالتأمل والتحليل

كان ليئوني كائتاني ـ Leone Caetani ـ أول المستشرقين والدارسين للعلوم الإسلامية بين الإيطاليين ـ قد أعرب معارضته للحملة على طرابلس الغرب في سنة 1911، قبل نشوب الحرب، وكان قائتانو سالفيمني Gaetano Salnemini قد أصر على معارضته لها على مدى سنوات من واقع إدراكه للضرر الذي (سوف تلحقه

[34] روبيرتو كانتالوبو ـ ذات المصدر ـ ص 154 ـ 267 ، 271.

[35] راجع روبيرتو كانتالوبو ـ ذات المرجع ـ ص 242 / 245، وأفرد كانتالوبو الصفحات من 104 إلى 127 لمواضيع (علاقاتنا بالطريقة ـ الوضع العسكري في برقة ـ وحدود التعمير المحلية)

بإيطاليا تلك الموجة الوطنية الجامحة[36] كانت تلك أخطر فترة لوعي وإحساس عميق بثقافتنا الليبرالية والديمقراطية، رغم ما ظهر في ذات الفترة من حماس معين انتشر، على الأخص بين الفئات المتوسطة إلى درجة أنه تيسرت ملاحظة أكثر من علامة تدل على إجماع هذه الفئات تقريبا حول هذا الحماس الذي ظهر في المؤلفات الأدبية ومقالات الصحف وعبر عنه كتاب يحمل عنوان (الربيع الإيطالي ـ Primavera Italia[37]).

ومنذ ذلك التاريخ، دفعت التجارب السابقة رجال الإعلام، على اختلاف نزعاتهم ومشاربهم إلى سبر أغوار العلاقات بين الإسلام وإيطاليا ومناقشتها بروح مفعمة، على كل حال بعقيدة استعمارية واضحة ـ وليس من قبيل الصدف أن يكون أول من دخل مجاهل هذا الميدان ضابط استعماري ليخرج منها وبسرعة بنتائج متفائلة بإختيار إقامة حكومة مبنية على (الحرية الدينية) إلا أن (العلاقات الحميمة التي كانت تربط السنوسي بأخطر زعماء الجزيرة العربية لم تفلت من الملاحظة، كما كان ما زال ينظر إلى (الخلافة العثمانية) على أساس أنها كانت تشكل الصعوبة الرئيسية، وأخيرا كان هناك اقتراح بضرورة الالتزام (بسلوك راسخ وثابت) لا بد أن يواكبه (استعداد معين للتصالح) يقتفي أثر التقاليد (الليبرالية)[38].

سرعان ما هرع مستشارون متطفلون إلى التدخّل بالضغط على وزارة المستعمرات الوليدة، هامسين بضرورة إتباع أساليب التشدد والصرامة إلى حد اقتراح اتخاذ إجراءات وتدابير بديلة، لم يكونوا يصرون على اتخاذها ولكنهم لم يستعدوها من حسابهم، إلا أن بعضها سوف ينفذ فعلا في مرحلة لاحقة، وكان هناك من لم يتورع عن التصريح بأن إيطاليا وحدها، وهي (ثالثة دولة إسلامية عظمى) باستطاعتها

[36] فرانشيسكو مالجيري ـ الحرب الليبية 1911 ـ 1912 ـ روما، 1970، ص 95

[37] إيميليو اسكاليوني ـ الربيع الإيطالي، الحرب الإيطالية التركية ـ (مجموعة أجمل صفحات الحملة على ليبيا)نابولي، 1913 ـ وهذا مؤلف ضخم ومغمور ونحن نرى أنه هام لفهم الدعاية والعقيدة الاستعمارية السائدة في تلك السنوات، على حقيقتها وإدراك أبعادها.

[38] بوربون ديل مونتي سانتا ماريا ـ الاسلام والطريقة السنوسية ـ تشتا دي كاستيلو 1912 ـ وكانت قد أصدرت هذا الكتاب قيادة الأركان العامة، المكتب الاستعماري.

الخيار بين (إتباع سياسة إبادة السكان الأصليين أو إزالتهم من الميدان ليحل محلهم، رأسا معمرونا). وإتباع سلوك مبني على احترام التقاليد المحلية، يوصف ـ من واقع محتواه الديني المتغلب ـ (بالسلوك الإسلامي البحث) إلا أن الاختيار بين هذا المسلك أو ذاك، كان الأخذ به معلقا على (مدى صحامة المقاومة أو ضعفها) التي يبديها أهالي المستعمرة، دون أي اعتبار آخر، في الوقت الذي لم يكن على الجانب الإيطالي فيه سوى (مراعاة ما يجب أن تتحلى به كل دولة استعمارية متحضرة)[39] وظل فريق آخر يتساءل عما إذا كان بالإمكان (تفادي خوض حرب عصابات طويلة وإيجاد وسيلة سياسية ما) إلا أن الإجابة على هذا التساؤل (من خلال سياسة إسلامية ذات آفاق شاسعة) كانت غامضة حيث أنها كانت تتأرجح بين رد فعل عسكري صارم (إذا أرادوها حرب عصابات سنخوضها حرب عصابات ونصف بما فيها احتجاز الرهائن). وبين تطبيق سياسة (فرق تسد) رغم الشك في نجاحها أو حتى اللجوء إليها[40]

وظل الفكر الاستعماري الإيطالي تجاه ليبيا تحت المستوى المطلوب ومتذبذبا بطبيعته، يتردد على طرفي نقيض ولا يخلو من نزعات استبدادية.

والدوافع التي كانت تحدو هذا الإعلام، الذي لم يكن يمتاز بالغزارة، رغم ما كان يكتنفه من مغاز وأعراض، كانت تنطلق من المتطلبات الداخلية في إيطاليا التي لا مناص من رعايتها ومن ضيق حيز الخيار والمناورة في المستعمرة والمحافل التي تدعي تمسكها بالليبرالية في المجال الديني يلاحقها عن كثب الاعتبار الأول، في معظم

(39) جوليانو بوناتشي ـ الخلافة والاسلام وليبيا ـ روما 1913، ص 23 / 24 ـ ويحمل النص تاريخ أول أكتوبر 1912 ـ راجع أيضا الدو براندينو مالفستري إيطاليا والاسلام وليبيا ـ فلورنسا ـ ميلانو 1913، ورفعت الجمعية الإيطالية لدراسة ليبيا، المخطوط للطبع منذ السنة السابقة، إلا أن هذه الجمعية أكثر اتزانا ورصانة في خط عملها.

(40) فويدو سابيتا ـ سياسة التسلل إلى أفريقيا، الاسلام وإيطاليا ـ روما، 1913 ـ ص 72 / 73 و 83 / 85 و 90 ـ ويجدر الملاحظة هنا أن دراسة السلطات المحلية العربية كان قد عهد بها، وبالدرجة الأولى، إلى المكتب السياسي والعسكري لحكومة طرابلس الغرب ـ تراجع (مذكرة) ايميليو كابيفاري (الزوايا والأخوان السنوسيون في طرابلس الغرب) ـ طرابلس، مايو 1917، بمقدمة بقلم الرائد ماريو ساني.

الأحيان المتمثل في ترايد السكان الذي لا بد من توجيه الفائض منه نحو (الساحل الرابع)، إلا أن هذه الاعتبارات سرعان ما تكمش أمام مقاومة السكان المحليين في المستعمرة ليس بسبب المقاومة في حد ذاتها، بل لدواع غير وطنية وخيبة أمل هي بمثابة طعنة لهذه المشاعر، مما يحملهم على تلبية الدعوة إلى تسديد (الضربة القاضية للعدو). فكل هذه الاعتبارات والأسانيد هي، عامة، ثمرة ثقافة إقليمية صيقة، مستمدة من دراسات إزدهرت في مواقع أخرى، خارج الوطن الأم وأسطع مثل على ذلك نجده في مؤلفات (ديبون وكوبولاني Depont Coppolani التي يرجع تاريخها إلى عام 1879 أو كتاب (دولينربيه Douxeyrier الذي قمت وزارة المستعمرات بإعادة طبعه في عام 1918[41].

والدوافع إلى التأمل كانت نادرة ولا تتسم بالاستقلال، بل نعيش، أو بالأحرى تتعيش انتظاراً للفظ أنفاسها الأخيرة، عندما (أممت) هذه الثقافة، أو قل (مسخ الثقافة) وتغلبت عليها النزعات الإستبدادية السلطوية، الماهصة للديموقراطية.

ومع ذلك نجد في الاقتراح المتهيب الذي طرح في عام 1917 لإقامة (محمية) في المستعمرة، رؤيا للأمور أكثر ارتباطاً بالمنطق والواقع، على أساس رفض سياسة الاستعمار الاستيطاني والنظر على الدوافع الاقتصادية والاجتماعية وراء تمسك العرب باستقلالهم الذاتي إلا أن صيغة هذه الحماية كانت مستمدة، بصورة واضحة من النموذج الذي طبقته بريطانيا في مصر، سنة 1914، بعد تطويره في نطاق خطة ترمي إلى (تمزيق الوحدة الإسلامية) وهو ما كان في مقدمة الاعتبارات على الصعيد

---

[41] إنه تقليد تواصل إلى حين صدور أولى مؤلفات كارلو جيلو، في شبابه وأعني (الطريقة السنوسية منذ نشأتها وحتى يومنا هذا) ـ بلدوا ـ 1932 التي قدّم لها الجنرال قراتسياني وهذا التقليد يجسد في نعت العرب، بعد هزيمتهم، بـ (التعصب) و(الغدر) و(النفاق) ـ وربما بلغ (الاستغراب) السياسي الإيطالي ذروته بصدور المجموعة الوثائقية (السرية) التى أعدتها وزارة المستعمرات بعنوان (شبه الجزيرة العربية ـ Arabia ـ روما، 1919 (مع ملحق يتناول قضية (الخلافة) بمعرفة أ.ك نالينو) ـ وكان جاكومو ابينزا يندد (بالطوق الحديدي) الذي أحاط به الانجليز شبه الجزيرة العربية وكان يطالب بجزر (فرسان) على البحر الأحمر إلا أن هذه الطبعة الرفيعة تظهر مدى فقر الوسائل إلى النظرة السياسية الثاقبة في السياسة الإيطالية إزاء الشرق، بصورة عامة.

الأوروبي في الوقت الذي كان على إيطاليا أن تكتفي فيه بالاستفادة من المنافع التجارية بين الساحل والدواحل، وبين أفريقيا الشمالية وحوض البحر الأبيض المتوسط[42].

واعتبارا من فترة 1919 ـ 1922، وعلى أثر ظهور موجة عارمة جديدة من التعصب الوطني، وبحكم تطور الزمن، فقد التمسك بضرورة إيجاد وفاق مع (الإسلام) أو ما كان يسمى (بالحل الإسلامي)، الكثير من مداه وقوة دفعه، لينكشف على حقيقته وهي اتخاذه كوسيلة وليس هدفاً بل اعتباره قضية ثانوية، القصد منها استطلاع الرأي العام في إيطاليا نفسها ومحاولة لإقناع الأهالي المحليين بعدم جدوى المقاومة بالنظر إلى حسن نوايا الجانب الإيطالي.

وبعد التحول الذي طرأ على الوضع في سنتي 1926 / 1927 تتحدد الاختيارات المتطرفة وتترسخ ولكن على أساس تقليد سابق لأن الموقف البديل الذي اتسم به عاما 1928 / 1929، «إما الاستسلام بشروط ميسرة وإما الردع البطيء والحاسم بقوة السلاح»[43] لا يشكل في واقع الأمر إلا بديلاً مفتعلاً إلى حد معين من حيث أنه ما زال يحبذ ترجيح الركن الإسلامي على الركن العربي الذي كان في طور التكوين ويرتبط باتجاهات منحرفة لأحداث يقع مركز ثقلها في مكان آخر[44]. وأيضاً لأنه بنى على أساس تحليل مزيف للوضع السياسي ـ العسكري:

«إن ضربة قاضية، لم نسددها نحن بعد، لبرقة لا بد من تسديدها الآن، إن نحن أردنا اختصار الطريق، بعدها فقط سنتمكن من تحقيق المطلب الجوهري بالنسبة لجميع الدول المسيطرة على الشمال الأفريقي، ألا وهو بلوغ وضع لا يرغمنا على خوض حرب لا نهاية لها ولا تعتبر في مصف الدول الاستعمارية العظمى إلا تلك

---

(42) راجع سافينو اكوافيفا ـ المشكلة الليبية والحركة السنوسية ـ روما، 1917 ـ ويحرص المؤلف على عدم السماح بأية هيمنة لبريطانيا العظمى (كدولة لها مستعمرات إسلامية) وعلى التشبث بالمبدأ الاستراتيجي القاضي بمنع قيام (أي تضامن، ولو كان عقائدياً، بين الشعوب الإسلامية

(43) روبيرتو كانتالوبو ـ المصدر المذكور، ص 271.

(44) ايتالو رنقاريلي ـ يقظة الاسلام ـ ميلانو، 1928 صدر هذا الكتاب كثاني مجلد لـ (مكتبة الثقافة السياسية) التي أصدرها المعهد الوطني للثقافة الفاشيستية، وكان يحمل عنوانا ثانويا هو (تركيا بدون قرآن ـ روس وإنجليز في الشرق).

الدولة التي تستطيع الانفاء على سلاحها في أفريقيا ولكنها لا تستخدمه إلا في أضيق نطاق ممكن»[45].

وفي خضم موقف متناقض كهذا، كان لا بد أن ينتهي الأمر على المدى العاجل بفوز الفريق المتشدد وباختيار الحل المسلح القمعي. وهذا اتجاه يتناقض تناقضا صريحا مع حركة الإصلاح التي شرع في تنفيذها بشأن رابطة الشعوب التي كانت خاضعة للاستعمار البريطاني Commonwealth ويمهد الطريق لتسديد (الضربة القاضية) وهذا هو ما حدث بالفعل في سنتي 1930 / 1931.

غير أن الأمر لم يعد يتعلق بالطائفة وحدها أو يقتصر عليها أكثر من سواها. إذ كانت هناك المصالح الإيطالية في (تعمير) برقة لأغراض استيطانية (بدرجة تفوق ما شرع فيه في طرابلس)، ومن جهة أخرى في صرورة سد الطريق أمام أهالي الجبل والصحراء الذين تقرر سحقهم كانت تلك هي المرحلة الحاسمة التي اجتاحت فيها إيطاليا ليبيا (الموجة الاستعمارية الثانية) إن صح هذا التعبير[46] فقد أدى تطرف الوطنيين إذا دوره في تحقيق مطالبه، حتى أوصل الصراع بين الإيطاليين والعرب إلى أقصى مداه، في بلاد كليبيا كانت تعتبر منطقة لا بد من إخضاعها وتقويتها لخدمة (الدولة المسيطرة عليها) فقط[47].

(6) عندما اختير الجنرال قراتزياني لتولي قيادة العمليات في برقة، كانت اللعبة بالنسبة إلى إيطاليا، قد وصلت إلى مرحلتها النهائية فالشؤون المدنية والعسكرية والسلطات المركزية الاستعمارية أخذت شيئا فشيئا، ومن مواقع مختلفة، تقترب من

---

[45] راجع ر.كانتالوبو، المصدر المذكور، ص 122

[46] كان بياجو باشي، قد عرض في تقريره إلى البرلمان حول ميزانية المستعمرات عن السنة المالية 1932 ـ 1933م المبالغ الخاصة بالنفقات التي اقتضتها اعادة احتلال منطقة سرت وفزان وبرقة 199 مليون ليره 20 مليون منها أنفقت لمد سياج الأسلاك الشائكة على الحدود مع مصر، و 13 مليون لاقامة ميادين الاعتقال فصل اندالك أنه (لولا هذه التدابير الثلاثة ـ الاعتقال وسياج الحدود واحتلال الكفرة ـ لتواصلت الحرب خمسين سنة أخرى. يراجع ألبيرتو جاكاردي ـ عشر سنوات من الحكم الفاشي في المستعمرات الإيطالية ـ ميلانو، 1934 ، ص 34 ـ 35

[47] روبيرتو كانتالوبو ـ ذات المرجع ـ ص 155.

الاستقرار الشامل والنهائي، وذلك بتخصيص قوات وتفوق تقني ضخم لا يترك للعدو إلا هامشا تافها للتصرف.

إلا أن المقاومة والتمرد السافر استمرا حتى نهاية عام 1931م. وقراتزياني بدون شك، أكثر القادة خبرة بشؤون المستعمرات ولكنه كان أيضا أكثرهم قسوة وفظاظة وقد تكونت لديه هذه الخبرة بداية من عام 1921، من خلال المهام القمعية التي كان يكلف بها، لذلك أصبح موضع إشادة وإطراء لكونه (رجل عمل، في المقام الأول) إلا أن اوساطا استعمارية معينة أكثر ضلعا بشؤون المستعمرة تبدي تحفظها بشأن هذا الإطراء[48] ومع ذلك فإن الحكومة ووزارة المستعمرات، وبادوليو بصفته واليا على المستعمرة، والرأي العام الفاشي نفسه، الذي كانت تمارس عليه الصحافة الاستعمارية نفودها ككتلة ضاغطة، تتحمل كل منها قسطها من المسؤولية الناشئة عن ابتكار خطة إجرامية وإعداد وسيلة لتنفيذها، سرعان ما أفضت إلى اقتراف عملية إبادة جماعية.

و(رجل العمل، المثالي) هو المنفذ المادي لعملية الإبادة التي نزلت على رؤوس أهل المستعمرة وسوف يصبح رمزها، وفظاعته المتأصلة وعجرفته تظهر بكامل عنفها في وثيقة تتعرض لسيرته الذاتية يرجع تاريخها إلى ربيع 1930، حيث ينصب نفسه كرجل (القدر) الذي يرتبط به مصير الأمة الاستعماري:

«ولدت في 11 أغسطس 1882)، بمنطقة وادي نهر (انييني) من أب لاتيني وأم رومانية . وكانت نزعتي (ملكية) منذ طفولتي كما غرزها فيَ والدي .. لم أتمكن قط من فهم الحركة الاشتراكية التي كانت تنتشر آنذاك كالنار في الهشيم . كما إنني لم أكن (ماسونيا) في أي وقت من الأوقات أعتقد أنني كنت فاشيا منذ ولادتي... وهكذا يبدو لي أنني أعيد حياتي من جديد . إحتقرت أبدا الخنوع والانحطاط بأنواعه، ووصفت بهما جميعا. ولدت رقيق العاطفة، تغلب عليّ روح (الرومانتيكية) ومع ذلك تمكنت من تفادي أن أصبح منقادا إلى الشكّ في الدنيا واحتقار ملذاتها، بل

[48] راجع مقال (قراتزياني في برقه) ـ مجلة (أولترىماري) ـ السنة الرابعة ، العدد ـ 4 ـ أبريل 1930 ـ وراجع كذلك مقال (تطهير جبل برقة) ـ ذات المصدر ـ السنة الرابعة ـ العدد 12 ـ ديسمبر 1930

استطعت أن أتحلى بالواقعية بصورة مطلقة... وبعد سنتين من الحياة في الحاميات افتتنت بأفريقيا فاستحوذت على مشاعري . فهي التي حررتني من كل خمول ومهرتني بما يميزني من طباع وخصائل»[49].

ومشاعر خيبة الأمل في المجتمع التي كانت تستبد بقراتزياني وتعلقه بالمستعمرات ـ ذلك التعلق الذي دفعه إلى التطوع للعمل في ايرتيريا في الفترة من 1907 إلى 1912 ـ قد قربته من الفاشية إلى درجة كبيرة في السنوات التالية على الحرب العظمى:

«في سنة 1919، في مقدونية... وفي سنة 1920 في (بارما) ضد البلشفية... وفي نهاية عام 1920، أحلت على الاستيداع بطلب مني شبه منفي في الشرق ثم سافرت إلى البلقان ومنها إلى تركيا ـ آسيا الصغرى ـ فالقوقاز حيث فاجأني الزحف البلشفي، فأفسد علي ما كنت قد حققته من نجاح في ميدان التجارة... فعدت إلى أرض الوطن في صيف 1921. عرض على الذهاب للعمل إلى قطر طرابلس، تلبية لطلب كنت قد تقدمت به مند سنة 1918 . وهكذا وطأت قدماي ساحل طرابلس في شهر سبتمبر من تلك السنة»[50]

وسوف يتناول قراتزياني بنفسه الحديث عن تجريد الأهالي من السلاح وحشرهم في ميادين الاعتقال ومصادرة أرزاقهم، باختصار عن (الطريقة الفنية) التي أدت إلى احتلال الكفرة في عام 1931 والقبض على عمر المختار وشنقه، وإعادة (السلام) إلى المستعمرة التي أوكل أمرها إليه. وتناول غيره ذات الموضوع[51]

وكتابه (إعادة السلام إلى برقة) بفضل انتشاره الواسع، سيظل الوثيقة العامة الأكثر صراحة بشأن طريقة إعادة احتلال ليبيا، التي عكست في الكامل العقيدة الفاشية[52]، ونفذتها على أرض الواقع.

---

(49) ر قراتزياني ـ السيرة الذاتية لجندي في أفريقيا ـ في مجلة (أولتريماري) عدد ـ 4 ـ أبريل 1930

(51) راجع قوليلمو ناري ـ انريكو دي أقوستيني ـ الهيكل الجغرافي لبرقة، حرب العصابات واستخدام القوات في برقة ـ بنغازي، 1931.

(52) رودولفو قراتزياني ـ إعادة السلام إلى برقه ـ ميلانو 1932م وفي الكتاب اللاحق الذى صدر بعنوان (السلم الروماني في ليبيا) ـ ميلانو، 1937، قد نشر بصورة حذريه المقال الذي بعنوان

فعند قراءة تقارير اللواء (الجنرال) الإيطالي، لا يصعب على المرء بالنسبة لما يكنه للمتمرد العجوز، ملاحظة (شعور معقّد جدا، يمتزج فيه الحقد بالإعجاب والاحتقار (للبدوي) بالحسد لما لقيه هذا الشهيد من إجلال وإكبار في كافة أرجاء العالم الإسلامي[53]. وترك لنا قراتزياني عن عمر المختار ـ وهو المسؤول الأول والمباشر عن قتله ـ صورة تظهره هو، أي قراتزياني، في صورة الجلاد بمعناه (كان موهوبا، يتقد ذكاء وسرعة بديهة، كما كان غزير المعرفة بالعلوم الدينية ويتمتع بالنشاط والصرامة والاندفاع، كما كان يمتاز بنكران الذات وشدة البأس، عاش فقيراً وورعا، ومتمسكا بدينه...

«كان يناصبنا العداء الصريح، دائماً، ولولا المحاولة التي قام بها هو في سبيل إعادة السلام، ثم خانها بعملية تشفٍ وانتقام لا معنى لها، لظهرت شخصيته أكثر مدعاة للاحترام، وربما أنقذ حياته[54]. إلا أن الأمر هنا ينحدر إلى مستوى الدناءة والحرص على تبرير السلوك الشخصي لواضع هذا التقييم، وبالتالي على تشويه الوقائع. فالفقرة الأولى تبدو وكأنها منقولة عن ملف مركز للشرطة الاستعمارية، والثانية تذكرنا بأحكام المحاكم الخاصة، التي لم تدرس حتى الآن، وكانت قد أصدرت خلال عام 1930، وعن طريق محاكمات مجملة صورية، أحكامها القاسية على رعايا المستعمرة، وكانوا في أغلب الأحيان فلاحين ورعاة بسطاء ولكنهم كانوا في الواقع أبطال المقاومة العربية[55].

(احتصار المقاومة) واستبعدت منه كلية الصفحات التي تتناول (الحملة الصحفية وحملة اللحاد الاسلامية) وصدرت ترجمة لهذا الكتاب في اللغة العربية بعنوان (برقة الهادئة)

[53] آرمينو سافيولي ـ تاريخ بطل عربي و(قناصة) إيطاليين ـ في صحيفة (لونيتا) ـ 5 أغسطس 1979

[54] رودولفو قراتزياني ـ وإعادة السلام إلى برقة ـ السالف الذكر ـ ص 263 ـ 265 ـ فعمر المختار في نظر قراتزياني هو (قلب المقاومة في برقه ودماغها الممكر) ص 235 وأخيراً (ليس إلا قاطع طريق).

[55] ادريانو دال بونت، ألفونسو ليوبيتي، باسكوالي مايلو ولينو روكي ـ القاعة الرابعة ـ روما 1961 ـ حيث يتناولون موضوع التمرد المسلح، والانضمام إلى عصابات المقاومة، والهروب من الجندية، وسرقة الأسلحة وبيعها، ومساعدة المقاومة، الخ . مع إبداء الرجاء في إجراء تحقيق

وأخذت الدعاية بعد أن أصبحت فاشية الروح والطابع، تشيد بقراتزياني و(بروحه الرومانية) للثأر. فيؤلف عنه باولو اورانوا ـ Paolo Orano ـ النقابي الثائر سابقا، وواضع كتاب (المسيح وكويرينو) كتابا يثني فيه عليه ويمجده وسوف يساهم بعد ذلك بفترة وجيزة، في إثارة القضية اليهودية في إيطاليا[56] ويتحدث موسوليني عن برقة خضراء بأشجارها وحمراء بالدم) ـ وهذه كلها صيغ بلاغة واستعارة (بديعية) مضللة تنم عن مدى ثقل الضغط الذي يمارس (من فوق) على الرأي العام في إيطاليا وها هو بادوليو، يخاطب الجنود، في اليوم التالي على إعدام عمر المختار شنقا، حاثا إياهم، بالخصوص على (عدم التراخي في مجهودهم) (واصلوا الضرب. والضرب العنيف ما دام يوجد عاص واحد واقفا على قدميه. فبذلك سينتهي أمر العصيان إلى الأبد في فترة وجيزة)[58]. هذا ولم يبق لمناهضي الفاشية والعمال وحتى للجنود البسطاء، إلا وسائل قليلة حقا، لتغليب إعتراضهم أو لمجرد الإعراب عنه، حيث أنهم أصبحوا أقلية تكاد لا تذكر[59].

ومجلة جيراركيا Gerarrchia، أمام الإدانة والإستنكار الذي ظهر في الخارج في الصحف العربية والغربية، كانت تدّعي بأن (مخيمات قبائل الجبل الأخضر كانت قد أعدت فقط لمنع الأهالي الخطرين من عقد اتصالات بعمر المختار، قبل اختفائه،

بشأن المحكمة الخاصة الاستعمارية.

(56) باولو أورانو: قراتزياني جنرال من طراز شيبيو ـ روما 1936 راجع المقدمة لكتاب أنسو سوريري ـ برقة الخضراء ـ ميلانو، 1931 (وتاريخ كلمة موسوليني: ديسمبر 1930).

(58) نقل نص الخطاب باولو مالتزي في (ليبيا أرض الموعد) ميلانو، 1968 ـ ص 366 ـ أما وضع الخط تحت الجملة، فبيد بادوليو نفسه

(59) وتبع مقال لويجي قالو (لويجي بوملو) بعنوان (سنتان من حرب استعمارية فاشية) في نشرة (دولة العمل) ـ السنة الثالثة ـ عدد (8) ـ نوفمبر، 1929، نشر مقالات أخرى. فقدا رفسلي، كانت قد نشرت باسم مستعار ـ أنيس قمالية ـ كتاب بعنوان (الواحة ـ رواية عربية ـ ميلانو، 1929، يمكن اعتباره تأليفا شعبيا مناهضا للاستعمار، ثم أرنستو مليري، في كتابه الذي بعنوان (متطوع في برقة) ميلانو ـ 1971 ـ بعض رسائل متطوع في العشرين من عمره، وتستمد أهميتها من حيث أنها تعكس مشاعر متصارعة تجاه شاهدا بسيطا على فظائع القمع التي لا بد له فيها.

بعدما أصبح طاغيا ومستبدا[60]. إلا أن معظم أجهزة إعلام النظام الفاشي، لم تحاول إخفاء فظائع العمليات (ضد تحركات العصاة ومناوراتهم) وقسوتها فإكتفت بطمس مداها الحقيقي، أو بالتخفيف من وطأتها، بأسلوب وطريقة فنية رفيعة دون التعرض للجهاز الجهنمي الذي كان قد أدى أو كان ما زال يؤدي إلى إبادة شريحة ضخمة من الأهالي، فظل ستار سميك من الصمت مسدولا على هذا الجانب القمعي وعلى أضراب التخاذل التي ميزت ثقافة فترة ما بعد عهد الاستعمار، حتى السنوات الأولى التالية على نهاية الحرب (العالمية الثانية) وبعدها أيضاً[61].

وبالتهجير الجماعي، الذي يشبه هجرات الأقوام الواردة في التوراة، ينفتح الطريق أمام استعمار استيطاني يواكب على مستوى أكثر اندفاعا الحركة العسكرية والسياسة والاستغلال الاقتصادي عن طريق التوسع في مجال الإستيطان، خاصة وأن البطالة أخذت تتفاقم في الوطن الأم، بحثا عن مواقع عمل.

هذا وقت أدت عملية إبادة العرب إلى كارثة في الوضع الطبيعي للبيئة، حيث أنها قضت على الثروة الحيوانية ومراعيها التقليدية. ويسدل هنا أيضا ستار الصمت على هذه الظاهرة، رغم الاهتمام الذي أظهره قبل ذلك بفترة وجيزة أصحاب مصانع الصوف بشمال إيطاليا بإنتاج هذه المادة في المستعمرة.

فالعقدة في برقة ـ أي حركة الحصاد ـ التي حلت بالقوة، تتفق بالنسبة إلى الحركة الاستعمارية الإيطالية، وتتوحد ولو جزئيا، مع العقدة الاجتماعية العويصة المتمثلة في أزمة تكاثر السكان.

---

[60] (وقائع السياسة الاستعمارية) التي أعدت بإشراف فرانشسكو جيراتشي، في مجلة (جيراركيا) السنة التاسعة ـ عدد (11) نوفمبر 1931.

[61] في نفس السنة صدرت كتب أ أ إيفانس ـ بريتشارد ـ (سنوسيو برقة) ـ اكسفورد، 1949 ـ الذي يقدم الوثائق عن العمليات (الحربية) ويندد بالإبادة خلال فترة 1923 ـ 1932 (ص 157 ـ 190)، وكتاب (كورادو زولي) ـ التوسع الاستعماري الإيطالي ـ 1932 ـ 1937 روما، 1949، الذي يمجد لإرضاء خاطر دار نشر (فشيستية جديدة) ماضي العهد الغابر ويجهل أو يتجاهل ومن ثم يخفي الثمن الذي دفعه العرب في آخر مرحلة لإعادة لاحتلال الإيطالي ـ (ص 181 ـ 191)

وها هم صحفيون من أمثال داريو ليسكي ونقابيون، من أمثال لويجي رانزا، يندفعون الآن صارخين بأعلى أصواتهم، داعين إلى تعمير زراعي ـ استيطاني لبرقة التي أصبحت الآن مهيأة لتقبل السواعد الإيطالية، ويعلنون أخيرا عن فتح (صندوق الرمال Scatolone di Sabbia) الذي يذكرنا بسالفيمني ـ واستغلاله بعد اكتشاف مزعوم ـ مياه جوفية جديدة[62]. كانت هذه هي الاتجاهات التي تحددت معالمها تحت ظروف ملحة لمواجهة المتطلبات الاقتصادية، بعد مرور عشر سنوات على ممارسة الحكم الفاشي، وفي منطقة تفيض فيها اليد العاملة غير الفنية ـ مثل مقاطعة (فيرارا)، ها هو (نيلوكويلتشي N. Quilici وهو برجوازي وعنصر بارز في البرجوازية الإيطالية، ومدير صحيفة الـ (كوريري بادانو) Corriere Padano وناطق بلسان (بالبو Balbo ومستشاره ـ يركّز على موضوع الاستعمار بداية من حوالي عام 1932م، وهكذا تدخل الفكرة الاستعمارية مرحلة جديدة بدون تردد فبعد الاستثمارات الأولية التي كان يقوم بها (مصرف روما Banco di Roma)، واستثمار رؤوس أموال محدودة في مشاريع (التعمير) الزراعي في قطر طرابلس، التي أقيمت احتفالات بذكراها العشرين[63] إلى جانب تنفيذ أشغال عامة لتوفير التسهيلات والمرافق الكبرى (الامبريالية)[*] الطابع (أعمال الموانئ ـ استصلاح الأراضي ـ إزالة المستنقعات، الخ ..) في عقد العشرينات، وهو ما كان يجلب اهتمام قطاعات جانبية من الرأسمالية الإيطالية، وتدخّل الدولة بثقلها في هذا الميدان، بعد إضفاء صبغة الشعبية عليه تعسفا فإذا كانت الفاشية قد أدت إلى القضاء على (الرحّل) فوق الجبل والمناطق الخصبة بفرص إعادة الهيمنة (المباشرة) و(المطلقة) (وهذه العبارة الأخيرة لقراتزياني) على المستعمرة من

[62] داريو ليسكي أو (داريوسكي) زيارة لمحرر حوادث فاشيستي إلى برقة ـ سيرا 1934، وماركو بوميليو ـ لتفتح صندوق الرمال ـ روما، 1935 ـ بمقدمة بقلم لويجي رانزا وزير الأشغال العامة

[63] ج.دي ليئوني ـ التعمير الزراعي في شمال قطر طرابلس في العشرين سنة الأولى من تاريخه ـ روما، 1933.

[*] (امبريالية) تعني هنا صفة (عظمة الامبراطورية) إشارة إلى طموح موسوليني إلى استعادة الامبراطورية الرومانية وعظمتها وليست الامبريالية بمفهومها الآن ـ وذلك واضح من سياق الحديث.

جهة، فإنها من جهة أخرى شملت كامل ترابها في تخطيطها الاستيطاني[64]

إلا أن المتناقضات ما لبثت أن ظهرت بحدتها في العلاقات بين المستعمرة والوطن الأم، عندما أخذت ندرة رؤوس الأموال اللازمة لتنفيذ خطة تعمير استيطاني باهظة التكاليف، تشعر بفداحتها في الوقت الذي ما زال يزيد فيه حجم الواردات على حجم الصادرات بأشواط[65].

وهكذا تبخر حلم غلاة الوطنيين في أن يحقق قيام (إيطاليا ما وراء البحار) الاكتفاء الذاتي والتكامل السكاني، القويم اقتصاديا. وفي نهاية هذا التسابق المحموم والطويل، سوف لن تبقى لهم إلا الحسرة عن عدم التوقف في الوقت المناسب واقتصار التعمير الاستيطاني على ليبيا فقط[66]، خاصة وإن الاستعدادات الدفاعية والعسكرية في برقة بالذات، سوف يتضح إبان الحرب العالمية الثانية ضعفها، وأنها غير كافية للصمود وصد هجمات القوات المعادية ومن جهة أخرى، كانت روما تنظر منذ اليوم التالي لأحداث عام 1931 إلى أهداف أخرى وتستعد لبلوغها وليبيا بالنسبة لأطماع الامبريالية الفاشية لم تعد سوى خطوة أولى على سلم برنامج أعظم يتضمن البحر الأبيض المتوسط وأفريقيا، وهكذا تحول مركز جاذبية التوسع في هذه القارة بسرعة إلى أفريقيا الشرقية، ومغامرة (الساحل الرابع) أصبح لا ينظر إليها إلاّ على أساس ما توفره من عناصر لإقامة الإمبراطورية بما في هذه العبارة من معان[67].

---

[64] جورجو روشا ـ قمع المقاومة العربية في برقة في سنتي 1930/ 1931 ـ في وثائق (حافظة قراتزياني) بالمحفوظات التاريخية ـ في نشرة (حركة التحرير في إيطاليا) ـ السنة 25 ـ عدد (110) يناير ـ مارس 1973 ـ ص 36 ـ 39. وراجع أيضا اينزو سانتاريلي ـ عمر المختار المقاتل الوطني ـ في صحيفة (لونيتا) 16 سبتمبر 1971.

[65] حول كشف حساب تكاليف الاستعمار الاستيطاني في ليبيا، من الناحية الاقتصادية ـ راجع الأرقام والبيانات التي أوردها (مييج) وسيقري.

[66] لويجي فيدرروني ـ ذات المصدر ـ ص 138 (كان من الأفضل عدم دخول الحرب في سنة 1940، ولو لغرض المحافظة على ليبيا).

[67] إن هذه الاتجاهات، التي كانت عامة قد أعربت عنها مجلة (جيراركيا) في عددها الخاص (السنة الثانية عشرة ـ العدد 7 ـ 8 ـ يوليو ـ أغسطس 1932)، الذي افردته (للمشاكل الأفريقية)

(7) كانت الحركة الاستعمارية الإيطالية في ليبيا منذ قيامها، والعقيدة التي بنيت عليها واستراتيجيتها المتذبذبة في مراحلها المرتكزة على استيطان مضطرد في المستعمرة ضمن توسع جغرافي/ سياسي في حوض البحر الأبيض المتوسط ـ Nore Nostzum ـ تعكس طموحات امبريالية أتت متأخرة عن موعدها في القرن العشرين. فهذه النزعة الامبريالية كانت تنبىء منذ ظهورها، بعدم قدرتها على تفادي مواجهة فشل ذريع كان قد حذر منه رجال من أمثال (سالفيني) ـ والحركة الفاشية، التي قامت وترعرعت في أعقاب الحرب العالمية الأولى لعرض مختلف الحلول للمشاكل المستجدة التي كانت تعترض طريق توطيد أركان الدولة ورفع مستوى حياة المجتمع الإيطالي وشأنه، ليكون عند مستوى متطلبات العصر كانت قد اختارت لمعالجة الشق الثاني من المعضلة، أي المجال الاستعماري انتهاج طريق واضح، وهو ملء أراضي المستعمرات بالمستوطنين الإيطاليين، كحل لمشكلة تكاثر السكان في الوطن الأم، باستخدام منتهى القسوة والوحشية ضد سكان هذه المستعمرات. غير أنه يتعذر تقديم الدليل على أنه كانت هناك خطة محددة وشاملة لكل ما تقدم، ومع ذلك نعتقد أننا قدمنا الدليل على أنه كانت وراء ذلك كله حركة توعية وتكييف الرأي العام بما يتمشى مع طموحاتها المتناقضة، سواء في الوطن الأم أم في المستعمرات، ومع نظرية أو أسطورة التكامل السكاني التي طرحها موسوليني بصورة منهجية في الخطاب الذي ألقاه في يوم (عيد الصعود) لسنة 1927، ودفعت بها إلى الأمام أزمة 1929، التي رسخت بصورة عامة (مشكلة توفير منفذ لاستيطان العدد الفائض من السكان) وحمل الفريق المستأثر بالحكم إلى التمسك بمطامعه الامبريالية[68].

وفيما يتعلق بمناهج ومخططات مكافحة (المقاومة) ـ أو حرب العصابات ـ

(يراجع، مثلاً، المقال الافتتاحي، بقلم دي بونو، وبعنوان (أمس واليوم، في المستعمرة)، وكذلك في المجموعة التي أعدها (آزفيرو قرفيلي: (أفريقيا والتوسع الأفريقي وإعادة النظرة في المعاهدات) ـ روما 1933، وكذلك البحث الأكاديمي لنيلو كويليشي· لغر عادوة ـ فيرارا ـ 1932

[68] في عام 1939، كانت قائمة طلبات الهجرة إلى ليبيا تضم طلبات 40,000 عائلة من عائلات المزارعين، رهن النظر والبت فيها ـ كلاوديو سيقري ـ المصدر المذكور ص (161).

وعمليات القمع خاصة في برقة، كان المسئولون عنها أعلى سياسة في الدولة. زعيم الحزب الفاشي ورجال حكومته والمنفذين المباشرين لها رجال يحتلون مراكز مرموقة في المستعمرة، من أمثال بادوليو وقراترياني، بصفتهما المزدوجة كقائدين عسكريين وصاحبي مناصب سياسية ومرؤوسيهما. صحيح أن الجمهورية الإيطالية التي قامت بفضل (المقاومة)، ومكّنت أيضا في طور تصفية الفاشية، ضبطا كبارا من أمثال قراترياني، الذي أقترف مذابح عام 1937م في الحبشة، وتولى منصب القائد العام لقوات (جمهورية سالو Republico di Salo (ح)، من التملص من قصاص العدالة في الكامل تقريبا، فهو نفسه أفلت من العقاب مدعيا الدفاع عن الوطن)[69]

والامبريالية الفاشية بعدما سخرت دعايتها الصاخبة الممهورة (بشعبية) مزيفة وسلطتها على كامل أجهزة الدولة ومنظماتها وبالتالي على المجتمع الايطالي في الوطن الأم، مسنوحية سياستها الاستعمارية- خاصة فيما يتعلق بليبيا - من مدرسة غلاة الوطنيين ونزعاتهم، كانت قد أساءت استعمال القوة في محاولة يائسة لحل المشاكل الوطنية المستعصية وغير القابلة للحل، على كل حال. لذلك كانت عمليات التشريد والإبادة التي تعرض لها الأهالي العرب في المستعمرة عمياء في وحشيتها وقسوتها وعديمة الفائدة - وليس لكل ذلك سبب واحد محدد، إذ أن مسؤلية الحكم الفاشي ذاتها يرجع عهدها إلى تاريخ سابق ودوافع وحركات متراكبة واتجاهات ونزعات تراكمت على مر السنين لتنفجر جميعها في عقد الثلاثينات، مذكرة بجذورها الغائرة بعمق في وجدان الإيطاليين منذ أن غمرتهم نشوة (الربيع الإيطالي) التي أدت إلى الحملة على ليبيا في سنة 1911، وحتى قبلها، لتتفاقم وتزداد حدة في فترة الدكتاتورية الطبقية التي فرضت على الإيطاليين من سنة 1919م إلى 1922م، عندما استولى الحزب الفاشي على مقاليد الحكم.

هذا وكانت أيديولوجية إيطاليا الاستعمارية واستراتيجيتها، خاصة فيما يتعلق بليبيا عقيمة فكريا ومنهجيا، وما مظاهر الاهتمام بأوضاعها وخصائصها الطبيعية وآثارها إلا انعكاس لعقيدة مصطنعة في معظمها، أما الثقافة الإيطالية فإنها لم تقدم

[69] رارا ألفاردي ـ محاكمات الفاشيين ـ فلورنسا ـ 1958 ـ بمقدمة بقلم فرونشو باري

للساحل الرابع أو تأخذ منه إلا النزر اليسير الذي يكاد لا يذكر، ومرد ذلك ـ ولو جزئيا ـ الطريقة التي اتبعتها ـ حتى قبل العهد الفاشي وطوال ثلاثين عاما من السيطرة ـ في عدم الاعتراف للأهالي العرب بشخصية وكيان ثقافي مستقل ووطني الطابع، وكذلك الطريقة التي قضت بها على حركة المقاومة.

المصادر والمراجع للباب الأول

ENZO SANTARELLI

Sources

- Acquaviva, S., Il Problema Libico e ii Senussismo, Roma, 1917.
- Algardı. Zara. Processi ai Fascisti, Firenze, 1958.
- Ambrosini, G., L'Italia net Mediterraneo, Foligno, 1928
- Battaglia, Roberto, La Prima Guerra d'Africa, Torino, 1958.
- Bonacci, Giuliano, It Catıl'ato l'Islam e Libia, Roma, 1913.
- Bourbon, del Monte Santa Maria. l'Istamismoe la Confraternita dei Senussi, Citta' di Castello, 1912.
- Cagnetta, Mariella, Antichistie e Impero Fascista, Ban, 1979.
- Canapini, L., Il Nazionalismo Cattolico, Ban, 1970.
  Ganevari, Emilio, Zavie ed Ichuan Senussiti della Tripolitania, tripoli, Maggio 1917
- Cantalupo, Roberto, t'flatia Musutmana, Roma, 1978.
- Chierici, Alab , Itatiani e Arabi in Libia - Note di Viaggio, Roma, 1919.
- Ciarlantini, Franco, Africa Romana, Milano, 1928.
- Cravino, Andrea, Vedute Econoiniche delta Tripolitania (L'avvenire agricole delle colonie). Milano,
- 1927.
- Cusin, Fabio, Antistoria d'Italia, Torino, 1948.
- Cusin, Fabio, L'Italiano, Realta'e Ilfusioni, Roma, 1945.
- Evans-Pritchard, E.E., The Sanusi of Cyrenaica, Oxford, 1949.
- Federzoni, Luigi, Itatia di len per la Storia di Domani, Milano, 1967.
  Ferdinando Nobili Assuero, Ombre e Luci di Due Continenti, Mitano 1926.
- Giaccardi, Alberto, Died Anni Fascismo nelle Cotonie Italiane, Milano, 1934
- Gatlo, L., "Due Anni di Guerra Coloniale Fascista", Lo Stato Openaio. Novembre, 1929
- Giaccardi, Alberto. "Sintesi della Storiografia Coloniale italiana fino al 1 939", in Bibliografia dell'Italia d'Oltremare, Anno 1939. Roma, 1940.

- Giglio, Carlo, La Confratemita Senussita dalle sue Origini ad Oggo. Padova, 1932.
Gravelli, Asvero. Africa - Espansionismo e Revisionismo Roma, 1933
- Graziani Rodolfo "I Autobiografia di un Soldato d'Africa". Oltremare. IV, N 4, Aprile 1930.
- Graziani, Rodolfo, Cirenaica Pacificata, Milano 1932
- Guglielmo Nasi - Enrico de Agostini Ossatura Geograflca delta Cirenaica. La Guerriglia e t'Impiego delle Truppe in Cirenaica. Bengasi, 1931.
"I e Idee per l'Azione". L'Oltremare, I Novembre. 1927.
- Labriola, Antonio Tripoli, il Socialisino e l'Espansione Colomale, 1902.
- Lemon, ernest. La Politique Coloniale de l'Italie, Parigi, 1919.
- Leone. G., La Colonizzazione agraria della Tripolitania Settentrionale net Suo Primo Ventennio.
- Roma, 1933.
- Lischi. Dario, Viaggio di un Cronista Fascista in Cirenaica, Pisa, 1934.
- Malgeri, Franceesco, La Guerra Libica 1911 - 1912, Roma. 1970.
- Maltese, Paole, La Terre Promessa, Milano, 1968
- Malvezzi Aldobrandino, L'Italia e l'Islam in Libia, Firenze-Milano, 1913.
Mario dei Gaslini, Col. Gen.. Cantore alla Caccia del Gran Senusso, Milano, 1926.
Mangini, Armando, Le Pecore e le Lane dell'Africa Settentrionale, Biella, 1929
- Maurizio degl'Innocenti, Il Socialismo Italiano e la Guerra di Libia, Roma, 1976
Miège H., L'Imperialismo Colomale Italiano del 1870 ai Giorni Nostri, Milano, 1976.
- Mussolini, Arnaldo, La Lotta per la Produzione, Milano, 1937.
- Mussolini, Benito, Opera Omnia, Firenze, 1957.
"il Solito Ricatto", fl Popolo d'Itatia, 22 Marzo, 1919.
- Orano Paolo, Graziani Generale Scipionico, Roma, 1936
- Orsini, Paolo d'Agostino, l'Italia nella Politica Africana, Bologna, 1926
- Quilici, N., L'Enigma di Adua, Ferrara. 1932
- Pomilio, Marco, Apriamo to Scatolone di Sabbia, Roma, 1935
- Rainero, R., L'Anticolonialismo Italiano da Assab ad Adua, 1869 - 1896 Milano, 1971.
- Ralz, Odorico, Le Operazioni Libiche sul 29 0 Paralleto Nord, Roma, s.d.
- Renzo De Felice, "Amendola Ministro delle Colonie", in AA. VV Giovanni Amendola net Cinquantenario della Morte 1926 - 1976, Roma.
- Renzo De Felice, La Rinascita della Tripolitania - Memorie e studi sui quattro anni di governo del Conte Volpi di Misurata, Milano, 1926
Rochat, G., Il Colonialisino Italiano, Torino, 1973.
Rochat, G., "La repressione della Resistenza Araba in Cirenaica nd 1930 - 1931 nei documenti dell'Archivio Graziani", in Il Movimento di Liberazione in Italia,

Gennaio Marzo, 1973
Romano, R., La Storiografia Italiana d'Oggi, Milano, 1978
- Rosso, Giovanni Alessandro, I Diritti d'Italia Oltremare, Roma, 1916
- Sabetta Guido, Politica di Penetrazione in Africa - L'Islam e l'Italia, Roma 1913
- Salvemini, Gaetano, Mussolini Diplomatico, Bari, 1952
- Santarelli, Enzo, Storia del Movimento e del Regime Fascista, Roma, 1967.
- Santarelli, Enzo, "Omar al-Mukhtar Partigiano", L'Unita', 16 Settembre 1971
- Sarfatti, Margherita Tunisiaca, Milano Roma 1924
- Savioli, Arminio, " Storia di un Eroe Arabo e di Italiei "Cacciatori" L'Unita' 5 Agosto 1979.
Scaglione, Emilio, Primavera Italica La Guerra Italo-Turca, Napoli, 1913
Setaloja Vittorio, I Problemi dello Stato Italiani dopo la Guerra, Bologna, 1918
Segre', Claudio, L'Italia in Libia dall'Eta, Giolittiana a Gheddafi, Milano 1978
- De Stefani, A., "L'Impero", in Colpi di Maglio, Milano, 1928.
- Teruzzi, Attilio, Cirenaica Verde, Milano, 1931.
Webster, Richard A , L'Imperialismo Industriale Italiano 1908- 1915. Sudio sul prefascismo. Torino. 1974.
- Zigarelli. Italo, Il Risveglio dell'Islam, Milano. 1928.
Zoli, Corrado, Espansione Coloniale Italiana 1922 - 1937, Roma 1949.

L'"Esplorazione Commerciale"
Il Popolo d'Italia.
Storia Contemporanea.
La Tribuna Coloniale

الباب الثاني

قمع المقاومة في برقة
(1927 ـ 1931)

بقلم : جورجو روشا
Giorgio Rochat

الفصل الأول

مصادر هذه الدراسة وحدودها

إن الاستعمار الإيطالي ـ في فترة ما بين الحربين العالميتين ـ يشكل أحد المجالات الذي أهمل أكثر من غيره في كتابة التاريخ الإيطالي المعاصر، رغم اضطراد تطور الدراسات عن الحركة الفاشية، وأهمية عمليات الاحتلال في أفريقيا لدعاية النظام الدكتاتوري، وسياسة المهابة التي كان ينتهجها[1]، فالمعاهد واللجان والدارسون فصلوا، باختيار سياسي واضح، الاهتمام بحركة الاستعمار الإيطالي في القرن التاسع عشر، الأبعد عهدا ما والذي يكاد يكون منسيا في الوقت الذي كان عليهم أن يهتموا فيه بهذه القضايا ومحفوظات وزارة أفريقيا الإيطالية المنحلة (المودعة بقسم المحفوظات التاريخية لوزارة الشؤون الخارجية)، لا يسمح بمراجعتها إلا بقيود تكاد تكون مطلقة في الوقت الذي رأت فيه اللجنة الرسمية، المبالغ في إظهارها بهذه الصفة المشكلة لتوثيق العمل الإيطالي في ليبيا (في يناير 1952، وتضم أبرز الشخصيات في الأوساط الاستعمارية القديمة) أنه من الأفضل التقليل من تناول العهد الفاشي، وإظهار الأحداث والدراسات مقسمة حسب مختلف القطاعات في أبهى ثوب، والدفاع إلى أقصى الحدود عن الروايات الاعلامية التي كان يروجها النظام

[1] للحصول على معلومات حول المصادر، بصورة عامة، يراجع كارلوجيليو ـ الدراسات التاريخية الإيطالية عن أفريقيا، من سنة 1945 إلى 1967 ـ في (أ أ ـ ف ـ ـ) كتابة التاريخ الايطالي خلال العشرين سنة الأخيرة ـ وقائع المؤتمر الوطني الأول للعلوم التاريخية، مجلد (2) ـ ص ـ 1311 ـ 28 ـ ميلانو ـ مارزوراتي، 1970 ـ وجورجو روشا ـ العالم المعاصر ـ مجلد (1) ـ تاريخ إيطاليا ـ جزء أول ـ ص 17 ـ 20 فلورنزا ـ لانووفا ـ إيطاليا ـ 1978 ـ كما يراجع روجيرو رومانو ـ كتابة التاريخ الإيطالي، اليوم ـ روما ـ (اسبريسو) للكتب 1978.

الدكتاتوري[2] دون بذل أدنى جهد لنقد التاريخ الرسمي أو قصور التوثيق

ونتيجة هذا الاتجاه السياسي الثقافي هي أن الدراسات المتوفرة عن الاحتلال الإيطالي لليبيا (إذا استثنينا فترة الحرب مع تركيا 1911 ـ 1912 التي ما زالت تثير الهمم لتقديم مساهمة قيمة لا ترتبط بالاستعمار التقليدي)[3]، مصدرها في أغلب الأحيان أجهزة الدعاية الوطنية الفاشية في عقد الثلاثينات وفترة ما بعد الحرب[4]

---

[2] يكفي دليلا على ذلك ان نضرب مثلا بمجلدات المجموعة التاريخية العسكرية في سلسلة (إيطاليا في أفريقيا) الصادرة عن اللجنة المذكورة والتي تتناول العمليات (العسكرية وما تبعها) في ليبيا في فترة ما بين الحربين العالميتين، أي م سمبوادوغو فيتالي، (عمل الجيش) الجزء الأول (الأنظمة العسكرية والتجنيد) روما، مطبعة الدولة 1960 والجزء الثالث ـ الأحداث العسكرية والتوطيف في افريقيا الشمالية، 1964 ـ فيتشنزو لوي، نشاط سلاح الطيران، الجزء الأول ايريتريا ـ ليبيا، من نفس السلسلة وتبرز هذه المؤلفات العمل الإيطالي جملة وتفصيلا، بالسير على نفس طريق الدعاية الفاشيستية دون إبداء تحفظات ذات بال، ولم تستفد اللجنة إلا بالقليل من الوثائق التي سحبها فتقدم إعادة سرد للأحداث بطريقة مفصلة أحيانا (خاصة في مؤلف لوي) ولكنها مخيبة للأمل ولا يعتد بها في الغالب.

[3] راجع باولو مالتيزي ـ أرض الميعاد ـ الحرب الإيطالية التركية، 1911 ميلانو ، سوقار، 1968، وفرانشيسكو مالجيري ـ الحرب الليبية 1911 ـ 12 ـ روما، نشر الأعمال التاريخية والأدبية ـ 1970 وسيرجو رومانو ـ الساحل الرابع، حرب ليبيا 1911 ـ 1912 ميلانو ـ بومبياني 1977

[4] نذكر بالخصوص رودلفو قراتسياني، إعادة السلام إلى برقة ـ ميلانو، موندادوري 1933 (ونشر معظم ما جاء فيه في كتابه الآخر، السلم الروماني في ليبيا، ذات دار النشر 1937 وليبيا المحررة، نابولي، توريلا 1948 ـ وايلو تيروتسي، برقة الخضراء ـ سنتان في الحكم ـ (ديسمبر 1926 ـ يناير 1929) بمقدمة لموسوليني، ميلانو، موندادوري ـ 1931 أونوريو ميتزلي ـ الحرب في ليبيا، تجارب وذكريات، كريمو نيزي ـ روما ـ 1933 ـ كارلو جيليو ـ الطائفة السنوسية منذ نشأتها وحتى اليوم، تقديم ر قراتزياني بادوا، شيدام 1932، أغوستينو فنتي، تاريخ المستعمرات الإيطالية ـ توريتو، اسكيوبو 1934، المدى النسبي الايطالي، ليبيا ، ميلانو 1937، رفائيلي اتشاسكا، التاريخ الاستعماري لإيطاليا المعاصرة، ميلانو هيبلي، 1938 (الطبعة الثانية 1940) اليساندرو اوريلو، سياسة إيطاليا في ليبيا، روما، لاربي 1939، ايمليو كانيفاري، الحرب الإيطالية، ما وراء الهزيمة، روما، توري 1948، اتريكو دي لنوبي، استعمار شمال أفريقيا، بادوا، شيدام 1960، فرانشيسكو فالوري، تاريخ برقة، فلورنزا، سانوني 1961.

وحتى من بين أفضل الدراسات يظهر عدم تفهم كامل للمجتمع الليبي، وأحيانا احتقار سافر له ولمقاومته الطويلة للاحتلال الإيطالي فهي بالتالي تطوع المصادر الوثائقية لمتطلبات الدعاية، ونذكر من بين الدراسات التي لا ترتبط بهذا المخطط كتاب (ايفانس بريتشارد) Evans Prichard الممتاز ومعظم مؤلفات (مييج)، و(روشا) وأعمال (سيقري) عن الاستعمار الإيطالي[5]. الذي يتناول فيها سيرة حياة بعض الشخصيات التي ساهمت في تطور الأحداث.

ثم إن أول دراسة تخصصية حول عمليات القمع في برقة، وهي مقالة نشرت في عام 1973 كانت منقولة أساسا عن أوراق محفوظات قراتزياني الشخصية، التي بحكم أنها كانت مودعة ضمن المحفوظات المركزية للدولة في روما، لمراجعة الباحثين المستقلين سهلت علينا الاستفادة منها في الوقت الذي فيه مراجعة محفوظات وزارة أفريقيا الإيطالية المنحلة مفتوحة فقط لمراجعة الدارسين المرتبطين بالأوساط الاستعمارية القديمة[6]

[5] أ ايفانس بريتشرد، سنوسيو برقه، اوكسفورد، مطبعة كلاردن 1948 (في الترجمة الإيطالية الاستعمار والمقاومة الدينية في افريقيا الشمالية ـ السنوسيون في برقة ـ بمقدمة بقلم فيتوريو لانتيرناري، كاتانيا، نشرات (بريرم) 1979 ـ ح ل مييج، الامبريالية الإيطالية من سنة 1870 إلى يومنا هذا، باريس سيد، 1968، (الترجمة الإيطالية، ميلانو، ريزولي (1976)، جورجو روشا، الاستعمار الإيطالي، تورينو، لشجر 1973 ـ كلاوديو سيغري ـ الساحل الرابع الاستعمار الإيطالي في ليبيا، شيكاغو، مطابع جامعة شيكاغو 1974، (بالإنجليزية ـ الترجمة الإيطالية، إيطاليا في ليبيا من عهد جوليتي إلى القذافي، مقدمة) روشا، ميلانو، فلترينيلي، 1978).
بيرو بييري وجورجو روشا، (بييترو بادوليو) تورينو، أوتيت 1974، سرجو رومانو ـ جوسيبي فولبي، ميلانو بومبياني 1979 ـ وتجدر الاشاره هنا، بصوره خاصة إلى المقالات في (الدولة العمالية) بقلم لويجي لونغو، بعنوان (عامان من الحرب الاستعمارية الفاشية)، 1929 عدد (11) ص ـ 678 ـ 83، وبحث ايجيديو جاري (في سبيل ضمير استعماري بروليتاري) 1935 ـ عدد 1 و 3 ـ ص 24 ـ 33 جـ ـ 205 ـ 9، وهي مقالات تشهد على الوضوح الذي كانت الحركة الشيوعية المناهضة للفاشية تدين به الاستعمار الإيطالي والمذابح التي اقترفها.

[6] جورجو روشا قمع المقاومة العربية في برقة في 1930/ 31 ـ في محفوظات قراتزياني (حركة التحرير في إيطاليا) 1973 ـ عدد 110 ـ ص 30 ـ 39 (ومن هنا فصاعدا سيشار إلى هذا المصدر

وفي السنوات الأخيرة أخذت تيسر أكثر فأكثر مراجعة المحفوظات الوزارية وبحثنا هذا يختلف فعلا عن مقالنا لسنة 1973 (رغم أنه يقتبس منها الكثير وينقل حرفيا بعض استنتاجاتها) لأنه يعتمد على ثلاثة محفوظات مختلفة. فضلا عن المراجع التي سبق ذكرها. ونذكر منها في المقام الأول المحفوظات الشخصية للجنرال قراتزياني السالفة الذكر، التي تتألف من محافظ من الوثائق التي إختارها الجنرال شخصيا وتبين بالخصوص حرصه على الحث للاعتراف له بالفضل الأول في تدمير المقاومة في برقة وفقا للخطة التي سبق ان سطرها في كتابه (إعادة السلام إلى برقة)[7] وفي المقام الثاني نذكر محفوظات (الكتب التاريخية للجيش)الذي أتيحت لنا الفرصة لمراجعة القسم الخاص منه بليبيا Fondo Libia بدون قيود.

وهذه محفوظات منظمة ومرتبة بصورة مثلى، تزخر بالمعلومات والوثائق المتعلقة بفترة الحرب بين ايطاليا وتركيا (1911 ـ 1912) التي عهد بمسؤوليتها الكاملة إلى قيادة الجيش العليا، وقلت مصادرها بالنسبة إلى السنوات اللاحقة، عندما تولت وزارة المستعمرات الإشراف على سير العمليات ولكنها لا تخلو من الفائدة، لأن الأركان العامة كانت تبلغ بالجوانب العسكرية من حملات القمع[8] ونشير أخيرا إلى محفوظات وزارة أفريقيا الإيطالية المنحلة، المودعة حاليا بوزارة الخارجية، والتي من المفروض أنها تشكل أهم مصدر لكل بحث عن تاريخ الحركة الاستعمارية

باسم (روشا) دون تفاصيل إضافية.

(7) سنشير، فيما بعد إلى قسم (محفوظات قراتزياني (بالمحفوظات المركزية) بعبارة م م / م قراتزياني) يليه رقمان او ثلاثة، يعني المحفظة والملف او الملف الفرعي (ان وجد) ـ ويكشف ملفات امانة سر موسوليني بعض الفوائد، وهي مودعة بالمحفوظات المركزية للدولة وسنشير اليها، من الآن فصاعدا ـ (م م د) (راجع ايضا ملفات المراسلات الخاصة)، مقرونة برقم الملف ـ (وفي العربية نوضحها بحروف أخرى).

(8) من الآن فصاعدا سنشير الى (ملف ليبيا) بمحفوظات المكتب التاريخي للجيش بالرمز (م ت ج / م ب) الذي يتبعه رقمان، يرمز اولهما الى المحفظة والثاني الى الملف ونتهز هذه الفرصة لنعرب عن شكرنا للجنرال رينالدو كروكو، رئيس المكتب التاريخي ومساعديه الذين سهلوا علينا القيام بأبحاثنا بكل الطرق (سيشار إليها في هذه الترجمة برموز أوضح (المعرب).

الإيطالية، كانت تحتل المرتبة الثالثة بين مراجع دراستنا غير أن هذه المحفوظات أصبحت مع الأسف أقل أهمية، لأن لجنة الوثائق لعمل إيطاليا في أفريقيا (رغم أنها كانت تضم مؤرخين فطاحل، من أمثال (تشاسكا) وجيليو وتوسكانو، كانت قد سمحت في الخمسينيات لمن كلفتهم بإعداد أجزاء من مجموعتها التاريخية بسحب أهم الأوراق ونقلها إلى بيوتهم، مخالفة بذلك القواعد المرعية في الحفاظ على المصادر الوثائقية، ولذلك فإن الحافظات التي فتحت في السنوات الأخيرة (أمام الباحثين المستقلين) تبين أنها أفرغت من لبها باختفاء الوثائق التي هي أخطر شأنا، على ما يبدو، دون أن يستفاد منها في إعداد كتب مجموعة (إيطاليا في أفريقيا)[9]، وحتى عندما أعيدت هذه الوثائق إلى المحفوظات لم يكن من المستطاع إرجاعها إلى حافظتها الأصلية، وبالتالي من وضعها تحت تصرف الباحثين[10]. وهذه المخالفة للإجراءات التي ارتكبتها اللجنة لا تسمح بتقدير الضرر الذي ألحق بالمحفوظات والتحريات التي أجريناها، والمقارنة بمحفوظات أخرى تركت لدينا الانطباع بأن سحب هذه الوثائق بفضل غزارة المجموعات الوثائقية ورغم قلة دراية (خبراء) اللجنة المذكورة، قد أنقص من قيمة المحفوظات في جملتها دون أن يقضي عليها إذ اقتصر الضرر على النيل من كمالها وليس من خطورة الوثائق التي ما زالت محفوظة[11]

---

[9] يكفي دليلا على ذلك (فتالي) حول أحداث الحبش، التي سحبت لتأليفها (استنادا إلى ما يمكن استنباطه من الثغرات في المحافظة المتوفرة اليوم) مجموعات ضخمة من الوثائق لم تستفد منها في الواقع إلا بالنزر اليسير.

[10] وسلوك اللجنة الذي لا يتميز ببعد النظر، زاد من خطورته رفض وزارة الشؤون الخارجية، الموصية على محفوظات وزارة أفريقيا الإيطالية المنحلة، توفير الوسائل المادية والبشرية المناسبة ونود أن نعرب عن شكرنا للدكتور ماريو قدريني الذي لم يبخل بجهده في وضع الوثائق المسحوبة من اللجنة تحت تصرفنا، حتى لو لم يتمكن، رغم ما له من كفاءة عالية، من العثور على الوثائق التي سحبها فيتالي.

[11] سنشير إلى هذه المحفوظات برمز (م و أ ا) مردفة بثلاثة أرقام تعني الرقم الأول ترتيبها، والثاني الحافظة والثالث الملف، وكان علينا أن نذكر أيضا، كمصدر رابع، محفوظات وزارة الخارجية التي تعتبر ثانوية ولكننا لا نستشهد بها، بالنسبة إلى بحثنا وبعد عشرات السنين من إغلاقها في وجه الباحثين من المؤرخين المستقلين، فتحت أخيرا على مصراعيها (مع محفوظات وزارة أفريقيا

وأخيرا لا بد من الأخذ في الاعتبار أن الحيز المخصّص لبرقة في جميع المحفوظات التي راجعناها أضيق بكثير من الحيز المخصص لقطر طرابلس، التي كان قد ركز عليها الاهتمام طوال سنوات عقد العشرينات. وإن الجواب الأكثر وضوحا للقمع الإيطالي قد جرى بشأنها نقد ذاتي جماعي، تدلنا على ذلك قلة الوثائق المحتفظ بها والمتعلقة بميادين الاعتقال التي شرع في إقامتها في عام 1930 وحشر بداخلها أهالي الجبل الأخضر.

لذلك فإن سردنا للأحداث لا يمكن اعتباره نهائيا، رغم أنه ثمرة أوفر بحثا وأكثر إستنادا إلى الوثائق أجرى حتى الآن. وسنكتفي - لأسباب ناشئة عن ضيق الحيز ووفرة المصادر - بدراسة وتحليل العمليات العسكرية التي قامت بها القوات الإيطالية على الجبل الأخضر خلال الفترة ما بين 1927 و 1931 وكذلك نعرض العمليات في قطر طرابلس وعمليات احتلال الأراضي شبه الصحراوية، الواقعة إلى الجنوب من الجبل (أي ما يسمى بعمليات خط العرض 29). ولذات الأسباب تركنا جانبا تحليل الجذور العميقة للمقاومة وأيضا الأحداث الداخلية لقبائل برقة.

هذا وقد أثارت كتابة الأسماء العربية بالحروف اللاتينية بعض المشاكل التي تغلبنا عليها بإتباع القواعد المعمول بها حاليا بشأن أسماء المواقع والقبائل، وبذلك تستقيم الكتابة وتتوحد بالنسبة لما نقلناه عن المصادر الوثائقية.

وننشر كملحق جدولا بكيفية كتابة الأسماء العربية في تلك الحقبة من الزمن وما هو متبع حالياً، وذلك بالنسبة إلى الأسماء المتكررة.

الإيطالية المحلية السالف ذكرها) أمامهم ولكن بأوضاع تبدو أنها مدبرة لإحباط همة المنهمكين عليها، كما أنه يجدر بنا أن نذكر منها عدم وجود آلات التقاط الصور وقلة عدد الكراسي والمقاعد، مما يضطر المكلفين بها - القليلي العدد جدا - إلى منع المراجعة على باحثين قدموا من بعيد لهذا الغرض (كما حدث لنا شخصيا) ففتح هذه المحفوظات التي على مثل هذه الدرجة من الخطورة محدود جدا في واقع الأمر بسبب انعدام أبسط الوسائل والتسهيلات حتى أننا اضطررنا إلى التخلي عن مراجعتها.

الفصل الثاني

العمليات فوق الجبل إلى سنة 1928

(1) عمليات 1923 ـ 1926 :

منذ أوائل عام 1923م، كان ينظم العلاقات بين الحكومة الإيطالية والطائفة السنوسية نوع من الحل الوسط، تم إقراره رسميا باتفاقيات عكرمة والرجمة وبومريم، التي كانت تترك لإيطاليا (كما كان في العهد التركي) الموانئ والسهول الضيقة المتاخمة لها، وللسنوسيين ما وراء ذلك (المناطق غير الساحلية). وبقيام سلطة الفاشست انقلب هذا الوضع رأسا على عقب: في 6 مارس 1923 شن الجنرال (بونجوفاني) (Bongiovanni) والي برقة الجديد، هجوما مفاجئاً على القوات (المجاهدين)، مستهلاً بذلك سلسلة عمليات احتلال لبرقة[12] وكان قوام القوات التي تحت تصرف الوالي الجديد يتألف من أربع كتائب اريترية وكتيبتين ليبيتين، تبلغ في مجموعها ما بين 8000 و 8500 جندي مشاة، بالإضافة إلى سريتي (صواري) (جنود فرسان من الليبيين، بالزي العسكري النظامي ـ المعرّب)، وبطاريتي مدفعية محمولة على البغال وسريتي مدفعية لحماية الحصون وسربين طائرات تتألف من 4 قذفات قنابل من نوع (كابروني ـ كا 30) و8 طائرات استطلاع من نوع (سفا) وأخيرا تشكيلة شاحنات موزعة على 12 كوكبة.

---

[12] في الواقع كانت الدعاية الفاشية تتحدث عن (إعادة إحتلال برقة) إلا أن هذه العبارة كان لها أساس ما بالنسبة إلى طرابلس، حيث كانت القوات الإيطالية خلال عامي 1913/ 14 قد تمكنت من الوصول إلى فزان واحتلاله، ولكنها لا تنطبق على برقة التي ظلت مناطق الدواخل فيها خارج السيطرة الإيطالية

وكانت القوات المقاومة تضم حوالي 2000 جندي نظامي مرابطين فيما كان يسمى (بالمعسكرات المشتركة أو المختلطة) وما بين 3500 و 4000 مقاتل غير نظامي من قبائل الجبل[13].

سجل هجوم بونجوفاني بعض الانتصارات غير الحاسمة في البداية، كحل المعسكرات المشتركة واحتلال اجدابيا مؤقتا[14] وما أن حل شهر يونية حتى تمكنت القوات الإيطالية من السيطرة على الجزء من الجبل القريب من المرج حيث جرت أولى عمليات الاستسلام الجماعي (حوالي 2000 نسمة) إلا أنها منيت بهزائم واضحة لا غبار عليها في اشتباكين مع قبيلة (المغاربة) بمنطقة سرت، خسرت فيهما 13 ضابطا و 40 جندياً إيطالياً و 279 (عسكرياً)[1] ـ [15].

وأخذت تظهر خلال السنة علامات واضحة على انقسام برقة إلى شطرين فكانت إيطاليا تسيطر على القبائل الأقل ترحالا والمخيمة في مشارف المدن (العواقير، والعرفة والحاسة وقسم من الدرسة والعبيدات) فيما كانت سيطرة المقاومة واضحة على قبائل

---

[13] هذه البيانات الدليلة مصدرها تقرير مطبوع على الآلة الكاتبة، بعنوان (عشر سنوات من تاريخ برقة) أعده الضابط كليمنتي ميتسو Clemente Menzio بتكليف من قيادة القوات المسلحة الملكية في برقة، ويتألف من حوالي 200 صفحة (فولسكاب) يحمل تاريخ 1931/12/25 ومودع في (م م / م فرانشي ـ 3 ـ 5) وسنشير إليه فيما بعد بالعنوان فقط ونفس هذه البيانات نقلها برنشارد، المرجع المذكور ص 150 دون ذكر مصدرها (ربما عن تقرير منزيو ذاته) رغم استفادته منه على نطاق واسع في السنوات اللاحقة، وعلينا أن نؤكد أن جميع الأرقام التي يذكرها عن عدادات الإيطالية حول القوات (المجاهدين) وكذلك خسائرها، لا توجد على علاقة بالصراحة المبالغ فيها وأن الكتائب الاريترية والليبية كانت تتألف كل منها في حدود 750 رجلا، كانت تتألف من مجموعين جندوا في سرت (مع اشتراك عدد لا بأس به من الرعايا الأثيوبيين) وفي برقة، على هذا الترتيب، وكان يتولى شؤونهم ضباط إيطاليون.

[14] كانت الخسائر في صفوف المقاومة رغم المذبحة محدودة 12 قتيلا و 168 أسيرا و 198 بندقية، وهذا معناه أن جميع المنسحبين تقريبا تمكنوا من الإفلات (عشر سنوات من تاريخ برقة)

[1] كان الإيطاليون يطلقون على المجندين المحليين والاريتريين اسم (اسكاري) ومفردها Ascaro تمييزا لهم عن الجنود الإيطاليين

[15] عشر سنوات من تاريخ برقة

الجبل والمناطق الجنوبية شبه صحراوية (مغاربة، عواقير، براعصة، عبيد فايد وقسم من الدرسة والعبيدات)[16] إلا أنه من الصعب تثبيت هذا الانقسام على الطبيعة لأن المقاومة كانت تمد سيطرتها ونفوذها حتى على الأهالي المستسلمين رسميا

استأنفت القوات الإيطالية هجومها على الجبل في ربيع عام 1924 من خلال سلسلة من العمليات تلقى ضرباتها الأهالي بالخصوص دون أن تمنى (أدوار) عمر المختار بهزائم بمعناها (وقد قتل على حد ما تذكره الإحصائيات الإيطالية 600 شخص و 25000 رأس من الماشية، ولم يتم الاستيلاء إلا على 96 بندقية) ولترسيخ الاحتلال الإيطالي أقيمت سلسلة جديدة من التحصينات الثابتة التي لم تشكل في واقع الأمر عائقاً جدياً في وجه تحركات المقاومة.

وفي ربيع عام 1925، وجهت الهجمات الإيطالية أساسا نحو سفوح الجبل الجنوبية وأسفرت في مجموعها عن قتل 250 رجلا و 5000 رأس من الإبل وما يزيد على 10000 رأس من البقر، إلا أن غنم 50 بندقية فقط في الميدان يبرر الاقتناع بأن القوات الإيطالية كانت قد عرضت الأهالي للبطش بصورة أفظع بكثير مما حدث بعد الاشتباك مع أدوار عمر المختار هذا، وشاهد عام 1926 احتلال واحات الجغبوب (وهي عملية تدل على اكتساب القيادة والقوات الإيطالية مزيدا من الخبرة والدراية بأساليب القتال والمناورة في المناطق الصحراوية بالإضافة إلى استخدام العتاد والوسائل الحديثة (الطائرات واللاسلكي والآليات الخ)، والقيام بسلسلة من عمليات التطهير على الجبل، أفقد قوات المقاومة 500 رجل و 100 جواد و 2300 جمل وما يزيد على 30.000 رأس من الغنم (والمصدر دائما الإحصائيات الرسمية الإيطالية) فيما كانت الخسائر في الجانب الايطالي قتل 3 ضباط و25 جنديا إيطاليا و24 عسكرياً[17].

لقد فقدت قبائل الجبل خلال 4 سنوات من الحرب حوالي 1500 من رجالها،

[16] إيفانس ـ بريتشارد ـ المصدر المذكور ـ صفحة: 159 ـ 160

[17] جميع هذه الأرقام مقتبسة عن تقرير (عشر سنوات من تاريخ برقة) أما (دور) وجمعها (ادوار) فتعني تشكيلات مسلّحي المقاومة، قوام كل دور، عادة بضع مئات من الرجال.

ومن 90 إلى 100 ألف رأس من الماشية على حد ما تذكره المصادر الإيطالية، إلا أنها احتفظت مع ذلك بالسيطرة على معظم المرتفعات والمناطق شبه الصحراوية التي وراءها فضلاً عما اكتسبته من خبرة وبراعة في أساليب القتال وهو ما برهنت عليه في 28 مارس 1927م عندما نصبت كمينا بالقرب من الرحيبة للكتيبة الليبية السابعة، التي كان قوامها 750 رجلا واكتسحتها بعد أن قتلت 300 من رجالها ولقد وفق الجنرال ميتزيتّي في وصف الوضع، حيث قال:

«لقد حققت المقاومة نصراً عسكريا كبيرا على قواتنا في شهر مارس كانت قواتهم تتألف من ثلاث (محلات) (المحلة الدور) صخمة، قوامها في المجموع 1200 مقاتل، راجلين، و 400 فارس ظلوا متمركزين في قلب الجبل الأخضر ومتصلين بعضهم ببعض على خط ملاصق تقريبا لخطنا في (كولان ـ الجراري (أي خط الإيطاليين)، وبالنظر إلى أن المنطقة المحيطة به لم تكن ـ وليس لها حتى الآن في الواقع إلا وظيفة تافهة حيث أن خط مرابطتنا كان يمر بالمرج (ببطحانها وليس بمنطقة جرفها) ويستند على الأبيار.

ووراء خط مواقعهم المتقدمة، المكونة من محافر صغيرة يحرسها نفر قليل تحت حماية تشكيلات المسلحين الصخمة، كان أفراد المقاومة يقيمون في الخيم مع عائلاتهم وقطعانهم التي لا يستهان بها من الغنم والإبل والبقر ويواصلون أعمالهم المألوفة من حرث وزرع وحصاد مستندين بإطمئنان. من ناحية الشمال على مصادر المياه التي تتبع أطراف خط احتلالنا، وإلى الجنوب على خط المياه الذي يتبع خط (الزوايا) على وجه التقريب.

وما كان أدهى من ذلك وأمر، هو إن قيادة المقاومة كانت قد جعلت من منطقة الكوف والشريط الساحلي بين طلمينة والحنية، قاعدة مستودعات تموينها ومراعي ماشيتها وأماكن لمعالجة جرحاها. وأحد أنشط مراكز جباية الأعشار وخط المخافر (قرهقول)(*) القائمة فوق الجبل وتمر ببئر قندولة والسيرة وقصر بني قديم كان يكسر إحتلالنا إلى شطرين وفي ذات الوقت يربط بين (المحلات) على الساحل، وكان قوام

(*) وحدات تابعة للأدوار تراقب حركات الإيطاليين ـ وهي كلمة تركية ـ على ما يبدو تعني دوريات

المسلحين الرابضين بالمحافر المذكورة وفي الكوف حوالي 2000 رجل منتظمين في تشكيلات نشطة ومتحفزة للقتال.

وكان رجال المقاومة يعتبرون منطقة الكوف آمنة، لأن القوات الإيطالية لم يسبق لها أن مدت عملياتها إلى ما وراء القلاع، أو بعبارة أوضح إلى ما وراء جرف الجبل الأخضر الذي ينحدر بلطف من الكوف إلى الساحل، وبالنسبة إلى المناطق الأخرى يعتبرون أنفسهم في مأمن من واقع علمهم، الناشئ عن تجاربهم السابقة، إن زحف القوات الإيطالية بسبب عدم تنظيم المناطق لخدمة متطلبات الإمداد والتموين لا يمتد عادة إلى أكثر من مسافة مسيرة يوم ونصف.

وكان نظام أمنهم مبنيا على أساس ضمان خط الرجعة الذي يمكنهم من فك الاشتباك والافلات من الهجمات الكبيرة في الوقت المناسب، وفعلا كانت قواتنا قلما تتمكن منهم بل كانت تكتفي بأسر المتخلف عن ركب القوافل وغنم بضعة رؤوس من الماشية عندما تقترب بدون حذر من خطوطنا[18]

(2) الهجوم الإيطالي في صيف 1927 :

إن جوهر اخفاق العمليات العسكرية لاحتلال برقة، كان يكتسي مغزى أخطر بسبب الانتصارات التي كانت تحققها القوات الإيطالية في قطر طرابلس في ذات الفترة مستغلة عجز قبائل الرحّل عن التغلب على خلافاتهم التقليدية وتلاحمهم في جبهة دفاع واحدة.

[18] من الجنرال اوتورينو ميتزيتي (Ottorino Mezzetti) قائد القوات الحكومية في برقة، إلى الحكومة - أول ديسمبر 1928 - هذا ما جاء في تقرير ضخم (محفوظ بالمكتب التاريخي - ملف ليبيا - تحت رقم 6/175)، ضمنه ميتزيتي كشف حساب سنتي قيادته، دفاعا عن سلوكه العسكري والسياسي على إنه ينبغي ألا نغيب عن البال إن هذا التقرير شأنه شأن تقارير بادوليو وقراتزياني اللاحقة، يميل إلى الاشادة بنشاط واضعه ومن ثم فإنه يحرص على ابراز جوانب الوضع السلبية في بداية توليه القيادة وجميع الجوانب الايجابية عند تسليم الدور، مع التمسك بالمصالح الإيطالية، بطبيعة الحال (المحلة) اسم آخر يستعمل للدلالة على التشكيلات المسلحة العربية (إلا أن العبارة الأكثر شيوعا في الجبل هي «الدور»).

في نوفمبر 1926 حل محل الجنرال مومبيلي (Mombelli) الذي كان قد خلف بونجوفاني كوال على برقة في مايو 1924، آتيليو تيروتزي (A. Teruzzi) وهو عنصر كان يحتل مكانة مرموقة في صفوف الحزب الفاشي. وبعد تعيينه بفترة وجيزة عين مساعدا له كقائد لقوات برقة الجنرال أوتوريبو ميتزيتي (O. Mezzeti) الذي كان يحتل المرتبة الثانية في قيادة عمليات قطر طرابلس (بعد قراتزياني)وأول هدف حدد لهما ضمان السيطرة على الجبل الذي كانت لديهما قوات متحركة ضخمة لتحقيقه. 9 كتائب ايريترية، أربع سرايا فرسان ليبيين (صواري)، سرية هجانة (راكبوا المهاري) وكوكبة من السيارات المصفّحة وعصابات متعددة من المجندين غير النظاميين (ما يربو على العشرة آلاف رجل في المجموع بخلاف القوات المرابطة بالمدن وفي المناطق التي استتب فيها السلام، وكان معهودا بها إلى جنود إيطاليين)، بالإضافة إلى حوالي عشرين طائرة وإلى الجانب الآخر كان لدى المقاومة (أدوار) العبيد والبراعصة والحاسة ـ عبيدات المصوبة تحت لواء عمر المختار والمتمركزة بوادي سمالوس، والتي كان قوامها 1500 رجل (400 منهم على صهوات الجياد و350 من مقاتلي الدرسة بمنطقة الكوف[19] هذا ويمكن الاطلاع على تعاقب الأحداث ببعض التفاصيل من وجهة النظر الإيطالية من خلال أوراق ميتزيتي السابقة الإشارة إليها.

ونحن يهمنا أن نبرز في المقام الأول القدرة المتزايدة على القتال التي اكتسبتها القوات الإيطالية بفضل استخدام الطائرات واللاسلكي، إذ استطاع ميتزيتي أن ينسق عملية اشتركت فيها عدة فيالق (كتائب ايريترية وليبية على الجبل، وسرايا المهاري

[19] راجع: قيادة قوات برقة (الجنرال أ.ميتزيتي):العمليات الصيفية فوق جبل برقة ـ 8 برقة ـ 13 سبتمبر 1927 ـ تقرير محمل في ملف مطبوع، من 50 صفحة بدون تاريخ (ولكن لا بد أن يكون تاريخه خريف 1927) مودع بمحفوظات المكتب التاريخي للجيش ـ ملف ليبيا ـ رقم 5/156، ونقل عنه باسهاب ميتزيتي في مؤلفه المذكور ص 55 أو ما بعدها ـ راجع أيضا لبوي المرجع المذكور ـ ص ـ 116 إلى 120 ولربط أحداث سنتي 1927/28 ، تعد مؤلفات تيروتزي وميتزيتي المذكورة اساسية مع الملاحظة أنهما يكشفان بقصد اعزاء الفضل الأكبر في الانتصارات التي حققها قراتزياني في 1930/31 إلى نفسيهما، لذلك فإن مدى الثقة في مؤلفاتهما محدود بسبب اعتزازهما والاشادة بعملهما ونفس القول ينطبق على قراتزياني.

وكوكبات الشاحنات والسيارات المصفّحة، بالمنطقة الجنوبية الشبه صحراوية) وكان مع كل فيلق احتياطي من الماء يكفي لخمسة أيام ومؤن لمدة سبعة أيام، وهذا التفوق الكاسح في الوحدات السريعة الحركة، مضافة عليها سرعة اتخاذ القرار باستخدامها ووجود الطائرات واشتراكها النشط، كانت كلها علامات واضحة على تحول جذري في تنفيذ العمليات. وأدوار عمر المختار التي قبلت التحدي وخاضت المعركة، تقهقرت وتشتت شملها، فتم اقتحام معقل وادي الكوف الحصين والاستيلاء عليه بخسائر طفيفة نسبيا، فيما ظلت تجوب أرجاء الجبل دون توقف في الفترة ما بين يولية وسبتمبر وحدات ميتريتي السريعة الحركة لتطهيرها من جيوب المقاومة، فكانت خسائر المقاومة فادحة 1300 قتيل و 250 أسيرا من النساء والأطفال[20] وقتل 3000 رأس من الإبل والاستيلاء على 850 وقتل 5000 رأس من الغنم والاستيلاء على 18000 منها حية، ومع ذلك لم تستول القوات الإيطالية إلا على 269 بندقية و 26 فرسا ويعني ذلك أن جماعات مقاتلي عمر المختار الرئيسية (وهذا هو العنصر الثاني في الموضوع، الذي لا بد من إبرازه) نجحت دائما في الافلات وأن أكبر الضربات كانت تنزل على رؤوس الأهالي العزل[21]، وأدى تزايد فعالية القوات

---

[20] في الحرب فوق الجبل كان من النادر القبض على أسرى (وتأسير النساء والأطفال كان أيضا نادرا) لأن المحاربين في الجانب الايطالي وأفراد المقاومة على السواء لم يتركوا مجالا للاستسلام في خضم المعركة إلا في حالات نادرة إما للقبض على زعيم له مكانه خاصة وأما عند الاستسلام الجماعي

[21] يلاحظ ميتريتي ان أكبر الخسائر في صفوف المقاومة لم تكن تحدث أثناء الاشتباكات بل أثناء محاولات الهروب والافلات من التطويق من قبل القوات الإيطالية المتفوقة عليهم عددا وعتادا ابان عمليات صيف 1927 كانت المرة الوحيدة التي صمدت فيها المقاومة في دفاع مستميت عن موقعهم الهام بوادي الكوف فقدوا 150 من الـ 350 مقاتلا الذين اشتركوا في المقاومة و 150 بندقية، ولكنهم كبدوا في ذات الوقت الإيطاليين أفدح ما حل بهم من خسائر في هذه الحملة قتل ضابط واحد و 35 عسكريا وكان مجموع عدد القتلى في معارك فصل الصيف ضابطين وخمسة طيارين إيطاليين و 61 (عسكريا) وأصبحت القوات الإيطالية المتحركة تتألف من (عسكريين) ابريتريين، ومن برقة، بقيادة ضباط ليبيين، فيما اقتصرت مهمة الجنود الإيطاليين، كقاعدة على المدفعية والطيران وكوكبات الشاحنات والمصفحات التي كانت تتطلب درايه

الإيطالية إلى ازاحة التجمعات الضخمة لرحال المقاومة المسلحين والقادرين على شن الهجوم على نطاق واسع من الميدان، ولكنه لم يؤثر على رسوخ قاعدتهم الشعبية وبالتالي على قوة أو حيوية حرب المقاومة[22].

في تقريره الختامي عن عمليات صيف 1927، أعرب الجنرال ميتزيتي رغم إعلانه عن اخماد الثورة على الجبل عن عدم تقليله من خطر احتمال اشتعالها من جديد. وننقل فيما يلي ما خرج من استنتاجات على الصعيدين العسكري والسياسي تدل على وضوح الرؤية في التحليل الذي أجراه وعمقه، حيث أنه أدرك أن نقاط القوة الكامنة في حركة المقاومة في برقة تستند إلى تضامن المستسلمين مع المقاومة وإلى قدرة زعامة المقاومة على البقاء على هيمنتها وإن القيود المفروضة على القمع إنما نشأت عن ضرورة تمرير الرسالة الحضارية الجديدة بأمة ترنو إلى إقامة إمبراطورية على إيطاليا الفاشستية آداؤها، الأمر الذي يجعل من المستحيل الاعتراف بالقاعدة الشعبية (المقاومة) وبنبل نضال أهالي الجبل في سبيل تأكيد استقلالهم الوطني، وكان يستتبع ذلك التزام ميتريتي وغيره من دعاة الاستعمار الإيطالي بإبداء حجج هي إلى الهلوسة أقرب لتفسير الروح القتالية المتأصلة في سكان ليبيا بتأويلات عنصرية بغيضة. بعد الانتصار في عمليات الصيف فوق الجبل أخمدت حركة التمرد، إلا أن بعض الظروف السائدة في وضع المستعمرة والعبر المستفادة من التجارب السابقة والراهنة تدعونا إلى التأمل، ولا تسمح لنا بالتوقف وقبول الواقع على علاته، فالثورة متأصلة وراسخة على هذه الأرض وتضرب جذورها في عمق العصور البالية، بشهادة الكتاب اللاتينيين الذين كانوا يصفون القبائل الليبية الأصلية بأنها تتكون من قطاع الطرق المتمردين على النظام الذين لا يكبح جماحهم أي قانون. والوثائق المقتضبة التي تتعرض لوصف الحصون والقلاع اليونانية والرومانية والبيزنطية التي ما زالت أطلالها منتشرة حتى اليوم

وخبرة معينة يراجع بهذا الصدد (قيادة قوات برقه) عمليات الصيف فوق الجبل ـ المصدر المصدر المذكور.

[22] للحصول على المزيد من المعلومات بهذا الصدد يراجع المصدر السابق (قيادة قوات برقه) وميتزيتي ـ ذات المرجع وكتاب تيروتزي السابق الاشارة إليهما.

على طول البلاد وعرضها ما هي إلا شواهد على الجهود المضنية التي كانت تبذل في سبيل إخضاع تلك القبائل أضف إلى ذلك الحملات الأقرب عهدا من حملات تركيا وحملاتنا التي تبرهن على أن السيطرة على هؤلاء القوم وإخضاعهم للنظام وسيادة القانون، كانت تفرض بقوة السلاح دائماً.

وإلى اليوم لا يمكن القول بأن الوضع قد تغير، لأنه لا يوجد حتى الآن كيان اقتصادي (أو قل إنه توجد منه نواة مفعمة بالآمال) من شأنه أن يشكل مراكز زراعية ومراكز مدن تجلب إليها السكان وتستوعبهم. فا لوضع باق على ما ظل عليه منذ قرون، والأهالي ما زالوا على ترحالهم، يمارسون الحرب بالسليقة أو باختيارهم ينساقون وراء إغراء المغامرات ونداء الغنيمة والحرب الدينية...».

«وإن ما ينبغي عمله في المقام الأول وضع سياسة نشطة وحكيمة ولبقة تمهد للعمليات العسكرية وتواكبها وتستغل نتائجها، مع إزالة أخطر مصادر اذكاء المقاومة وإعطائها دفعا وقوة».

«وتتصدر هذه المشاكل الحركة السنوسية التي أصبحت خطورتها السياسية بالغة تخرج عن نطاق غرض هذه المذكرات»...

ثم تأتي مشكلة المستسلمين التي تتصل على العكس من ذلك بالعمليات العسكرية مباشرة إلى درجة أنها لا يمكن أن تفلت من مراجعة السلطات العسكرية. ذلك أنها ليست مجرد نفوذ بعيد المصدر أو انعكاسه، بل هي ظاهرة ومشاهدة في أحداث كل يوم.

(يحدث مثلاً أن ننتزع بعد جهد وعناء إنتصاراً باهراً وتفقد المقاومة 50 مقاتلاً و200 جمل، ففي اليوم التالي ها هم المستسلمون يزودون المقاومة بخمسين مقاتلا آخر، مسلح مع 200 جمل. فعمليات عسكرية تنفذ في ظروف كهذه لا يمكن تصورها ولكن كان هذا هو الواقع مع الأسف... فتواطؤ المستسلمين مع المقاومة أمر عادي هنا في المستعمرة. كما أنه أمر عادي ومألوف وجود أسرة بعض رجالها القادرين على حمل السلاح يقاتلون مع الدور وبعضهم الآخر يعمل مع الحكومة.

فلا بد - والحالة هذه - من القضاء على مثل هذا الوضع مهما كلف من ثمن، وإلا أصبح عملنا العسكري في نهاية الأمر عملا عقيما مؤسفاً (لذلك ينبغي أن يتم في

أقرب وقت ممكن. حصر المستسلمين وإحصاءهم لأشد أنواع المراقبة، بحيث لا يفلت من مراقبتنا اليومية رجل واحد أو بندقية واحدة ولا نعجة واحدة أو جمل على أن يضمن للمستسلمين في ذات الوقت مستوى معيشة لائق وكريم حتى لا يتجرأوا إلى اختيار حياة المغامرة والمخاطرة بالتحاقهم بالدور)[23]

(3) استئناف حركة المقاومة في عام 1928 :

في سبيل إخضاع الجبل الثائر والسيطرة عليه كان ميتريتي يسعى إلى التوسع في إقامة سلسلة كثيفة من المواقع المحصنة، من شأنها أن تعرقل تحركات العصاة وتوفر في ذات الوقت دعما تكتيكياً وقاعدة تموين وإسنادا للوحدات الإيطالية السريعة الحركة (التي تتألف كل وحدة منها في العادة من كتيبة ليبية أو إيريترية وسرية (صواري) وقطعة مدفعية أو أكثر محمولة على الدواب) بتلافي أي هجوم قد تقوم به أدوار عمر المختار وذلك بواسطة القيام بعمليات تفتيش وتطهير متكررة.

والهدف الرئيسي الذي كانت القيادة الإيطالية تسعى إلى تحقيقه السيطرة على المنطقة الواقعة شمالا، مما كان يسمى بخط حاميات جردس العبيد ـ مراوة ـ الجراري وكولان. التي عززت في سنة 1927 بإقامة تحصينات جديدة في بئر قندولة وبو عال وقصور محاهر، وبمنطقة الكوف. وكان من المفروض أن يعين هذا الخط الحد الفاصل والواضح بين الأهالي المستسلمين والمقاومة، بحيث يصبح كل رجل وكل رأس من الماشية يوجد جنوب هذا الخط هدفا (مشروعا) للطائرات والقوات المتحركة الإيطالية، ولكن تحديدا فاصلا بين المستسلمين والمقاومة والثوار كان في الواقع ضربا من الأوهام، كما اعترف ميتريتي نفسه بذلك. أما سياسة الحاميات فكانت مصدرا لتكاثرها. فضلا عن إنها كانت تؤدي في النهاية إلى بعثرة القوات وإضعافها. دون إحباط عزيمة الثوار وحملهم على التوقف عن شن هجماتهم[24].

---

[23] قيادة قوات برقة العمليات الصيفية على الجبل ـ المرجع المذكور ـ ويمل (ميتريتي) بعض هذه الاستنتاجات في تقاريره المذكورة ـ ص: 191 ـ 193.

[24] يستفاد من وثائق ميتريتي إن عدد الحاميات في شهر مارس 1927 كان 62 حامية وفي 1928، 68، منتشرة على رقعة من الأرض، ضعف مساحة الأولى تقريبا (من ميتريتي على الوالي ـ 9

في اكتوبر 1927 دعا الوالي تيرونري ميتزيتي إلى الاجتماع به في سعاري مع جميع المسؤولين في الإدارات المحلية التي كانت تنقسم إليها برقة ليحددوا بدقة عدد الثوار المسلحين الذين يرون إنهم ما زالوا يحملون السلاح داخل نطاق إدارة كل منهم فيقول ميتريتي بهذا الصدد: (إن عدد أفراد المقاومة المسلحين في كامل تراب برقة لا يزيد في نظر هؤلاء المسؤولين على المائة[25]. إلا أن هذا التقدير لم يكن سوى دليل آخر على عجز سلطاتنا السياسية والعسكرية عن فهم الوضع على حقيقته، ذلك إن الأدوار إنما كانت تعيد تنظيم صفوفها، إذ ما إن حل شهر نوفمبر حتى تحولت فعلا إلى الهجوم من جديد، وذلك بالقيام بغارة عنيفة على موقع بالقرب من سلنطة، تلتها سلسلة من الهجمات على خطوط المواصلات الإيطالية[26]. ويتضح من المصادر التي أمامنا أن عمر المختار كان قد أدرك عجزه عن خوض معارك في الميدان مع قوات تفوقه عدة وعددا بأشواط، وبالتالي أصبح يعتمد أكثر فأكثر على أساليب حرب العصابات وتجنب القتال المجابه وغير المتكافئ وعن طريق نصب الكمائن وسن غارات والاكتفاء بخوض اشتباكات ومناوشات على نطاق ضيق، الهدف منها إعادة تأكيد سيطرة المقاومة على أهالي الجبل المتعارضة مع وجود السيطرة الرسمية للسلطات الإيطالية (حكومة عمر المختار الليلية «على حد وصف هيمنة عمر المختار الذي صادف آنذاك انتشاراً كبيراً»).

في أواخر عام 1927 بدأ يظهر شيء من التصدع في صرح حركة المقاومة، وذلك عندما قام محمد الرضا ـ الأخ الأصغر لإدريس السنوسي، والذي كان الرضا ممثله الشخصي في برقة ـ بتسليم نفسه للسلطات الإيطالية، مقدما الدليل بحركته هذه على المواقف المتناقضة داخل صفوف السنوسين، من المسلك الذي ينبغي اتّباعه

نوفمبر 1928 ـ ملف ليبيا 175/ 6) إلا أن مصادر أخرى تقول إن عدد الحصون يزيد على السبعين. وبحسب ما ذكره ميتزيتي في (تقريره السالف الذكر المؤرخ في 1928/12/1 فإن هذه الحاميات أقيمت لمقتضيات غير عسكرية بل لتوفير الحماية لبعض المزارع وخط السكة الحديد الرابط بين بنغازي والمرج

(25) ميتزيتي ـ المصدر المذكور ـ ص:195.

(26) عشر سنوات من تاريخ برقة ـ السالف الذكر.

بشأن الحملة الإيطالية الجديدة، إلا أن هذه الحركة لم يكن لها تأثير على المقاومة في برقة لأن وزير المستعمرات فيدرزوني أمر في الحرب سي الرضا ـ ضاربا برأي تيروتري وميتزيتي عرض الحائط ـ إلى جزيرة (أوستيكا) التي كانت المعتقل الذي كان النظام الفاشي يرسل إليه معارضيه، وذلك أيضا بسبب إن الابن البكر للرضا، حسن، كان قد خلفه في حركة المقاومة إلى جانب عمر المختار.

وتلقت حركة المقاومة في الجبل عونا غير مباشر على أثر قرار الحكومة الإيطالية، في سنة 1928 بجمع قوات برقة وطرابلس وحشدها لاحتلال منطقة سرت وواحات جنوب الجبل (واحات خط العرض 29، كما عرفت آنذاك) وتكللت هذه العمليات بانتصار باهر كان يبرهن على تفوقها الكاسح في السهول الصحراوية وشبه الصحراوية التي تمكنت التشكيلات الإيطالية من تحقيقه بفضل ما كانت توفره لها، ليس الأجهزة والوسائل الحديثة المبتكرة فحسب (اللاسلكي، والطائرات، والسيارات المصفحة، وأنواع الشاحنات) بل أيضا من خلال ما اكتسبته من خبرة ودراية بالاستفادة من العتاد والوسائل التقليدية (قوافل الإبل المحملة بالمؤن والإمدادات، سرعة تحرك وحدات (الهجانة) من راكبي المهارى الليبية الذين كانوا يضاهون سرعة تحركات المقاومة بالإضافة إلى التفوق الواضح في التسلح وتجانسه.

فقد حدث مثلا أن تحركت في يناير 1929م، (محلة) قوامها 400 رجل من الكفرة لشن هجوم على القوات الإيطالية المسيطرة على بطحاء سرت، فاكتشفت الطائرات وجودها وهي في الطريق، فلاحقتها وألقت عليها القنابل، وما إن علمت بذلك التشكيلات الإيطالية السريعة الحركة حتى انطلقت لملاحقتها، فشتتها في الكامل بمنطقة (بوعتلة) بعد قتل 226 من رجالها والاستيلاء على 173 بندقية وفرار من بقوا على قيد الحياة طلباً للنجاة.

و(النشرات الاخبارية) التي كانت تصدرها الحكومة في برقة وتوجد منها مجموعة سليمة بالنسبة لعام 1928[27] تعطينا صورة واضحة للوضع على الجبل من

---

[27] راجع محفوظات المكتب التاريخي ـ ملف ليبيا ـ 7/174 ـ وهي مجموعة تتألف من 28 عددا من هذه النشرة بالنسبة لعام 1928 فهي مضروبة على الآلة الكاتبة ومحفوظة في ملفات تحوي

وجهة نظر القيادات الإيطالية بطبيعة الحال.

وعلى الرغم من ثبوت حصول غارات سلب ونهب وحركة ضخمة لقطعان الماشية على منطقة الحدود مع مصر[28]، فإن هذه النشرات ما زالت تظهر الكثير من التفاؤل لأن استسلام محمد الرضا كان قد أول على أنه دليل يؤكد حدوث أزمة خطيرة في صفوف المقاومة. وفي شهر فبراير تتفق المعلومات التي جمعت على القول بأن عمر المختار قد أعاد تنظيم الأدوار (التي تتكون من 250 إلى 300 من رجال البراعصة، و150 حاسة و200 عبيد، و70 عبيدات حوالي 700 مسلح في المجموع، 150 منهم فرسان[29]، إلا أن النتيجة الباهرة التي توجت عمليات منطقة سرت ما زالت تثير الكثير من التفاؤل.

وأربك تقدم زحف قواتنا واستيلاؤها على الواحات (واحات جالو) قيادة الثوار بعدما انهارت أركانها من قبل، وأخذ الأهالي يعربون عن اغتباطهم لقرب تحريرهم من حكومة وهمية كانت مضطرة إلى تضييق الخناق عليهم وامتصاص مواردهم لتخصيصها لثورة بدأت تفتر و(تضمحل)[30]، ولكن الذي حدث هو انفجار حرب عصابات ضارية من جديد، على الجبل وفي البطنان، وبدأ أفراد المقاومة يشنون غارات جريئة خاطفة، مؤكدين من جديد قوتهم، رغم الغارات الجوية العشوائية التي كانت تقوم بها الطائرات الإيطالية. تقول نشرات شهر مارس بهذا الصدد:

كل منها على 4 ـ 6 صفحات بلغة إيطالية ركيكة، كانت تعدها إدارة الشؤون المدنية والسياسية في بنغازي وتحمل توقيعات تيروزي أو بانه وكانت أسبوعية والمجموعة التي راجعتها كانت ناقصة بالنسبة إلى الفترة من ابريل إلى يونيه، والفترات الأخرى خاصة من أغسطس إلى سبتمبر ناقصة هي الأخرى ولكن إلى درجة أقل.

(28) كانت الطائرات تستخدم بالخصوص ضد تحركات الثوار وماشيتهم جنوب خط الحاميات كما ورد مثلا في (نشرة) 28 يناير 1928 (الأمر بقصف مجموعات صغيرة من الخيم الصغيرة بقصر ورن كيلوس وكذلك جماعة من البدو الذين كانوا قد فكّوا خيامهم ويسيرون في الطريق، وقطيع من الإبل بدون رعاة على ما يبدو).

(29) نشرة 4 فبراير 1928

(30) نشرة 3 مارس 1928.

«لم تتخلف الطائرات في الأيام التي كانت تسمح فيها حالة الطقس بذلك، عن القيام بعمليات استطلاعية على طول المنطقة وعرضها وقصف المخيمات وحشود، حال اكتشاف وجودها، فأصبح أفراد المقاومة يعيشون على أعصابهم بسبب الغارات الجوية هذه، التي رغم قلة فعاليتها، على حد ما أفادت به أنباء وصلت مؤخراً، بسبب أن المسلحين المستهدفين كان يسهل عليهم اتقاء شرورها بإختفائهم داخل الكهوف المرتفعة في (الوديان) ولو أنها كانت تسبب لهم خسائر كبيرة في قطعان الماشية (بالخصوص) بفعل شظايا القذائف...

هذا وما زال أفراد المقاومة يجوبون (العوشة) ويظهرون من وقت لآخر بمنطقة (سروال) ومعهم ـ حسب المعلومات المتوفرة ـ عائلاتهم وقطعانهم، ويشاع أيضاً أن الحسن الرضا ما زال مع عمر المختار، ويشكل كل دور مخيما منفصلاً على مرأى أحدهما من الآخر.

أما تشكيل الأدوار وقوامها فهو على الأرجح، كما يلي: (1) دور البراعصة: 400 مسلح، 60 منهم فوق الجياد، موزعين على أربعة طوابير (بهذه العبارة في الأصل) (...). (2) الحاسة ـ عبيدات: حوالي 300 مسلح، منهم من على صهوات الجياد. (3) العبيد: حوالي 100 مسلح، جميعهم فرسان تقريبا (..) تسليحهم جيد بصورة عامة، يتكون معظمه من (البنادق الإيطالية) نوع (91)، ثم نوع (مانليخر) وذخيرة النوع الأول وفيرة والثانية نادرة[31]

وكان ينفصل يومياً عن كل دور فريق صغير من (المحافظية) (هكذا في الأصل) لمراقبة تحركات جنود حامياتنا، وفضلا عن فرق الاغارة والسلب والنهب على مخافر جنوب بنغازي كما سبق أن ذكرنا (مجموعتان تتألف كل مجموعة من 20 أو 30 رجلا) شوهدت غيرها بالقرب من كولان والفائدية ووادي الكوف وسيدي جبرين وحوالي 150 مقاتلا موزعين على ثلاث فرق، في البطنان (.) ويتركز نشاطهم بالدرجة الأولى على جباية الأعشار عن الحيوانات وما العمليات الأخرى إلا لإخفاء

(31) نشره 10 مارس 1928 ـ والنص، كغيره، منقول دون تصحيح الأخطاء النحوية والصرفية

هذا العمل الأساسي[32].

هذا ويؤدي تزايد نشط حرب العصابات[33] إلى اصطرار ميتزيتي لاستدعاء قواته من منطقة سرت وتكليفها بالقيام بعملية تطهير وملاحقة على نطاق واسع. فكان الأمر كذلك، وأسفرت العملية عن تدمير قافلة ضخمة بمنطقة الشعفة في (بلطة الزلق) بعد قتل 200 من رحالها والقضاء على 1500 رأس من الإبل والاستيلاء على 60 بندقية[34] ويسفر استئناف حركة هجوم القوات الإيطالية، عن تباطئ عمليات الثوار، دون أن يقضي عليها. وانطلاقاً من هذا الواقع، يقوم ميتزيتي بإعداد بعض التشكيلات خفيفة الحركة (مهمتها التحرك فوق الجبل باستمرار، مستقلة عن بقية القوات، على أن تكون لديها القوة وسرعة الحركة التي تمكنها وحدها من مواجهة أية تشكيلة للثوار والانقضاض عليها[35].

إلا أن هذه التشكيلات السريعة، بعد تحقيق انتصار (مبتور) في 30 يونية برأس وادي القرمة[36]، لم تجد أمامها إلا الفراغ: فالأدوار عندما انتبهت لذلك، وزعت قواتها على فرق صغيرة تحت حماية الأهالي، لتواصل كفاحها بأسلوب حرب العصابات، مستهدفة بالخصوص ضرب الخطوط الخلفية الإيطالية. وتنتبه (النشرات) إلى هذا الترابط الوثيق إلى ابعد حد بين المقاومة والمستسلمين، إذ تقول:

---

[32] نشرة 24 مارس 1928 ـ واستنادا إلى هذا المصدر فإن قائد دور البراعصة كان عثمان الشامي، وقائد دور الحاسة ـ عبيدات، قصيل بوعمر، ودور العبيد يوسف أبو رحيل المسماري، وكان عمر المختار مع دور العبيد ولحسن الرضا مع العبيدات، وجاء في نفس النشرة إن قافلة ضخمة في حراسة أكثر من 100 مسلح كانت قد اكتسحت تشكيلة إيطالية كانت رابضة بأحد مخافر الحدود، عندما كانت القافلة في طريقها من مصر إلى الجبل الأخضر

[33] تشير نشرة 31 مارس 1928، إلى حدوث ثمانى (غزوات خلال أسبوع واحد وإلى فرار (نجع) تتكون من 30 خيمة و 2500 رأس من الإبل والخيل، فضلا عن 15,000 رأس من الغنم، ولجوئها إلى مصر، وبذلك يبلغ قوام قوات عمر المختار 1500 مقاتل

[34] (نشرة) 7 ابريل 1928، ميزيتي المصدر المذكور ـ صفحة 53/251

[35] (نشرة) 18 أغسطس 1928.

[36] المصدر المذكور، ص 254 ـ 255.

"إن قسما لا بأس به من المحافظة والعبيدات المتمردين (الذين يدعمهم حوالي 100 مقاتل من البراعصة) يقال إنه تسلل واندمج مع العبيدات المستسلمين، وفضلا عن ذلك فإن هؤلاء الثوار، على حد ما يشاع، أرسلوا جميع قطعانهم إلى مراعي منطقة العبيدات، فاندمجت هي الأخرى مع قطعان المستسلمين، واتبعوا نفس الطريقة لتسريب قسم لا بأس به من أفراد عائلاتهم وأمتعتهم"[37]

كما أنه يعتقد ـ بما يشبه التأكيد ـ بأن أفراد المعدومة كانوا يتلقون في أراضي العبيدات الدعم المألوف من الأهالي، وعلى حد ما جاء في تقارير السلاح (أي سلاح شرطة الكارابينيير) في درنة، فإن كل خيمة من خيم مناطق معينة ستستضيف بين رجل وثلاثة، من مقاتلي المقاومة، بعد أن يتخلص بعضهم من سلاحه حتى لا يتعرف عليه في حالة قيام قواتنا بعمليات تفتيش[38].

و(تكتيك) المقاومة الجديد يسهل على السلطات الإيطالية إصدار بلاغات بانتصار مبالغ فيها، إلا أن الوضع على الجبل يبدو هادئا، بوجه عام، بيد أن استمرار ضغط قواتنا النظامية وغير النظامية، ما زال يثير الضجر في روح مقاتلي المقاومة الذين اضطروا إلى تشتيت صفوفهم وبعثرتها، الأمر الذي لم يعد يفسح أمامهم المجال للقيام بشن هجمات وغارات جادة ضدنا، بالإضافة إلى الصعوبات الكبيرة التي تحول دون تزويدهم بالمؤن والذخائر[39] إلا أن الأدوار، في واقع الأمر، كانت لا تزال قادرة على القتال بصورة فعالة وتستطيع دائما الاعتماد على تأييد الأهالي ودعمهم، كما اضطر ميتزيتي نفسه إلى الاعتراف به في تقريره المؤرخ في أول ديسمبر 1928 رغم أنه

---

(37) (نشرة) 30 يونية 1928 التي تشير أيضا إلى كمين نصبه أفراد المعدومة بالقرب من امرح ووقعت فيه تشكيلة تتألف من 80 من رجال شرطة (الكارابينيير) و(الطليان) (السس) وألحقت بها خسائر كبيرة، وقبل ذلك بأسبوع كانت قد نصبت عملية مشابهة بالقرب من درنة، وفي ذيل (نشرة) 23 يونيه دون الجنرال فرانزياني (الذي كان قد اطلع على النشرة قبل تولية منصبه في برقة، كما يتضح من تعليقات سطرها على هوامشها بخط يده) هذه الملاحظة (إن الوضع في جملته يشبه وضع السنة الماضية، إلا أنهم ما زالوا غير مقتنعين بأن الفساد في برقة مصدره المستسلمون)

(38) (نشرة) 14 يوليو 1928.

(39) (نشرة) 13 اكتوبر 1928.

كان متفائلا حتى الاسفاف فيما أورده في كشف الحساب عن سنتي توليه القيادة

«منذ شهر ابريل 1927 لم يقم الثوار بأية عملية تكللت بالنجاح. عدا استيلائهم على قسم من قفلين صغيرين، كانت تقصهما الحراسة القوية، سواء وراء خط جردس العبيد (الاحرار الآن) ـ مراوة ـ الحراري ـ كولان، أم على تراب المستعمرة

قد يشكل ذلك دليلا، والأمر خاضع لتقدير هذه القيادة، على أن سيطرتنا على الأراضي الواقعة خلف الخط المذكور تعد كاملة من وجهة النظر العسكرية

إلا أن ظاهرة شن الغزوات، والحق يقال، لم يقض عليها بعد، بسبب تعقدها وصعوبة تحديد مداها، لأنها تدخل في حكم حماية الأعشار والغزوات المموهة التي تخفي عمليات تبادل المواشي والحبوب التي كانت تنتهي بنقلها إلى مصر وبيعها هناك بواسطة عناصر من أنصار حركة المقاومة يقتصر عملهم على بيع وشراء المواشي، استرسالا لتقاليد قديمة متوطدة، فضلا عن عمليات سرقة وسطو على القطعان، وهلم جرا. حتى عن طريق المستسلمين».

هذا ولا يتأتى الحد من حدة هذه الظاهرة أو إيقافها إلا بتطوير تنظيم القطر سياسياً وعسكرياً: وهنا يكمن لب المشكلة.

إن إحكام السيطرة المطلقة على القطر، لا يمكن أن يتحقق إلا بتحطيم قوات المقاومة والقضاء عليها كتنظيم عسكري وسياسي، وهذا يتوقف على تحقيق نجاح عمل سياسي ـ عسكري منسق وفعال.

وعملا بخبرة عسكرية ناشئة عن تجارب طويلة الأمد في المستعمرات، فإن تدمير حركة المقاومة والقضاء على تنظيمها السياسي والعسكري، لا يمكن تحقيقه الا بقيام نظام سياسي وعسكري فعال في القطر، يمتد إلى أقصى حدود المستعمرة، يلاحق معاقل المقاومة ويضربها بشدة متصاعدة حتى لا يبقى أمامها إلا التقهقر باستمرار وتستنزف قواها وتتهالك نهائياً وتخمد إلى الأبد[40].

(40) تقرير ميتزيتي، بتاريخ 1928/12/1 وبعد بضعة أسطر، كتب ميتزيتي يقول (إن الهزائم التي منيت بها تشكيلات المقاومة، لئن كانت من شأنها استنزاف قوتهم، إلا أنها لم ولن تحقق الانتصار الحاسم).

وخلاصة ذلك هي أن ميتزيتي ما زال مضطرا إلى الاعتراف بأن التنظيم السياسي ما زال راسخا وفعالا، رغم وجود القوات الإيطالية على الجبل وفي المناطق الداخلية شبه الصحراوية. والنظام الأساسي الذي كان يقترحه حضرة الجنرال لم يكن سوى الدعوة إلى المزيد من ضغط القوات الإيطالية على المقاومة لأجل غير مسمى - حتى إستنفاد قواهم - دون تقديم أية ضمانات للنجاح، عدا تجارب الخطط السابقة ونتائجها.

الفصل الثالث

هدنة عام 1929

(1) اتفاقيات يونية :

في ديسمبر 1928، تولى موسوليني مسؤولية وزارة المستعمرات، تاركاً إدارة شؤونها لايميليو دي بونو (E. De Bono) أحد أبرز أعضاء الحكم الفاشي بصفته الوكيل الدائم لهذه الوزارة وكان دي بونو قد تقلد منصب الوالي على قطر طرابلس، من يولية 1925 إلى سنة 1928[41] وعين واليا عاما على طرابلس وبرقة، المشير بادوليو ـ أبرز قائد في القوات المسلحة الإيطالية ورئيس أركانها. (مع ابقاء إدارتهما منفصلتين)، فعين بادوليو كنائب وال لبرقة الجنرال (دومينكو سيشيلياني D. Sicıliani) الذي كان أحد مساعديه الأوفياء، ولكنه كان غريبا عن البيئة والأوساط الاستعمارية وتعوزه مهابة الشخصية. أما قيادة القوات المسلحة فقد عهد بها إلى الجنرال ح. رونكيتي (Ronchetti) الذي سبق له العمل في المستعمرتين.

وكان بادوليو قد اشترط أن تكون مدة ولايته خمس سنوات، فلبى طلبه، وذلك كمهلة رآها كافية لإعادة السلام إلى المستعمرتين وإصلاح أوضاعهما

استهل عهده بإصدار منشور، وزع على نطاق واسع، كان يعد فيه أفراد المقاومة بالعفو بالنسبة لمن يلقون السلاح ويستسلمون استسلاماً كاملاً، إلا أنه يتهدد

[41] في ستمبر 1929، ترك موسوليني الوزارة ليخلفه فيها دي بونو الذي عين كوكيل لها (ليسونا Lessona) إلا أن التغيير كان صوريا ذلك إن موسوليني واصل اهتمامه بسرقة، كما كان يفعل من قبل، والتدخل المباشر في اتخاذ القرارات الخطيرة بشأنها وترك شؤون الوزارة لدى بونو

في ذات الوقت بالويل والثبور والبطش الخالي من اية شفقة أو رحمة، كل من يرفض الاستسلام، وقد جاء في المنشور بنصه (إذا ما أرغمت على القتال فإنني سوف أخوضها حربا شعواء بأساليب ووسائل جديدة، بحيث تبقى ذكراها عالقة بالأذهان ولن يتذوق ثائر واحد، لا هو ولا أسرته أو قطعانه او ورثته طعام الهناء والسلام. إنني جازم على تحطيم كل شيء، رجالاً وأرزاقاً ومتاعاً).[42]

في ذات الوقت وزع بادوليو منشورين بتعليماته العامة على السلطات السياسية والعسكرية في المستعمرتين، يستشف منهما رأيي الانفرادي للوضع الذي وجده أمامه فكان المنشور يطلب بالتزام انضباط وانتظام أكثر واستقامة أكثر في التعامل مع الرؤساء والزعماء ومراعاة احترام الأهالي المحليين وإبداء اهتمام حقيقي بأحوالهم ومصالحهم

وننقل فيما يلي ـ بشيء من الاسهاب ـ القسم الأكبر من منشوره الدوري المؤرخ في 9 فبراير والمتضمن لتعليمات السياسية، لأنه يلخص برنامج الحكم الذي يعتزم بادوليو تنفيذه، ويحدد موقفه من الأهالي المحليين بوضوح يغني عن كل تعليق: (إننا نمثل الدولة المهيمنة التي طردت الحاكم الفاشل (التركي) وحلت محله لتأدية رسالة حضارية سامية، والإنسان العربي أو بالأحرى الاهالي المحليون بأسرهم عليهم أن يعوا هذه الحقيقة ويقتنعوا بعمق مدلولها، وهو أننا موجودون هنا وسنبقى إلى الأبد، وأننا هنا ليس بقصد الاستغلال ولكن لتحسين وضع هذه البلاد في جميع مجالات النشاط الإنساني، وإننا سنؤدي هذا الواجب، مهما كلفنا من ثمن

وبعد طرح هذه البديهية الحتمية، فإنه علينا أن نستخلص النتائج والعبر بذكاء وحكمة، إذ أننا لم نحتل رقعة من الأرض لمجرد استصلاحها تمهيدا لاستغلالها بل نحن أخضعنا لسلطاننا أيضا جماعات من الأهالي علينا أن نهتم بأمرهم والسير بهم نحو حياة حضارية أفضل، وواضح كذلك أن هدفا كهذا لن نستطيع بلوغه أبدا، طالما إن هؤلاء الأهالي لا يشعرون بأن مصلحتهم المادية والمعنوية تكمن في التعايش معنا، والخضوع طواعية لعاداتنا وأعرافنا وقوانيننا، وما لم يكن الأمر كذلك فإننا سنبقى فوق

---

[42] نقل (جيليو) نص المنشور في كتابه (الطريقة السنوسية) المتقدم ذكره في صفحة 133 وحول إعادة سرد هذه الأحداث ـ راجع دوشا ـ صفحة 9 وما بعدها، ذات المصدر المذكور.

برميل بارود مهيأ للانفجار في كل لحظة، وما لم يكن الأمر كذلك فإنه بتمادينا في الصراع قد ينتهي بنا المطاف إلى إبادة الشعب المحلي بأسره وقد يتحقق آنذاك السلام والسكينة ولكنه سلام وسكينة المقابر، وما المقابر إلا أماكن ذكريات مؤلمة وليست مواقع عمل جاد مثمر ومنتج، لذلك:

- علينا أن نصعد إلى أعلى السلم، درجة بدرجة، ونرسخ أقدامنا عليه بعزم ورباطة جاش.
- وعلينا أن نشعر دائما بتفوقنا الفكري. بالعمل لا بالقول ولا بالعبارات التي تشتم منها الإهانة والاحتقار.
- وأن نكون عادلين ونتمسك بالعدالة إلى أقصى حد، بذمة وإخلاص
- وألا ننسى أنه يوجد تحت (جرد) الفلاح المتسخ كما يوجد تحت حرد الثري الأنيق قلب يخفق، حقدا أو حبا. وبالتالي علينا أن نحترس من بث الضغائن التي لا تعطي إلا ثمارا خبيثة.
- علينا أن نولي عنايتنا لتحقيق الرخاء للأهالي بكل الطرق التي يسمح بها القانون
- عدم التعرض أو النيل من مشاعرهم الدينية وعواطفهم العائلية.

وما أقصد إليه بإيجاز، هو:

- الاعتماد على موظفين يمارسون بادراك كامل، ووجدان ومسؤولية كافة، أكرر كفة مهام اختصاصاتهم وفقاً للقانون واللوائح والنظم.
- أن تراعى في العلاقات مع الأهالي المحليين، سياسة العزة والمهابة الوطنية التي لا تتحقق إلا عن طريق العدالة واستمرار الاهتمام بشؤونهم المقترن بنبل السلوك والاستقامة في التصرف.
- (اكتشف المغامرون الأراضي الجديدة ولكنهم لم يبرهنوا على صفة (المعمرين). كانت تعوزهم أهم الخصائص والمميزات الأساسية، لذلك فالتعمير الاستيطني لا يعني الاحتلال فحسب، بل يعني كذلك، وعلى الأخص، التنظيم، أي ممارسة الحكم وفقا لمنهج محدد وبعدالة وبتفوق فكري وأخلاقي

هذا هو واجبنا، وباسم الملك و(الدوتشي) سنؤديه.[43]

والمنشور الموجه للمقاومة بالعفو المقترن بالتهديد، لم يأت بنتيجة في قطر طرابلس، حيث أوشك الاحتلال الإيطالي أن يتم (ففي أواخر عام 1929، وصلت فيالق قراتزياني إلى فزان، وانتهت من احتلال معظم الأراضي بعد اخماد آخر معاقل المقاومة) ولا في برقة، أول الأمر، حيث اتسع نطاق حرب العصابات من جديد خلال شهري فبراير ومارس، ولم ينقطع أفراد المقاومة عن شن سلسلة من الغارات المثيرة والهجمات الخاطفة الجريئة ونصب الكمائن[44].

---

[43] منشور بادوليو، الدوري الصادر في 9 فبراير 1929 بالتعليمات السياسية، ووزع على نطاق واسع إلى مستوى قيادات الكتائب - المرجع (محفوظات المكتب التاريخي - ملف ليبيا، 10/174) ونقل (فتيالي) جزءا منه إلى كتابه (أحداث عسكرية) السالف الذكر - ص 199 - 201 وكان بادوليو قد وجه انتقادات أشد لهجة إلى الأوساط الاستعمارية في رسالة بعث بها إلى دي بونو في 1930/7/1، جاء فيها «أثناء العمليات، هناك الكثيرون ممن يستغلونها أو يحاولون استغلالها وأعني مختلف الموردين ومتعهدي النقل. فمصادر إثرائهم السريع معروفة، إذ حققوا، في فترة غير بعيدة منا، أرباحاً طائلة - وحال ما يستقر الوضع - سيتوقف مصدر هذا الكسب غير المشروع فتوجد فئات من الناس يعرفهم الخاص والعام، يتصورون المقاومة على أنها حقل خصب، لتحقيق أرباح مشروعة وغير مشروعة ( ) ثم إنه لا بد من قول الحق، مهما كان مرا وهو إن هذه المضاربات والصفقات لم تفلت منها قيادات القوات المسلحة، إذا اكتشف الكثير من الحالات الخطيرة، ولكنها كانت أيضا عرضية وكان الرأي الشائع حتى الآن هو أن استمرار حركة المقاومة مصدر للتقدم في الرتب والوظائف، ومن هذا الاتجاه إلى عدم تواصل العمليات إلى نهايتها، ومن هنا أيضا تضخيم وتهويل كل اشتباك مهما كان عاديا وتافها، وسيل المطالبات باقتراح (منح أوسمة وترقيات) ومن هنا أيضا انتشار جملة أصبحت من الأقوال المأثورة (سيكون الأمر أفضل في المرة المقبلة) كلما تمكن العدو من الافلات من ذلك الاشتباك، دون إبداء مجهود يذكر. م م/ م قراتزياني - 2/2/1.

[44] في هذه الأثناء، كان عمر المختار قد أعاد تنظيم قواته وضمها في (دورين) قام أحدهما، وكان دور العواقير، الذي قوامه 350 رجلا ، وكان يرابط في أقصى الغرب ويتألف من عواقير وبراعصة وعبيد - بخوض معركة ضارية، في 13 مارس بالقرب من جردس العبيد، مع كتيبتين وسريتين إيطاليتين فقد على أثرها عشرين من رجاله و 20 رأسا من إبله، و 16 بندقية، بعدها قتل 23 بين إيطاليين و(عساكر) (عشر سنوات، إلخ...).

إلا أن بادوليو لم يتحل عن برنامجه لاستتباب السلام وعودة السكينة. وكعلامة على حسن نواياه (عمل في شهر مارس) للحصول على الاذن بعودة محمد الرضا من منفاه بجزيرة أوستيكا وفيما بين شهري ابريل ومايو كانت تجري محادثات سرية، لا يتوفر لدينا الكثير من المعلومات عنها، إلا أنها أدت إلى تناقص الاشتباكات. وفي شهر يولية التالي تم التوصل إلى عقد هدنة بمعناها على أثر مقابلات جرت بين كبار قادة الجانبين.

إن دراسة محاولة إقرار السلام التي كان قد دفع بها إلى الأمام كل من بادوليو وسيشيلياني، في صيف عام 1929، ليست بالأمر السهل لندرة الوثائق وعدم نزاهة الروايات والوصف، كما أعدها الجانب الإيطالي وحده، إبتداء من رواية قراتزياني في عام 1932 وانتهاء بما كتبه عنها (دي لئوني De Leone) في عام 1960[45]. وعلى حد روايات هؤلاء فإن عمر المحتار، عندما اضطر اضطراراً إلى فتح مفاوصات السلام، بعد اقتناعه بنفاذ صبر الأهالي وتسلل الخلافات والشقاق بينهم، كان قد استغل قلة خبرة بادوليو وسيشيلياني وطموحهما ليقدم نفسه للاستسلام، دون أن تكون له أية نية لاحترامه ومهلة كهذه كانت ضرورية بالنسبة له لإعادة تنظيم صفوف رجاله المنهكي القوى، تمهيداً لاستئناف خوض حرب العصابات. ونحن لسنا في وضع يمكننا من تقدير خطورة الخلافات داخل الزعامة في حركة المقاومة وبالتالي من الوقوف على حقيقة الدوافع التي حملت عمر المختار على القيام بهذه الخطوة، لأن المعلومات الإيطالية عن المقاومة لا يعتد بها إلا نسبياً (غير أن آثار ومآسي الحرب وويلاتها كانت ظاهرة للعيان وواقعا ملموسا)، فقراتزياني نفسه هو الذي يثبت بالدليل إن محادثات ابريل ـ مايو لم تكن على أساس الاستسلام بدون قيد أو شرط، حسبما جاء في منشور

---

[45] راجع قراتزياني، المصدر المذكور ـ الصفحات 21/ 46، ودي لئوني المصدر المذكور الصفحات 549/ 55 ـ ويلاحظ بين هدين الروايتين والعديد غيرهما التي مصدرها الأوساط الاستعمارية دائما، كرواية كابيفاري، اختلافات طفيفة (فقراتزياني، مثلا، ما كان ليستطيع التهجم علانية على بادوليو بحكم أنه كان رئيسه المباشر، في الوقت الذي كان فيه الهدف الرئيسي لتهجمات جميع الرواة الآخرين) إلا أنها تتسم جميعها بالطابع المعادي للعرب و للدفاع المستميت عن سياسة القوة وكذلك بالتهور عند تناول الوثائق.

بادوليو[46] فسيشيلياني كان يعرض مقابل وقف المقاومة المسلحة وقبول السيادة والوجود الإيطاليين الاعتراف بالتنظيم (المقاومة) بجميع هيئاته ومهامه التقليدية، وهو ما يكشف في الجوهر عن عرض تقاسم غامض للسلطة، ينشأ عنه تجريد الأهالي جزئيا من السلاح (تسليم نصف عدد البنادق مقابل استيفاء ألف ليرة عن كل بندقية) كمقابل للاحتفاظ بتشكيلات قوية من المسلحين، تراقبها الحكومة الإيطالية صورياً...[47].

في مستهل شهر يونية تم التوصل إلى اتفاق لا تتوفر لدينا عنه إلا نصوص مجمعة ومتضاربة، ولكنها على حد ما تبين لنا، تتبع خطوط الهدنة المتقدم بيانها مع ترك تحديد وضع برقة في جملته إلى محادثات لاحقة.

وجرت مراسم وقف العمليات الحربية، من الجانبين، عن طريق المقابلات التي أجراها عمر المختار وزعماء المقاومة الآخرون، مع سيشيلياني في 13 يونية، ومع بادوليو في يوم 18 منه، ومع سيشيلياني مرة أخرى في يوم 28 من نفس الشهر، في أماكن مختلفة من الجبل الأخضر، واستنادا إلى المصادر الإيطالية فإن قيام عمر المختار ورفاقه بالاستسلام، كان بصورة رسمية وبدون قيد، حسبما يتطلبه منشور بادوليو.

رغم أن قراتزياني، الذي كان أصدق من المؤرخين الذين أتوا بعده، كتب ليقول بصراحة: إن الاستسلام لم يكن إلا خطوة أولى في طريق الوصول إلى اتفاق شامل كان من المقرر أن ينص على استعادة المقاومة لسلطاتها واحتفاظها بتشكيلاتها المسلحة[48]. وعلى حد ما أفضى به عمر المختار، لم يتم التوصل في هذه المقابلات إلى اتفاق، بل فقط على عقد هدنة لمدة شهرين، وهي فترة ضرورية لتطوير المحادثات التي كان قد شرع فيها[49] ويبدو أن الظروف والملابسات تؤيد تصريحه

[46] راجع جيليو ـ الطريقة السنوسية ـ المرجع المذكور ـ ص: 134 ـ 37.

[47] قراتزياني ـ ذات المصدر ـ ص: 24 ـ 28

[48] قراتزياني ذات المصدر ـ ص 29 ـ 30 ولكن ذلك لا يمنع قراتزياني من اعزاء فشل محاولة الوصول إلى السلام إلى غدر عدوه عمر المختار وحده.

[49] راجع تصريح عمر المختار بتاريخ 20 أكتوبر 1929، في كتاب قراتزياني المذكور ص 44-46

هذا لأن حضور عمر المختار، سواء أمام سيشيليابي أم بادوليو، كان محفوفاً بجمع غفير من رجاله المسلحين، دون أن يقوم بإتباع المراسم المرعية عند الاستسلام (الرسمي)[50].

والشيء المؤكد هو أن تنفيذ اتفاقيات يوبية كان معلقاً على تطور الوضع بصورة إيجابية، لأن حركة المقاومة لم تهزم في ميدان القتال، بل كانت في وضع يمكنها من التفاوض حول عقد سلم وسط، من مركز القوة[51].

وإزاء وضع كهذا، لا بد للمرء أن يستغرب ويندهش من قرار بادوليو بالتأكيد لكل من دي بونو وموسوليني على أن استسلام عمر المختار ورفاقه كان لا بد من اعتباره غير مقيد بشروط ونهائيا، وعندما قدم تقريره لموسوليني حول المقابلة التي جرت في 13 يونية، ذكر على لسان عمر المختار ما نصه:

«ولكن لا تقل إنني كنت متمردا، لأنني لم استسلم أبداً، للحكومة قبل اليوم ليس ذلك فحسب، بل لأنني حاربتها دائماً (. .) وها أنا أستسلم اليوم. والجنرال بادوليو في نظري هو أول وال إيطالي سيطر على برقة...

واعتبارا من اليوم أصبحت لبرقة حكومة هي الحكومة الإيطالية، واعتبراً من اليوم كذلك تدخل برقة في عهد جديد عهد السلام و أنا تحت تصرف الحكومة[52]

«سأسافر إلى بنغازي يوم الأحد لتلقي فروض الاستسلام بصورة رسمية»

هكذا يواصل بادوليو تقريره ـ وبقلب يخفق نخوة وفخراً ـ ها أنا أوفي سعادتكم (الخطاب موجه إلى موسوليني) بهذه البرقية، لأنني موقن بأن برقة تتأهب لاستقبال حياة جديدة[53]. في ذات الوقت بعث ببرقية إلى دي بونو يؤكد فيها:

---

(50) أبرز هذه النقطة، بنوع خاص كابيفاري، في جداله مع بادوليو ـ المصدر المذكور ص 325 وما بعدها.

(51) وكان عمر المختار يوضح بالفعل إن مقابلاته مع بادوليو وسيشيليابي كانت على أساس (الند للند) وبصفتهما على رأس الحكومة كان عليهما أن يختارا السلام من عدمه.

(52) ذكره دي لئوني ـ المصدر المذكور ـ ص: 551 ودي لئوني نفسه، رغم تبريره لكل جوانب السياسة الفاشية، يعترف بأن عمر المختار لم يستسلم قط (ص: 559).

(53) ذكره دي لئوني ـ المصدر المذكور ـ ص: 551.

(رفضت بشمم وقوة جميع المقترحات التي عرضت علي، وأصررت على عدم قبول الصلح إلا على أساس منشوري الصريح وغير القابل لأي تأويل[54]

والاستسلام الحالي معلق على شرطين:

(1) التجريد من السلاح

(2) صدور العفو.

«وأشاطر في الكامل استنتاج سعادتكم بأن الزعامة السنوسية قد انتهت وفقدت كل نفوذ»[54].

وفي الأيام التالية، عاد بادوليو، مرارا، ليؤكد اقتناعه بأن استسلام المقاومة بدون قيد أو شرط، كان ناشئا عن انقسامات داخلية خطيرة، ومن ثم انطلق يصدر أحكاماً جزافية حول تصفية زعماء المقاومة وتلاشيهم.

«لم يكن هناك تمييز في الماضي، بين مستسلمين وعصاة وكان يعثر على الدوام تقريباً، على بطاقات المستسلمين على جثث القتلى في المعارك فالمستسلمون لم ينقطعوا عن (تغذية) حركة المقاومة، حتى أن عمر المختار تمكن دائما من التعويض عن خسائره في الميدان برجال من المستسلمين ظروف معيشة تعسة بالنسة على الجميع وتطلع طبيعي إلى العيش في هناء وسكينة، بعد سنوات من حرب ضروس لا شفقة فيها ولا هوادة ظل المستسلمون خلالها يتلقون معاملة لا تختلف في جوهرها عن معاملة العصاة وأدت إلى تقبل المنشور الذي أصدرته كحل وحيد ممكن علينا نحن الآن أن نواصل السير في طريقتنا محاولين في ذات الوقت تحسين حالة هؤلاء الأهالي المنكوبين فلتطمئن الحكومة، لأن كل ذلك سينفذ»[55].

«جميع الزعماء السنوسيين مراقبون، وسيظلون تحت الرقابة المشددة، إلا أنه عليّ أن أؤكد ثانية على أن الكيان السياسي للسنوسيين في برقة قد هدم. وذلك خاصة

---

[54] من بادوليو إلى دي بونو ـ المذكرة السالفة الإشارة إليها ـ المؤرخة في 16 او 17 يونيه 1926 في Olivier ـ ملف وزارة المستعمرات ـ حافظة دي بونو (وسبق أن نشرها روشا ـ المصدر المذكور ـ ص: 10).

[55] من بادوليو إلى دي بونو ـ 21 يونية 1929 ـ في محفوظات وزارة أفريقيا الإيطالية (سابقا) ـ 150/ 21/ 90.

لأن أفراد الأسرة السنوسية باستثناء أحمد الشريف مجموعة من الفساق الذين لا هم لهم سوى العيش في ترف إلى أقصى حد ممكن.

ولا توجد هناك أية علامة على الأفق تدل على أنه ما زال هناك زعماء يخشى جانبهم لإثارة القلاقل[56].

وإنه لمن العبث أو من الأمور التي يصعب فهمها التلويح بشبح السنوسيين: فالحركة السنوسية كقوة سياسية عهد بها إلى زمرة من السنوسيين الأغبياء أو عديمي الأخلاق أو بالصفتين معاً، قد انتهى أمرها»[57].

إن التفاؤل الذي لا يتورع بادوليو عن إبدائه كان يعكس في المقام الأول عجز القيادات والأوساط الاستعمارية الإيطالية عن تقييم عمق جذور حركة المقاومة وفهم مسلك زعمائها المقاومة، إلا أن سلوك بادوليو وسلوك مساعده الوفي سيشيلياني وموقفهما من هذه الحركة، كانت له دوافع ومسببات أخرى، فسياسة المهادنة والمصالحة التي بادر بها بادوليو في مستهل ولايته، كانت تصطدم فعلاً بمعارضة الأوساط الاستعمارية التي كانت تقف لأسباب متعددة (العزة القومية، مصالح تتعلق بالترقية في الوظائف، أسباب تجارية، وأحقاد عنصرية وهلم جراً...) إلى جانب سياسة القوة والقهر حيال الأهالي المحليين، ودي بونو من واقع غيرته من الاستقلال في التصرف الذي كانت تتمتع به شخصية ذات شأن ومرتبة عالية كبادوليو، ما كان ليترك فرصة تمر دون أن يحطر موسوليني بالنتائج الوخيمة لسياسة الضعف والمساومات التي تتعارض مع صورة القوة والنخوة (الإمبراطورية) وهي الطابع الذي كان الحاكم الفاشي يسعى إلى إضفائه على البلاد، ولم يسلك بادوليو نفسه طريق المصالحة عن قناعة عميقة، بل على أمل تحقيق انتصار شخصي بإنهاء الحرب في غضون بضعة أشهر، كما إنه لم يكن يفكر إطلاقاً، في تقاسم السلطة مع المقاومة، بل كان يركز همه على تحقيق تسلل إيطالي أكثر مرونة وجدوى، من التسلل بالطرق

---

[56] م من بادوليو إلى دي بونو ـ 22 يونية 1929 ـ في محفوظات الأركان العامة ـ وزارة أفريقيا الإيطالية (سابقا) ـ 150/ 21/ 90.

[57] بادوليو إلى موسوليني ـ 24 يونية 1929 ـ كما ذكره دي لئوني ـ المصدر المذكور ـ ص 552

التقليدية القائمة على قوة السلاح. ولم يكن موقفه هذا سهلا، لأنه كان يضطره إلى القتال على جبهتين. ضد المقاومة وضد الأوساط الاستعمارية الإيطالية، وكلاهما متحفز لاستغلال أدنى هفوة تقع منه وانطلاقا من ذلك في نظرنا، اختار اللعب على حلبتين الذي كان يدفعه إلى طمأنة خاطر الأوساط الاستعمارية والجهات الأخرى في روما بالادعاء بأن استسلام عمر المختار كان دون قيد أو شرط، بحيث يتمكن من تسيير سياسته دون تدخل خارجي من جهة، وإلى التفوض مع المختار حول عقد صلح وسط، مبني على تقاسم السلطة في برقة من جهة أخرى، اعتقادا منه (من واقع اقتناعه بعجزه عن استئصال حركة المقاومة من جذورها) إن هدنة تدوم بضعة أشهر، متى اقترنت بعمل لبق ومتبصر أساسه بث الفساد والرشوة والشقاق، من شأنها أن تؤدي إلى تصدع الجبهة (المقاومة) وإحلال سلام تسود فيه السيطرة الإيطالية الكاملة لذلك كان بادوليو على استعداد لإبداء الكثير من التنازلات لصالح عمر المختار، على المدى القريب، ولكن دون الوصول إلى عقد اتفاقيات كتابية أو ذات طابع رسمي، ظل يطالب بها المختار (ويعد بها سيشيلياني) لأنه كان مقتنعا بأن الخلافات الداخلية في صفوف حركة المقاومة (والتي كان يشجعها الطليان بمختلف الوعود والمكافآت) ونفاد صبر أهالي الجبل، أمور كان من شأنها أن تحول دون استئناف حرب المقاومة وتفتح الباب تدريجيا وبصورة حتمية، أمام الهيمنة الإيطالية الكاملة

(2) الهدنة :

في 29 يوبية كتب سيشيلياني من واقع ارتياحه الكامل للوضع وثقته بالمستقبل «إن الوضع العام والسياسي المرضي في برقة مآله في نظري أن يصبح ممتازا، سواءا من حيث الجوهر أم من حيث المظهر».

فالأهالي هم الذين أرغموا عمر المختار على التخلي عن القتال في بادئ الأمر ثم على الاستسلام، وسيكون الأهالي هم الذين سوف يحولون دون إقدام قادة قوات المقاومة على التنصل من التزاماتهم التي قطعوها على أنفسهم. وإلا حولوا حركتهم إلى أعمال قطاع الطرق...

ومن جهة أخرى أخذت (الأدوار) تظهر بمظهر المخيمات المسالمة، كما أخذ

عدد رجالها يتقلص، لأن الكثيرين منهم تفرقوا طواعية هنا وهناك كجس لنبض الحكومة ومعرفة حقيقة نواياها كما لم يعد الكثيرون منهم يحملون السلاح، وغيرهم سلموا أسلحتهم لنقاط المراقبة بعد حصولهم على وعد بردها إليهم بناء على طلبهم، حال ابتعادهم عن المراكز السكنية والمواقع التي بها حاميات[58] إلا أن الوضع (في الواقع) كان أكثر تعقيدا. فالأدوار لم تحل كما أنه لم يتم تجريد الأهالي من السلاح، والهدوء الذي يسود الجبل كان على العكس من ذلك، دليلا على نفوذ عمر المختار وسطوته أكثر من كونه دليلا على قوة الأسلحة الإيطالية، أضف إلى ذلك أنه عاد ليمارس في وضح النهار كافة سلطاته التقليدية، من تولي شؤون العدالة إلى جباية الضرائب[59]. إلى درجة أن اضطر سيشيلياني في منتصف شهر أغسطس إلى الاعتراف بأن التحول إلى السلام أصبح يمر بفترة (عويصة) خاصة وأن عمر المختار، مع التزامه الكامل بشروط الهدنة ظل يصر على عدم تسريح الأدوار التي كان يتقاضى (علانية) الرسوم التقليدية اللازمة للقيام بشؤونها[60].

إلا أن بادوليو وسيشيلياني ظلا يتحاشيان اللجوء إلى استخدام القوة للحيلولة دون تدهور الموقف، مفضلين ترك الجهاز المحلي يتهالك تلقائيا، بعدما مزقت أوصاله الخلافات الداخلية. وعلى حد ما جاء في المصادر الإيطالية التي سبق أن أشرنا

[58] سيشيلياني إلى بادوليو ـ 29 يونية 1929 ـ محفوظات وزارة أفريقيا الإيطالية (سابقا) 90/21/150 ـ يقول سيشيلياني في تقريره (إن عمر المختار يعتمدون في الكامل، شريطة أن يكون التعامل معه هو دون سواه، غير أن الساسة الإيطالية تسعى إلى تسخير المستسلمين وتأليبهم على زعماء المقاومة).

[59] أعرب دي بونو لنفسه ولتدخله المباشر مع الزعماء السنوسيين من العودة إلى نصب المشنقة الذي يمثل رمز السلطة التقليدي للسيادة ـ (دي بونو إلى بادوليو) 14 يولية 1929م، وزارة أفريقيا الإيطالية ـ 90/21/150.

[60] سيشيلياني إلى بادوليو، 16 أغسطس 1929 ـ م و أفريقيا الإيطالية 90/21/150 ـ وكانت السلطات الإيطالية تعامل مسلحي الأدوار نفس معاملة (الدوريات) التي هي عصابات غير نظامية كانت تحت إمرة (المفوضين) المحليين ومهمتها الحراسة والحفاظ على الأمن، ولكن عمر المختار كان يفضل جباية الضرائب بالطرق التقليدية ، وذلك أيضا بقصد ضمان مراقبة قواته

إلى قلة الاعتداد بها بهذا الصدد، فإن محمد الرضا وابنه الحسن كانا يتزعمان (التيار) الذي أبدى استعداده لقبول صلح وسط وإن عمر المختار كان بطل التيار المعاكس الذي كان يفضل استئناف القتال على تحقيق سلم يحد من استقلال قبائل الجبل

وحدة التوتر والشقاق بين هذين التيارين لا بد أنها كانت قوية إن صح ما قيل من أن (دور البراعصة ـ الدرسة)، تحت تأثير الحسن الرضا والمستسلمين، كان قد تنصل من قيادة عمر المختار وقبل المال الإيطالي للاتفاق على نفسه، مع احتفاظه بتنظيمه[61]. إلا أنه لا فائدة من المبالغة في مدى هذه الخلافات، حيث أن بادوليو نفسه في منتصف شهر سبتمبر اضطر إلى الحث على سيشيلياني لتشديد الضغط على الجبل.

«بناء على الأوامر الصادرة عن سعادة الوزير دي بونو، أؤكد تعليمات العمل الآتية:

أولاً: حاول جلب أكبر عدد ممكن من المنشقين إلى الانضواء تحت لوائنا دون اللجوء إلى الزعماء ـ أعمل على تحريك المستسلمين خاصة البراعصة ـ الدرسة، ضد المنشقين، بالعمل لا بالقول، مع إسنادهم عند الاقتضاء بتشكيلات من قواتنا ـ حاول أن تشرع، في أقرب فرصة ممكنة، في تنفيذ الأشغال العامة بحيث يتيسر استخدام اليد العاملة المحلية إلى أقصى حد ممكن.

ثانياً: يجب أن يتم ذلك بطريقة لا تؤدي إلى قلب الوضع رأسا على عقب قبل الأوان[62]

وقد نفهم من المعلومات القليلة المتوفرة حول أحداث الصيف، أن خطة

---

(61) قرازياني المرجع المذكور ـ ص 31 ـ 35، وخطاب بادوليو إلى دي بونو، 25 أغسطس 1929 ـ المحفوظات التاريخية لأفريقيا الإيطالية ـ 90/21/150

(62) من بادوليو إلى سيشيلياني ـ 13 سبتمبر 1929 ذات المصدر ـ 90/21/150 كان سيشيلياني، على العكس من ذلك، يظهر تفاؤلا مطلقا (كان الوضع هادئا، وعمليات الاستسلام وعودة اللاجئين متواصلة، وعصاة سابقون يترددون بدون سلاح على المواقع التي سيطر عليها وسلوكهم ينم عن الاحترام والاستقامة (سيشيلياني إلى الوزارة 23 سبتمبر ـ المصدر المذكور، 90/21/150).

التشتيت وبث الشقاق التي قام بها الجانب الإيطالي لم تحقق إلا أهدافاً محدودة، غير أن زعماء السنوسية كانوا يعتبرون الحماية التي كانت توفرها لهم الهدنة خطرة عليهم. فبادوليو كان سخيا في منح المساعدات بصورة متسترة، دون أن يلتزم بعهود رسمية تضمن الدور الذي كانت تطمع في الاضطلاع به، وكان يرفض، على الأخص، التفاوض مع إدريس السنوسي، لكي لا يعترف له بسلطته السياسية. فالتفوق الإيطالي كان كبيرا في جميع الميادين، بحيث أصبحت للسنوسيين ذريعة حول سلام واقعي دون ضمانات محددة ودون تعرضها لخطر فقدان مواقع سلطتها، تدريجياً لذلك أعلن عمر المختار، في 20 أكتوبر 1929، أمام قيام السلطات الإيطالية بمحاولات جديدة في سبيل تمديد الهدنة، دون أن تسبقها مفاوضات سياسية مناسبة أعلن على قراره برفض أي تأجيل واعتزامه استئناف القتال اعتبارا من 24 أكتوبر.

وبعدما أوجز، في إعلانه، الملابسات التي أحاطت بالمحادثات التي جرت وملاحظة إن الطليان هم الذين أجلوا، بحجج واهية، الوصول على اتفاق نهائي، يواصل عمر المختار كلامه بقوله:

«أوشكت الهدنة الآن على الانتهاء، دون أن أتسلم أي رد من الحكومة الإيطالية، . لذلك أرى أنه أصبح لزاماً علي استئناف القتال، دون أي اعتبار لمحادثات أو تدخل أي وسيط... لا تثق فيه الأمة...

«فليعلم كل مجاهد (العبارة في الأصل: كل مقاتل) أن الهدف الوحيد الذي ترمي إلى تحقيقه الحكومة الإيطالية هو زرع الخلافات وحبك الدسائس والفتن بيننا لتمزيق تلاحمنا والقضاء على اتحادنا بحيث يسهل عليها التغلب علينا وانتزاع كل حق من حقوقنا منا، كما حدث مراراً في الماضي، ولكنها لم تفلح في تحقيق شيء من ذلك، والحمد لله. فليشهد العالم إن نوايانا نحو الحكومة الإيطالية نبيلة، وإنه ليس لنا أي غرض آخر، سوى التمسك بحريتنا، بينما تسعى إيطاليا إلى طمس أية حركة وطنية تستهدف النهوض بالشعب وتقدمه...».

«.. ونحن الآن ندافع عن بقائنا ونضحي بدمائنا فداءاً للوطن وفي سبيل بلوغ الأهداف التي نتوخاها بناء عليه، فإننا غير مسؤولين عن مثل هذا الوضع، وإننا سنواصل الكفاح إلى حين أن يرتدع أولئك الناس الذين يعتزمون استخدام العنف ضدنا

فيسلكوا سواء السبيل ويعاملونا بصدق ووفاء بدلا من الإغراء والمراوغة والخداع»[63]

(3) استئناف القتال :

إن إلغاء الهدنة من جانب واحد لم يتبعه مباشرة استئناف القتال، بل استنفر القيادات الإيطاليه (ولو إن التاريخ الرسمي للاستعمار الإيطلي كان بفصل تجاهل هذا المنشور، لكي يتسنى اتهام عمر المختار بالخيانة).

فعندما وقعت دورية من (الظبطية) (الفرع «المحلي» لشرطة الكاراسييري) في كمين بقصر (بن قديم)، في 8 نوفمبر، ولقي مصرعهم فيه أربعة من رجالها كان رد فعل سيشيلياني على ذلك فوريا وحاسما: إعادة تنفيذ عمليات التطهير، إلقاء القبض على (أفراد المقاومة) السابقين وإعدام كل من يتجرأ منهم على المقاومة، رميا بالرصاص (الضرب بأقصى العنف وبدون هوادة) كانت هذه هي الأوامر التي أصدرها نائب الوالي، الذي ما كان منه إلا أن أبدى أسفه الشديد لعدم (الانقضاض فورا على عمر المختار)، الذي كان موجودا، في تلك الاونة على الطرف الاخر من الجبل الأخضر.

«رغم توفر تقارير من مصادر مختلفه تستبعد مسؤولية عمر المختار المباشرة في حادث بن قديم، إلا أن أحداث الأربع وعشرين ساعة الأخيرة تؤكد استئناف نشاطه العدواني». جاء ذلك في برقية لسيشيلياني الذي يضيف قوله:

«لقد أصبح من العبث التشبث بالأوهام، إذ ما دام عمر المختار موجودا هنا لا يمكن أن يستتب السلام في برقة»[64] فاستغل دي بونو هذه الفرصة للحصول من

---

[63] فيما يتعلق بتاريخ منشور عمر المختار هذا ونصه فإننا مضطرون إلى الاعتماد على قرازياني (المصدر المذكور ـ ص 44) الذي لا يتبين منه لا وقت وصول المنشور إلى علم السلطات الإيطالية ولا تاريخ توزيعه على الأهالي.

[64] سيشيلياني إلى بادوليو ـ 8 ـ 9 نوفمبر ـ محفوظات وزارة افريقيا الإيطاليه ـ 150 21/90 ـ إن اعزاء أية مسؤولية مباشرة إلى عمر المختار عن كمين بن قديم يبدو مستبعدا (إذ لو كان الزعيم الأسطوري يريد فعلا استئناف القتال، لكان قد لجأ الى إتباع طرق ووسائل أخرى غير هذه، للقيام بعملية مباغتة) ولكن الحادث يندرج، على كل حال، في نطاق قرار عمر المختار

موسوليني على شجب سياسة بادوليو، ومن ثم أبرق إليه في 10 نوفمبر:

«إن ما كنت أتوقعه وأخطرتكم به في حطاباتي المتنوعة، أصبح يتحقق مع الأسف، فرئيس الحكومة بعد موافاته بمعلومات حول الوضع الراهن يوافق على اقتراحاتي الآتية:

(1) قطع كل محادثات مع العصاة، مهما كان نوعها، وعدم إبداء أي تسامح معهم، والهجوم عليهم بدون هوادة.

(2) تشديد الحراسة على جميع عناصر السوسيين الذين تحت أيدينا، علانية وإظهار احتقارهم دونما تسامح أو مجاملة.

(3) التوقف عن الحديث حول عمليات الاستسلام ما لم تحدث بالفعل (هكذا)

(4) إعدام الرؤساء الذين وقعوا في الأسر بحبل المشنقة (...).

«من الضروري إخفاء هذه النكسة السياسية إلى أقصى حد. وهنا يتعين الحرص الكامل على عدم تناولها بوسائل الإعلام (.) وذلك ما قمنا به هنا بالفعل فأسدلنا ستار الصمت عليها.

«ولكن نائب الوالي أصبح يظهر بصورة جلية (لا غبار عليها) عجزه وإنه تحت مستوى المنصب الذي يتقلده، فلا بد، إذا، من تغييره حالما يتيسر تنفيذ ذلك، دون الإشعار بالفشل الذي منينا به»[65].

وسيشيلياني، من واقع إدراكه لتضعضع مركزه وتحريض من بادوليو (الذي واصل الدفاع عنه في مواجهة دي بونو)، اندفع في طريق القيام بنشاط محموم تنظيم عمليات تطهير ومناورات لاحتواء المقاومة وتقويضهم، واستئناف الغارات الجوية

باستئناف الهجمات على الجبل، التي توقفت على أثر عقد الهدنة.

(65) دي بونو إلى بادوليو، 10 نوفمبر 1929 ـ المصدر المذكور ـ 90/21/150 ـ كان دي لئوني قد نقل قسما من هذه البرقية ـ ذات المصدر ـ ص 554 ـ وكان دي بونو يرى أن الوضع قد بلغ درجة من الخطورة دفعته إلى تقديم اقتراح إلى بادوليو يدعوه فيه إلى تأجيل الشروع في عمليات فزان وكان رد بادوليو على هذا الاقتراح أنه كانت لديه القوات الكافية لمواجهة الموقف في برقة ((14000 رجل، منظمين تنظيما جيدا) وكذلك لاستكمال إعادة احتلال قطر طرابلس (بادوليو إلى دي بونو ـ 12 نوفمبر 1929 ـ المصدر المذكور ـ محفوظات أفريقيا الإيطالية ـ 90/21/150)

الإرهابية وإلقاء المناشير من الجو، القصد منها في المقام الأول لفت انتباه الأوساط الوزارية والاستعمارية إلى مدى قوة عزيمته وحزمه، بعدما كانت تصمه بالضعف. وننقل فيما يلي (الأمر اليومي) الفائض بالبلاغة وتنميق الألفاظ الذي أصدره في 12 نوفمبر:

«لقد اضطرنا عمر المختار إلى استئناف العمليات العسكرية ضد العصاة. فلتكن حربا ضروسا قاسية، لا توقف فيها ولا مهادنة، ضد كل من يمتشق السلاح ضد الحكومة أو حتى يحمله بدون إذن منها.

كان لسلاح الطيران الفضل في الصدام الأول وفي المبادرة الرادعة وقد أنجز مهمته بطريقة تزيده فخراً واعتزازاً وتدعونا إلى الإعجاب به وبأمجاده. فعاد الطيارون إلى قواعدهم، مكللين بهالة من المجد. أما الطائرة التي تصاب، فتهبط في ميدان المعركة ورجال طاقمها شاهرون السلاح، وهم يدركون أن مصيرهم الأسر ولكنهم يدركون أيضاً أنهم قاموا بمهمتهم ببسالة فائقة، أنهم لا يعدون مهزومين، بل أبطال ملحمة أسطورية، جديرة ببطولات (الأجنحة الإيطالية) وتضحيات نسورها الأمجاد.

إن قلبي، كنائب للوالي وكجندي، يخفق مع قلوب جميع الإيطاليين، مدنيين وعسكريين، في المستعمرة، ليواكب أزيز محركات الطائرات ويتلاحم مع خفقان قلوب طياريها الأشاوس التي لا تقل صلابة عن حديد المحركات»[66]

في 16 نوفمبر، فوجئ (دور) عمر المختار، الذي كان من الواضح أنه لم يكن يتوقع التعرض لهجوم قوي، في قصر مراغ بوجود قوات إيطالية كبيرة كانت تنسق وتتأهب لتقويضه، فما كان عليه إلا أن يلملم شتاته ويولي الأدبار، بعدما مني ببعض الخسائر[67]. فزاد هذا الانتصار من قناعة سيشيلياني بأن عمر المختار لم يعد يعتمد إلا

---

[66] (الأمر اليومي (الذي أصدره نائب الوالي سيشيلياني في 12 نوفمبر 1929 ـ المحفوظات التاريخية ـ 90/21/150 ـ وفيما يتعلق بسلاح الطيران، راجع (النوبي) المصدر المذكور ـ ص 159 ـ 160 ـ في الفترة بين 12 إلى 25 نوفمبر، قامت الطائرات في برقة بعشر غارات بالقنابل والقصف بالرشاشات، واستغرق مجموع (الطلعات) لأغراض قتالية، 360 ساعة، كانت تستهدف جميعها ضرب تشكيلات العصاة والقوافل والمخيمات المشبوهة.

[67] سيشيلياني إلى دي بونو وبادوليو 18 نوفمبر 1929 ـ المصدر المذكور 90/21/150

على قوات محدودة بسبب تقلص نفوده على الأهالي المستسلمين[68] فدور البراعصة ـ الدّرسة، مثلاً، لم يشترك في المعارك على الفور، بل تردد كثيراً. لينغلق على نفسه فيما يشبه الحياد المسلح، الذي شجعه عليه سيشيلياني برفضه تنفيذ دعوات دي بونو لتجريد دور الدرسة من السلاح بالقوة ولكن السلطات الإيطالية كانت (في الواقع) تقلل من عمق جذور المقاومة، لأن عمر المختار سرعان ما استرد سيطرته على الجبل، بتأييد معظم الأهالي. خاصة بعد تمرد دور البراعصة ـ الدرسة، على الحسن الرضا، رغم إصرارهم على عدم استئناف القتال، إلا أنهم في أوائل شهر يناير ثاروا على الحسن علانية وكسروا طوق الحراسة الإيطالية، وبذلك استرجع الدور مكانه إلى جانب عمر المختار، مسجلا بذلك الفشل النهائي لسياسة المصالحة الظاهرية التي كانت في الواقع سياسة بث الشقاق والتنازع بين العشائر. استغل دي بونو هذا الوضع المستحد ليوجه، في 10 يناير، تنبيها شديد اللهجة إلى سيشيلياني (وضمنا إلى بادوليو، الذي ما زال يسانده):

«لقد حدث، لسوء الحظ، ما كنت أتوقعه، حتى هذه المرة، حيث لم أتوقف على مدى شهر، عن النداء إلى عدم وضع الثقة في أحد. كنت قد ألمحت، في خمس مناسبات على الأقل، على ضرورة تجريد الدور من السلاح، ولكن سعادتكم اكتفيتم بالتشبث بالأوهام التي ظلت تراودك، إن سعادتكم تتفقون معي على أننا لم نخرج، حتى هذه المرة، بصورة مشرفة لقد سعيت بكل الطرق إلى الإقناع بأن أي تنازل كاد في نظر العصاة علامة ضعف. وهذه الواقعة الأخيرة لها طابع العصيان ثقوا، سعادتكم، إن الحسن لم يتبع جماعته إلا لكونه لم يتمكن من ذلك لذلك ضعوه في حالة إعتقال لديكم، خذوا التدابير اللازمة للحيلولة دون انتشار العصيان ولمنع المتمردين من الانضمام إلى عمر المختار، إن أمكنكم ذلك»[69].

---

[68] كان سيشلياني يقدّر أن عمر المختار قد خسر ثلثي قوام مسلحيه، خلال فترة الهدنة، ولم يعد باستطاعته الاعتماد إلاّ على حوالي 500 مقاتل، راجلين، و 300 فارس، مع قافلة تتألف من ألف رأس من الإبل

[69] دي بونو إلى سيشيلياني ـ 10 يناير 1930 (ذات المصدر 90/21/150) سبق أن نشر هذه البرقية دي لئوني، ـ المرجع المذكور، ص 554

وفي ذات الوقت أبرق دي بونو إلى بادوليو، مطالب (برأس) سيشيلياني وتشديد إجراءات قمع المقاومة:

«لقد تكررت المأساة، كما كنت أتوقع. وها أنا أخطركم بما أبرقت به إلى بنغازي سيشيلياني لا يبدو لي أنه عند مستوى الوضع الدقيق تصرفوا، سعادتكم، بما ترونه بشأن اتخاذ تدابير لا مناص من اتخاذها، مع الحرص على عدم تبديد القوات ورأيي هو أنه سوف لن يكون هناك مناص من إعداد ميادين الاعتقال وسوف نتحدث عن ذلك حالما يسوى الوضع في طرابلس. إلا أنه من الضروري إعطاء الانطباع (في برقة) بتغيير النظام بصورة كاملة وشاملة»[70].

وفي ذات اليوم قام سيشيلياني، في محاولة يائسة لإنقاذ مركزه المتصدع، بإصدار منشور كان يتضمن أيضا إعلانا عن تشديد عمليات القمع

«منذ شهر إبريل وحتى شهر نوفمبر، استمتعتم بلذات العيش الهانئ والسكينة، ونعمت البلاد بالخير والطمأنينة فساعدت الحكومة الأهالي، وعفت عن الجرائم والمجرمين وأخلت السجون من نزلائها، وانتظرت في صبر وأناة أن تتسلل إلى قلوب العصاة الرغبة الصادقة في استتباب السلام والتخلي عن امتشاق السلاح. ولكن ذلك كله كان ضربا من العبث والتوهم. لقد خان عمر المختار، واستأنف القتال ليهدر دما جديدا. فجرت دعايته وراءها ارتداد من سبق أن أعلنوا ولاءهم (بنية مبيتة) للحكومة، وفعلا قام قسم من مسلحي دور الحسن الرضا، متنكرين للعهود التي قطعوها على أنفسهم والتزموا بها وللمدافع التي حصلوا عليها من الحكومة، بعمليات غزو وإغارة على المستسلمين. وعندما أرادت الحكومة القصاص منهم انضموا إلى عمر المختار وتمرد غيرهم على أول حكم عادل أصدرته الحكومة وأطلقوا النار على قواتها. ولكن، قضى عليهم في الكامل، لقاء تطاولهم واستخفافهم بصولة الحكومة

والحسن الرضا، الذي اعترف بهذه الإساءات الجسيمة لم يرض البقاء مع المتمردين على الحكومة، فانسحب ليعيش في هناء مع أسرته في بنغازي.

لقد أهدر دم جديد وفقدت أرزاق وضاعت ثروات أخرى وأخذت السجون

---

[70] دي بونو إلى بادوليو، 10 يناير 1930 ـ المحفوظات التاريخية، 90/21/150

تمتلئ من جديد . وفداحة مثل هذه الأضرار تقع تبعتها على عمر المختار وعلى من يدفعه إلى التمادي في العصيان، هو وأتباعه.

أنصتوا إلى كلامي... وتذكَّروا كلمة صاحب السعادة، الوالي، المشير بادوليو فمن بقي على ولائه ولم ينضم إلى العصاة استمر في التمتع بالسلام والسكينة والطمأنينة والرفاهية، ومن تقدم من العصاة وسلم بندقيته وذخيرتها، منح العفو والأمان، جزاء لمن أقدم على خطوة حكيمة كهذه وحرب شعواء لا هوادة فيها على من تمادى في غيه وعلى أولئك الذين يقدمون الدعم والمساعدة للعصاة، متسببين بذلك في استمرار وقائع وأحداث من شأنها أن تؤدي، في النهاية إلى تدمير خيرات البلاد»[71].

إن قيام بادوليو باقتراح اتخاذ تدابير إرهابية بالغة الخطورة وبتأكيد مساندته لسيشيلياني، يكتنف الكثير من المعاني والعواقب، وهي النقطة الوحيدة التي أجمع عليها رأي جميع القيادات الإيطالية:

«إنني أقرك على عملك في الكامل، واصل عمليات التطهير وسوف تلاحظ أن شيئا ما قد يبرزه وتذكر أن هناك أمرين لا بد منهما بالنسبة إلى كل عمل ضد عمر المختار. أولا: قلم مخابرات ممتاز، وثانيا مفاجأة (جميلة) للعصاة، وهي الغارة عليهم بالطائرات وإلقاء القنابل (الابريت)[د] أرجو أن ترسل إليكم هذه القنابل في أقرب فرصة ممكنة»[72].

ثم تولى المشير الدفاع عن سياسة سيشيلياني في الرقية التي بعث بها إلى دي

---

[71] منشور نائب الوالي سيشيلياني، 10 يناير 1930 ـ المصدر المذكور 90/21/150.

[د] غاز سام، من النوع الذي استعمله الألمان في بلجيكا، إبان الحرب العالمية الأولى.

[72] بادولو إلى سيشيلياني، في 10 يناير 1930 هنا أيضا تغيير الخط المطبعي من وضعنا لم يتبين أن الطليان استخدموا الغازات الخانقة في قمع المقاومة الليبية، ولكن بالرجوع إلى الوثائق التي جمعها (ايريك ساليرنو) وأوردها في كتابه (إبادة جماعية في ليبيا) ـ فظائع التعذيب الخفية أثناء المغامرة الاستعمارية ـ 1911 ـ 1931 ـ ميلانو ـ سوقركو ـ 1979 ـ ص 45/ 63 ـ يثبت استخدام الغاز في عدة مناسبات

بونو يطلب فيها منه تأجيل إصدار أي قرار بشأنه[73]، مردفه بتقرير مسهب يوجز فيه النتائج التي تم تحقيقها في برقة خلال اثني عشر شهرا فكتب بادوليو يقول:

«في يناير 1929، لم تكن هناك نقطة آمنة واحدة على طول المستعمرة وعرضها، وعلى بضع خطوات من أية حامية من حامياتنا كان هناك شعور سائد بالتعرّض في أية لحظة للإغارة والاعتداء) فالجهاز العسكري الإيطالي كان في حالة تأزم مستمرة، إذ أن قوات الحملة على ضخامتها موزعة على عدد لا يحصى من المخافر والحاميات بتشكيلات يعوزها التماسك التنظيمي وبالتالي فهي عاجزة عن القيام بعمل هجومي من واقع تفكك وسائل الإمداد وضمان الإسناد الميداني. أضف إلى ذلك تدمر روحها المعنوية بسبب ما يستبد بها من شعور بأنها مطوقة

«وكان الأهالي محشورين بين نارين، فهم، ظاهريا مستسلمون للحكومة، ولكنهم في الواقع كانوا مرغمين على دعم العصاة ومساندتهم، والجالية الإيطالية (نفسها) كانت تمر بأزمة خطيرة، حيث أنه (يلاحظ انعدام الثقة وعدم الاكتراث في الكثير من الموظفين، المدنيين منهم والعسكريين والنميمة والأقاويل منتشرة حتى وصلت أخبارها إلى إيطاليا ذاتها، أضف إلى ذلك انتشار ظاهرة الرشوة في الإدارة، التي لم يعد من الممكن التستر عنها أو إخفاؤه، حتى رفع أمرها (كما هو معلوم) إلى النيابة العامة».

ثم يسترسل التقرير ليؤكد أنه، إزاء وضع على هذه الدرجة من اللبكة والصعوبة كان بادوليو وسيشيلياني مرغمين على الاعتماد على الوقت، وما قبولهما الهدنة إلاّ للحصول على مهمة بضعة أشهر ثمينة. هذا وكان برنامجهما يقضي بإعادة تنظيم شامل للقوات المسلحة يجعلها أكثر سرعة للتنقل والحركة (وكان سبب عدم وجود تشكيلات سريعة الحركة بالذات، في صيف 1929، أن امتنع على سيشيلياني فرصة تجريد الأهالي و(الأدوار) من أسلحتهم)، وبمد شبكة من الطرق فوق الجبل، مما

[73] بادوليو على دي بونو، 10 يناير 1930، (ردا على برقية دي بونو لذات اليوم) ـ المحفوظات التاريخية ـ 150/21/90 ـ (كان بادوليو يؤكد على أنه لا لزوم لاتخاذ أي إجراء بهذا الصدد، فالوضع أصبح واضحا وقواتنا في مقدورها مجابهته باطمئنان).

يوفر عملا للأهالي ويعطي القوات المسلحة حرية التحرك، وإقامة حط من الحصون من شأنه أن يوفر الحماية فعلا للمستسلمين ضد هجمات أفراد المقاومة إن هذا البرنامج ـ يواصل بادوليو حديثه في تقريره ـ قد أتم إنجار معظم جوانبه بصورة باهرة، الجنرال سيشيلياني، وحتى خيانة عمر المختار، التي أثارت الدعر في روع دي بونو، كانت قد وجهت بهدوء ورباطة جأش لا شك أن التوصل إلى إقامة سلم حقيقي قد تأجل، ولكن استئناف حرب العصابات قد انقلب إلى غير صالح المقاومة، وهو ما حمل على الأمل في تدميرهم بصورة نهائية على المدى القريب، وكان بادوليو يرى أن كشف حساب عمل الحكومة خلال السنة، إيجابيا إلى حد كبير. ويختتم تقريره بلهجة عنيفة وبتحد: (إن نائب الوالي سيشيلياني، أكرر مرة ثانية، ما زلت أثق فيه ثقة عمياء[74].

* * *

رابعاً : العمليات على الجبل في سنتي 1930/ 31 م.

1 ـ قراتزياني وسياسة التشدد :

يرتبط القضاء على المقاومة في برقة خلال عامي 1930 ـ 1931 باسم قراتزياني، الذي كان صانعه ومن عدة وجوه، بطله الأول. والدعاية الفاشية، أولا، ثم واضعوا التاريخ (ارسمي)، ثانياً، مالبثوا يشيدون بشخصيته ويمجدون مناقبه حتى طمسوا مآثر ومسؤوليات رؤسائه ومرؤوسيه، على السواء، مارين مر الكرام بتضافر الظروف المواتية والوسائل المتوفرة التي سهلت عليه الانتصار، وغاضين النظر عن أحطائه ومتناسين مساوئه وبالخصوص الثمن الباهظ في الأرواح الذي كلفته سياسه العنف والصرامة، هذه التي لم يحتاروا في إيجاد ما يبررها.

أما أسباب حظوته لدى وسائل الإعلام الفاشية، وفي مؤلفات التاريخ الاستعماري فمتعددة قراتزياني كان أشهر (الحرالات) الاستعماريين الطليان، إد

---

[74] المصدر السابق.

نجده يبرز في جميع الحملات الفاشية على أفريقيا، لما له من كفاءة وحظ، بدون شك، أضف إلى ذلك هيئته وتكوينه الجسماني وملامحه الصارمة وحدسه الرهيف في المظاهر والحركات المثيرة وقدرته على الكلام المشحون بالحمل والشعارات البلاغية التي كانت تجعل منه (بطلا فاشيا أصيلا) وإلى جانب ذلك كان مقربا للنظام الفاشي وأكثر التصاقا به، أكثر بكثير من كبار القدة الآخرين، ذلك لأنه لا ينتمي، لا من حيث نشأته ولا تدرجه في الرتب، إلى السلة الملكية في الجيش (فكاد من ضباط الاحتياط ولم يتخرج من أية كلية أو أكاديمية عسكرية وبالتالي كان يحصل على التقدم في الرتب في الميدان)، فكان عليه أن يندفع لتخطي التدرج في الرتب التقليدية، نحو البحث عن دعم ومساندة الأوساط الفاشية وعن طريق قادتها (دي بونو، بالنسبة إلى الفترة التي نحن بصددها، وموسوليني نفسه، فيما بعد) وذلك بالمبالغة في التصريح بولائه للنظام وتقديم الأدلة على كفاءته ونجاعة عمله. والدليل على رهافة حسه بمتطلبات الدعاية، وفرة مؤلفاته، التي تتناول سيرته الذاتية، وخروجها في الأوقات المناسبة: فكتابه (إعادة السلام إلى برقة)[29] أو (برقة بعد ترويضها) وهو الكتاب الذي يسرد فيه أحداث العامين الحاسمين في تحطيم المقاومة، صدر قبل انقضاء سنة على الأحداث التي يتناولها، ويشكل إلى يومنا هذا وثيقة بالغة الخطورة والإفادة (لم يكن قراتزياني يولي مراعاة خاصة في سرد الوقائع على حقيقتها، عندما يرى أنها تمسه هو شخصياً أو تنال منه أو من مركزه ومكانته، ولكنه (في ذات الوقت) يظهر اعتزازه بنفسه وتأكده من حماية الحكم الفاشي له، إلى درجة أنه لم يشعر بغضاضة في عدم إخفاء فظاعة حملة القمع التي كان يقودها). كانت مؤلفاته تشكل، في المقام الأول، نصبا تذكارياً للدعاية لنفسه التي كانت تتقبلها، بدون نقاش أو نقد، محافل كتبه التاريخ الاستعماري الرسميين.

أما شخصية قراتزياني التي تبرز أمامنا بالبحث والتنقيب في وثائق المحفوظات التاريخية، فتختلف اختلافا كبيرا عن شخصيته كما تظهرها التقاليد الاستعمارية، وأبرز هذه الخصائص التي نستشفها من خلال الاطلاع على المراجع، حرصه، حتى

[29] المصدر السابق.

الهلوسة، على تأكيد شخصيته وتمجيده، إلى درجة تدفعه إلى اعتبار الأصدقاء والأعداء، على السواء، مجرد قطع يستخدمها لفوزه الشخصي وبالتالي إلى جره إلى تحمل مسؤولية أخطر الإجراءات وأمقتها بدون تردد إذ ما رآها تخدم أغراضه، وإلى حبك الدسائس، بدون وازع ضمير، ضد رؤسائه ومرؤوسيه ليستأثر شخصيا بكل مزية وفضل، غير أن عقدة الاضطهاد والملاحقة التي لم يقدر على إخمادها، تظهر من خلال كتاباته بصورة متزايدة، ليس لها إلا مبرر جزئي يكمن في جو التسلق والوصولية والفساد المستشري في حركة الاستعمار الإيطالي.

وكفاءته وحنكته كمنظم وقائد لأنماط الحرب العصرية في الصحراء (التي اكتسبها من خلال الحملات الاستعمارية على أفريقيا في فترة ما بين الحربين العالميتين) لم تختبر بمحك شت جوهرها إلا في فترة ولايته على برقة، وفقط بالنسبة لاحتلال الكفرة لأن الجبل الأخضر كان يتسم بأوضاع جغرافية واجتماعية تختلف عن الصحراء.

هذا ولم يظهر قراتزياني خصائل القائد الكفء والمنفذ الحازم، كما سنرى بالتفصيل فيما بعد، إلا في قمع حركة المقاومة الذي أثبت من خلاله أنه عرف كيف ينسب لنفسه كامل الفضل في تحقيق (النصر) أكثر من إظهار عبقرية في سياسته وإستراتيجيته و حتى تبجحه بمعرفة العقلية والبيئة العربية لا بد من إخضاعه لإعادة النظر والتقييم، لأنه لم يكن أصلا مهتما بالثقافة والمجتمع العربي، بل كل ما عرفه عنهما كان من خلال ممارسة طويلة للحكم في المستعمرات وبالتالي فهو لم يكن يعني بأكثر من متابعة شؤون الأهالي بروح مفعمة بالتعالي والعنصرية.

كان اختيار قراتزياني لخلافة سيشيلياني، بعد (تنصيبه) في منصب نائب الوالي إجراء منطقيا، بالنظر إلى مكانة قراتزياني كقائد وشهرته بالحزم والصرامة، في فترة كان قد أجمع فيها المسؤولون على ضرورة العودة إلى سياسة قمع عشوائية، ولكن اختياره كان يمثل أيضا انتقاما، دبره دي بونو والأوساط الاستعمارية لزحزحة مركز بادوليو، تمهيدا للإطاحة به.

فعندما كان موجودا في إيطاليا، في مارس 1930، لتلقي تعليمات الوزارة قبل توليه مهام منصبه الجديد (بعدما كان قد انتهى من احتلال فزان خلال شهري فبراير

ومارس) حصل قراتزياني من دي بونو ومن المسؤولين عن المستعمرات وعوداً صريحة بالدعم والتأييد، إذا ما حاول بادوليو (بصفته رئيسه المباشر) الحد من حرية عمله، في سبيل مواصلة سياسته للتصالح[76]. والإرشادات التي زوده بها موسوليني كانت صريحة، ولو أنها لم تكن جديدة، قطعاً:

(1) أحكام الفصل المطلق بين المستسلمين وغير المستسلمين، سواء من حيث مواقعهم أم في مجال العلاقة بهم وبحركة تنقلاتهم.

(2) توفير الحماية والأمان للمستسلمين، مع مراقبة جميع تحركاتهم وأنشطتهم.

(3) تخليص المستسلمين من كل نفوذ للمقاومة والحيلولة دون قيام ممثلي (عمر المختار)، أياً كانوا باستيفاء أي نوع من الأعشار أو الزكاة.

(4) مراقبة الأسواق بصورة مضطردة ودقيقة، وإعلاق الحدود المصرية بصورة مطبقة، بحيث تسد في وجه العدو كل مصادر الإمداد أو التموين.

(5) تطهير الأوساط المحلية، بداية من أهم مراكز المدن وخاصة بنغازي، من المشبوه فيهم والمتسللين، بانتظام وتنسيق وصرامة.

(6) استخدام عناصر غير نظاميين، لمكافحة حركة قطاع الطرق المعادية وللقيام بعمليات انتقامية مكثفة، هدفها الأخير تطهير أراضي المستعمرة من أية تشكيلات مسلحة معادية[77].

* * *

[76] تراجع، بين مخطوطات قراتزياني، الرسائل التي كان قد بعث بها إليه دي بونو منذ شهر فبراير، وكذلك رئيس مكتبه (دي روبينس) وتضمنت عرضاً صريحاً للتحالف (المخطوطات المركزية للدولة ـ حافظة قراتزياني ـ 2/2/1 ـ).

[77] من دي بونو على بادوليو وقراتزياني ـ المصدر المذكور 2/2/1 (27 مارس 1930)، وكذلك المخطوطات التاريخية 90/22/150 ـ نشره قراتزياني بشيء من التعبير، المرجع المذكور، ص49.

عندما وطئت قدما قراتزياني بنغازي في 27 مارس[78]، وجد حركة المقاومة تنمو وتتطور على أشدها، فمنذ استئناف القتال كان أفراد المقاومة قد فقدوا 380 من رجالهم و 150 بندقية (وعمر المختار نفسه كان قد أصيب بجراح في وادي محجة) إلا أنهم كبدوا القوات الإيطالية خسارة 6 ضبط و 6 صباط صف قتلوا، وقتل 102 (عسكري) وفضلا عن ذلك ظل زمام المبادرة للعمليات ـ دائما ـ في قبضة عمر المختار، لأن حرية تحركه على الجبل لم يكن يحدها أي قيد[79].

كانت أول مهمة تقلق باله حال تقلده منصبه الجديد إجراء وتحليل دقيق للوضع ليستنبط منه العناصر التي تمكنه من الوقوف على حقيقة الروابط التي كانت قائمة بين الأهالي وقوات المقاومة، رغم الأفكار الواضحة التي كانت لديه حولها، وهي:

أ نشاط الثوار الذي ينتشر في كل مكان ليشمل الجميع، والجميع يأملون في أن تضطر الحكومة إلى الرضوخ وإبداء تنازلات شتى، وبعدما عجزت عن تحقيق السلام بقوة السلاح لذلك فإن جميع الأعيان على اختلاف نزعاتهم ومشاربهم والأهالي المستسلمين أو غير المستسلمين يسعون جهدهم لإبقاء حركة المقاومة قائمة على قدميها، أي الإبقاء على حالة البلبلة واضطراب الأمن والسكينة بين الأهالي. إن هذا هو الواقع والحقيقة بعينها وإنكارها يعني تعمد غض النظر عنها وعلى العكس من ذلك ينبغي الاعتراف المطلق بها والإقدام على اجتثاث نفوذ المقاومة من جذوره، وهو مصدر كل البلابل، حيث إن المقاومة تحرك بطرق لبقة ورفيعة من الصعب الوصول إليها وتداركها أحياناً، حيوط هذا العزل الملبث

ب إن عمر المختار لا يتصرف (اليوم) في أكثر من 600 مقاتل، يتسلط بهم على الأهالي ويحاول أن يسدد بهم الضربات لمؤسساتنا ومنشآتنا، ويتوغل بها في غزواته إلى أن ينفذ (أحيانا) إلى الساحل، كما حدث مؤخرا على الشريط بين

---

[78] منذ اليوم الأول من وصوله، قدم قراتزياني نفسه لمواطنيه في بنغازي بهذه العبارة (إن عملي هو التمسك بمبادئ الدولة الفاشية والولاء لها، لأنني، بصفتي قائد فرقة عاملة في الحبش، أحرص على التصريح أن مبادئي فاشستية خالصة (قراتزياني، ذات المصدر ـ ص 51)

[79] عشر سنوات من تاريخ برقة ـ السالف الذكر.

طوكرة وشحات، ودرنة، حيث استطاع نفر من رجاله التسلل إلى داخل الأحياء السكنية والخروج منها، بدون عقاب وبدون تحديد مسؤولية.

ح - إن بعض الأهالي المستسلمين مرتبطون برئيس الطائفة السنوسية المحلي ومريديه بروابط طائفية وصلات قرابة أو مصاهرة، لأن (دوره) يتألف من رجال ينتمون إلى شتى القبائل ويدفعون (طوعا أو قسرا) الحرية إلا أنهم يعزفون عن المبادرة بهجوم كاسح، وإن أقدموا عليه لتلاشت المقاومة خلال 15 يوما.

وفي مثل هذه الظروف وبدون علاج جذري يقضي على هذا التنظيم من أساسه فإن الوضع سيستمر على هذا المنوال لعشرات من السنين، لأنني استبعد أن يمكن العمل العسكري، مهما كان شديدا وصارما، من القضاء نهائيا على (الأدوار) التي هي أبدا متحفزة لإعادة تنظيم صفوفها بواسطة ما يشبه عملية التناضح الكيماوي، ولها في مضارب المستسلمين مورد لا ينضب.

هذا ويقارن الوضع في برقة، في نظري، بوضع جسم تظهر عليه قرحة متقيحة في جزء ما منه (والقرحة في هذه الحالة هي دور عمر المختار، وحصيلة وضع نحره التسمم وتفشى فيه السقم). ولعلاج هذا الجسم المريض لا بد من تدمير مصدر هذا الورم الخبيث أكثر من الاكتفاء بعلاج آثاره (...)[80].

وهذا التحليل (شأنه التحاليل السابقة المماثلة التي سبق ذكرها) كان ينسجم في الكامل مع ما اتسمت به الثقافة الاستعمارية، أي القصور في الوقوف على حقيقة لب المشكلة وقاعدة المقاومة الجماهيرية، أخذا في الاعتبار أوضاع مجتمع الجبل الأخضر وطبيعته. فبالنسبة إلى قراتزياني - شأن من سبقوه في الحكم - إن ما كان يجب الاعتداد

---

[80] قراتزياني إلى بادوليو - 5 أبريل 1930 - المحفوظات المركزية التاريخية - ملف قراتزياني - 2/1 .2، ومحفوظات أفريقيا الإيطالية 98,22/150 (كما نشره روشا، المصدر المذكور، ص13) هذا وكان قد أجرى تحليلا أكثر إسهابا وتبسيطا، ولكن أقل منه عمقا، قراتزياني في كتابه المذكور، ننقل منه هذه النبذة (إن المشكل يكمن في أننا نجد جميع أهالي برقة ضالعين، ومتلاحمين مع المقاومة، فهناك حصر كامن في من يسمون المستسلمين، من جهة، ومن جهة أخرى هناك الثائرون علينا بسلاحهم في الميدان باختصار كانت برقة بأسرها متمردة علينا) (قراتزياني - المصدر المذكور - ص 57)

به هو بلوغ السيطرة الكاملة على الموقف عن طريق تفكيك الكيان السياسي والاجتماعي التقليدي، وهكذا استخلص من كل هذه الاعتبارات ـ في عام 1930 ـ أن الطريق الوحيد الذي لا بد من إتباعه هو طريق الأساليب الفظة القاسية التي اختبرت في الماضي.

فخلال فصلي الربيع والصيف من تلك السنة، قام قراتزياني بقفل الزوايا ونفي شيوخها وصادر أموالها المنقولة والعقارية (وهذا الإجراء الأخير حرصت إيطاليا دائما على تحاشيه، لأن الحكومة الفاشية لم تشأ استعداء البلاد الإسلامية) وباتخاذ إجراءات قاسية لتطهير صفوف المستسلمين بقطع المرتبات عمن كانوا يتقاضونها من الحكومة، فضلا عن تقديم الكثيرين منهم إلى المحاكمة بتهمة الخيانة، وباعتراضه على (الحياد) أو عدم الاشتراك في مكافحة المقاومة، بأي شكل من الأشكال. وفرض تجريد الأهالي المستسلمين من السلاح ومطاردة المواطنين مع (الأدوار) بإقامة محاكمات صاخبة كانت تقضي بإعدام كل من وجد بحوزته سلاح أو أدين بأداء الأعشار للمقاومة[8]. كما قام بتسريح مجندي الكتائب الليبية ويخفض عدد سرايا (الصواري) ووحدات الأمن (الدوريات والعصابات غير النظامية) التي كثيراً ما كانت تساعد، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، حركة المقاومة، وبمنع أي نوع من الاتجار مع مصر،

---

[8] وقام قراتزياني (المحكمة الطائرة) التي كانت تنتقل بكامل هيئتها جوا إلى مختلف أرجاء برقة لتبت في حالات التلبس بالجرائم، على مشهد من الأهالي، وإصدار أحكامها، بالإعدام، التي كانت تنفذ في الحال وفي العام الأول من ولاية قراتزياني نظرت هذه المحاكم في 520 قضية، أصدرت بشأنها 119 حكما بالإعدام، نفذت على الفور، و117 حكما بالسجن لمدد متفاوتة (قراتزياني ـ ذات المصدر ـ ص 144). كان يرأس المحكمة الطائرة الجنرال (أوليفييري Olivieri)، وهو محام عسكري، سوف يقر المحاكم التي كان قراتزياني يطالب بها في أديس أبابا (راجع روشا ـ (محاولة اغتيال قراتزياني والقمع الإيطالي في الحبشة 1936/ 1937)، في مجلة (ايتاليا كونتمورانيا ـ عدد 118 لعام 1975) وبحسب إشاعة صادفت انتشارا كبيرا، فإن قراتزياني، أدخل إجراء جديدا لإعدام أفراد المقاومة والمشتبه فيهم، وإلقائهم من الطائرات، غير أننا لم نعثر على أية وثيقة تؤكد ذلك ولا أن الطائرات المرابطة آنذاك في برقة كان طياروها يقبلون القيام بمثل لعبة الموت هذه.

لتسهيل القضاء على عمليات التهريب التي كانت لها أهمية بالغة بالنسبة لاقتصاد الجبل وتغذية حركة المقاومة، ثم شرع في بناء شبكة من الطرق فوق الجبل، وهو ما كان أسلافه قد أخفقوا في تحقيقه، في أي وقت من الأوقات[82].

وأعلن عن هذه التدابير بالإسفاف في التصريحات المدوية المشيدة ببعد نظر سياسة قراتزياني وصرامتها، بأسلوب الدعاية الفاشستية الذي كان يثير نفور بادوليو[83] ولكنه كان يحظى بالتهليل والترحيب في أوساط الاستعمار الفاشي في روما، فدى روبيئس De Rubeis رئيس ديوان دي بونو، مثلا، أبرق إلى قراتزياني بما نصه: «التدابير التي اتخذت قوبلت بموافقة الوزير الكاملة وبحماس شديد من قبل كبار موظفي الوزارة. ثم إن أسلوب البرقيات قد أثار الإعجاب إلى أبعد حد وفقتم يا قراتزياني.»[84]. وعرض دي بونو إحدى هذه البرقيات على موسوليني معلقا عليها بهذه العبارة: «منها (أي من هذه البرقية) ستلاحظون أسلوب حكم جديد وتستشفون إدراكا رفيعا للوضع، وتتأكدون من نجاحه. كل ما نرجوه هو أن يمكنه بادوليو من انجاز عمله»[85]

---

[82] للحصول على مزيد من التفاصيل، نحيل القارئ على كتاب قراتزياني السالف الذكر والذي كثيرا ما يلاحظ عليه عدم الدقة والآراء المسبقة، مع أنه يزخر بالمعلومات المستقاة من مصادرها المباشرة.وحول عمليات القمع في برقة، راجع أ.ساليرنو، المرجع المذكور

[83] وبادوليو الذي كان يعرف كيف أن هذه التصريحات الرنانة كانت ترمي إلى الرفع من شأن قراتزياني، لم يكف عن إسداء النصيحة إليه بالتزام البساطة في أسلوبه. (لا يغيبن عن ذهنك أن أفضل دعاية هي دعاية الأفعال) ـ10 أبريل ـ (إن عملية تجريد الأهالي من السلاح هي العملية الوحيدة الناجحة والباقي هراء (12 أبريل) وعندما أبرق قرارات يبني إليه، قائلا (استمرارا للعمل المنتظم لتفكيك وتدمير جميع المواقع القائمة حتى الآن، وجميع المعطيات التي ساهمت في الماضي في النيل من هيبتنا وأفرغت تأكيدنا على السيطرة الكاملة من كل محتوى، أصدرت الأوامر باعتقال جميع شيوخ الطريقة السنوسية) (29 مايو)، رد عليه بادوليو بلهجة جافة: (مقدمة البرقية سبق لسعادتكم أن كررتموها مرارا أرى من العبث تكرار ذكرها لك إحراء.لذلك اكتفوا، سعادتكم، بذكر التدابير التي تتخذونها) (30 مايو) ـ جميع هذه البرقيات مودعة بالمحفوظات لتاريخية المركزية 2/2/1 ـ.

[84] دي روبيئس إلى قراتزياني ـ المحفوظات التاريخية المركزية ـ م ق/2/2/1.

[85] دي بونو إلى موسوليني ـ أول أبريل 1930 ـ المرجع المذكور ـ أمانة مكتب موسوليني الخاصة ـ

وعلى هده الوتيرة تطورت المراسلة بين قراتزياني والوزارة من وراء بادوليو الذي كتب إلى مرؤوسه ـ الذي لا يقر له قرار ـ في 14 مايو ينعي عليه سلوكه، عبثاً:

«إن محاولة بث الشقاق بيننا كان مقصد الوزارة نفسها، مع الأسف ـ وأنتم في نظري ما زلتم قراتزياني الذي أعرفه منذ سنة 1922، وعملت معه دائما في وفاق وانسجام كاملين (..) وعلى مدى حياتي الطويلة في السلك العسكري لم تقم أية مغالطة بيني وبين أحد من أتباعي، ولن يكون لي شيء من ذلك معكم، لأنني لمست فيكم صفات الرجل المقدام المدفع أحيانا، ولكن أيضاً الرجل الوفي والكريم في جوهره»[86].

إلا أن انتهازية قراتزياني كان لابد أن تثبت نجاعتها بمحك الاختبار الحاسم، أي بتحقيق النصر في الميدان، ذلك أن سياسة الشدة والصرامة كان من شأنها أن تضعف حركة المقاومة، ولكن تدمير الأدوار لن يتحقق إلا بالعمل العسكري.

كان قراتزياني يدرك كل ذلك، ومن ثم فإنه شرع في إعادة تنظيم القوات التي كانت تحت إمرته والتي استقر قوامها في حدود (13000) رجل (ألف منهم بين ضابط وضابط صف، وثلاثة آلاف جندي إيطالي وتسعة آلاف (عسكري جلهم من الايرتريين) منتظمة في 8 كتائب (بطاليوني) ايريترية وثلاث سرايا دروع وسرية خاصة لحراسة الحدود، محملة على الشاحنات، وتشكيلتين صحراويتين، و 4 سرايا (صواري) وبطاريتين متحركتين، وفضلاً عن ذلك، (جوقة) كتيبة من رجال «الميليزيا» (القمصان السوداء) وقوام كتيبة، موزعة للمرابطة في الحاميات، ومجموعة من

ACS-SPD ـ بالمقارنة بالملف الخاص ببادوليو.

(86) بادوليو إلى قراتزياني، 14 مايو 1930 ـ المحفوظات التاريخية المركزية، ملف قراتزياني 2/2/1 ـ كانت غطرسة الوزارة وسذاجتها قد بلغت درجة من التهور دفعت دي بونو إلى الكتابة لقراتزياني، في 13 يونية، ليخاطبه بمناسبة قرب قيام بادوليو بزيارة إلى برقة، بهذه العبارة «هذه تعليمات نخصكم بها وتقضي بعدم جمع الرؤساء (المحليين) لمقابلته وبعدم إتباع طريقة المحاطنة التقليدية القديمة». حتى يعطي الانطباع بأن صرامة وحزم قراتزياني ما زالت على ما طلب عليه، ولم تتأثر أمام ضعف شخصية بادوليو ـ المحفوظات التاريخية /م ق/2/2/1 راجع أيضاً «روشا» ـ المصدر المذكور ـ ص 14 ـ 15.

الآليات مكونة من 500 شاحنة وسيارة، ومن 30 إلى 35 طائرة وقاذفة قنابل خفيفة[87].

يبدو أن هذه القوات كانت كافية لتدمير الأدوار، رغم فشل تجارب السنوات السابقة، فقام قراتسياني بالإعداد الدقيق للقيام بعملية واسعة النطاق ومنسقة، تشترك فيها عشرة فيالق، تختلف في تكوينها وقوامها والاتجاهات القادمة منها، وذلك بقصد مطاردة قوات عمر المختار ومحاصرتها ومن ثم تدميرها، بعدما تحدد وجود هذا الدور بمنطقة فايد وكان متأكدا من نجاح خطته هذه إلى درجة انه دعا بادوليو للحضور لإضفاء هالة من (المجد) على الانتصار الأكيد[88].

بدأت العملية في يوم 16 يونية، ولكن الأدوار تلقت هذه المرة أيضا معلومات عنها في الوقت المناسب، سواء من الأهالي أم من (العساكر) الفارين من وحداتهم فتمكنت من توزيع نفسها على فرق صغيرة ومن التسلل خلال الفيالق الإيطالية، ولم تلحق بهم إلا خسائر طفيفة، نسبيا (50 قتيلا وفقد 32 بندقية، خلال كامل سلسلة هذه العمليات). فلم يبق لقراتسياني إلا اعتبار الاستيلاء على مساحة من الأرض الخالية انتصارا، أما بادوليو فلم يترك هذه الفرصة تمر دون ان يركز على إظهار فشل العملية «إنني أنتظر معلومات أدق من سعادتكم، أرجو أن توافوني بها إلا أنني ألاحظ أن الهدف الرئيسي من التحركات المتركزة الحالية من الشمال ومن الجنوب كانت بقصد تلقين درس قاس للمقاومة، كما فعلنا سويا في الشويرف، وليس، قطعا، بقصد الاستيلاء على بعض المواقع، وهو ما يتيسر تحقيقه لسعادتكم حيثما شئتم»[89].

---

[87] قراتزياني ـ المصدر المذكور ـ ص 165 وما بعدها

[88] حول موقعة فايد، يراجع قراتسياني ـ المصدر المذكور ـ ص 153/151 ـ وكذلك «عشر سنوات من تاريخ برقة» السابقة الاشارة إليه وحول دعوة بادوليو الى الحضور، يراجع البرقيات المتبادلة بين قراتسياني وبادوليو، في 3 و4 يونيه ـ المحفوظات المركزية ـ ملف قرتسياني 2/2/1، حيث يوجد طلب بادوليو الموجه الى قراتسياني في 8 يونيه، بموافاته بكل تفاصيل الاعداد للعملية «حيث أن مسؤولية ما يحدث في شطري المستعمرة يرجع إلي، انا، في الكامل».

[89] بادوليو على قراتسياني ـ 19 يونيه 1930 ـ المحفوظات المركزية ـ م ق ـ 2/2/1

ولم يسع قراتزياني إلا ابتلاع هذه الجرعة المرة، مع احتجاجه بأنه كان يرى دائماً «أنه من المستحيل تدمير كيان المقاومة في ميدان العمل العسكري البحث»[90].

2ـ طرد الأهالي وحشرهم في ميادين الاعتقال الجماعية :

عند هذه النقطة، استرد بدوليو زمام المبادرة إلى قبضته، فاقترح القيام «بقفزة» في نوعيه أساليب القمع، غاية في الوضوح والقسوة، ألا وهي ترحيل أهالي الجبل، قسراً، من أوطانهم و «إسكانهم» في مواقع قفر موحشة، وهو الإجراء الوحيد، في نظره الذي من شأنه أن يخلق فراغاً حقيقياً حول أدوار عمر المختار وها نحن ننقل فيما يلي النص الكامل، تقريباً، للرسالة التي هي علامة على بداية المرحلة الأخيرة للمقاومة على الجبل

«إنني أردت أن أترك لسعادتكم (يخاطب قراتزياني) أمر تنفيذ سلسلة العمليات الأولى هذه، دون تدخلي المباشر، سواء للحيلولة دون عرقلة هذا العمل أم لتلبية رغبة سعادتكم في تأجيل قدومي إلى طرفكم إلى ما بعد الانتهاء من هذه المهمة، وفقاً لبرقيتكم. ولكنه أصبح من واجبي، الآن أن أتدخل، لأن مسؤولية العمل أصبحت مسؤوليتي أنا، مباشرة، قبل أن تصل إلى الوزارة.

ففي برقة جميع عمليات الفيالق التي تنطلق من نقاط متباعدة وتتقاطب على مركز معين، أي ذلك التكتيك الذي يعرف «بالعمليات الواسعة المدى» أظهرت دائما فشلها ومصيرها أبدا الإخفاق ما دامت الظروف الراهنة باقية ذلك أن الأهالي وحتى الهاربين من الجيش (كما حدث بهذه المناسبة أيضا، وليست هذه هي المرة الأولى قطعا) ما زالوا يتعاونون تعاونا وثيقا مع العصاة، سواء فيما يتعلق بتوفير الحماية لهم أم بتوصيل المعلومات إليهم وهو ما ليس يعوزهم، بل كانت لهم دائما عيون يقظة لا تنام، إلى درجة أن أدنى تحرك نقوم به يصل خبره على العصاة في الوقت المناسب.

ويواكب مخابرات ثمينة كهذه، براعة عمر المختار الجديرة بها، الذي لا تغلب عليها روح القتال العشوائية التي كانت تستبد بالأخوة «سيف النصر» بنر عافية وفي

[90] قراتزياني إلى بدوليو ـ 20 يونية 1930 ـ المحفوظات المركزية ـ م ف 2/2/1

الشويرف، بل هو يقدر، بفضل رباطة جأشه وصفاء ذهنه، حقيقة قواته وإمكانياتها فيستخلص النتائج ليرفض القتال في الظروف غير المناسبة ويعمل على تفريق قواته، وهو ما يقدر عليه في كل الظروف وفي الوقت الملائم، أولا لأن أخبار تحركاتنا تصله في أوانها، وثانياً. لأنه بإمكانه دائماً إيفاد أتباعه إلى قبائلهم ليستسلموا صوريا، إلى أن يستدعيهم من جديد عند الحاجة.

«وإذا ما راجعتم، سعادتكم، وقائع تاريخ جميع العمليات، لتبين لكم أننا كنا نستولي، غالباً، على قطعان الماشية، دون أن نسدد ضربات قاسية للعدو، بسبب استمرار الظروف المشار إليها فيما تقدم، وأكرر هنا ما سبق أن أبرقت به إلى سعادتكم من أن الغرض المؤكد من سلسلة العمليات هذه لا يمكن أن يكون ما وصفتموه سعادتكم بأنه يستهدف ترسيخ أقدامكم على الأرض التي يحتلها العدو، بعد طرده منها. ولسعادتكم من الخبرة في هذا المجال ما يغني عن الإصرار على بيانه، فالغرض الحقيقي كان، أو لا بد أنه كان، إزاحة العدو من الميدان أو إنزال هزيمة مدمرة به، على الأقل، ولكن غرضاً كهذا لم يتحقق، ليس بسبب عيوب أو نواقص في الأوامر أو قصور في التنفيذ، بل لمجرد السبب الذي ذكرته آنفا، بصراحة. فعمر المختار سوف يبعثر صفوفه ما دام يشعر بالتحرك من حوله، ثم يستجمعها من جديد للقيام بغارة خاطفة، لإشعارنا بوجوده وبأننا أخفقنا في مسعانا». فما هي الطريق، إذاً التي لا مناص من سلوكها؟ سبق أن ألمحتم إليها عرضا، سعادتكم، عندما أخطرتموني بقراركم بضرورة ترحيل إحدى القبائل التي كان يشتم عليها أنها متواطئة مع العدو بمنطقة طلميثة

فلا بد، إذاً، من عزل تشكيلات العصاة عن الأهالي المستسلمين، وذلك بإيجاد منطقة شاسعة بما فيه الكفاية ومحددة، تفصل بعضهم عن بعض. وأنا لا أخفي فداحة مثل هذا الإجراء وأهواله أو أبعاده، إذ ربما أسفر عن هلاك من ينعتون بالأهالي المستسلمين ولكن الطريق قد تحدد لنا مسارها وعلينا إتباعها إلى النهاية، حتى لو أدى ذلك إلى فناء أهالي برقة عن بكرة أبيهم.

فالمسألة الملحة، الآن، إذاً، تكمن في اقتياد جميع الأهالي المستسلمين إلى أماكن فضاء شاسعة وحشرهم بداخلها، بحيث تسهل حراستهم ويكون بينهم وبين

العصاة منطقة عازلة، مطلقة وبعد تنفيذ هذا الإجراء، يصير التحول إلى العمل العسكري المباشر وغيره ضد العصاة (...).

«عملتم سعادتكم، لفترة تربو على العام، تحت إمرتي المباشرة، وكنتم دائماً على اتصال يومي منسق بي، وتعلمون أنني لا أرفض المناقشة وأنني على استعداد، أبدا، للرجوع في قراراتي قبل تنفيذها، إذا اتضحت أمامي فكرة أراها أفضل من فكرتي. وها أنا قد أوضحت لكم رأيي بأقصى ما أمكنني من الوضوح. وإذا كان لدى سعادتكم اعتراضات عليه، فتفضلوا بإبلاغي بها وإلا باشروا بدون تردد تنفيذ ما قلته»[91].

في الواقع، كان قد تم، منذ مايو، اتخاذ التدابير الأولية لترحيل الأهالي ولكنه كان مجرد تجميع مختلف القبائل في منطقة واحدة، داخل أراضيهم، قريبة من القواعد الإيطالية، وتسهل مراقبتها، مثلا: 900 خيمة من مخيمات العبيد (الأحرار) جمعت في بطحاء المرج، و 1400 خيمة للدرسة حول طلميثة، و3600 خيمة للعبيدات بمنطقة درنة[92]، ولكن برنامج التهجير الإجباري ما لبث أن توسع، فما أن حل يوم 25 يونية حتى قام قراتزياني بتنفيذ تعليمات بادوليو، وذلك بإصدار أوامره على الفور «بإخلاء الجبل في الكامل من سكانه وترحيل جميع الأهالي إلى أول مدرج لسفح الجبل، الممتد من طلميثة إلى البحر»[93].

وفي أول يولية، بعد سلسلة من المحادثات مع قراتزياني ومن عمليات التفتيش التي قام بها، لخص بادوليو الإستراتيجية الجديدة في مذكرة مسهبة بعث بها إلى دي بونو نقل منها، فيما يلي، مقتطفات متنوعة، بداية من الفقرة التالية التي تناول فيها موضوع عمر المختار:

---

(91) بادوليو إلى قراتزياني، 20 يونية 1930، المحفوظات المركزية ـ م ق 2/2/1 (نشر «روشا» أجزاء من هذا الخطاب في المصدر المذكور، ص 17/16، ووضع الخطوط ليس في الأصل

(92) قراتزياني ـ المرجع المذكور ـ ص 99

(93) قراتزياني ـ المرجع المذكور ـ ص 102/101.كانت الأوامر تقضي بتجميع المخيمات قبل منتصف شهر يوليه في عين الغزالة وعكرمة وطرق، درنة، شحات، طلميثة، الأبيار، اجدابية والعقيبة.

«يقوم العصيان على رجل واحد، يتمتع بنفوذ خارق وسلطة مطلقة. وعمر المختار لا يشرك في رأيه أحداً يحف به أنصار ومساعدون أوفياء، طيعون. فلا مكان، إذاً، للتسلل واستغلال الحزازات والأحقاد، التي تقوم دائما عند تعدد الزعماء في جميع الظروف وفي كل اللحظات، إرادته القوية وعزيمته الصارمة قوانين لا بد من تنفيذها. فهو قائد محنك ومنظم بارع ولبق إلى أقصى حد ونظام مخابراته الممتاز يسمح له برفض القتال عندما لا يكون متأكدا أنه في صالحه أضف إلى ذلك وجود جهاز حديدي لمكافحة التجسس لديه هو من النجاعة بحيث لا تروج المعلومات إلا تلك التي يريد لها، هو، ذلك، فهو محصن من الجاسيس من هذه الناحية. وإلمامه الكامل بالأرض وطبيعتها، خاصة منطقة الأحراش الشاسعة وكهوف ومنعرجات الجبل، يسهل عليه القيام بأية حركة يقررها، وأنصاره أشخاص ظلوا لا يمارسون أية حرفة أو نشاط عدا احتراف العصيان، أصبحوا يألفون حياة المغامرات هذه والتشرد والقتال، تحيط بهم هالة من أساطير البطولة والفداء. إنهم يشبهون إلى حد ما «البرافي Bravi»[هـ]، وقطاع الطرق في جنوب إيطاليا، في السنين الماضية. والويل كل الويل لمن يتقاعس، فأدنى شبهة يتبعها الإعدام.

«إلا أنه من الواضح أن جماعة كهذه، رغم تكوينها من زعيم من الدرجة الأولى ومن أنصار حنكتهم التجارب وابتلتهم حياة الكد والعناء وشظف العيش وسط الأهوال والأخطار، لن تستطيع الصمود لمدة طويلة في وجه قوات تفوقها بعشرة أضعاف، على أقل تقدير، ما لم تستند على تنظيم قوي ومعقد يضمن لها البقاء. وهنا يتلبك التحليل ليصبح صعباً جداً (...) ولكي لا يتوه المرء، عليه أن يتمسك بالجانب الإيجابي الواضح بصورة جلية لا تقبل الجدال: وهو أن الأهالي منحازون إلى العصيان ويساهمون فيه بكل الطرق، ويقدمون للعصاة وسائل العيش والقتال (..)

[هـ] كانوا أفراد عصابات مسلحة، يجندهم الحاكم الإسباني لشمال إيطاليا (مقاطعة لومبارديا، على الأخص) في القرن السادس عشر، اشتهر منهم «برافي» (ومفردها برافو) دون رودريقو، حاكم ميلانو تناولهم الشاعر والأديب الإيطالي الكبير اليساندو مانزوني في روايته الطويلة «الخطبان» ووفق في وصفهم، ووصف غطرستهم وتسلطهم على أبناء الشعب.

«ففي بيئة كهذه، يصطدم عمل القيادة بصعوبات كأداء لا تحصى ولا بد من التأكيد بادئ ذي بدء، وعلى الفور، على أنه، بعد خيانة عمر المختار في العام الماضي، أصبح من المستحيل، إطلاقا، الدخول في محادثات، من أي نوع كانت، فلا مكان للمسكنات، بل لا بد من العملية الجراحية.

لا مناص إذا من رفض أي تدخل من طرف أفراد العائلة السنوسية، رفضاً قاطعا وصارماً. وكذلك الأمر بالنسبة إلى تدخل أي عضو من أعيان هذه القبيلة أو تلك، لو فعلنا شيئاً من ذلك، لبدأنا من جديد، والآن دقت ساعة الحسم، ولا بديل لإنهاء هذا الوضع بالقوة والصرامة، بصورة شاملة لا رجوع فيها.

وبعد أن سلمنا بأن استخدام القوة، وحده، هو الحل الذي سيمكننا من استئصال هذا الورم الخبيث، فلننظر إلى كيفية استخدام هذه القوة. أما التمادي في القتال وحده ضد «الدور» فلن يؤدي إلا إلى نتائج لا تختلف عما تمكنا من الحصول عليه في الماضي: سيفرق الدور ويتبعثر، ليختفي ويتحاشى الظهور لفترة معيدة من الزمن، ليعود متلاحم الصفوف حالما يزول الضغط عنه. فالطريق الوحيد الذي لا بد من إتباعه هو عزل الدور عن بقية الأهالي، قبل أي شيء آخر ومن ثم تخبيل كامل غزل العلاقة المنتظمة بينه وبين الأهالي. وعلينا ألا نخفي عن أنفسنا أنه إجراء بالغ الخطورة ومعقد ولن يأتي، قطعاً، بنتائج سريعة ولكنه الإجراء الوحيد الذي أراه ناجعا وقابلا للتنفيذ وقد شرع في تنفيذه، فعلاً: سترحل جميع القبائل عن الجبل وتحشر تحت السفوح، في البطحاء الواقعة بينها وبين البحر.

«فكيف يكون موقف العصاة؟ إنهم ـ إذا أرادوا الحياة ـ مضطرون إلى متابعة تحرك الأهالي عن بعد، وإلا أصبحت الاتصالات والمبادلات بالغة الصعوبة ومحفوفة بالمخاطر. وبذلك نكون قد حققنا فائدتين: إبعاد العصاة عن أشد المواقع وعورة على الجبل، وضيقنا ميدان حراستنا وبالتالي زدنا من فعالية عملنا. وفي ذات الوقت سيكون لزاما علينا أن نسعى إلى انتهاز كل فرصة سانحة لتسديد الضربات لتشكيلات العصاة

«ولكي نتمكن من القيام بهذه المهمة نحتاج أساساً إلى أمرين: 1) تكليف وحدات من الجنود بمطاردة العصاة وتتبع تحركاتهم عن كثب، بحيث توفر لنا ـ ولو بصورة محدودة ـ بعض المعلومات عنهم، التي تنقصنا اليوم في الكامل وستتولى هذه

المهمة «عصابة عاكف. 2) تكليف تشكيلات من (العساكر) الذين يمتازون بروحهم الهجومية الجامحة ويؤمن جانبهم، بمراقبة منطقة خاصة تحدد لهم، مع مداهمتها، من وقت لآخر، والتجوال حولها وبداخلها بدون انقطاع، والعساكر الذين تتوفر فيهم هذه الشروط هم الايريتريون. وهكذا سوف لن تنشب معارك حاسمة، و لا يمكن أن تنشب، بل ستحل محلها عمليات استنزاف وإنهاك للقوى، مما يحملنا على الأمل في الوصول إلى الحسم نتيجة تهالك قوات العدو وخور عزيمته. فالمطلوب: الوقت وعدم نفاذ الصبر وأعصاب صلبة وتحاشي الانجراف والتراخي عن تنفيذ الخطة المقررة، حتى لو ظهرت فرصة تبدو سانحة، لأنه قد آن الأوان لكي نرسخ في قناعتنا بعدم الانجرار وراء الفرص التي تحيدنا عن الخط المرسوم وقد تبدو لنا براقة، ولكن بريقها خلب»[94].

وبعد ذلك بأسبوع، ما زال بادوليو هو الذي يوافي دي بونو بتقرير حول التحركات الجارية، قبيل قيام هذا الأخير بزيارة لبرقة:

«تسير عملية حشد المستسلمين بمنتهى الانتظام. تم حشد جميع أفراد العواقير بالمنطقة الكائنة بين سلوق وقمينس. وجهت إليهم صباح أمس تحذيراً شديد اللهجة. غداً سيتم اعتقال البراعصة والدرسة والعبيد فيما بين طلميثة وتوكرة. يوم الثلاثاء سيباشرون ترحيل العبيدات، وستنصب خيامهم، وعددها حوالي 7000 على الشريط الممتد بين توكرة وبنغازي. وستتم عملية هذا التهجير الضخم في حوالي العشرين من الشهر. وما إن ينتهي من حشدهم في الميادين المخصصة لهم، حتى تباشر عملية إعادة تنظيم العائلات وإجراء إحصاء دقيق لحصر عدد المعتقلين ودوابهم وماشيتهم الأخرى. وهكذا سيعد، ولأول مرة، إحصاء واقعي، دقيق. أما حملة حصاد الشعير، على الجبل، فستتم بعد الانتهاء من عمليات قواتنا السريعة الحركة، المنطلقة من عدة

---

(94) بادوليو على دي بونو، أول يولية 1930، المصدر المذكور 2/2/1 (ونشر قسماً كبيراً منه«روشا» ذات المصدر، ص 18/17، ويوجز بادوليو خطته بشأن الأهالي، في ختام مذكرته هكذا «تطبق على الأهالي المحشورين في المناطق المقررة، جميع التدابير الرامية إلى تخفيف عناء هذه الاقامة القاسية عنهم، ولكن حذار من تخفيف الضغط عليهم، مهما كانت نتائج هذه الضغوط».

اتجاهات بحيث يمنع وجود أي فرد من الأهالي على الجبل، وكل من يعثر عليه منهم، بعدها، يعتبر من العصاة ويعدم رمياً بالرصاص. ينتشر شعور بالفزع والذهول في روع جميع الأهالي، لأنهم شعروا بأن العصاة، بعد عزلهم عنهم بهذه الطريقة سوف لن يقدروا على مواصلة القتال»[95].

وفي الأسبوع الثاني من شهر يولية، قام بادوليو ودي بونو الذي كان يقوم بزيارة لبرقة[96]، بإعادة دراسة الخطة السياسية والإستراتيجية الجديدة، التي كان من المتوقع أن تحدث، لا محالة، أصداء وردود فعل على الصعيد الدولي، وما تثيره من نعي واحتجاجات في الأوساط القومية العربية. فكان من نصيب بادوليو الذي يتبين من جميع الوثائق، أنه كان هو المبادر بنفي الأهالي جماعياً وتحمل جميع المسؤوليات المترتبة على مبادرته هذه، أن يوجز ما توصل إليه من استنتاجات في شكل تعليمات وجهها إلى قراتزياني للعمل بمقتضاها:

---

(95) بادوليو إلى دي بونو، في 7 يولية 1930 ـ المحفوظات التاريخية لأفريقيا الإيطالية (سابقاً) 90/21/150 وفي دات اليوم، أعد بادوليو منشوراً وجهه إلى القيادات العسكرية في برقة، جاء فيه «إن عمليات حشد من يسعون بالأهالي المستسلمين في ميادين الاعتقال يجري تنفيذها بمنتهى النظام. رغم ضخامة عددهم (.) استقبل الأهالي هذا الإجراء الخطير دون إبداء أي رد فعل. بل تقبلوه في خنوع وطاعة، كما تقبلوا تجريدهم من السلاح بنفس هذه الروح.إنهم أدركوا تماماً أن القوة بيد الحكومة، ليس ذلك فحسب بل شعروا كذلك بأن الحكومة مصممة على اتخاد أقصى التدابير وأقساها في سبيل تنفيذ الأوامر تنفيذاً كاملاً ـ (المحفوظات المركزية ـ م ق 2/2/1).

(96) يضع قراتزياني تاريخ زيارة دي بونو في شهر يونية وفي ذات الوقت يقلل من شأن زيارة بادوليو التفقدية (قراتزياني، المصدر المذكور ـ ص 99 ـ 100).وبمقارنة الوثائق يتضح، على العكس من ذلك، أن دي بونو قام بزيارته لبرقة في الأسبوع الثاني من شهر يولية، بينما امتدت زيارة بادوليو لها إلى مدة شهر تقريباً، بداية من العشرة أيام الأخيرة لشهر يونية، وذلك قصد إعادة تقييم شامل لعمل قراتزياني وطريقة تنفيذه لمرحلة القمع التالية، أي تهجير الأهالي.ومع ذلك لم ينسب بادوليو إلى نفسه، فيما بعد، الدور الحاسم الذي قام به لتحطيم حركة المقاومة في برقة، ذلك الدور الذي لم يكن من شأنه أن يضيف الكثير على (أمجاده)، تاركاً لقراتزياني المجال ليخلع على نفسه (الفضل) في ذلك.

«لقد تكرم صاحب السعادة وزير المستعمرات بالإعراب عن إقراره للطريقة التي عرضت بها السياسة العسكرية بشأن مشاكل المستعمرة. فلا يبقى أمامنا إلا المضي قدما وبدون تراخ على هذا الدرب، وللمزيد من الدقة في توضيح الأمور فإنه ينبغي علينا من الناحية السياسية:

(1) أن نستكمل عمليات حشد المستسلمين، وإقامة حراسة شديدة من حولهم.

(2) أن يكلف موظفونا المدنيون بإجراء إحصاء دقيق للأهالي وحصر ماشيتهم.

(3) أن يضغط (بصورة مستمرة) على المستسلمين حتى يجلبوا إلى جانبهم أقاربهم المنخرطين في «الدور» بتركه والعودة إلى المخيمات.

«فلا بد، إذا، من انتظار معرفة ما ستثيره كل هذه التدابير من أصداء ونتائج، ولا بد من الانتباه كذلك إلى عدم التسرع، مع الحرص على الثبات وتحاشي كل الخطوات الملبكة.

وفي حالة عدم حصول زيادة ملموسة في عدد العصاة المستسلمين، فسوف لن يكون هناك مناص من التحول إلى اتخاذ سلسلة من التدابير الأخرى، أخطر شأناً وأفدح مدى:

1) حشد كافة أقارب العصاة داخل ميدان اعتقال ضيق وفرض حراسة مشددة عليهم، وإحاطتهم بظروف حياة قاسية، نوعا.

2) إلقاء القبض - في مختلف القبائل وفي بنغازي - على الأعيان الذين ثبت عليهم القيام بنشاط معاد لنا ونفيهم إلى إيطاليا، بالأماكن التي حددتها الوزارة هذا، ولا أرى فائدة في إعداد خطة أوسع نطاقاً من هذه، فالزمان والأحداث كفيلة بأن ترشدنا إلى التدابير التي سيتعين علينا اتخاذها، على ألا يغيب عن الذهن وجوب زيادة حدة ضغطنا، بنفس الدرجة على المستسلمين وعلى العصاة[97].

(97) بادوليو على قراتزياني - 16 يوليه 1930 - المحفوظات التاريخية المركزية، ملف قراتزياني 2/2/1 (ونقل عنه روشا - المصدر المذكور، ص 19) عند مغادرته برقة، كان دي بونو قد أعرب عن موافقته الكاملة على ما اتخذه بادوليو من تدابير موضحا توافق النوايا والعمل الذي نشأ لدى كبار المسؤولين عن السياسة الإيطالية في المستعمرة (دي بونو إلى بادوليو - 17 يولية

تم تهجير الأهالي شبه الرحل من الجبل (وسنتناول بالتفصيل أرقام الإحصاء في الباب التالي) خلال شهري يولية وأغسطس تحت حراسة جندت لها جميع القوات الإيطالية سريعة الحركة، دون حصول حوادث تذكر فالأدوار لم تهب لنحدتهم، كما أنها لم تجرأ على خوض معارك حاسمة في ميدان مفتوح، إلا أن عمر المختار، تمكن، رغم كل الاحتياطات، من مواصلة ارتباطها بالمخيمات الجديدة، حتى أن بادوليو أطلق صرخة استنفار، في منتصف شهر أغسطس:

«يتصح من آخر تقرير لسعادتكم (الكلام موجه لقراتزياني) إنه، رغم حشد المستسلمين في ميادين الاعتقال على طول الشريط الساحلي، ما زال الأهالي يقدمون العون والمساندة للعصاة بشتى الطرق، وقد ألمحتم إلى احتمال قيامهم أيضاً بأداء الأعشار، من واقع أنه نما إلى علمكم أن بعض القطعان التي تتوه فتخرج عن نطاق الحدود المخصصة لها، تبلغ السلطات بأنها فقدت نتيجة الإغارة عليها وسلبها، في الوقت الذي تدعو فيه جميع الظروف والقرائن إلى الاعتقاد بأن ذلك كله لا يعدو كونه إحدى طرق تسليم الماشية للعصاة.

وإن دل ذلك على شيء، فإنما يدل على أن طوق الحراسة أو بالأحرى نطاق العزل المضروب حول المخيمات ما زال غير محكم أو مجدياً إلى درجة تمكننا من ضمان قطع كل صلة لهم بالخارج»[98].

فرد قراتزياني، مطالباً إمهاله مدة كافية لاستكمال التدابير الجديدة:

«مع التحفظ بموافاتكم بتقرير أكثر إسهاباً، أبادر الآن بشرح النقاط الجوهرية للوضع، فأقول: إن حركة ترحيل الأهالي إلى المناطق الساحلية لم تنته بعد، حيث ينفذ الآن ترحيل مضارب الخلية الذي من المقرر أن يتم قبل نهاية الشهر. إن ترحيل أعداد ضخمة كهذه من الماشية والخيم والأشخاص[*]، وما يقتضي توفيره من حراسة

1930 ـ المصدر السابق، 2/2/1.

[98] بادوليو على قراتزياني، 13 أغسطس 1930، في المحفوظات التاريخية المركزية ـ ملف قراتزياني، 2/2/1ـ وكان بادوليو يطالب بتخصيص نسبة أكبر من القوات المتحركة لمراقبة المعتقلات.

[*] لاحظ كيف«أن هذا الجنرال الفظ» يضع الماشية والخيم قبل البشر. (المعرب)

لا تنقطع من قبل تشكيلاتنا المسلحة التي أصبحت جميعها تقريب منهمكة في مثل هذه المهمة لإجراء جبار، خاصة إذا ما لاحظنا أنه كان على هذه التشكيلات أن تسعى ـ بدون انقطاع ـ إلى إحباط كل محاولة قام بها العصاة بملاحقتهم وتكبيدهم خسائر كبيرة، كما حدث عندما حاولوا الإغارة على طوابير المستسلمين التي وصل طول بعضها ـ كالعبيدات ـ ستة عشر كيلو متراً.

«وبالإضافة إلى ذلك هناك تسعة مواقع عمل لمد وتصليح الطرق اقتضى توفير الحماية لها سحب سرية من كل كتيبة، بحيث انخفض قوام كل كتيبة إلى ثلاث سرايا فقط.

«بعد عمليات شهر يونية الأخيرة، توزعت أدوار العصاة على مفرزات صغيرة وانتشرت من البطنان إلى منطقة سرت، مما استوجب القيام بمراقبة متواصلة على طول هذه المناطق وعرضها، لذلك فإن تنظيم حراسة مطبقة على مخيمات المستسلمين ـ التي أخذت تظهر بمظهر عادي ـ سيتم حال الانتهاء من هذه التحركات(. .).

«هذا وأنا مقتنع بأن ظاهرة التواطؤ فقدت الكثير من قوتها، دون أن تتلاشى في الكامل، وبالتالي فإنه لا مناص من مواصلة التشدد والصرامة للقضاء عليها حيث إنها ترتبط دائماً بدوافع تضامن روحي رفيع. والخلاصة هي أنني أعتقد أنه قد أصبح من الواضح الآن أن تطور المرحلة الأولى لا بد أن تليها مرحلة أطول، قبل أن تستقر الأمور وتعود إلى حالتها الطبيعية»[99].

وفي سبيل قطع كل صلة بين الأهالي المعتقلين وحركة المقاومة على الجبل، تقرر في نهاية شهر أغسطس، نقل معظم المخيمات، من جديد، بحيث تم تركيزها، خلال فصلي الخريف والشتاء، على الشريط الساحلي الممتد بين بنغازي والعقيلة. وفي ذات الوقت ضيق الخناق على المعتقلين وشددت ظروف معيشتهم: أحيطت جميع الميادين بسياج مزدوج من الأسلاك الشائكة، وأدخل نظام الحصص في توزيع المواد الغذائية وضيقت مساحات المراعي وفرضت عليها الحراسة وأخضعت حركة

---

[99] قراتزياني إلى بادوليو، 21 أغسطس 1930، المصدر السابق 2/2/1 ـ ولاحظ الاعتراف غير المألوف «بدوافع تضامن روحي رفيع»

الخروج إلى الحصول على تصريحات خاصة»[100]، وكما يوضح المنشور، فإن الأوامر قد صدرت بمصادرة المواشي التي توجد خارج المنطقة المحددة لها. إن الحكومة عاقدة العزم ـ دونما التفات إلى أية اعتبارات ـ على تجويع الأهالي إلى أقصى حد، ما لم يرضخوا بصورة نهائية إلى امتثال الأوامر. ويتحتم على جميع المكلفين بتنفيذ هذه الأوامر تطبيق هذه الإجراءات المشددة»[101].

وتنفيذاً لتعليمات بادوليو، أقيم في العقيلة معتقل ردع وعقاب خصص لأسر أفراد المقاومة المتمردين عن إطاعة الأوامر، حشر فيه 7000 نسمة، وفي ذات الفترة حصل قراتزياني على تفويض بنفي حوالي أربعين شخصاً من الأعيان إلى جزيرة «أوستيكا Ustica»[102]. وأعاد الكرة في شهر نوفمبر باقتراح جديد لنفي 120 زعيماً آخر إلى إيطاليا، بعد القبض عليهم مباشرة. «إن الأهالي، بهذه الطريقة، يمكن أن

(100) قراتزياني، المصدر المذكور ص 15.ولا بأس من مراجعة الصفحات من 103 إلى 109 لأخذ فكرة شاملة عن هذا الموضوع، مع ملاحظة أن التواريخ، في جملتها، غير صحيحة وأنها ترمي إلى سبق الأحداث والقرارات.

(101) قراتزياني، المصدر المذكور، ص 15 (التسطير تحت الجملة من وضعنا) ولتحقيق امتثال الأوامر، أدخل مبدأ «المسؤولية الجماعية» الذي يقضي بمساءلة مخيم بأسره عن أعمال قام بها بعض أفراده وهاكم مثلاً ورد في منشور أصدره قراتزياني في 7 أكتوبر 1930: «ليخطر بمنشور يعمم على جميع الأهالي، إنه على أثر هروب خمسة من رجال قبيلة العبادلة البيض وانضمامهم إلى الدور، قد عاقبت مجموعة بأسرها تتألف من 80 خيمة، بمصادرة جميع قطعانهم ونقلهم جميعاً إلى العقيلة.وتقرر أن يطبق ذات الإجراء مستقبلاً على أية قبيلة تدان بمثل هذه الفعلة، ذلك أنه لا يمكن التسليم بأن الزعماء والناس الآخرين يجهلون نوايا من يستعدون للهروب (قراتزياني ـ ذات المصدر ـ ص 105).

(102) ليست لدينا بيانات كاملة حول نفي زعماء المقاومة إلى إيطاليا، إلا أنه يتضح لنا أنه قد أبحر، في 28 سبتمبر، على أوستيكا رؤساء الزوايا، وعددهم 31 وفي مقدمتهم الحسن الرضا. (قراتزياني ـ المصدر المذكور ـ ص 127)، وفي أكتوبر تم نفي ثمانية آخرين من الأعيان (الرسائل المتبادلة بين قراتزياني والوزارة، المحفوظات التاريخية المذكورة 98/22/150). وفي فبراير التالي، نفي إلى أوستيكا زعيم آخر، قبض عليه في الكفرة، وفي فترة ما، لم نتمكن من تحديدها، نقل عدد من المنفيين على فنتوتيني وتريمتي.

يحكموا بدون زعماء، تحت إشراف المفوضين الذين سيعين كمساعدين لهم (مديرون) يمكنني أن أختارهم من بين قدماء (الشومبشية) (جمع شمبشي، أي عريف، وهو أعلى رتبة للمجندين المحليين والايريتريين ـ المعرب) في الكتائب الليبية وفي سلك (الظبطية)[103].

* * *

3ـ تغيير نسق العمليات على الجبل :

بعد فشل العملية الكبرى التي حاولت القوات الإيطالية تنفيذها، من خلال تطويق منطقة (فايد)، في شهر يونية السابق، تعرضت الإستراتيجية الإيطالية لتحوير عميق، وذلك باستبعاد الوهم في إمكانية تحطيم الأدوار عن طريق سلسلة من الانتصارات الميدانية وإتباع إستراتيجية استنزاف وإنهاك للقوى، طويلة النفس، كانت مقدمتها الأساسية ترحيل الأهالي عن الجبل، وعلى حد جملة مأثورة، قالها (الزعيم الصيني الراحل (ماوتسي تونغ): على المقاتل في حرب العصابات أن يعيش في بيئته كما تعيش السمكة في الماء. فإن المقاومة كانت تستمد قوتها الحقيقية من تضامن الأهالي معها والتصاقهم بها، فضلاً عن طبيعة أراضي الجبل ووعورتها لكثرة أجرافها وكهوفها ومتعرجاتها. وإذا ما طورنا تصور (ماوتسي تونغ) فإن أضمن طريقة للتخلص من السمكة ـ المقاتل ـ هي قطع الماء عنها، أي تدمير البيئة التي تعيش فيها المقاومة ـ أي السمكة ـ مجازاً ـ، وما ينجر عن إجراء قاس كهذا من محن ومآسي وما تكلفه من تضحيات ونفقات، على الصعيد الإنساني والإقتصادي والسياح يسهل على المرء تصوره، وهي تكاليف وتضحيات ومآسي لا يمكن الإقدام على مواجهتها في أغلب الأحيان، ولكن إيطاليا الفاشية كان في مقدورها مواجهة مثل هذه التكاليف وذلك

(103) قراتزياني على بادوليو ودي بونو، 4 نوفمبر 1930، ـ المصدر المذكور 98/22/150 ولم يترتب على نفي هؤلاء الزعماء أية مشكلة مالية.هكذا كان ينبه قراتزياني، لأنه تقرر، في ذات لحظة القبض عليهم، وقف صرف المرتبات المقررة لهم، إلا أن موسوليني رفض اقتراح نفي آخر مجموعة لهؤلاء، وكانت تتكون من 120 شخصاً إلى إيطاليا، فتقرر إعتقالهم في منطقتهم

أيضاً بسبب قدرتها وحرصها الشديد على عدم إعلام الرأي العام الوطني بفظاعة وفداحة مثل هذه التدابير القمعية وبسبب أن الرأي العام الأوروبي ما كان ليكترث بمصير شعب صغير من شعوب الشمال الأفريقي (فمذابح إبادة، أضخم حجماً وأفظع بعداً كان قد اقترفها فرنسيون وانجليز وبلجيكيون وأسبان...) فكان باستطاعة موسوليني ودي بونو، إذاً، أن يفوضا بادوليو وقراتزياني، بدون عناء أو تردد بتهجير أهالي الجبل، بحيث تحرم التشكيلات المقاتلة من قاعدتها الجماهيرية ومصدر تموينها ومن بيئتها نفسها، وإذا كانت وسائل التقنية المتوفرة آنذاك لا تساعد على تحطيم الجبال وتدمير المنبوتات، فإن ترحيل السكان البالغ عددهم ثمانين ألفاً واختفاء مئات الآلاف من رؤوس أغنامهم وأبقارهم وإبلهم، كانا كافيين لقلب مروج المرتفعات إلى صحراء قاحلة، لا حياة فيها ولا موارد، فاعتباراً من شهر يولية، كان باستطاعة بادوليو وقراتزياني، إذاً، أن يتوقعا انهيار المقاومة، على الأمد المتوسط إذا توفر شرطان: قطع كل مصدر لتموين المقاومة وإمدادها وممارسة ضغط عسكري متواصل على الجبل، من شأنه أن يمنع الأدوار من استرداد أنفاسها وتمكينها من ابتكار تكتيك بديل يناسب الوضع المستجد، فإن هذين الشرطين يغنيان عن السعي إلى تحقيق انتصارات ضخمة في ميادين القتال.

ولم يكن من الضروري لهذه الإستراتيجية الجديدة أن تدخل تغييراً جوهرياً على التنظيم العسكري الإيطالي القائم على الجبل والمبني على النسق القديم الذي يعتمد على التشكيلات الخفيفة والسريعة الحركة والمتكونة كل وحدة منها من كتيبة ايريترية وسرية صواري، ولكنه كان من الضروري إدخال تغيير في عقلية القادة الإيطاليين المعتادين على عدم الخروج من جو الهدوء والسكينة والراحة المستتبة إلا للقيام سلسلة من العمليات على فترات قصيرة متباعدة التي كانت تظهر في كل مرة على أنها (الجولة الحاسمة). وبادوليو وقراتزياني، اللذان كان كلاهما يقف موقف المنتقد للوسط العسكري في برقة، استنفذا جميع ما كان عندهما من نفوذ في سبيل إقناع الضباط الإيطاليين بضرورة إتباع طريقة مكافحة المقاومة الجديدة وجدواها التي كانت تتطلب مواصلة الحركة لأنها مبنية على مدى سرعة التحرك المستمر فوق أرض وعرة ولا يتوخى منها تحقيق نتائج منظورة، لأن الغرض منها كان ـ أساساً ـ التنغيص على

الأدوار وإقلاق راحتها باستنفارها وبث الذعر في روعها، بدون توقف، وخوض مجرد مناوشات معها أكثر من استهداف إنزال هزائم كبرى بها في معارك فاصلة في الميدان. ويقول بادوليو في منشور عممه على قيادات برقة في 7 يوليو، بهذا الصدد:

«حضرات السادة الضباط، أود أن أبلغكم، جميعاً، بكلمتي هذه، المنذرة والمحرضة لكم لإثارة هممكم. عليكم أن تقلعوا نهائياً عن الطريقة التي يتبعها العرب وهي إطلاق وابل من العيارات عن بعد، والاعتقاد بجدوى نتائجها، إذا ما أرغمت العدو على الانسحاب. وهذه الطريقة التي ليس من شأنها إلا إطالة أمد القتال إلى ما لا نهاية، تتعارض أيضاً مع طبيعة (عسكرنا) الايريترين البواسل القتالية وروحهم الاندفاعية. لذلك لا بد من مراعاة الحرص على عدم التهور في إطلاق النار وحصره في الضروري الذي لا مناص منه، والبحث عن حسم المعركة جذرياً بالهجوم والالتحام بالسلاح الأبيض ثم ملاحقة فلول الهاربين، ملاحقة لا بد أن تتسم بالشراسة والضراوة التي لا شفقة فيها ولا هوادة حتى النهاية. كما أنه لا بد أن تكون بمثابة عملية صيد ضد العاصي، لا تؤتي ثمارها إلا إذا اقترنت بشجاعة وإقدام فائقين(...).

«ويجب ألا يتعرض الضغط لأي تراخ أو وهن، مهما بدا تافهاً، إذ ينبغي أن يكون القتال متواصلاً وصارماً واندفاعياً بصورة متصاعدة. و نحن لا نضع حدوداً لخط سلوكنا هذا. ليس ذلك فحسب، بل نرى أن ضغطنا، لكي يكون حاسماً، ونهائياً، لا بد أن يتواصل، ليس لأيام أو شهور، بل لسنوات»[104].

وفي منشور آخر صدر بعد ذلك بشهر، فإن قراتزياني هو الذي يطالب هذه المرة الاندفاع ومواصلة التحرك:

«بعد الانتهاء من نقل جميع المخيمات من الجبل إلى مواقعها المقررة، وهو ما سيتم قبل مضي بضعة أيام من الآن، أصبح الميدان خالياً لعمل الجند، الذين عليهم أن يتحركوا في تشكيلات سريعة الحركة. وقائد كل قطاع(...) أصبح في وضع يمكنه من الغلبة والنصر في كل موقعة بالنظر إلى ما آل إليه الوضع العام على الجبل، حيث أصبحت تحت أمرته كتيبة ايريترية وسرية فرسان. فلا بد من التحرك والتحرك أبداً،

(104) منشور بادوليو بتاريخ 7 يولية 1930، السابقة الاشارة إليه.

حتى في الفراغ، لا التفات إلى المعلومات أو الأخبار التي هي في 99% من الحالات مغرضة ومضللة يراد منها إثارة الفزع والتذمر وبالتالي ينبغي الإقلاع عن البحث عنها، لأنها تساعد العدو في لعبته وما يجب عمله هو، على العكس من ذلك، تفتيش كل بقعة من الأرض وكل ركن وزاوية منها وفي جميع الاتجاهات. ابحثوا عن العصاة، أخرجوهم من مكامنهم، أعدموهم بمعدل واحد في اليوم. امنعوا تجمعهم (...) وانتبهوا إلى المباغتة. مع الحرص على عدم إفشاء الأسرار. كونوا دهاة، مخادعين ماكرين. ولا بد أن نذكر أننا نخوض حرب عصابات، عناصر النصر فيها ما ذكرته لتوي بالذات. وعلى الفرق السريعة الحركة ألا تخلد إلى الراحة، بل عليها أن تترك الخمول جانباً وأن تكون أبداً متحفزة للانقضاض حتى عندما تكون رابضة داخل المخيمات، وألا تتوقف عن التجواب داخل المناطق المحددة لها في كل الظروف، تحت أشعة الشمس المحرقة أو تحت المطر المنهمر، في أي فصل وفي أية لحظة.

لقد اتخذت بدون تردد تدابير تبدو مستحيلة التنفيذ ونفذت في غضون أربعة أشهر، بكل حزم لأنها تؤدي إلى استيضاح الوضع سياسياً وتخليص التشكيلات العسكرية من جميع العوائق واعتباراً من اليوم فإنني أتطلع إلى مشاهدة الجنود وهم يحققون انتصارات وانجازات تفوق بمراحل ما قدموه حتى اليوم، بحيث يكفي أن أقول لهم: «دونكم»، الآن... حتى ينقضوا لتحقيق ما أنا واثق منذ الآن من أنهم قادرون على تحقيقه، وعلى الجميع أن يتفهموا معنى هذه الصرخة فيستوعبوها لينالوا شرف نتائجها»[105].

هذا وكان بادوليو نفسه شديد الحرص على ممارسة ضغط مضطرد على الجبل، ويتابع بقلق واهتمام سير العمليات، كما يتبين ذلك من خلال برقياته:

«أستنتج من التقارير الأسبوعية أن مطاردة (البدوي) مستمرة مع تحقيق نتائج ضخمة، وأن التزود بالمؤن والإمداد من منطقة الحدود ما انفك يزداد صعوبة يوماً بعد يوم. فا لمخطط جيد إذاً. وعلى الجميع أن يقتنعوا بأن شعارنا، حالياً، هو: «لا. للتراخي» فا لمسألة أصبحت مسألة وقت ولكن العصيان سوف يستنفد قواه هذه المرة

(105) مشور قراتزياني بتاريخ 16 أغسطس 1930، كما نقل في كتاب «عشر سنوات من تاريخ برقة»

لا محالة. أحسنتم صنعاً، ياقراتزياني... استمروا...[106].

أرجو أن تعربوا عن امتناني العميق للضباط والجنود الذين خاضوا العملية العسكرية الأخيرة وكرروا على مسامعهم شعاراً: لا، للتراخي، وبمواصلة تسديد الضربات المؤلمة ستتمكن، أخيراً، من حسم هذه المعضلة التي أثقلت كاهل بلادنا طوال هذه المدة»[107].

وفي أول أكتوبر عاد قراتزياني لتناول ذات الموضوع ثانية، وذلك بتوجيه منشور مطول إلى جميع الضباط وكبار الموظفين، أوجز فيه التدابير التي اتخذت خلال ستة أشهر من حكمه والنتائج المتحصل عليها وجاء في هذا المنشور أن رجال التشكيلات السريعة الحركة كانوا يقومون بتوفير الحماية لمواقع أعمال مد الطرق وإصلاحها وتنظيم حركة المرور، وخصوصاً:

«إنهم أصبحوا بمثابة الكلاب الداغرة التي تحرس المواقع وتتحفز للانقضاض على أدوار العصاة. فهم يعضونهم بأسنانهم ويطاردونهم أيما وجدوا ويتربصون لهم ويسددون غليهم الضربات القاسية كل يوم تسنح لهم الفرصة لذلك. فهم يتصدون لمنارلتهم رجلاً برجل، كما تقتضي حرب عصابات قاسية لا تسمح بتحقيق انتصارات باهرة، بل تكتفي بانتصارات محدودة، ولكنها متكررة، بانتظام. فهم لا يتركون فرصة للعدو ليباغتهم، إذ لو حصل شيء من ذلك لتعرضوا لهريمة مؤكدة. فهم ينسون مشاغلهم ويقبعون داخل الخيام متحفزين لدخول المعمعة في كل لحظة وعلى كل أرض، يقاتلون مهاجمين ولا يتهورون في إطلاق النار بل كثيراً ما يلجأون إلى استعمال الحراب، وهذا يعني أنهم يتشبثون بموقف المهاجم دائماً وفي كل مكان. لا يعرفون هدنة ولا راحة. يواجهون العدو بذات سرعة تحركه، بل أحياناً يتعدونها»[108].

---

(106) من بادوليو، إلى قراتزياني، 9 سبتمبر 1930، المحفوظات المركزية التاريخية، ملف قراتزياني 2/2/1.

(107) بادوليو إلى قراتزياني، 9 أكتوبر 1931 ـ المحفوظات المذكورة م ق 2/1/

(108) مشور قراتزياني بتاريخ أول أكتوبر 1930 ـ المحفوظات التاريخية المذكورة ـ 98/22/150 - كما نذكر قائمة بالتدابير التي اتخذها. أ) تجريد الأهالي من السلاح، الذي أسفر مد أول أبريل، عن استلام 5218 بندقية و153 مسدساً و208562 اطلاقة.ب) تخفيض عدد المجندين

وفي نفس المنشور كان قد تعرض كذلك لشرح التنظيم العسكري في المستعمرة وتوزيع القوات السريعة الحركة، كما يلي:

1- **منطقة البطنان (مارماريكا) العسكرية**: الكتيبة الايريترية (الثالثة عشرة) وكوكبة[ر]، مدرعات وخمسون فارساً غير نظامي.

2- **قيادة الجبل**: أربع كتائب ايريترية (السادسة عشرة ومعقلها القبة، والثامنة عشرة، في بلقيس، والخامسة عشرة في مراوة والثانية والعشرون في جردس العبيد (الأحرار الآن) وأربع سرايا من فرسان الصواري (أو السواري)، بالإضافة على تشكيلات من المجندين غير النظاميين في درنة 110 رجال، وفي شحات 110 أيضاً إلا أن بعضهم من الفرسان: في شحات 275 رجلاً...

3- **قطاع بنغازي**: كتيبتان ايريتريتان (الخامسة عشرة، في الأبيار والكتيبة الثانية في سلوق) وكوكبة مدرعات وفصيل من الفرسان غير نظاميين عددهم مائة فارس.

4- **منطقة اجدابية العسكرية**: كوكبة مدرعات مع مجموعتين من الهجانة (راكبي المهاري)[109]

غير النظاميين المسلحين ببنادق نموذج 91، من 2500 إلى 900 رجل، مسلحين ببنادق نموذج 81/70، اختيروا بدقة ومراقبون عن كثب.جـ) إلغاء الكتائب الليبية التي ما زالت (مريضة) بتأثرها الطائفي والثوري.د) إنزال عقوبة الإعدام بكل من تثبت عليهم تهمة التواطئ مع أفراد المقاومة، وعلى الهاربين من الجندية هـ) حشد المخيمات لمنطقتي البطنان وسرت، تحت أول مدرج للحمل وعلى الساحل.و) قفل الروايا ومكافحة المود علانية مهما كان شكله ر)أحكام وقف كل حركة مرور تجارية برية على الحدود وتشديد المراقبة إلى أبعد حد على التبادل التجاري عن طريق البحر مع مصر

(ر) كوكب . تعني مجموعة تتألف من 12 سيارة مصفحة وبأربع عجلات و "برج" مزود بمدفع وبالنظر إلى العنصر المميز لهده الاليات، وهو البرج الذي على هيئة برميل النفط وفي حجمه، كان الشعب يسميها (كراهب البرميل).

(109) منشور قراتزيني السالفة الإشارة إليه. في شهر ديسمبر تم تشكيل كتيبة ايريتريه ثامنة، من عناصر سحبوا من الكتائب الأخرى وغيرهم كانوا يتوافدون لاستكمالها، وتقرر أن ترابط في اجدابية، عوضا عن التشكيلات الصحراوية التي كانت تتأهب للرحيل بقصد احتلال الكفرة وتدخل في عداد القوات المتحركة «عصابة عاكف» التي كانت تتألف من بضع مئات من

وكانت قيادة الجبل هي المسؤولة مباشرة عن القتال ضد قوات عمر المختار وكان على رأسها ـ اعتباراً من أوائل شهر يولية ـ المقدم (الذي رقي إلى عقيد فيما بعد) جوسيبي مالطا ـ الذي كان يعتبر من خيرة قادة قوات طرابلس. ففي تقريره المنسق حول عمليات الجبل، من يولية إلى ديسمبر 1931، يعرض قبل كل شيء صورة للقوات التي كان باستطاعة عمر المختار الاعتماد عليها في صيف 1930، حسب البيانات المتجمعة لدى القيادة الإيطالية، وهي: دور البراغثة (عبيد وعواقير) بقيادة عبد الحميد العبار ويتألف من 300 مقاتل، ودور البراعصة ـ الدرسة، بقيادة عثمان الشامي، من 380 رجلاً ودور الحاسة ـ العبيدات بقيادة فضيل بو عمر، من 380 رجلاً، ثم تأتي مجموعتا الراعصة ـ العرفة، بخمسين مقاتلاً والدرسة 40[110].

وكما سبق أن ذكرنا، فإن اجلاء الأهالي من الجبل، كان يسهل إلى حد بعيد مهمة (مالطا) الذي لم يبق عليه إلا تشتيت الأدوار أبداً واستنزاف قواها حيث كان لا بد أن يؤدي قطع المدد عنها إلى انهيارها[111]. لذلك وضع نصب عينيه تحقيق هدفين: تعيير في نوعية استخدام الوحدات سريعة الحركة وتأسيس قسم للاستخبارات. ولتحقيق الهدف الأول كان لا بد من تحسين تدريب الجنود، في بداية الأمر، ثم

الفرسان الدين جلبوا من قطر طرابلس وكان قراتزياني قد أتى بهم معه لمطاردة الأدوار فوق الجبل.وعصابة عاكف، رغم ما كان يعقد عليها من آمال عراض في تحقيق نتائج باهرة، لم تكن على المستوى المرجو، فأعيدت إلى بلادها بعدما تقلص عدد محدبيها وأخيراً تحدر الملاحظة بأن المشاة والفرسان في القوات المتحركة كان قوامهم من الايريتريين والليبيين فقط (باستثناء القادة ومساعدين بطبيعة الحال) أما القوات المرابطة في الحاميات (والتي لم تذكر هنا) والوحدات الفنية (الطيران والدروع وآليات النقل) فكانت تتألف جميعها من الإيطاليين

(110) «جبل برقة: العمليات الحاسمة 1930/31» ـ تقرير العقيد ج.مالطا، المؤلف من 80 ص مضروبة على الآلة الكاتبة في المحفوظات التاريخية للجيش ـ ملف ليبيا 14/158، فهو تقرير مسهب وهام، ولو أنه يميل إلى عزل عمليات الجبل عن نطاق الحرب الشاسع وسنشير إليه، من الآن فصاعداً بعبارة (تقرير مالطا).

(111) حول عمليات الجبل، خلال عامي 1930/31، يراجع، قبل كل شيء كتاب (عشر سنوات من تاريخ برقة) وتقرير مالطا المومى إليه.فكتاب قراتزياني يعتمد كثيرا على هذين المصدرين، ولو أنه أقل منهما صدقاً، في الجملة.

تعويدهم على تنسيق عملهم، في جميع الظروف، إذ لم يعد هناك مكان للقيام بعمليات على نطاق واسع تنطلق من المركز على أساس معلومات ناقصة وأبدا متأخرة عن الأوان. بل يجب التركيز على القيام بسلسلة من عمليات تطهير لا تتوقف، تتبلور في شكل هجمات سريعة على أية تشكيلة معادية تصادفها، لتهرع تشكيلات الحركة السريعة ليس للاشتباك مع القوة المعادية، بل لقطع الطريق عنها ومنعها من الانسحاب وذلك بمبادرة منها ودون انتظار طلب تدخلها للنجدة. كانت قوات مالطا منهمكة طوال فصل الصيف في توفير الحماية لعمليات تهجير الأهالي، إلا أنها تمكنت في الفترة ما بين سبتمبر وديسمبر، من الأخذ بتلابيب الأدوار وإرغامها على الاشتباك معها، في أكثر من عشر مناسبات، حققت من خلالها انتصارات لا بأس بها: في شهر سبتمبر بمنطقة شحات (خسر فيها أفراد المقاومة حوالي 60 من رجالهم، من بينهم فضيل بوعمر، الذي كان من خيرة مساعدي عمر المختار) وفي أكتوبر، بوادي السانية (حيث قتل حوالي سبعين. وعمر المختار نفسه كان قد أرغم على الإسراع بالفرار إلى درجة أنه فقد نظارته، فالتقطها مطاردوه). وفي جميع المواقع الأخرى تمكنت الأدوار دائماً من التنصل، بخسائر طفيفة تتراوح بين 10 و 15 رجلاً وبضع بنادق، مبرهنة بذلك على أن حرب العصابات التي كانت تخوضها ما زالت ثابتة نوعاً، على الصعيد التكتيكي، غير أن زمام المبادرة قد تحول الآن إلى قبضة القيادات الإيطالية فأفراد المقاومة لم يبادروا بالهجوم ـ طوال الفترة من سبتمبر إلى ديسمبر ـ إلا مرة واحدة، وذلك عند انقضاضهم على قافلة من الإبل بالقرب من درنة) وأصبح من الصعب على المقاومة التعويض عن خسائرهم، إذ أن جماعات عمر المختار ـ بعد انقطاع كل صلة لهم بالأهالي المحشورين في ميادين الاعتقال ـ أصبحت مضطرة إلى الاعتماد في تموينها على المساعدات التي تتمكن من إرسالها من مصر، بعد قطع مسافات طويلة ومسيرات بطيئة، محفوفة بالأخطار[112].

---

(112) فقدت الأدوار، في النصف الثاني من عام 1930، حوالي 250 من رجالها و 140 بندقية (عشر سنوات من تاريخ برقة)، وهي خسائر تقل عما تكبدته في معظم الأشهر السابقة، إلا أنه من المحتمل جداً أن يكون عدد القتلى الذي كانت تعلن عنه المصادر الإيطالية ، بعد تهجير

وهدف مالطا الثاني، الذي كان يرمي إلى إقامة جهاز مخابرات فعال، لم ينفذ إلا في جزء منه، رغم أن تجارب كل يوم كانت تدل على أن تحطيم الأدوار كان يتطلب مسبقاً. تحديد مواقعها بأكثر دقة، ثم ملاحقتها باستمرار وبواسطة الطائرات كلما أمكن ذلك. أضف على ذلك أن إخلاء الجبل من ساكنيه كان قد غير جذرياً من عناصر المشكلة، لأنه أفقد حركة المقاومة جهاز مخابراتها الفعال إلى أقصى حد: فالأدوار بدون رعاية الأهالي اليقظة وحمايتهم لها أصبحت محرومة من أخبار تحركات القوات الإيطالية ومعرفة حقيقة ما كان يحدث على الجبل، بصورة عامة، الأمر الذي يفسر لنا الصعوبات التي أصبحت تواجهها في سبيل استرداد زمام المبادرة إلى قبضتها. ومن ثم تمكنت القيادات الإيطالية، أخيرا، ومن خلال هذا الوضع الجديد من الشروع في إعداد جهاز مخابرات خاص بها (وهو ما كان يمتنع عنها في الظروف العادية، إذ كان يتعرض للتدمير قبل رسوخه) واختيار الأشخاص المستعدين للتعاون على ملاحقة أفراد المقاومة. ولم يكن انتقاؤهم بالأمر الصعب. ففي خريف 1930م، تمكن مالطا من العثور على عناصر استخبارات مأموني الجانب. كان المفوض المدني للجبل داودياتشي Daodiace، قد اختارهم له من بين فرق صغيرة من (المتعاونين) كان هؤلاء المخبرون هم الذين سهلوا تحقيق الانتصار بوادي السانية، عندما حددوا موقع الأدوار وأرشدوا إليها الوحدات الإيطالية السريعة الحركة. إلاّ أن أفراد المقاومة ما إن انتبهوا إلى أحداق الخطر الجديد بهم، حتى أخذوا يقتنصونهم ويقضون عليهم الواحد بعد الآخر.

«إننا قد اهتدينا إلى الطريق السوي ـ هكذا يقول مالطا ـ ولكنه كان لزاماً علينا توطيد مخابراتنا، وذلك بالاقلاع عن تكليف أفراد منفصلين بها، والعهد بها إلى جماعات من (القناصة) الذين باستطاعتهم الرد على الهجمات»[113].

الأهالي، يتألف من مقاتلين صميمين، في الوقت الذي كانت فيه أعداد القتلى تشمل النساء والرعاة الذين كانوا يلقون مصرعهم أثناء العمليات، كانت تقضي عليهم نيران رشاشات الطائرات بقصد إدخال الذعر في روع الأهالي وترهيبهم.

[113] تقرير مالطا، المذكور

4 ـ تهالك حرب العصابات على الجبل :

في فصل الشتاء كان الاهتمام قد تحول من الجبل إلى الصحراء، بعد قرار القيام بمداهمة واحات الكفرة واحتلالها، وهو ما استوجب تخصيص قسم لا بأس به من القوات المتوفرة لهذا الغرض، خاصة الطائرات والآليات وقوافل الإبل والمواد الأخرى والعتاد. وواحة الكفرة، كانت البقعة الوحيدة التي لم تصلها بعد القوات الإيطالية، بسبب ماتوفره لها الصحراء من حماية لمسافة 800 كيلو متر، وكان قد لجأ إليها بضع مئات من أفراد المقاومة من طرابلس وفزان. ولكن الصحراء قد قهرها التفوق الفني والتنظيمي الإيطالي، إذ أن الوسائل الحديثة مكنت القوات الإيطالية، بالفعل، من إحباط كل المحاولات الهجومية المنطلقة من الكفرة بسهولة، خاصة بعد أن تولى قيادتها المقدم ماليتي Maletti، وهو ضابط آخر من الرعيل الأول لضباط المستعمرات، كان يتولى منصب حاكم منطقة اجدابية العسكرية. فالواحة لم تعد تشكل خطراً على السيطرة الإيطالية، غير أن احتلالها كان عملية دواع المهابة والكبرياء. كلف بادوليو قراتزياني بتنفيذ هذه الحملة، فأعد لها العدة بكل عناية ودقة، وما أن حلت الفترة مابين ديسمبر 1930 ويناير 1931 حتى كان على رأس جيش كبير يضم تشكيلات صحراوية (هجانة) مكونة من مجندين ليبيين، وسيارات مصفحة وطائرات استطلاع وشاحنات وآلاف من الإبل، متجهاً صوب الكفرة التي لم يصعب عليه مداهمتها واحتلالها، دون أن يتوانى عن البطش والتنكيل بأهاليها وعن ذلك يكتب قراتزياني:

«كان احتلال الكفرة بمثابة تسديد ضربة قاصمة... وكذلك صدمة عنيفة نالت من معنويات العصاة الذين ما زالوا يقاتلون فوق الجبل».

وبعد هذه المقاومة بقليل يناقض نفسه بنفسه:

«إن سقوط الكفرة لم يكن له، إذاً، أدنى صدى، حتى على صعيد حركة التموين والإمداد، في الوضع على الجبل الذي كان مستقلاً بذاته ويعيش حياته الخاصة به»[114].

---

[114] قراتزياني ـ ذات المصدر ـ ص 220/219 ـ ونشير على من أراد الحصول على معلومات أوفر

وهذا التقييم الأخير أقرب إلى الواقع، ذلك أن التأثير المباشر على القتال فوق الجبل كان مصدره، على العكس من ذلك، تجميد الحركة على الحدود مع مصر بصورة مطبقة، ذلك أنه لم يسبق للقوات الإيطالية أن تمكنت، أبدا، من قطعها، وذلك أيضاً بسبب الحماية المستترة التي كانت السلطات الإنجليزية والمصرية تمنحها للتهريب المنتظم وهنا أيضاً قلب تهجير الأهالي وحشرهم في ميادين الاعتقال الوضع رأساً على عقب، فهو قد وضع، من جهة، حداً نهائيا لكل المبادلات، ومن جهة أخرى أكسب الإمدادات التي كانت تتمكن من إرسالها إلى عمر المختار من مصر خطورة حيوية، إذ أنها أصبحت المصدر الوحيد لتموين الأدوار. لذلك تركز تفكير قراتزياني على إيجاد وسيلة فعالة لقطع مثل هذه الإمدادات، منها في المقام الأول ممارسة الضغط على ممثل إيطاليا في القاهرة، كانتالوبو Cantalupo، وتحريضه لكي يحصل من الحكومة المصرية على تعاونها للقضاء على حركة التهريب. فكان رد كانتالوبو جد معتز بالنتائج التي حققها بالطرق الدبلوماسية، مذكرا في ذات الوقت بأن حركة المقاومة لا يمكن سحقها إلا بقوة السلاح، ويتضح ذلك من برقيته التي بعث بها إلى قراتزياني، في فبراير عام1931:

«إنني أتفق معكم على أن احتلال الكفرة سوف لن يؤدي بعمر المختار إلى الاستسلام الفوري. ولكن ما لا أقركم عليه هو قولكم إن مصر هي العامل الوحيد في مواصلة المقاومة. فالتهريب على الحدود قد انخفض فعلاً، إلى أدنى حد، والقول بأن عمر المختار يتلقى سلاحاً من هنا قول افتراضي بحث، أحياناً، وليس هناك ما يثبته. و عند الحديث عن تهريب السلاح، لا بد من تقديم بيانات دقيقة بشأنه: وهو ما استحال علي فعله حتى الآن، لأن الحكومة هناك (أي حكومة برقة) لم توافيني، في أي وقت من الأوقات، بعناصر واقعية يعتد بها. وحتى الإشارة الأخيرة إلى وصول قافلة سلاح مزعومة إلى برقة، ما أبعدها عن أن تكون واقعية ثابتة. وأعلنت الحكومة هنا (الحكومة المصرية) عن عدم وجود هذه القافلة، أساساً، كما سأشرحه لكم في خطاب منفصل.

ورغم أنه ليس لي الحق ولا الصفة للاعراب عن آرائي حول الوضع الداخلي في

عن الحملة على الكفرة، إلى مراجعة هذا الكتاب.

برقة، إلا أنني اشعر بأنه علي أن أوضح رأيي بصورة قاطعة، ما لم تستجد ظروف جديدة. فانطلاقاً من قناعتي الكاملة، أقول: إن الوضع، في رأيي، ليس من شأنه خلق المعجزات وأن تسويته لن تتم إلا بالتدريج، ومع ذلك فإنني لا أرى مبرراً للتشاؤم بالنظر إلى اصطراد تحسن وضعنا بصورة ملموسة من جهة، وتفاقم وضع العصاة وما آل إليه من وهن لا يحتاج إلى دليل من جهة أخرى، لذلك فإنه يبدو لي من العبث توقع أن يكون تشديد الحراسة على الحدود من قبل السلطات المصرية، كفيلاً وحده بإنزال الهزيمة بعمر المختار. فالمتمردون في برقة يجب أن يقهروا، في نهاية الأمر داخل برقة.

هذا وبغض النظر عن ذلك فإنني أعتزم تقديم شرح لوزارة الخارجية، مفاده أنه، بعد خمسة أشهر، من العمل الدبلوماسي، المنسق الكامل مع العمل العسكري، الذي تقوم به حكومتكم (حكومة برقة)، تمكنت مندوبية القاهرة من ملاحظة انخفاض حجم التهريب على الحدود إلى أدنى حد، أكرر: إلى أدنى حد، وهو ما يبرهن على ثقتي في التعاون المثمر بين القاهرة وبنغازي، أي بين وزارة الخارجية والمستعمرات ذلك التعاون الذي يرجع له الفضل فيما وصل إليه الوضع على الحدود، بعدما كان يشكل خطراً على برقة، من تحسن ما كلن باستطاعتنا أن نحقق أكثر منه»[115].

---

[115] كانتلوبو إلى قراتزياني، 9 فبراير 1931، المحفوظات التاريخية المركرية/ م قراتزياني 9/3/2 - كان كانتالوبو قد تقلد في السابق، منصب وكيل وزيرالمستعمرات وبالتالي فإنه كان يتمتع كذلك بثقة الوسط الاستعماري.هذا وكان قراتزياني قد رد على هذه البرقية في 10 مارس (ذات المصدر). «إنه لا يساورني أي تشاؤم بل بالعكس، فإني أتشبث بالواقع حتى الهوس.ولا أدعي بأن هزيمة عمر المختار الكاملة معلقة، في هده الآونة على الأقل، بالتدابير المصرية المشددة التي لا تحمل على الثقة (.) وعلى كل حال فإن سد الأسلاك الشائكة بين البردية والجعبوب سوف يحدد الوضع أكثر من أية محاجة أخرى وما لم تؤخذ كل هده العناصر بعين الاعتبار، في معنى إذا كان تبسيط الأمور إلى حد القول بأن المقاومين في برقة سوف يواصلون نضالهم إلى ما لا نهاية، لأنه من الأسطا القول بأنه من الممكن قتلهم فرداً فرداً إذا ما استحال القضاء عليهم جملة واحدة في معركة حاسمة في الميدان أما التهريب، فلم يقض عليه، قطعاً، إلا أنه تحول من حركة تجارية بحتة إلى إمداد حربي صرف ومن النوع الرفيع، الذي له قاعدته في بلاد أجنبية يمتنع على غزوها لذلك أصبح سير الحملة في حاجة إلى عاملين أساسيين لا مناص من

إلا أن مسألة القضاء على التهريب، أصبحت بالنسبة إلى قراتزياني في مركز اهتماماته وشغله الشاغل، إلى درجة أنه اقترح على بادوليو، على أثر نجاح عملية احتلال الكفرة، موافقته على مشروع مثير مد سد من الأسلاك الشائكة على طول الحدود مع مصر، على امتداد 270 كيلو متراً، يكون من السعة بحيث يضمن وقف تدفق المؤن والإمدادات الأخرى في الكامل ليحرم المقاومة منه. فلقي هذا الاقتراح تأييد بادوليو و«قواريليا» (كممثل لوزارة الخارجية). وعلى الفور تقرر الشروع في إقامته، في شهر فبراير، إلا أن الأعمال لم تباشر إلا في شهر إبريل، بسبب قيام صعوبات ذات طابع محلي تتعلق بالبيئة والمناخ، كان لا بد من تذليلها تواصلت الأعمال لمدة ستة أشهر ـ من أبريل إلى سبتمبر 1931، حيث أنجزت في الكامل.

يتكون هذا الحاجز من خطوط متشابكة من الأسلاك الشائكة يبلغ عرضه عدة أمتار وطوله 270 كيلو متراً، ويمتد من ميناء البردية إلى واحة الجغبوب وكلفت بحراسته ومراقبته الطائرات والدوريات المحملة على متن الشاحنات التي وإن لم يكن باستطاعتها منع فرق حسنة. التنظيم من التسلل خلال هذا السد، رغم مناعته، إلا أنها كانت تستطيع الحد من هذا التسلل أو إبطائه، أو إطلاق الإشارة لإرشاد الوسائل الحديثة إلى مكانه أو إرغام المتسللين على إتباع طريق الصحراء الواقعة إلى الجنوب، لتفادي السد[116]. وقد عهد بمراقبة الطريق التي تربط بين الحدود والجبل مباشرة إلى قوات البطنان، فيما كلفت بمراقبة الشريط الصحراوي، بين خطي العرض 29و32،

توفرهما، أولاً، أمن الحدود الذي لا تعرف له طريق حكومة يحذوها سوء النية ولا هي تريد توفيره، وإن أرادت، فإنها لن تستطيع بسبب عجزها وعدم كفاءتها لضمان ذلك.ثانياً: إمكانية ضرب العدو في الصميم، أي في قاعدته، كما بينت.وهذه هي مبادئ الحرب الثابتة وقوانينها التي لا تتغير، ولن يستطيع أي دبلوماسي شرقي تحطيمها بخداعه أبداً.لذلك فإن عمر المختار وحماته ينتظرون، اكتشاف إنني حمار مستأسد، ذلك أنني سأقطع أنفاسهم، طال الأمد أم قصر، بحديد صلب قاس، أقسى من أي واقع غربي بل قد أقول واقع أساطير وثنية (..) ولكلمتي هذه فاشية صادقة، وستفهمها أنت قطعاً، على أنها كذلك» (يخاطبه بالممرد وهذا أسلوب لا يستعمل إلا من رئيس إلى مرؤوس أو للاحتقار أو عند رفع الكلفة).

(116) قراتزياني ـ المصدر المذكور ـ ص 219 وما بعدها.

قيادة قطاع عسكري في وادي مري قوامه ثلاث مجموعات من الهجانة، تعززها كوكبة من السيارات المصفحة وبعض الطائرات. فأصبحت النتيجة أن امتنع، في الكامل تقريباً، توصيل الإمدادات إلى الجبل، بالنظر إلى المخاطر والصعوبات التي كانت تحول دون ذلك، على الرغم من أن فرقاً صغيرة من الرجال والإبل كانت تتمكن، أحياناً، من اختراق هذه الشبكة الكثيفة من العوائق والمراقبة المشددة، حتى نهاية حركة المقاومة.

وخلال شهري فبراير ومارس، لوحظت حالة توقف في العمليات على الجبل، ذلك أن الحملة على الكفرة كانت قد استوجبت إرسال العديد من الآليات والوسائل الأخرى ولأن تشكيلات مالطا السريعة الحركة كانت منهمكة في عمليات تهجير حوالي عشرة آلاف شخص من العبيدات قسراً من ميادين الاعتقال في البطنان (بعد أن حاولوا تدبير هروب جماعي منها بمساندة الأدوار) إلى ميادين منطقة سرت التي كانت أكثر منها قسوة وأشد حراسة. قطعت هذه التشكيلات 1100 كيلو متر، من خلال سفوح الجبل الجنوبية الوعرة التي اختيرت لدوافع أمنية، دون أن تسجل حوادث اشتباكات أو مناوشات (ولكن العبيدات لا بد أنهم تكبدوا خسائر جسيمة في الأرواح، حيث أن قراتزياني نفسه يذكر في كتاباته أن العبيدات دفعوا ثمناً باهظاً لمحاولتهم القيام بالتمرد)، وفي منتصف شهر فبراير عادت التشكيلات السريعة الحركة إلى العمل على الجبل، فيما حاول عمر المختار الذي كان قد استغل فترة عمليات التطهير لإعادة تنظيم صفوف قواته، المبادرة بشن غارة على منطقة سوسة. وهكذا دخلت الحرب على الجبل مرحلتها الأخيرة، بتوسع البون الشاسع بين القوتين الذي ما انفك يزداد عمقاً بارتفاع درجة فعالية تدابير قطع طريق الإمدادات وعمليات الاستطلاع التي ما لبثت القيادات الإيطالية أن طورتها وأدخلت عليها أساليب ووسائل جديدة.

كان الأمر يتطلب على حد ما ذكره مالطا في تقريره، تغيير المخبرين الأول، الذين لم يتمكنوا، طويلاً، من الإفلات من مطاردة المقاومة لهم بسبب خلو الجبل من الحياة بفرق استطلاعية صغيرة، مجهزة بأسلحة جيدة ومكونة من رجال ضليعين في أساليب القتال وبالتالي كانوا قادرين على مطاردة الأدوار ومراقبتها عن قرب ومباغتتها قبل أن ينتبه رجالها إلى وجودهم، والقضاء عليها.

لقد عثر على العناصر اللازمة لهذه الفرق داخل ميادين الاعتقال ذاتها، من بين من ظلوا متواطئين مع حركة المقاومة، على مدى سنوات، إن لم يكونوا من المنضمين فعلاً إلى الأدوار، إذ في الآونة الأخيرة التي ضربت فيها القوات في عقر دارها وأصبحت حركة المقاومة تجابه صعوبات متزايدة، أخذ يتصدع ذلك التضامن العجيب الذي أثبته مجتمع شبه الرحل على الجبل وأخذت تظهر من جديد المصالح الشخصية والأحقاد التقليدية الدفينة[117].

كانت السلطات المدنية تعترض دائماً على استخدام جماعات من المسلحين من بين العناصر المحلية، فما بالك بتجنيدهم من بين أفراد مقاومة سابقين، إلى درجة أن تشكيلة واحدة كان لديها، حتى ربيع 1931، فريق استطلاع، والمؤكد هو أن مشكلة ولاء المجندين المحليين كانت قائمة بالفعل، بعد خيبة الأمل المتكررة التي كانت تنشأ في السنوات الأخيرة عن ظاهرة عجز (المخبرين) عن التخلص من تبعيتهم لعمر

---

[117] من المستحيل إجراء تحليل لمجتمع برقة من خارج بيئته، خاصة إذا كان مبنياً على مصادر لا يوثق فيها، كالمصادر الاستعمارية الإيطالية. لذلك فإننا لا نريد التعمق في تناول المشكلة، بل سنقتصر على ذكر أن مقاومة أهالي الجبل لم تظهر في الواقع تلاحماً وتصاماً وثيقاً إلى هذه الدرجة إلا من خلال دراسات حركة المقاومة، فقسم من المستسلمين خاصة من بين من اندمج منهم في معاملاتهم الاقتصادية مع المدن، قد انحاز علناً وبولاء إلى الجانب الإيطالي، وقادة الكتائب الليبية وسرايا الصواري ووحدات راكبي المهاري، كانوا يحصلون على المتطوعين الذين كانوا يبحثون عنهم (ولئن تحتم، في وقت من الأوقات، حل الكتائب الليبية للاشتباه في تواطئها مع حركة المقاومة، إلا أن الصواري والهجانة قدّموا أدلة واضحة على ولائهم وعزيمتهم على القتال ضد المقاومة بالذات) ومع ذلك فإن المجتمع الجبلي، في مجموعه، ظل متضامناً، حتى عام 1930م، بصورة خارقة مع حركة المقاومة، بعد التغاضي عن جميع عوامل الخلاف والشقاق.إلا أن إخلاء الجبل من سكانه واعتقالهم جماعياً، أحدث أزمة وإعادة نظر في مثل هذه الهيمنة وفي الأجهزة التقليدية لمراقبة المجتمع، مما أدى إلى تفجير التناقضات والصراع من أجل البقاء وإثبات الشخصية والروح القبلية.ومن هنا السهولة التي تمكن الطليان بها من إيجاد المخبرين الذين كانوا يبحثون عنهم داخل ميادين الاعتقال ذاتها، فيما ظلت الأدوار، التي ما زالت تشعر بانتمائها إلى مجتمع راسخ (بعد اندثاره في واقع الأمر)، تواصل كفاحها ومقاومتها بعزيمة لا تقهر.

المختار، لذلك تغير أسلوب اختيارهم ليصبح أكثر حذراً وانتباهاً (فنذكر على سبيل المثال، أن رئيس هؤلاء المخبرين كان قد اختير بسبب حقده الدفين على عمر المختار وكراهيته له الناجمة عن خلافات وحزازات عائلية قديمة العهد). فكانوا محافظين على ولائهم حتى اللحظة التي كان يتمكن فيها أفراد المقاومة من كشف حقيقة أمرهم فيتورطون ولم يعد بإمكانهم التنصل من مهمتهم، أو كما يقول مالطا: «إن هذا الوضع بالذات هو الذي كانت القيادة الإيطالية تسعى إلى تحقيقه: توريط المخبر لدى العدو بحيث يرتبط بنا وبقضيتنا، مثيرين فيه، فضلاً عن تعطشه للمال والكسب، روح الانتقام والتشفي»[118]. كان المخبر يغري بسخاء المرتب وبريق المكافأة وحق الحصول على نصيبه من الأسلاب (وقبل ذلك، تمكينه من الخروج من ميادين الاعتقال والعودة بحرية إلى الجبل).

والمخبرون (الذين كان يطلق عليهم اسم «الكشافة» كانوا مقسمين إلى وحدات صغيرة ومجهزين بأسلحة وعتاد جيد، وكانوا يجوبون أرجاء الجبل، حسب إرشادات الاستطلاع الجوي أو على هدي المعلومات المتجمعة لدى القيادة المعنية، فإذا ما اكتشفوا وجود جماعة من المقاومة انطلقوا وراءهم، بعد إيفاد نفر منهم لإخطار القيادة الإيطالية حتى ترسل النجدة. وعند قدوم هذه القوة يتولى المخبرون إرشادها إليهم، بينما تنفصل جماعات صغيرة منهم للتربص بالمواقع التي من المحتمل أن يسلكها العصاة عند تقهقرهم لقطع الطريق عليهم. وطبيعي أن فخاخاً كهذه مما كان ينصبه «الكشافة» لا يمكن أن تطبق على المقاومة في كل مرة، إلا أن وجود وحدات الكشافة هذه كان من شأنه أن يمكن القوات الإيطالية من التحرك فوق الجبل، ليس بطرق عشوائية، كما كان في الماضي بل على إلمام وعلم مسبق بما كان يدور حولها. وهذا ما مكن من التغلب على معارضة السلطات السياسية. فما إن حل فصل ربيع 1931، حتى أصبح لدى جميع الوحدات السريعة الحركة فريق من الكشافة خاص بكل واحدة منها.

وخلال فصلي الربيع والصيف لم تخض معارك كبرى، بل جرت العشرات من

(118) تقرير مالطا، السالف الذكر، الذي نحيل عليه كل من يريد الاطلاع على كامل المشكلة.

الصدامات كانت جميعها على نمط واحد: اكتشاف جماعات من المقاومة، إما بواسطة الطائرات وإما عن طريق المخبرين، انطلاق تشكيلة أو أكثر من التشكيلات الخفيفة الحركة صوبهم، محاولة مباغتتهم أو تطويقهم، تشتيتهم إلى فرق صغيرة تتسلل من خلال صفوف العدو، مطاردتهم بواسطة الفرسان أو الطائرات أو بعض القوات التي تكون قد هبت للنجدة. فكان قراتزياني قد أعد تقريراً أوجز فيه سنة ونصف من الصراع:

«بعدما أخذ يطبق عليهم الخناق ويتعرضون للضربات بدون انقطاع، استبد بهم (أي العصاة) القلق النفسي والعناء الروحي الذي وجد متنفسا في اضطرارهم لتغيير «تكتيكهم»: ففي الماضي ظلوا محتفظين، بصورة عامة، بروح المبادرة أحياناً وكانوا ما زالوا يحاولون القيام، بواسطة مجموعات ضخمة، بغارات خاطفة وبنصب الكمائن، وإذا هجموا، يبدون مقاومة عنيدة ويخوضون غمار المعركة حتى النهاية، ولكنهم بعد عمليات فصل الربيع (1931)، عدلوا كلية عن أية مبادرة، محتفظين بقواتهم الكبيرة مختفية داخل أحراش الجبل، ومكتفين بالقيام ببعض عمليات الغزو الصغيرة، بمجموعات لا يزيد عدد أفرادها على الخمسين، أو المائة فارس، على الأكثر.

وهكذا أمكن الحصول على أول نتيجة ملموسة: وهي أن زمام المبادرة للقيام بالعمليات أصبح في أيدينا، ليس بذلك فحسب بل الجماعات التي ذكرتها لتوي، لم تعد تشتبك، في حالة الهجوم عليها، مع قواتنا، أبداً. وإذا ما أرغمت على القتال سرعان ما تتنصل منه، بتشتيت نفسها على فرق صغيرة، تحسم الموقف بالفرار في كل اتجاه، وتتمكن دائماً من الإفلات، بسرعة من أية عملية متقاطبة تدبرها قواتنا، التي تظل تشاهد وهي عاجزة، إفلات الفريسة من بين براثنها، بحكم قلة سرعتها للتحرك، عكس ما هو متوفر للعصاة، وبالتالي فإنه من المستحيل تقويض مثل هذه الجماعات الصغيرة الفائقة السرعة، وتدميرها»[119].

[119] قراتزياني إلى دي بونو ، 18 سبتمبر 1931، المحفوظات التاريخية المركزية، ملف قراتزياني 11/3/2

وعلى الرغم من التنظيم العسكري الممتاز الذي أعده مالطا، وتفوق القوات الإيطالية عدداً وعدة، لم تكن المهمة الملقاة على عاتق التشكيلات الخفيفة الحركة، سهلة، كما يصفها مالطا:

«إن الإدعاء بأن خمس تشكيلات أو ست، تنطلق من نقاط مختلفة وخلال رقعة أرض بمساحة صقلية، تستطيع قطع مسافات هائلة دون أن تصادف عوائق كأداء، لتنقض في عتمة الليل على عدو لا تراه وتتلاقى في الوقت المحدد عند نقطة محددة على خريطة مجملة مقاس 1:400000، لتوقع في شراكها الواسع الذي نصبته القيادة، عدواً على درجة ممتازة من البراعة والخفة في تحركاته، ما هو إلا هدف أسمى مجرد، لا يتسنى بلوغه إلا التكرار والمثابرة والاستفادة من الأخطاء»[120].

ومهما كانت الجهود التي ما انفكت تبذلها القوات الإيطالية لمواصلة الضغط، إلا أن وضعها كان يسهل عليها المهمة لما كان يتوفر لها من المؤن والإمدادات ومع إمكانية تناوب الفترات للراحة وما كان يتوفر لديها كذلك من القوة المعنوية الناشئة عن سلسلة متواصلة من الانتصارات ومن أن الموقف أصبح في قبضتها. أما الأوضاع التي آلت إليها أدوار عمر المختار، فلا تتوفر لدينا أدلة مباشرة عليها، إلا أن كل شيء ينبئ بأنها كانت تعاني من مشاق وأزمات حادة بسبب انعدام مصادر التموين والإمداد واستحالة الإفلات من عمليات الاستطلاع والتطهير التي قلما تمكن من التنصل منها بالتحرك بدون توقف. فالمقاومة المبعثرة ما زالت عنيدة، إذا كانت جماعات المقاومة المتفرقة تفلح في الإفلات من الملاحقة والتدمير بفضل يقظتها وحسها المرهف والمرونة الفائقة في تحركاتها[121]. إن فقدها المائتين من رجالها طوال الفترة الممتدة

---

(120) تقرير مالطا السالف الذكر.

(121) ففي شهر مايو، مثلاً، قام عمر المختار بجمع الفرسان وضمهم في دور واحد، مهمته تحمل العبء الأكبر في القتال، فيما قسم المقاتلين الراجلين إلى جماعات صغيرة، بحيث كانوا دائماً يتمكنون من الإفلات من عمليات المطاردة والتطهير بأكثر سهولة وعندما انتبهت القيادة الإيطالية إلى ذلك، قامت بدورها بضم سرايا الصواري في مجموعة واحدة، كما نقل بعض الفرسان إلى وحدات الجنود المحمّلين على الآليات، مما أعطى الصواري المزيد من سرعة الحركة وقدرة أكبر على المقاومة.

من إبريل إلى سبتمبر (بحسب ما جاء في الإحصائيات الإيطالية) لشيء قليل حقاً، إذا ما فكر المرء في البون الشاسع بين قوات الجانبين، عدداً، والخسائر الفادحة التي كان يمنى بها أفراد المقاومة في السنوات المواتية، سنوات الاشتباكات والمعارك الكبرى والانتصارات[122].

ومن جهة أخرى فإن ضآلة الخسائر الإيطالية (بين عشرين وخمسة وعشرين قتيلاً) دليل على أن الأدوار لم تعد في وضع يمكنها من شن الهجمات، بل أصبح همها الوحيد التملص من ضغط العدو عليها بسرعة الحركة والفرار المنتظم. واسطع دليل على الإصرار على المقاومة قوة نفوذ عمر المختار، كان الصمود الخارق الذي أبدته الأدوار في ظروف على مثل هذه الدرجة من القسوة، طيلة هذه الفترة وحتى آخر عام 1931 تقريباً.

هذا وما أن حل فصل الصيف، حتى أخذت القيادات الإيطالية بقرب احتضار المقاومة فوق الجبل، فكتب كانتالوبو من القاهرة:

«... هناك شعور بأن حركة التهريب ما لبثت تتضاءل وتتلاشى شيئاً فشيئاً، واستئناف التهريب الذي حدث في فصل الشتاء أخذ يلفظ أنفاسه الأخيرة. ومصدر هذا التناقص البالغ الوضوح عاملان: أولهما وأخطرهما إلى أبعد حد، حاجز الأسلاك الشائكة ونشاط الحراسة المتزايد التي أحكمها قراتزياني على الحدود. وثانيهما أقل

(122) أما التقرير «عشر سنوات من تاريخ برقة» فيورد الأرقام التالية عن الخسائر من أبريل إلى سبتمبر 1931، مع التنبيه بأن ثلثي هذه الخسائر قد سجلت في العمليات على الجبل، والباقي في المناطق شبه الصحراوية التي كانت تمر عبرها قوافل تموين العدو: عدد القتلى من العصاة 267، وعدد البنادق التي غنمت منهم 146 بندقية، وعدد رؤوس الغنم التي تم الاستيلاء عليها 561، وعدد الإبل التي قتلت 166 والتي استولي عليها حية 698 والخيول المقتولة 44 والمستولى عليها 51. وخسائر الجانب الإيطالي: قتل 23 «عسكرياً» وخمسة من الجنود الإيطاليين. ومما يبعث على الدهشة والاستغراب العدد التافه من الأغنام التي تم الاستيلاء عليها، في منطقة كانت تعد فيها الأغنام بمئات الآلاف وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على فداحة أعمال التدمير التي نكبت بها الحياة على الجبل. أما عدد الإبل التي تم الاستيلاء عليها أو قتلها فمرده ما تعرضت له قوافل التموين بين الجبل والحدود من خسائر.

شأناً ويتمثل في الضائقة المالية التي أصبح يعاني منها المشرفون على حركة التهريب داخل الأراضي المصرية، وكانوا المستفيدين منها. ولا يبدو أن هؤلاء المضاربين كانوا يريدون أو كان بإمكانهم تعريض أموالهم للضياع بسبب الأخطار المتمثلة في حاجز الأسلاك الشائكة، وتصدي قواتنا المستمر للقوافل وتدميرها، لذلك أحجموا عن إرسال السلع بواسطة قوافل ضخمة وأصبحوا يكتفون بإرسال قوافل صغيرة ما انفكت تتناقص أكثر فأكثر حتى توقفت.

ليس ذلك فحسب بل حتى القوافل الصغيرة التي تجرأ على مجابهة الخطر، سرعان ما ينكشف أمرها وتحدد بدقة نقطة تسللها من خلال خط الأسلاك الشائكة، فتكون في انتظارها وحدات من قواتنا السريعة الحركة لتنقض عليها داخل صحراء البطنان وتدمرها بدون تردد. فأدت هذه الخطة إلى تحقيق نتائج جيدة: انتشار الفزع والشعور باليأس في روع المهربين ومن ثم فلا شيء يحول دون توقع أن تؤدي إقامة الحاجز إلى توقف عمليات التهريب نهائياً. ونحن إنما نقول ذلك عن تبصر وليس من قبيل المبالغة في التفاؤل[123].

فتجاوب معه قراتزياني في هذا التحليل، في منشور عممه على القيادات، في منتصف أغسطس:

«إن إجراءات عزل الثوار عزلاً كاملاً، يمكن اعتبارها منتهية حيث أن سد الأسلاك الشائكة سيتم مدّه مع نهاية الشهر.

وخلاصة القول هي أن هذه التدابير قد أدت إلى قلب الموقف السياسي رأساً على عقب ولصالحنا، كما أنها أسفرت عن وضع العصاة في محنة، قاسية ويائسة[124].

---

(123) كانتالوبو إلى وزارة الخارجية ـ 24 يولية 1931 ـ المحفوظات التاريخية المركزية/م قراتزياني 9/3/2.

(124) منشور قراتزياني إلى جميع السلطات التابعة له، بتاريخ 17 أغسطس 1931ـ محفوظات وزارة أفريقيا الإيطالية ـ 98/22/150 ـ وفي منشور آخر أصدره في ذات اليوم (المصدر المذكور) دعا قراتزياني كبار المسؤولين في المستعمرة إلى عدم الانصياع وراء البحث عن إجراء اتصالات للوصول إلى عقد اتفاقيات مع الزعامة السنوسية «كما تنادي بذلك أصوات آتية من جميع

وينهي قراتزياني منشوره بقوله:

«ومع ذلك فإن العصيان ما زال متواصلاً، لأن عمر المختار لن يرضخ للاستسلام، أبداً».

* * *

5 ـ القبض على عمر المختار:

في أوائل شهر سبتمبر، تلقت القيادة الإيطالية للجبل نبأ مفاده أن دور البراعصة/الدرسة، الذي ربما كان يعززه أيضاً دور العبيدات بقيادة عمر المختار نفسه، كان يحتشد إلى الجنوب من البيضاء، تأهباً للاغارة على ضواحي شحات بقصد نهب المواشي التي كان في أشد الحاجة إليها. استنفرت التشكيلات السريعة الحركة وأرسلت على الفور وحدات (الكشافة) التي كانت قد شاهدت، في فترة الظهيرة من يوم 9، نفس الدور بالقرب من (سلنطة) (أي على مسافة قصيرة من موقع إحدى الحاميات الإيطالية: وهذا دليل آخر على أن جماعات المقاومة ما زالت نشطة، تجوب الجبل، رغم كل الاحتياطات). في يوم 10 سبتمبر حشد مالطا ثلاث كتائب ايريترية ومجموعة سرايا الصواري، التي قامت، في فجر يوم 11، بمداهمة الدور في وادي بوطاقة (وكان عدد رجاله حوالي مائة، من الفرسان). إلا أن الدور لم يبق في مكانه، بطبيعة الحال وفقاً للقاعدة الحكيمة التي اعتادها عمر المختار وهي عدم التوقف والإسراع والتحرك، درءاً لكل مفاجأة. وهكذا توزع رجال الدور إلى عدة مجموعات صغيرة، تسللت إلى داخل الصفوف الإيطالية، لتختفي من جديد. إلا أن الطائرات تمكنت من اكتشاف المجموعة الرئيسية للدور، خلال استطلاعها للمنطقة، فأخطرت بذلك أقرب سرية للصواري، التي انطلقت على الفور في مطاردة المجموعة. إلا أن حالة جياد المقاومة، التي ظلت مدة طويلة مرهقة، بدون راحة وعدم تناول علف

الاتجاهات من حيث أن الأوضاع السيئة التي آلت إليها حركة المقاومة دفعت العديد من الثوار إلى تسليم أنفسهم خوفاً من الإعدام» ويحذر قراتزياني في خاتمة منشوره، من أنه لا يمكن أن تجري أية مفاوضات إلا بمعرفته، هو، وتحت مسؤوليته الشخصية.

كاف، كانت قد حالت دون إفلاتهم فأدركهم الصواري وقضوا على أحد عشر منهم. أما الثاني عشر فقد أحجموا عن قتله، لما اشتبهوا في أنه كان عمر المختار، بصورة تكاد تكون قاطعة. ولما تحققوا من شخصيته دون أدنى شك، توقفت العملية (التي تناولناها بالتفصيل، لأنها نموذجية في تطورها، حسب الخطط الجديدة)، واقتيد الأسير المهاب تحت حراسة ضخمة إلى أبولونيا (مرسي سوسة)[125]. وفي يوم 12 سبتمبر نقل عمر المختار إلى بنغازي على متن «طراد»، فتعرف عليه كبار الموظفين الإيطاليين الذين سبقت لهم معرفة به ولم يحاول هو، من جهة أخرى، إخفاء هويته ولا إنكار دوره.

فانتشر نبأ أسره في ذات اليوم 12 سبتمبر في طرابلس وفي إيطاليا ولم يتردد بادوليو لحظة عن المطالبة بقطع رأس هذا القائد العجوز:

«إذا ثبت أن المقبوض عليه هو عمر المختار بعينه، أرى من الأنسب إجراء محاكمته نظامياً وإصدار الحكم عليه، الذي سيقضي بدون شك بإعدامه، وتنفيذ الإعدام داخل أحد معتقلات الأهالي الكبرى»[126].

وقراتزياني، الذي كان موجوداً في روما ويتأهب للسفر إلى باريس، أسرع بالعودة إلى بنغازي، التي وصلها يوم 14، حيث وجد في انتظاره برقية من دي بونو. «حسناً. ستجري محاكمة وما يليها من عملية إعدام بصورة مثيرة وصاخبة»[127].

وبرقية أخرى من بادوليو، الذي كان قد طار إلى روما:

«تحدثت إلى وزارة المستعمرات (...) أعدوا العدة لإجراء محاكمته جنائياً، على الفور، ولا يمكن أن تنتهي المحاكمة إلا بصدور حكم الإعدام، حسب الأعراف

---

(125) توجد تقارير القيادات الإيطالية التي اشتركت وحداتها فى عملية بوطاقة في المحفوظات المركزية التاريخ ـ م ق ـ 11/3/2 ـ وحول هذه الأحداث يراجع «روشا» المصدر المذكور ـ ص 29/35.

(126) بادوليو إلى دي بونو ـ 12 سبتمبر 1931 ـ م م ت/م ق /2/3/2، هذه البرقية والبرقيات التالية قد سبق أن نشرها «روشا»، المصدر المذكور ـ ص 26/25.

(127) دي بونو إلى بادوليو وقراتزياني، 14 سبتمبر 1931 ـ ذات المصدر م م ب/ م ق/2/3/2

المحلية. رتبوا لتنفيذ الإعدام داخل أخطر ميدين اعتقال الأهالي المحليين[128].

وبمقدمات كهذه فإن تقديم عمر المختار أمام المحكمة الخاصة، التي افتتحت جلساتها رسمياً بعد ظهر يوم 15 سبتمبر، ما كان من شأنه إلا أن يستكمل جوانب المسرحية الهزلية المبكية التي لم يكن لها مظهر مثير إلا هيبة عمر المختار ووقاره وعزة نفسه. ويكفي دليلاً على ذلك أن المحامي العسكري المكلف بالدفاع عن المتهم النقيب لونتانو (Lontano)، عاقبه قراتزياني، بعد المرافعة، بحبسه في زنزانة انعزالية لمدة عشرة أيام للمسببات التالية:

«بعد تكليفه رسمياً بالدفاع عن أحد زعماء المقاومة الذي كان قد اعترف بكل بند من بنود صحيفة الاتهام ترافع عنه بحماس وإشادة، محاولاً تبرير ما اقترفه المتهم بلهجة تتعارض مع ما يتطلبه الدفاع عن متهم اعترف بجريمته فضلاً عن عدم مراعاته للظروف الخاصة السائدة والبيئة التي انعقدت فيها المحاكمة»[129].

جرت عملية شنق عمر المختار في يوم 16 سبتمبر في سلوق، على مشهد من عشرين ألف شخص، بين معتقلين وأعيان استدعوا خصيصاً لهذه المناسبة، ويصف قراتزياني المشهد، دون أن يخالجه أدنى شك في وجاهة وصواب فعلته.

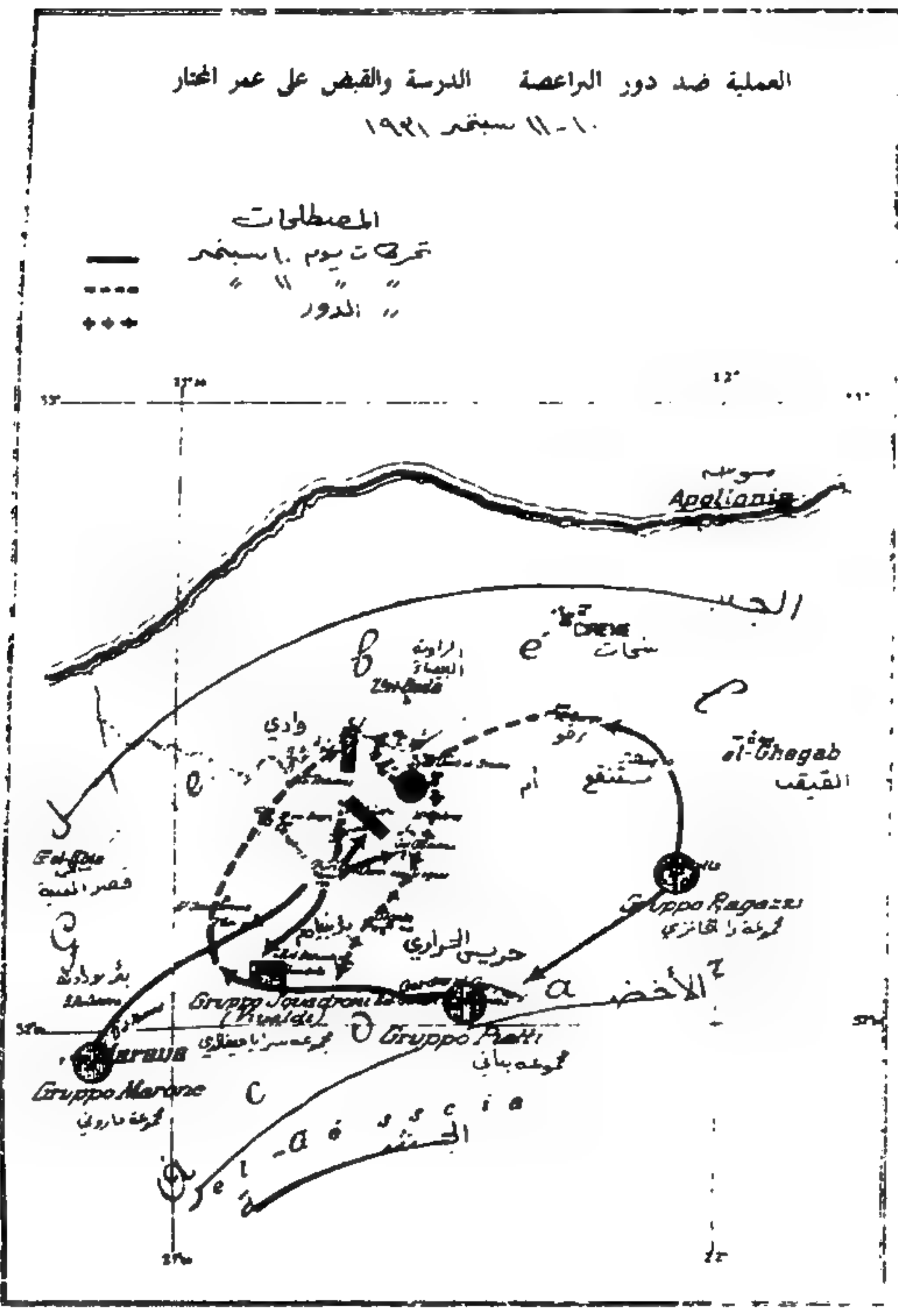
«أحدث ذلك انفعالاً شديداً في جميع الحاضرين»[130].

---

[128] بادوليو إلى قراتزياني، 14 سبتمبر 1931 ـ ذات المصدر م م ت/م ق/2/3/2 ـ ونحن ننقل كل هذه البرقيات لإيضاح أن المسؤوليات عن إعدام عمر المختار لا يمكن أن يحمل بها قراتزياني وحده (حتى لو كان قد أعزى هو لنفسه «الفضل» في ذلك) بل قد اشترك فيها ممثلو أعلى السلطات المختصة.

[129] يتضح «العقاب» من خلال منشور أصدره العقيد «ناري»، نائب قراتزياني في قيادة قوات برقة، في 12 نوفمبر1931 يخطر فيه ضباطه بمجموعة من الإجراءات التي اتخذت ضد بعض زملائهم، على سبيل التنبيه.ونص هذا المنشور (المودع في المحفوظات التاريخية/م قراتزياني 1/11/6) لا يذكر اسم النقيب «لونتانو»، لكن القرينة وسياق الكلام يؤكد إن هذا النقيب هو المقصود بالذات، حيث إنه من الثابت لدينا إنه لم تجر في تلك الفترة أية محاكمة لزعماء غير عمر المختار (روشا، ذات المصدر، ص26). وهذه الحادثة التعسة كما يتناولها قراتزياني بشأن عمر المختار تنسجم في الكامل مع أخلاقياته وسلوكه.

[130] قراتزياني ـ المصدر المذكور ـ ص 273.



العملية العسكرية بسلنطة التي اسفرت عن القبض على عمر المختار ١٠-١١ سبتمبر ١٩٣١

كانت هذه العملية الصاخبة والمثيرة تتويجا يتناسب مع سياسة اتسمت بالاضطهاد والقمع الوحشي: وفرنسا، تلك الدولة الاستعمارية، الأكثر تبصراً وحكمة، عرفت كيف تتحاشى إصدار حكم بالإعدام على قائدين شهيرين، هما عبد الكريم (الخطابي) وعبد القادر (الجزائري)، أما إيطاليا الفاشية فليس من شيمها أن تتخلى عن الثأر، رغم الفوائد التي كانت تجنيها لو هي عفت عنه أو عاقبته بطريقة أخرى بدلاً من تحويل زعيم عجوز ناهز السبعين إلى «شهيد لقضية استقلال العرب والعقيدة الإسلامية، كما أصبح بالفعل»[131].

هذا ولا شك أن اختفاء عمر المختار عن الميدان قد أدى إلى استياء وضع حركة المقاومة وتحرج موقفهم بعدما فقدوا زعيمهم ومرشدهم الأوحد في اللحظة التي أوشك فيها مد حاجز الأسلاك الشائكة على الانتهاء، الأمر الذي يعني قطع كل حركة تبادل بين الجبل ومصر وأصبحت كل محاولة تنقل عبر الحاجز في حكم المستحيل ونورد هنا، على سبيل المثال، مدى التضحية التي كلفتها محاولة من هذا القبيل: في يوم 11 أكتوبر اكتشفت دورية من الهجانة قافلة تتألف من 50 جملاً، في حراسة 25 رجلاً، في المنطقة الواقعة بين جالو واجدابيا. فبعدما تخلصت من مطاردة هذه الدورية، وكذلك من وحدة ايريترية، محمولة على الشاحنات، وكوكبة سيارات مصفحة كانت قد انطلقت من عدة اتجاهات صوبها لاحتوائها، تمكنت القافلة من الإفلات والتوغل إلى داخل الصحراء لمسافة حوالي 400 كيلو متر إلى الجنوب من الجبل. تواصل البحث عنها بصورة مكثفة، اشتركت فيه جميع الطائرات المتوفرة آنذاك: في يوم 15 أكتوبر شوهدت القافلة وهي ما زالت تائهة في الصحراء على بعد 200 كيلو متر من الحدود فلاحقتها وقصفتها بالقنابل وعيارات الرشاشات على مدى

(131) لا بد من الملاحظة هنا أن الإدانة كانت مبنية على غير أساس قانوني من واقع أن عمر المختار لم يسبق له أن استسلم، أبداً، وبالتالي لا يجوز اتهامه بالخيانة، بل كان يجب اعتباره «أسير حرب» (راجع أيضا، دي لتوني ـ المصدر المذكور ص 559 ـ وكان من غير الموقع أن تراعي السلطات الفاشية القانون، فعمر المختار الذي لم ينكر أنه قاد حركة المقاومة، بل على العكس كان يراها واجباً يفرضه عليه الوطن، وحاكمه الشرعي، أظهرته الدعاية الفاشية، وقسم لا بأس به من «واضعي التاريخ الاستعماري الرسمي» على أنه كان مجرماً اعترف بجرائمه.

ثلاثة أيام، وأخيرا اعترضت طريقها تشكيلات من الهجانة ودمرتها، على بعد 100 كيلو متر من الحدود (17 أكتوبر).

إن أحكام جهاز الحراسة، المنظم على أسس حديثة والمدعم بعتاد مناسب، قد أدى إلى إيصاد الحدود بصورة مطابقة في وجه القوافل والقطعان، إلى درجة أنه حتى جماعة صغيرة من الفرسان لم تعد تجرأ أو تتمكن من اختراق الحاجز إلا بعد تكبد خسائر فادحة[132].

استغل قراتزياني فترة الذهول المترتبة على إعدام عمر المختار، ليصدر في 17 سبتمبر منشوراً يقضي بالعفو عن جميع من يتقدمون للاستسلام، من المقاومة. غير أن هذا المنشور، الذي تعرض لانتقاد لاذع من طرف بادوليو[133]، لم يأت بنتيجة تذكر: فخلال شهر ونصف الشهر لم يتعد عدد المستسلمين العشرة، ولم تنته المقاومة في الكامل إلا بسبب انقطاع سبل التموين والإمداد، دون أن تظهر على الأفق أية علامات على قرب انفراج الأزمة: لذلك قرر زعماء المقاومة، في اجتماع عقدوه في مكان ما، في 9 ديسمبر، وضم حوالي ستين منهم (وهو ما يدل بوضوح على أنهم ما زالوا يتمتعون بحرية التحرك على الجبل)، قرروا وضع نهاية للكفاح، تاركين لكل فرد حرية الاختيار بين اللجوء إلى مصر أو الاستسلام[134]. ففي الأيام التالية تم تسريح الأدوار وحلها للمرة الأخيرة، وتقدم الجزء الأكبر من رجالها لتسليم أنفسهم للسلطات الإيطالية بينما تسلل أخطر الزعماء وأشدهم عداء للطليان، إلى ما وراء الحدود، طلباً للنجاة.

---

(132) قراتزياني، المصدر المذكور، ص 285 ـ 287.

(133) في 17 سبتمبر أبرق بادوليو إلى قراتزياني: «إن مثل هذه التدابير التي اتخذت (...) تتطلب، ضمناً، ادخال تعديل على الخطة المقرر السير على منوالها حتى الآن فكان من الأنسب والحالة هذه، طلب الاذن مني، مسبقاً.وليكن من المفهوم أنه لا مناص من مواصلة العمليات، بحزم وبضربات مميتة» (م م/ ملف قراتزياني 2/2/1) ومنشور قراتزياني منقول على صفحات المصدر المذكور، وفي ص 279، رسالة من بادوليو إلى الجنود، يحرضهم فيها على استئناف «الضرب بقوة» و «بدون تهاون»

(134) قراتزياني ـ ذات المصدر ـ ص 291 ـ 292.

إلا أن تطور الأحداث، بهذا الشكل، لم ينل موافقة بادوليو الكاملة، من واقع تخوفه من احتمال أن تتمكن المقاومة من استرجاع أنفاسها لتستأنف الكفاح: «إن آخر فلول المقاومة، التي تضم أعتاهم وأكثرهم عنتاً ورفضاً للاستسلام، كنت أفضل أن أشاهدها وهي تصفى ويقضى عليها أكثر من الحصول على استسلامها، حيث أنها تشكل أبداً عامل قلاقل وفوضى. وعلى كل حال، طالما أن المنشور قد صدر، فلا بد من الوفاء بالوعد»[135]. وعلى أثر استشهاد (وفاة، في الأصل) يوسف بورحيل الذي خلف عمر المختار في تزعم الثورة، ولقي مصرعه وهو يقاتل ضد مطارديه أبرق بادوليو، ناصحاً: «لا نعتبر الثورة منتهياً قبل مضي شهر على قتل آخر عاص»[136]، إلا أن المقاومة، في الواقع، كانت قد انتهت قبل ذلك ولم يتعد عمل الدوريات الإيطالية تطهير مختلف المناطق من جماعات مبعثرة، قليلة العدد ومعزولة بعضها عن بعض، أضناها التعب وأوهنها العوز والحاجة على أقل متطلبات العيش والبقاء»[137]، فاقتنع بادوليو بحقيقة الوضع، ولكي لا يفوته تصدر الاحتفاء بالنصر، سلم قراتزياني، في 7 يناير، نص «المقرر توزيعه، بصورة رسمية، صاخبة، في يوم 24 يناير، أي في غمرة الاحتفالات بالذكرى السنوية الأولى لاحتلال الكفرة:

---

(135) بادوليو إلى قراتزياني - 21 ديسمبر 1931 - م م ت/م.قراتزياني 2/2/1

(136) بادوليو إلى قراتزياني - 22ديسمبر 1931 - ذات المصدر السابق، 2/2/1، سقط يوسف بورحيل في 19ديسمبر، وهو يقاتل من حاجز الحدود، ومن بين خلفاء عمر المختار الآخرين، تمكن عبد الحميد العبار من اجتياز الحدود واللجوء إلى مصر، فيما سلم عثمان الشامي نفسه للسلطات الإيطالية.

(137) استناداً إلى تقرير مالطا، السالف الذكر، كانت الخسائر، على الحل، في المدة ما بين يولية 1930 وديسمبر 1931، كما يلي: في صفوف الطليان: 3 قتلى و 6 جرحى، وفي صفوف «العساكر» 45 قتيلاً و117 جريحاً، وفي صفوف المقاومة 624 قتيلاً و234 أسيراً، و 95 مستسلماً»، وفقدت المقاومة 338 جواداً، أما قتلت وإما استولي عليها حية، كما تم الاستيلاء على 342 بندقية و54 بندقية أخرى سلمها أصحابها وعبر حد تقدير قراتزياني، فإن حجم الخسائر، في كامل تراب برقة، خلال الفترة من مارس إلى ديسمبر 1931 كان: 138 قتيلاً و270 جريحاً، في الجانب الإيطالي، و 1641 قتيلاً في صفوف المقاومة، فضلاً عن استسلام 541 رجلاً (المصدر المذكور - ص 297).

«إنني أعلن أن العصيان في برقة قد قطع دابره بصورة شاملة ونهائية. وبهذه المناسبة، فليتجه فكرنا ووجداننا بالشكر والتقدير إلى صاحب السعادة رئيس الحكومة وسعادة وزير المستعمرات اللذين كانا قد ساندا عملنا وأيداها بعزيمة صادقة وتحريض مخلص وفعال.

وأشير على جميع الإيطاليين المقيمين في قطري طرابلس وفي برقة بأن يعترفوا بالجميل لقراتزياني وبأن يذكروا اسمه على أنه كان الرجل الذي أنجز في الكامل المهمة التي عهد بها إليه بإتباع التعليمات التي كنت أصدرها إليه، مبرهناً على ذكاء وصرامة ومثابرة جديرة بالتقدير.

«وإنه، بعد مرور عشرين عاماً على نزولنا إلى هذه الأرض، يتم لأول مرة، احتلال كامل تراب المستعمرتين، ويعود إليهما السلام والسكينة. فليكن هذا التاريخ ليس فقط مجرد مصدر للامتنان بالنسبة إلينا جميعاً، لما حققناه في سبيل آداء مهمتنا بل أيضاً نقطة انطلاق ودافعاً قوياً لتحقيق تقدم وإزدهار حضاري للمستعمرتين»[138].

كان بادوليو محقاً في قوله هذا، حيث أن المقاومة في برقة كان قد قضى عليها بالفعل في تلك الفترة، ولم يعد هناك مكان لاستئنافها، لأن الوضع الذي نشأت عنه وترعرعت في ظله قد انقلب رأساً على عقب، فطرد الأهالي من ديارهم وحشرهم في المعتقلات، والقضاء على عدد كبير منهم بداخلها والتصفية المضطردة لقطعانهم التي كانت تشكل المورد الرئيسي لعيش شعب جله من الرعاة شبه الرحل، كانت نتيجتها المنطقية تدمير المجتمع الجبلي من أساسه. واللحظة الحاسمة للقضاء على المقاومة بأسلوب قمعي جديد، كانت بدون شك، عند قرار إخلاء الجبل من سكانه مع قطعانهم، ولا بد من إعادة تأكيد ذلك. فعندما نفذت عملية الإجلاء هذه، وجد عمر المختار نفسه مع رجاله مضطرين إلى أن يعيشوا ويقاتلوا على أرض كانوا يعرفونها معرفة دقيقة، وأصبحت غريبة عنهم لخلوها الكامل من مظاهر الحياة، ولم تبق لهم

---

(138) بادوليو إلى قراتزياني، في 7 يناير 1932 ـ المحفوظات المركزية التاريخية/م قراتزياني 2/2/1.كان نص «الأمر اليومي» مرفقاً برسالة ـ راجع قراتزياني ـ المصدر المذكور ـ ص 307.

جذور فيها ولا مورد للعيش يعتمدون عليه. لذلك فإن المقاومة، بعدما فقدت قاعدتها الشعبية العريضة، أصبح مصيرها الاحتضار ثم الفناء العاجل

* * *

خامساً: ترسيخ الاحتلال الإيطالي:

1- ميادين الاعتقال:

إن معلوماتنا عن ميادين الاعتقال الجماعية التي حشر بداخلها سكان الجبل والمناطق شبه الصحراوية، قليلة جداً، مع الأسف، ذلك أن المذكرات والتقارير، وحتى ما نشر في مؤلفات التاريخ الاستعماري (الرسمي)، تتجاهل هذه النقطة في الكامل أو تمر عليها مر الكرام (وذلك إذا استثنينا بعض اللمحات التي أوردها قراتزياني ليبرر بها نفسه، أكثر من أي شيء آخر). وحتى فحصنا وبحثنا في محفوظات وزارة أفريقيا الإيطالية ومحفوظات الجيش والملفات الخاصة بقراتزياني، لم تخرج منه إلا بنتائج محدودة وغير كافية، الأمر الذي يحمل على الاعتقاد بأن التقليل من الحديث عن الموضوع، وخاصة من الكتابة عنه، كان إجراء مقصوداً ومتعمداً[139]. ولكننا، مع ذلك، ها نحن نستجمع المعلومات القليلة والمبعثرة والمبتورة، لندلل على فداحة هذا الجانب من حملات القمع وعلى ضرورة التعجيل بإجراء بحوث منظمة[140].

---

(139) كما سبق أن ذكرنا، أن مراجعتنا للمحفوظات الرسمية لا يرتاح إليها أو يعتد بها على أنها شاملة، بالنظر إلى الصعوبات المتأتية من عدم انتظامها وتبويبها لتسهيل البحث والمراجعة. فمن المؤمل، والحالة هذه، أن تؤدي الدراسات والبحوث المنهجية إلى إعادة تبويبها بحيث تصبح محفوظات منتظمة ومبوبة تمكن من الحصول مستقبلاً على نتائج أضمن وأوفر.

(140) نتناول في هذا الفصل ما سبق أن أوردناه في كتاباتنا سنة 1973 وذلك بعد الاستفادة من مراجعة مصادر ومراجع جديدة لم نعثر عليها من قبل (روشا) المصدر المذكور، ص 29 - 39 ففي تقرير حول (إبادة أهالي برقة، كما يراها روشا) نشره في عام 1979، في مجلة «انتيرفينتو Intervento»، عددي 38و39، يعترض «دي لئوني» على طريقة عرض القصية

فالمشكلة الأولى لمعرفة ذلك تكمن في صعوبة الحصول على بيانات مستوفاة حول عدد سكان القطر قبل الاحتلال الإيطالي وما لحق به من تقلص خلاله

فاستنادا إلى الإحصاء الذي أجرته السلطات التركية في سنة 1911، قبل الغزو الإيطالي، كان عدد سكان برقة (بما فيها الكفرة) 198,300 نسمة، وظل يتراوح بين 180,000 و200,000 نسمة في سنة 1921، بحسب ما جاء في إحدى الإحصائيات الإيطالية[141]، وفي فترة عامي 1922/23، عهد إلى خبير في هذا المجال، هو العقيد انريكو دي اقوستيني Enrico De القيام بأول دراسة مستفيضة بشأن حصر السكان. فقدر أن سكان برقة الأصليين 185,400 نسمة (181,750 منهم عرب و 3650يهود)[142]. أما البحاثة الإنجليزي ايفانس بريتشاد (Evans Prichard) فيتحدث بصورة إجمالية عن عدد السكان ويقدرهم بحوالي 200,000 نسمة، ربعهم من سكان المدن[143]، وبحسب نتائج عملية إحصاء أجرتها السلطات الإيطالية بصورة رسمية في عام 1928، تبين أن عدد السكان المحليين قد ارتفع إلى (225,000) نسمة[144].

ومصادرها وأرقامها، كما أوردناها في مقالنا، في سنة 1973، مؤكداً على أن اتهام السياسة الفاشية في برقة باقتراف جناية الإبادة لشعب بأسره، لا يمكن أن ينشأ إلا من خلال جو مفعم بالتخاذل والعداء لإيطاليا فضلاً عن أنه ثمرة أفكار مغرضة ومسفة غير أن دي لنوبي لا يدعم تأكيداته هذه إلا بكيل الشتائم والقدح الشخصي والهذيان وتشويه البيانات والوثائق وتزيفها.راجع «روشا»: حملة الإبادة على برقة والتاريخ كما يسحله الاستعمار «في بلفاقور» عدد ـ 4 ـ ص 449ـ455.

[141] ايليو ميليوريني (E.Migliorini) «الإقليم: الأرض وساكنوها»، روما 1955، بمعرفة لجنة توثيق العمل الإيطالي في أفريقيا، ص 98 ونحن نأخذ هذا التقرير كأساس لتحليلنا، لأنه يعبر عن «الثقافة» الاستعمارية الرسمية، لما تضمنه من المتناقضات وما يلاحظ عنه من ثغرات، فميليوريني يتجاهل، في صفحاته، مثلاً الدراسة التي قام بها دي أقوستيني خلال عامي 1922/23، وهي دراسة تتسم بالدقة والتفاصيل أكثر من أية دراسة أخرى أجريت طوال الحكم الإيطالي.

[142] أ دي أقوستيني ـ سكان برقة ـ بنغازي 1923 ـ إشراف حكومة برقة.

[143] ايفانس بريتشارد: ذات المصدر ـ ص39 ـ41.

[144] النشرة الاحصائية السنوسية الإيطالية 1928 (إلا أننا نلاحظ أن هذه الأرقام تقريبية، ولا تخلو

وإحصاء 21 أبريل 1931، وهو أول إحصاء رسمي يتم بالوسائل والطرق الحديثة، ويشمل كامل تراب المستعمرة، أوضح أن عدد سكان برقة «المحليين» قد انخفض إلى 142 ألف (بالإضافة إلى 16100 إيطالي و2400 أجنبي من جنسيات أخرى) وهو إحصاء يعزز في جوهره إحصاء 21 أبريل 1936، الذي يتبين منه أن عدد السكان قد بقي على ما كان عليه في الإحصاء السابق: (142,500) تقريبا[145].

ويتضح من كل هذه الأرقام هبوط في عدد السكان خلال سنوات القمع لا يمكن إنكاره، ولو صعب تحديد حجمه فإذا ما أخذنا كأساس لتحليلنا تقديرات دي أقوستيني وإحصاء عام1931، لا تضح لنا أن انخفاض عدد السكان يتراوح بين 40و45 ألف نسمة، و60000 إذا ما اعتمدنا تقدير ايفانس بريتشارد، ويقفز هذا الرقم إلى 80000 إذا استندنا على إحصاء عام 1928. وقسم من هذا العجز يعزى إلى الهجرة إلى مصر خلال عامي 31/1930، التي تقدرها مصادر مختلفة كقراتزياني وأ. بريتشارد، بحوالي 20000 نسمة[146]. وعلى كل حال، فإن هبوط عدد سكان برقة بواقع بضع عشرات الآلاف ما زال باقياً بدون مبرر، حيث أن المصادر الإيطالية لا توفر لنا معلومات أو بيانات مباشرة بهذا الصدد. إلا أنه ينبغي ألا يغيب عن الأذهان أن إحصاء عام 1931، كان قد أجرى وفقاً لمتطلبات سياسية أكثر ملائمة للحكومة من اعتماده على الاعتبارات الإحصائية العلمية البحتة إلى درجة أن حصر عدد المعتقلين في ميادين منطقة سرت، قد تم على أساس أنهم ما زالوا يقيمون بديارهم ولم يشر«إلى وضعهم الشاذ، أو كونهم كانوا في المواقع مبعدين عن أوطانهم الأصلية، فلا شيء يحول، إذاً، دون افتراض أن يكون المهاجرون إلى مصر قد سجلوا على أنهم ما زالوا مقيمين في القطر[147]. لذلك فقد تصدق نتائج إحصاء عام 1936، الذي يظهر أن

من الأخطاء إلا أن «المؤرخين الاستعماريين» كانوا يقفلونها على علاته

(145) النشرة المذكورة ـ لمختلف السنوات ـ أ.ميليوريني ـ ذات المصدر، ص 98/99.

(146) مذكرة قراتزياني إلى دي بونو، أول أبريل 1932، المحفوظات المركزية، م.ق.1/11/6..أ.بريتشارد ـ المصدر المذكور، ص 197.

(147) ومن الجدير بالملاحظة أن تقارير «لحنة التوثيق» لعمل إيطاليا في أفريقيا، لا تبدي أي تحفظ أو تشكك، في باب «الأرض وساكنوها» في صحة أرقام إحصاء 1931، كما أنها لا تعبر أي

إجمالي عدد سكان برقة كان 142500 نسمة، وبديهي أن هذا الإحصاء ليس تأكيداً لنتائج إحصاء 1931، لأن إحصاء 1936 كان يشمل أيضاً العائدين من مصر، وكانوا بضعة آلاف، غير أن إجراء أية مقارنة بين أرقام تتعلق بسنوات متعاقبة يجب أن يأخذ في الحساب التزايد الطبيعي في عدد السكان: فعمليات الإحصاء في سنتي 1931و1936، مثلا، تبين أن عدد سكان قطر طرابلس قد ارتفع من 512000 إلى حوالي 600,000 نسمة، في الوقت الذي ظل فيه عدد سكان برقة ثابتاً على ما كان عليه.

والخلاصة هي أنه حصل هناك، فعلاً، انخفاض كبير في عدد سكان برقة (من الأهالي المحليين وبعد استبعاد الطليان والأجانب الآخرين): من 185 ألف في عام 1923 إلى 142 ألف و 500 في عام 1936، وإذا سلمنا بأن عدد اللاجئين إلى مصر خلال عامي 31/1930 لاستخلصنا نتيجة واحدة وهي أن عدد الأموات في سنوات حملة الاحتلال الإيطالي كان في حدود. 30,000 على أقل تقدير، وذلك بدون التفات إلى التزايد الطبيعي في عدد السكان، إذ لو أضفناه لبلغ عدد الأموات 45,000 أو 70,000 إذا قبلنا تقديرات بريتشارد أو التقديرات الإيطالية لعام 1928[148] وبحسب ما يستنبط من المصادر الإيطالية، فإن العمليات العسكرية ضد الثوار (ونضيف عليها نحن عمليات البطش والتنكيل بالأهالي الذين تعرضوا لحملات الملاحقة والتطهير) قد أسفرت عن قتل 6500 شخص، بالنسبة إلى الفترة من 1923 إلى 1931[149].

كما أننا نستخلص مما تقدم أن تناقص عدد السكان لا يرجع سببه - إلا في جزء بسيط - إلى العمليات العسكرية، وفي الجزء الأكبر إلى الظروف القاسية التي أوجدها

اهتمام بالانخفاض الواضح في عدد السكان ولا تعلق عليه.

[148] لا تتوفر لدينا العناصر المؤيدة أو المشككة، في صحة تقديرات 1928، ولئن تبين أن هذه التقديرات قد بولغ في تضخيمها، إلا أنها تبرهن على كل حال، على أن عدد سكان برقة ظل في تزايد، حتى فترة 29/1928، ليتوقف بعدها ويتناقص نتيجة عمليات القمع والاضطهاد التي اتسم بها عهد قراتزياني.

[149] عشر سنوات من تاريخ برقة.

التسلط الإيطالي على الناس واضطهادهم بشتى الطرق وما نجم عن ذلك من مآسي ومحن (المجاعة، انتشار الفقر المدقع، والأوبئة...) ليس أقلها عملية تهجير سكان الجبل واعتقالهم (عبر مسيرات شاقة والتعرض للموت من جراء الجوع وسوء التغذية، انتشار الأمراض السارية، عدم القدرة على العيش في ظروف وبيئة رهيبة) غير أن عدم توفر المعلومات الواضحة والمنتظمة لا يسمح لنا بتحديد مدى كل هذه المسببات وتأثيراتها وأوقاتها، إلا أنه يتعين علينا ألا ننسى أن كل هذه المصائب والمحن تخطت المدن لتنصب على رؤوس أهالي الجبل والمناطق شبه الصحراوية وحدهم.

هذا وإن سلسلة من البيانات والمعلومات الموازية تعطينا فكرة عن فداحة القرار الذي نفذت على غراره حملة قمع المقاومة خلال عامي 1931/1903م ونحن نشير بهذا إلى الحملة المنتظمة التي استهدفت إعدام المواشي والدواب الأخرى التي تتوفر لدينا عنها معلومات مبتورة وإجمالية، وأحياناً متضاربة، ولكنها، مع ذلك، كافية لتحديد معالم سياسة القمع الإيطالية وآثارها القاسية.

لقد تبين من عمليات حصر الثروة الحيوانية الذي أجرته السلطات التركية في عام 1910م، أن عدد رؤوس الضأن والماعز كان 1,260,000، والإبل 83300، والخيول 27,000 رأس، والبقر 23600[150] والعمليات العسكرية وغيرها على الجبل قد أدت بدورها إلى التناقص، تدريجياً، في حجم هذه الثروة الحيوانية (في الفترة ما بين 1923 و1928، بلغ مجموع ما أعدمته أو استولت عليه القوات كغنيمة حرب، حوالي 170,000 رأس)[151]. إلا أن الثروة الحيوانية ما زالت حتى عام

(150) أ.بريتشارد: المصدر المذكور، ص 37، ورغم أنه من الواضح أن كل هذه الأرقام تقديرية، بالضرورة، إلا أن الدارسين الإيطاليين والإنجليز يقبلونها على علاتها بدون مناقشة.

(151) «عشر سنوات من تاريخ برقة» يعرض التقرير أرقاماً (سنوية) إجمالية، دون تفريق بين ماعز أو ضأن ولا بين إبل وخيول ولا يفرز الحيوانات التي قتلت عن تلك التي تم الاستيلاء عليها، فهي بكل تأكيد منقولة عن البيانات والأرقام الواردة في تقارير القيادات عن كل عملية، لذلك لا بد من أخذها بالكثير من التحفظ على سبيل الاستئناس فقط، وهذه هي الأرقام المجملة. 1923: 24000 رأس ـ 1924: 25000 رأس ـ 1925: 16000 ـ 1926: 37000 ـ 1927: 26000 ـ 1928: 20000 ـ 1929: 2500 ـ 1930: 26000 ـ 1931: 2500.

1928، ضخمة، إذ كان عدد رؤوس الضأن والماعز في حدود المليون رأس على أقل تقدير[152].

	1930	1931	1932	1933
ضأن وماعز	270000	67000	220000	
أبقار	4700	1800	2000	3000
إبل	39000	16000	11000	11500

أما إخلاء الجبل من سكانه، فقد أدى إلى انهيار مفاجئ لهده الثروة، يبدو أن عدد الحيوانات المملوكة للمهجرين عند حشرهم في ميادين الاعتقال كان في حدود 600,000 رأس[153]، إلا أن ندرة المراعي والتدابير التي اتخذتها القيادة الإيطالية للحيلولة دون تمويل حركة المقاومة، قد أدت إلى تضاؤل في عددها بسرعة، بيد أننا عاجزون، في هذه المسألة أيضاً، عن متابعة مختلف مراحل تدمير هذه الثروة الحيوانية، بصورة علمية مبنية على وثائق سليمة وتفصيلية. ولكن الأرقام التالي، المقتسة عن أحد تقارير قراتزياني تنطق بنفسها وتغنينا عن كل بيان:[154]

[152] على حد ما دكره حان ديبوا (Jean Despois) ـ الاستعمار الإيطالي في ليبيا ـ باريس 1935 (وأطلعنا عليه من خلال كتاب ميبج ـ المصدر المذكور، ص 180) كان عدد الأغنام في برقة، في عام 1926، 800,000 رأس، والإبل 75000 والخيول 14000 والحمير 9000 وبحسب ما أورده «تشاسكا» (المصدر المذكور، ص 551). كان عدد الحيوانات في 30 أبريل 1928، مليون رأس من الضأن، و 100000 رأس من الماعز، وبين 10و15 ألف رأس من البقر و 40000 من الإبل ورغم التناقض النسبي في هاتين المجموعتين من الأرقام، إلا أنهما تتفقان على ملاحظة انخفاض كبير، بالنسبة إلى عام 1910، في عدد الإبل والخيول والأبقار، وفي عدد الضأن بصورة أقل وتجدر الملاحظة هنا أن (ديبوا) وهو عالم جغرافي فرنسي فذ، كان على علم بشؤون ليبيا إبان العهد الإيطالي، بينما كان تشاسكا في مقدمة المؤرخين للعهد الاستعماري في عصره.

[153] جيليو «الطريقة السنوسية» ـ المصدر المذكور ـ ص 114 ايفنس بريتشارد ذات المصدر

[154] قراتزياني إلى بالبو (وصورة إلى دي بونو وبادوليو للاطلاع) 26 أبريل 1934 ـ المحفوظات

إن هذه الأرقام، رغم ما تضمنته من متناقضات ونواقص، تبين بوضوح، أن 90 ـ 95٪ من الضأن والماعز والخيل، وربما 80٪ من الأبقار والإبل قد هلكت «بالمقارنة بالبضعة آلاف التي بقيت منها في مستهل عام 1932»، ويواصل كلامه بلهجة المتحدي تبريراً للقضاء على معظم المواشي:

«أين هم اليوم، أمام هذا كله، أولئك المتنبئون بالشر وبانهيار اقتصاد برقة، بسبب انقراض المواشي والدواب نتيجة اعتقال الأهالي؟ تُرى، هل كان علينا أن نتنكر لعزّتنا ونهدر هيبتنا في سبيل إنقاذ النعاج والخراف؟ فالعزّة والمهابة هما ثروة الأمة الحقيقية ومصدر لسيطرة الدولة ولا يمكن التفريط فيهما. أما الأخرى، نعم، فإنها ثروة لا شك في ذلك، عرضة للتلف والضعضعة، ولكنها قابلة أبداً للاسترداد وإعادة التكوين خلال فترة قصيرة»[155].

نأتي الآن إلى الأرقام المتوفرة لدينا حول حجم تهجير الأهالي، وهي أرقام نادرة وغير متكاملة، كالمعتاد. كما أننا على علم بأن سكان المدن (حوالي 50.000 شخص) قد استثنوا، بصورة إجمالية من هذا الإجراء، وسكان الواحات الداخلية (بين 5 و10 آلاف شخص)وكذلك من أصبحوا مرتبطين إرتباطاً وثيقاً باقتصاد المدن أو الذين أصبح لا يخشى جانبهم سياسياً (كانوا موزعين، على حد ما جاء في تقرير قراتزياني كما يلي: 540 خيمة لعشائر العرفة، بمنطقة شحات، و1350 للحاسة، حول مرسى سوسة، و150 خيمة في درنة، و1200 خيمة عبيدات، حول عين الغزالة، أي ما يقدر بين 10.000 و20.000 شخص في المجموع، حيث أن عدد الأشخاص بالنسبة لكل خيمة، أي عدد العائلات، يختلف باختلاف الظروف

المركزية ـ ملف قراتزياني 6/9/5 ـ وهو تقرير عن «الوضع العام في المستعمرة» حتى تاريخه ـ أعده قراتزياني في لحظة انتهاء مهمته كنائب للوالي ـ تراجع أرقام «ديبوا» كما نقلها ميبح المصدر المذكور، ص 80، وأ بريتشارد، ص 37، يورد بالنسبة لعام 1933 هذه الأرقام: 98000 رأس ضأن، 25000 ماعز، 2600 إبل، 8700 أبقار، 1000 خيول و 5000 حمار ـ نلاحظ هنا أيضاً بعض المتناقضات إلا أنها لا تؤثر في اتجاه هذه الظاهرة.

(155) خطاب ألقاه قراتزياني في جمع من المزارعين، في بنغازي، في 25 فبراير 1934 - المحفوظات التاريخية المركزية ـ ملف قراتزياني 11/8/4.

والعوامل الأخرى، كالثروة والتقاليد وخسائر الحرب الخ... فاقتصر الترحيل، إذاً، على الأهالي الرحّل وشبه الرحّل، أو ممن كانوا يمارسون الرعي والزراعة الموسمية فوق الجبل وفي البطنان وبمنطقة بنغازي وببطحاء سرت. وتشهد مصادر مختلفة على أن عدد من شملهم التهجير كان ثمانين ألف، دون إضافة تفاصيل أخرى[156] إنه رقم يبدو مبالغاً في صغره، إذ لو أضفنا إليه السبعين أو الثمانين ألف الذين استثنوا من هذا الإجراء والعشرين ألف الذين هاجروا إلى مصر لوجدنا أمامنا ما يتفق مع أدنى إحصاء تقديري لعدد سكان برقة، من الإحصائيات التي تناولنا، آنفاً.

إلا أنه لدينا مرجع أكثر مدعاة للتصديق وأوفر تفاصيل، وهو تقرير أعده قراتزياني عن هذا الموضوع بالذات، وأرسله في يوم 2 مايو 1931 إلى دي بونو، ونحن نكتفي الآن بنقل الأرقام التي جاءت فيه:

المعتقل	عدد الأشخاص التقريبي
الأبيار	3123
سلوق	20123
سيدي أحمد المقرون	13050
مرسي البريقة	21117
العقيلة	10900
اجدابية	10000 [157]

(156) جيليو ـ الطريقة السنوسية ـ المصدر المذكور، ص 144 ـ قراتزياني، ذات المصدر، ص 115، أ. برتشارد، ذات المرجع، ص 189 ـ وقائع البرلمان الايطالي دورة 1929/34 ـ مختصر مجلس النواب الوثيقة 80/أ ـ تقرير لجنة الميزانية العامة عن المصروفات التقديرية لوزارة المستعمرات ـ السنة المالية 1931/32 ـ ص 15، جميع البيانات التي نقلناها عن قراتزياني (خاصة ما يتعلق منها بالاعتقال والمستثنين منه إلخ) مصدرها كتاب قراتزياني السالفة الإشارة إليه ـ ص 104.

(157) قراتزياني إلى دي بونو، 2 مايو 1931، «المحفوظات التاريخية لوزارة أفريقيا الإيطالية /98/22/150، ويثير هذا الجدول الدهشة لخلوه من ذكر سواني تربة، التي يتحدث عنها التقرير، وعلى العكس من ذلك فهو يشمل اجدابيه في الوقت الذي لا يتحدث عنها

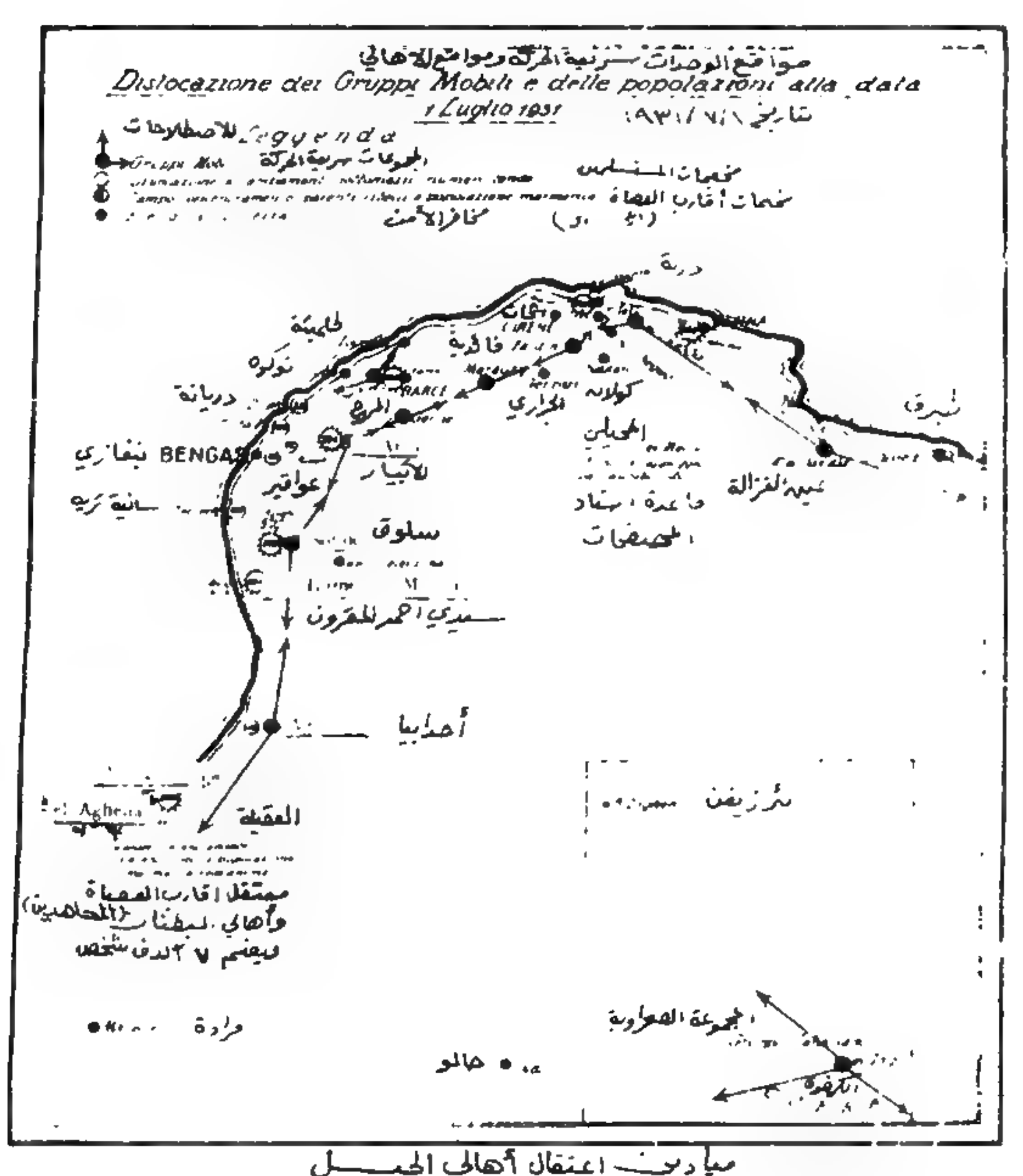
ونرى في هذا الجدول أن مجموع المعتقلين 300.78 (يصل إلى 79.800، إذا أضفنا إليهم الـ 1500 معتقل من المغاربة الذين يذكر التقرير شديهم أنهم نقلوا من العقيلة إلى النوفلية). ولكنه رقم يقل بصورة أكيدة عن الرقم الحقيقي أولاً، لأن التقرير لا يشمل مجموعة من المعتقلات الصغيرة التي يؤكد وجودها كتب قراتزياني نفسه مثل دريانة، وسيدي خليفة، وبنغازي ذاتها، وسوابي ثرية، وثيباً، لأن هذه الأرقام تعود إلى شهر مايو 1931 وبالتالي فهي لا تتضمن عدد من لقوا حتفهم عند اقتيادهم إلى المعتقلات وخلال الثمانية أو العشرة أشهر الأولى من الاعتقال. ولذلك يبدو لنا أن العدد الإجمالي للمعتقلين لا بد أنه كان في حدود 100.000 شخص. وهو رقم إذا أضيف إلى عدد اللاجئين إلى مصر والمستثنين من التهجير والاعتقال، لرفع عدد سكان برقة، قبل عهد قراتزياني، إلى 200.000 نسمة، وهو متوسط التقديرات التي سبق أن تناولناها، وإلى حوالي 50.000 عدد القتلى أثناء فترة القمع.

والبيانات حول مجموع المهجرين التي يذكرها قراتزياني في كتابه، والخاصة بشهري يولية وأغسطس 1931م، تقل عن ذلك بكثير، ولو كان من الصعب إجراء مضاهاة مباشرة للأرقام. فقراتزياني يتحدث فعلاً عن 15200 خيمة مضافاً إليها أكثر من 7000 شخص كانوا معتقلين في ميدان العقيلة، في المحبوع: وهو ما يبلغ في مجموعه 60 ـ 70 ألف نسمة، بانخفاض كبير في العدد الأصلي، لا نعرف مصدره وما إذا كان يعزى إلى خلافات في الحصر أم إلى نسبة الوفيات، العالية جداً في جميع المعتقلات. ولا تتوفر لدينا حول هذه النقطة معلومات مباشرة، وكل ما يتوفر لدينا مجموعة من القرائن والملابسات المتفرقة، غير أنها لا تكفي، رغم وضوحها، لإجراء حسابات يعتد بها أو الخروج منها بنتائج قاطعة.

ولنبدأ بالبيانات التي يعرضها قراتزياني في تقريره السالفة الإشارة إليه والمؤرخ في مايو1931، آخذين في الاعتبار أن المعتقلات كان قد تم إعدادها ونصبت فوقها

التقرير.وفيما يتعلق بميدان الاعتقال في العقيلة، فيذكر التقرير أن عدد المعتقلين به من المغاربة 3000 و7900 من أقارب المنقولين إلى معتقل العقاب، مضيفا القول أن 1500 من المغاربة كانوا قد نقلوا إلى النوفلية.

صفوف منتظمة من الخيم، في رمال الساحل، وأحيطت بحواجز مزدوجة من الأسلاك الشائكة، وفرضت عليها حراسة مشددة، وزودت بخدمات ومرافق مشتركة غير كافية بصورة عامة، وكانت غالباً في حالة مزرية، تدعو إلى الأسف والاستنكار، لقصورها عن توفير أدنى المتطلبات.



معادين اعتقال أهالي الجبل

I campi di concentramento delle popolazioni del Gebel

كان اثنان من المعتقلات التي تناولها التقرير، متوسطي المساحة، أحدها في الأبيار، وكان يضم 3100 معتقل، والثاني في سواني ترية، لا يعرف بدقة عدد المعتقلين بداخله، إلا أنه كان أقل من عدد المعتقلين بالأبيار[158]. وظروف المعيشة في كليهما كانت (مقبولة) نسبياً، لما كان يتوفر للمعتقلين من سبل العمل والعيش: فالمعتقلون بالأبيار كان معهم 500 رأس ضأن، وكميات كافية من الحبوب والعلف، وكانوا قد قاموا بزرع مساحات مناسبة شعيراً وحنطة. «وكان النظام المحلي المتبع كفيلاً، من الناحيتين الزراعية والرعوية، بتوفير العمل والكسب» هكذا ينهي قراتزياني تقريره. وحتى في سواني ترية، واستناداً دائماً إلى بيانات السلطات الإيطالية، كانت هناك إمكانيات جيدة للعمل:

« .. وبترحيل جماعات تمارس الزراعة بحكم تقاليدها، أمكن استصلاح حقول عديدة واستثمارها، بعدما ظلت مهجورة منذ زمن بعيد، وأصبحت تضمن سبل العيش للعديد من العائلات لذلك فإن الأوضاع الاقتصادية بالنسبة للأهالي الذين نقلوا إلى هذا المخيم لا تثير القلق، لأن الموارد الزراعية والحيوانية المتوفرة سوف تكفي لسد حاجياتهم»[159].

وعلى العكس من ذلك، كانت المرافق والخدمات العامة نادرة، بصورة مأسوية. فكان هناك مدرس واحد، إيطالي، وآخر عربي، ومستوصف واحد، وخيمة للعلاج في الأبيار ولا شيء من ذلك في سواني ترية، وكانت الأعمال جارية في كلا المعتقلين لإعداد مركز لشرطة (الكارابينييري) وحظيرة كمركز لمكافحة الحشرات في الأبيار، ومستوصف في سواني ترية.

أما الأوضاع والظروف في المعتقلات الرئيسية، في كل من سلوق وسيدي أحمد المقرون ومرسي البريقة والعقيلة، التي كانت تضم في مجموعها 65000

---

(158) في الخارطة بمواقع المعتقلات في أول يولية 1931، كما نشرها قراتزياني في كتابه بالصفحة 104، يتبين أن معتقل سواني ترية به مائة خيمة والأبيار 924، ويستخلص من مختلف البيانات المتوفرة بهذا الصدد أن معدل المقيمين في كل خيمة يتراوح بين ثلاثة وأربعة أشخاص.

(159) قراتزياني إلى دي بونو ـ 2 مايو 1931

شخص، فكانت تختلف عن ذلك اختلافاً كبيرا، إذ لم توفر لهذه المعتقلات الكبرى الأربعة المرافق الحيوية إلا في أضيق نطاق وبأقل من الحد الأدنى المطلوب: مسلك للدخول والخروج، آبار مشتركة للناس والحيوانات، دورات مياه غير صحية ولا كافية، وجميعها محاطة بخطوط من الأسلاك الشائكة. إلا أن توفير سبل العيش كان غير مضمون لأن المواشي الباقية والحراثة الموسمية غير كافية لتأمين أدنى مستلزمات الحياة. وبما أن المخطط الحكومي لم يدخل في حسبه تقديم الطعام على حساب السلطات الإيطالية (التي اضطرت، اضطراراً وفي مرحلة لاحقة، لذلك)، فلجأت السلطات لتلافي الموقف إلى تنفيذ مشاريع لمد الطرق (دروب فرعية لطريق اجدابية - بنغازي) توفر أجرا أدنى للمعتقلين القادرين على العمل. وفيما يلي ننقل مقتطفات من التقرير تتناول هذا الموضوع:

«إن الهدف الأساسي من تنفيذ برنامج الأشغال العامة هو توفير عمل يساهم في تحسين ظروف العيش بالنسبة إلى جميع (سكان) المخيم (سلوق)[ح].

والأعمال الجارية بالمخيم (سيدي أحمد المقرون) وكذلك أعمال مد طريق قمينس، ساهمت بصورة فعالة في تحسين الوضع الاقتصادي للسكان، هذا وسوف لن يدخر جهد في سبيل وضع دراسة لإعداد خطة لمشاريع تنفيذ للقيام بشؤون هذا المعتقل، بقصد توفير عمل وكسب لسكانه، وذلك حتى يتسنى وضع تنظيم اقتصادي يمكن من توفير سبل العيش وتلبية حاجيات الناس (...).

«يقوم حالياً عدد كبير من العبيدات وأهالي البطنان بالعمل في مشروع مد طريق اجدابيا بنغازي، الذي سيتواصل إلى حين إمكانية تنظيم الأهالي الذين تم نقلهم إلى الميدان الجديد (بمرسي البريقة) بحيث يصبح لهم نشاط اقتصادي خاص بهم[160].

هذا وما زال بلوغ الاكتفاء الذاتي من المواد الغذائية في المعتقلات يعتبر الهدف الأساسي في ذهن السلطات: وفي سبيل ذلك شرع في إقامة حقول زراعية: عشرين هكتاراً في سلوق وعشرين هكتاراً آخر رهن التخطيط والإعداد في العقيلة، و15 في

[ح] لاحظ التناقض فهو يسمى المعتقلين «سكان» كما لو كان اعتقالهم مشروع اسكان (المعرّب)

[160] قراتزياني إلى دي بونو - 2 مايو 1931م.

مرسي البريقة، «وبهذه الطريقة سوف نتمكن من إعادة بناء اقتصاد الكثير من عائلات المزارعين بتلك المنطقة، وذلك بإدخال الزراعة وتطويرها في أماكن لم يسبق أن جرت محاولات من هذا القبيل عليها، في أي وقت من الأوقات»[161]. وفضلاً عن ذلك كانت هناك محاولات جادة لتحويل الأهالي شبه الرحل على صيادي أسماك (ولهذا العرض أرسل قاربان إلى مرسي البريقة وقاربان آخران وعد بإرسالهما إلى العقيلة، والمعتقلون على حد ما ظل يؤكده قراتزياني، سوف يرحبون بالسمك، خاصة إذا كان محفوظاً في الملح)، وكانت توزع الأنوال والصوف على النساء الفقيرات لإنتاج الخيم والبسط، كما كانت السلطات تسعى بكل الطرق إلى فتح بقالات ومتاجر ومقاصف من شتى الأنواع. ففي ميدان سيدي أحمد المقرون، مثلا، «حاول المكتب الحكومي المشرف عليه، بعث الروح في نشاط البقالين وأصحاب المقاهي ودفعهم إلى بناء أماكن لممارسة نشاطهم بحيث تأخذ المنطقة، في المستقبل القريب، مظهر مركز سكاني صغير، قابل للتوسع والتطور»[162]، فكانت هذه الحوانيت والمقاصف الصغيرة تشكل، في تلك الفترة الخدمة الوحيدة التي تقدم في ميادين الاعتقال، رغم ما كان هناك من مشاريع تشملها جميعاً، وتتعلق بإقامة مراكز للشرطة ومكاتب للإدارة ومستوصفات ومدارس (وكانت سلوق وحدها مجهزة بمستشفى صغير يضم 13 سريرا، ومدرسة مع مسكن للمدرس). أما الجهاز الطبي ومرفق الرعاية الصحية فكان يعتمد على طبيبين اثنين لا غير (وكان كل واحد منهما مسؤولاً عن معتقلين وعن أكثر من 30000 شخص)، وعلى بضع خيم مهيأة في شكل مستوصفات، وبضعة ممرضين، كلفوا بتطعيم جميع المعتقلين، ضد الجدري. وكان ميدان سلوق يضم ايضا طبيبا بيطريا ومكتباً للبريد

غير أن الصورة التي يعرضها علينا التقرير على الأسى والحسرة: عشرات الآلاف من الناس، محشورون كالسردين في حيز ضيق (كما يتضح أيضاً من الصور التي نشرها قراتزياني في كتابه) يكادون لا يسدون رمقهم ومرغمون على انتظار استيفاء

[161] قراتزياني إلى دي بونو - 2 مايو 1931مز

[162] ذات تقرير 2 مايو إلى دي بونو.

الأجر الزهيد المخصص لمن كانوا يعملون في أعمال الطرق، بصورة متقطعة، مع وجود حانوت أو حانوتين، كمكان وحيد للتعارف والتلاقي. ورعاية صحية تكاد تكون معدومة، في فترة كان يتم فيها التحول القهري من حياة مجتمع لشبه الرحل الذين يعتمدون على تناول اللحم والألبان بوفرة، إلى حياة ميادين اعتقال مكتظة بالناس المحشورين على ساحل البحر، يتناولون نوعا مختلفاً من الطعام وبكميات غير كافية (... خاصة بعد هلاك معظم المواشي)، الأمر الذي كان يسهل انتشار الأمراض المتأصلة في المنطقة[163] ومع ذلك دأبت السلطات الإيطالية على الإحجام عن ذكر شيء حول ظروف المعيشة وقسوتها في هذه المعتقلات وحول ارتفاع نسبة الوفيات التي تتبين فداحتها من خلال تلميحات وأرقام مبعثرة هنا وهناك، في الوقت الذي ظلت فيه الدعاية الاستعمارية تنشر صورا لحياة هادئة هانئة، مثل الصورة التي قدمها **قراتزياني في مؤتمر صحفي عقده في يونية سنة 1931:**

"لم يفترض أي تغيير جذري على نمط حياة الأهالي، وانتقالهم إلى بطحاء

[163] في سنة 1934، أعلن قراتزياني عن أنه أنفق، خلال اربع سنوات، على أعمال الطرق في جملتها، مبلغ 45 مليون ليرة، لقاء 1516000 يوم عمل بالنسبة لليد العاملة الإيطالية (معدل الأجر اليومي للفرد 30 ليرة) و57 مليون ليرة، عن 5694000 يوم عمل بالنسبة للعمال الليبيين (معدل الأجر اليومي للفرد عشرة ليرات) الخطاب الذي ألقاه قراتزياني في 25 فبراير 1934، السالفة الاشارة إليه وعلى سبيل الاسترشاد، نقول: إنه لو قام بنصف أيام العمل هذه الرجال المحشرون في ميادين الاعتقال، خلال الفترة من 1931 إلى 1934، لخلصنا بنتيجة واحدة وهي أن مدة العمل الذي قاموا به كانت مائتي يوم، تقاضوا عنها ألفي ليرة، بالنسبة لكل عائلة، خلال ثلاث سنوات.وقال ايضاً، في سياق خطابه، إن إجمالي ما أنفق في توزيع القمح والشعير والدقيق وأدوات العمل وما إلى ذلك على المعتقلين قد بلغ من سنة 1930 إلى 1933، 12688100 ليرة، فإذا افترضنا، لغرض الاستئناس فقط، أن ثلثي هذا المبلغ كانا قد أنفقا على ميادين الاعتقال، لحصلنا على معدل خمسمائة ليرة بالنسبة لكل أسرة، لمدة ثلاث سنوات.إن هذه الحسابات ليست كافية وحدها، قطعا، لتقييم مستوى معيشة الأهالي المهجرين، بل تمكن من إعطاء فكرة عن عدم اكتراث السلطات الإيطالية ببذل أدنى مجهود في سبيل إبقاء هؤلاء القوم على قيد الحياة هذا وليس لدينا ما يثبت أنها قدمت أكثر مما ذكرناه، وإن تمويله كان عن طريق مشاريع مد الطرق.

جنوب بنغازي لم يلحق بهم أي ضرر، فكما كانوا يعيشون من قبل تحت الخيم، إلى جوار قطعانهم، كذلك يعيشون الآن في مخيماتهم الجديدة. ويهمني أن أوضح، بهذا الصدد، أن مضاربهم الجديدة هذه ليست ميادين اعتقال بمعناها، كما قد يتبادر إلى ذهن البعض، لأن قيام أي ميدان للاعتقال لا يتأتى إلا عند تجميع أهالي مستقرين بمراكز سكنية في مناطق معينة، أما بالنسبة للوضع الذي تتناوله، فالمسألة لا تتعدى مجرد انتقال عشائر من الرحل إلى مواقع جديدة حيث يحتفظون بعاداتهم وتقاليدهم، ولو كانت هذه المواقع الجديدة محصورة وخاضعة للحراسة ليس ذلك فحسب، بل بالنسبة إلى المواقع الكائنة إلى الجنوب من بنغازي وبمنطقة سرت، فإن البدو الرحل بإمكانهم الاستفادة من المنافع ذات الطابع الخيري والاقتصادي والصحي التي كان يتعذر توفيرها بسبب تنقلاتهم المستمرة من بقعة إلى أخرى»[164].

2 ـ حل ميادين الاعتقال :

إن جميع الدلائل تشير إلى أن قراتزياني وبادوليو كانا يفكران في إبقاء ميادين الاعتقال قائمة إلى ما لا نهاية، بحيث يستقر المهجرون، نهائياً، بمنطقة بطحاء سرت، وترك الجبل الأخضر خالياً من سكانه الأصليين ومهيأ لتقبل (المزارعين) القادمين من إيطاليا. ففي مايو 1931، يختتم قراتزياني تقريره إلى دي بونو بهذه الصيغة:

«كما ستلاحظون، سعادتكم، فإن إعادة تنظيم الأهالي الرحل سابقاً، ونقلهم على الاستقرار بجنوب بنغازي وفي القسم الغربي من المستعمرة (أي من برقة) يمكن وصفها بأنها أمر واقع، أو بعبارة أخرى إن الميادين أصبحت الآن في طريقها نحو الاستقرار النهائي. وفي الوقت الذي أصبحت تضمن فيه نهاية كل تواطئ مع العصاة،

---

(164) جاء ذلك في الكلمة التي ألقاها قراتزياني في جمع من الصحافيين في بنغازي، في 9 يونية 1931، ونقل في (عشر سنوات من تاريخ برقة) المذكور، وكانت نتائج الرعاية الصحية في المعتقلات أحد المواضيع المحببة للدعاية الفاشيستية. يراجع تقرير الاستاذ «تيديسكي» مدير مستشفى درنة «قراتزياني ـ ذات المصدر، ص 111 ـ 118) الذي يذكر، من بين وسائل الوقاية «تعقيم» المصابين بداء الزهري».

فهي تعد للغد أقواماً أكثر مرونة وطاعة وتعوداً على العمل، وبالتالي فإنهم سوف يصرون، بكل تأكيد، على البقاء في هذه المواطن الجديدة التي نقلوا إليها واستقروا فوقها، فاقدين عادة الترحال المتواصل، بعد أن ذاقوا لذة حياة الاستقرار التي لا بد أن تنبني عليها خطة إعادة السلام إلى ربوع برقة ويتسى استعمارها وتطويرها»[165]

وفي نهاية عام 1931، وبعدما تم القضاء على المقاومة، ما زال قراتزياني متمسكا بإصراره على صرورة المحافظة على المراقبة المشددة على الحدود المصرية وعلى إبقاء سكان الجبل المهجرين بعيدين عنها، تفاديا لاستئناف المقاومة، مؤكداً على أن توطينهم ببطحاء سرت لا بد من اعتباره مستقراً، على المدى البعيد:

«إن تنظيم شؤون مخيمات المستسلمين ما انفك يتحسن أكثر فأكثر . وإذا ما أسفر البذار عن محصول جيد لاستطعنا أن نقول إننا تمكنا من حل الأزمة الاقتصادية المتوقع حدوثها، في فصل الربيع المقبل، وذلك أيضا بفضل المراعي التي ما لبثت تتوسع أكثر فأكثر. مما سيسفر عن انتعاش الثروة الحيوانية»[166].

هذا وكان بادوليو موافقاً في الكامل على ضرورة انتهاج سياسة الشدة والقسوة إزاء الأهالي، كما يتضح ذلك من رسالة التعليمات المؤرخة في يونية 1932:

«لقد أصبح من الضروري الذي لا يقبل النقاش، الاعتراف بالمبادئ الأساسية

---

[165] قراتزياني إلى دي بونو ـ 2 مايو 1931 ـ السالفة الاشارة إليه.

[166] قراتزياني إلى بادوليو ودي بونو ـ 22 ديسمبر 1931 ـ في محفوظات أفريقيا الإيطالية ـ 98/22/150 ـ كما كان قراتزياني يطالب بتغيير الموظفين الإيطاليين في المستعمرة «ثم إنه لا بد من استبدال الكثير من الموظفين الحاليين، ممن يتولون وظائف قيادية، بغيرهم، جدد، لم يسبق لهم العمل هنا وليست لهم معرفة بزعيم محلي واحد، كبيرا كان أم صغيرا، من بين المعتقلين حالياً (ولا بد أن يعودوا طلقاء في يوم من الأيام، فيظهرون على المسرح من جديد)، وذلك لتدارك احتمال تأثيرهم عليهم لم يسبق لي أن وجدت، في أية مستعمرة وفي أي وقت من الأوقات، رجالاً لا يقعدون بمثل هذه السهولة إلى طريق العدوى «بالفائروس الشرقي» وشتى العقائد المتعلقة بالاستعمار وتراكب مختلف الأعراق والتعاون فيما بينهم وعبارة «السطرة المطلقة» التي تفترض احترام الأهالي وإدخالهم بصورة محددة وتلقائية تحت ظل قوانيننا ما زالت تكاد تكون مجهولة عند جميع الرحال تقريباً، الذين قضوا سنوات عديدة من عمرهم على هذه الأرض.

التالية:

(1) الاقتناع بأنه ما دام هناك عضو واحد من المقاومة، فإنه سيظل أبداً عدواً لدوداً لنا، ويسعى بكل الطرق إلى: أ) المحافظة على المقاومة بواسطة الدعاية. ب) الإساءة إلينا لكافة الوسائل المنظورة والخفية مع تسخير كافة السبل والوسائل لهذا الغرض، وهو ما يزخر به الفكر الشرقي.

(2) إن الحكومة المصرية لا ولن تتخذ أبداً موقفاً مناصرا لنا...

(3) والعنصر القيادي الإنجليزي لن يحرك ساكنا، أبدا، لصالحنا، إذا كان ذلك لا يرضي المصريين.

(4) سوف تعرقل الحكومة المصرية عودة اللاجئين، إلى حد منعهم منها، شأنها في ذلك شأن الحكومتين التونسية والجزائرية، إزاء اللاجئين لديهما من الطرابلسيين.

(5) علينا أن نعتمد فقط على قواتنا ونأخذ في اعتبارنا حقد جاراتنا.

و بعد طرح عناصر المشكلة على هذا النحو، أصبحنا جميعنا أكرر جميعنا، نعتبرها حقيقة واقعة لا جدال فيها، تحدد أمامنا معالم الطريق التي علينا أن نسلكها.

(1) اعتبار كل عنصر قيادي عدواً خطراً إلى أبعد حد، لا بد من محاربته، أبداً، وبكل الوسائل حتى القضاء عليه، وما يستتبع ذلك من رفض عقد أية صلة بهم ومنعهم من العودة إلى المستعمرة، أو الدخول معهم في مفاوضات، مهما كانت الدوافع والأسباب، ولو عن طريق وسطاء.

(2) عدم البحث عن إيجاد طريقة لعودة اللاجئين، فضياعهم إلى الأبد أفضل.

(3) الحفاظ على نسيج هيمنتنا الذي يعتمد على الأسلاك الشائكة وميادين الاعتقال. فا لزمن وحده والمراقبة المتواصلة ودراسة الوضع بهمة وجد عن دراية، كفيلة بإرشادنا إلى معرفة الطريقة التي نستكمل بها نسج تنظيمنا، إذا كان لذلك مقتضى، إلا أنه من الأفضل لنا أن نتذكر إن المسألة ليست مسألة شهور، بل سنوات. فبعد مرض عضال دام عشرين سنة، لا بد أن تكون فترة النقاهة طويلة هي الأخرى

(4) يجب أن يكون الجبل ميداناً يهيمن عليه عمل المستوطن الإيطالي.

(5) مواصلة البحث عن الأسلحة المخبأة، انطلاقا من القناعة بأنها ما زالت موجودة في مخابئها، بذات الإجراء المتبع حالياً في طرابلس.

(6) توجيه عناية نشطة بميادين الاعتقال بحيث تتسنى المحافظة عليها بدون صعوبات وحتى يقتنع الشخص المحلي ـ انديجنو[ص]، أو بالأحرى أن يعتاد على اعتبار الوضع الذي هو فيه قدره ومصيره الدائم. تسهيل ربطهم بالأرض عن طريق تشجيعهم على بناء البيوت وتحصيص قطع من الأرض لهم لهذا الغرض.

(7) التركيز على بذل كل عناية في سبيل تنظيم الشباب وتعليمهم وتربيتهم ـ إذ سيتعين علينا انتقاء العناصر اللازمة لتكوين كتائبنا منهم.

هذه هي الخطوط الاسترشادية التي ينبغي السير على منوالها وكنا قد حددناها منذ وقت. وأنا متأكد من أن كل ما سيظهر، يمكن (العبارة مطموسة وغير مفهومة في أصل الوثيقة) في الحالات المدرجة فيما تقدم ومعالجته بالطريقة التي كانت متوقعة وأكرر هنا، أنه لا ينبغي على المرء أن ينزعج لأي خبر أو ينفعل أمام أي اقتراح. فنحن حددنا مسارنا وبالتالي فالواجب يقتضي منا أن لا تتراخى»[167].

جاءت بعض تعليمات بادوليو هذه، بعد فوات الأوان، فيما يتعلق بميادين الاعتقال التي كان قدر شرع في تفكيك بعضها: فميدان المعاقبة المخصص لإيواء أقارب في العقيلة قد ألغي اعتباراً من أول أبريل 1932، وذلك، كما أوضح قراتزياني، لأنه أصبح لا معنى لمواصلة التشفي من الأقارب، بعد العفو عن بقية أفراد المقاومة أنفسهم. بناء عليه تقرر نقلهم مع أقاربهم إلى ميادين الاعتقال المخصصة لقبائل كل منهم في مرسي البريقة وسلوق وسيدي أحمد المقرون، أو ربما أبقوا في العقيلة بعد تحوله إلى ميدان (عادي)، وترحيل الحاسة إلى منطقة مرسي سوسة

[ص] إن عبارة (انديجنو L. Indigeno) والجمع انديجني ـ لا تعني، لغة، سوى «محلي» «أصلي» «من البلد» الخ إلا أنها أصبحت عبارة محتقرة يعضها الليبيون، لأن معناها انقلب ليدل على الاحتقار والتفرقة العنصرية والرعوية البغيضة وفي «الرسميات» من اعلانات ودعوات، كان الليبي لا يستحق صفة السيد ـ سنيوري ـ بل يخاطب بهذه العبارة الممقوتة «انديجنو»

[167] بادوليو إلى قراتزياني ـ 29 يولية 1932 ـ المحفوظات المركزية ـ م قراتزياني 2/2/1.

والعرفة إلى منطقة المرج[168].

وافق دي بونو على هده التدابير، إلا أنه انتقد بشدة موقف الصحافة التي لم تتوان عن إبراز أنباء هذه التدابير:

«يبدو لي أن هناك دافعاً ما، يدعو إلى إحاطة أنباء كهذه بمثل هذه الهالة من الدعاية الصاخبة. والتدابير التي تتخذها حكومتكم حيال الأهالي لتوفير المناخ المؤاتي لاستتباب الهدوء والسلام، سرعان ما تتناولها الدعاية لتهويلها والمبالغة في مداها وفي حقيقتها، سواء في إيطاليا أم الخارج»[169].

كان ميدان العقاب بالعقيلة يمثل إجراء استثنائياً، اقتضته ظروف شرحناها بإيجاز لأنه حدث منذ شهر يونيو 1932، أن قدم (داود ياتشي Daodiacc) المفوض المدني للجبل. اقتراحاً إلى قراتزياني، بناء على تكليف منه على ما يبدو، يتضمن خطة لعودة الأهالي إلى الجبل، ولكن ليس إلى محال إقامتهم الأصلية، لأن مقتضيات التعمير الاستيطاني الإيطالي كان لا بد من إعطائها الأسبقية، وبروح مفعمة بالتفاؤل كتب داود ياتشي:

«سعادتكم (يخاطب قراتزياني) على علم تام بحالة البؤس والفاقة التي أصبح يعيشها أهالي برقة ولكنكم. يا صاحب السعادة، لا بد وإنكم قد اقتنعتم كذلك بأنه قد يكفي تحقيق انتعاش سريع وفوري، تقريباً، لأوضاعهم الاقتصادية المتدهورة، ولإعادة الرخاء لهم. بمحصول سنة واحدة جيدة. وتوفير مراع جيدة لمواشيهم لسنتين أو ثلاث، إذا ما ضمنت لهم سبل العيش في هناء وسكينة»[170].

---

[168] قراتزياني إلى بادوليو ودي بونو. 29 مارس 1932، محفوظات وزارة أفريقيا الإيطالية، 98/22/50. في 11 فبراير كان قراتزياني قد منح العفو عن المعتقلين والمنفيين السياسيين

[169] دي بونو على قراتزياني. 6 أبريل 1932، محفوظات وزارة أفريقيا الإيطالية 98/22/150 ـ والانتقاد الذي وجهه دي بونو بشأن نشر مثل هذه الأنباء يفسر لنا صمت الصحافة الإيطالية عن ميادين الاعتقال وما يتصل بها.

[170] مجموعة من المذكرات والملاحظات والاقتراحات التي أعدها وقدمها (المفوض المدني لشؤون الجبل)، داود ياتشي، بتاريخ27 يونية1932 ـ المحفوظات المركزية/ م قراتزياني 8/8/4 كان داود ياتشي يوصي بإبقاء عشائر العرفة (التي تمكن معظمهم من الافلات من

هذا ولا يتبين من الوثائق، بصورة واضحة، الأسباب الحقيقية التي دعت السلطات الإيطالية إلى حل المعتقلات وعودة الأهالي إلى الجبل، إلا أنه يتضح من مجمل المستندات والمراجع التي تحت أيدينا، إنه كان سببان وراء ذلك: الفشل في تحويل ميادين الاعتقال في بطحاء سرت إلى مناطق استيطان دائمة، بسبب استحالة توفير سبل المعيشة وضمان تقديم رعاية صحية وطبية بصورة كافية، ولو في أدنى حد يضمن البقاء الطبيعي وثانيا الحاجة إلى توفير يد عاملة رخيصة لاستصلاح الجبل واستثماره. ومن هنا نرى كيف أن داود ياتشي يعيد الكرة ويصر على ضرورة الإسراع بعودة الأهالي، وذلك في وثيقة هامة، من حيث أنها تشير أيضاً إلى ظهور أنواع من الاعتراض على ذلك، على الصعيد المحلي:

«أود أن أحيط سعادتكم (الخطاب موجه دائماً إلى قراتزياني) علماً بأن عودة الأهالي هذه تصطدم بمعارضة خفية، سواء من قبل شرطة (الكارابينييري) (وأقصد بهذه العبارة، أوساط ضباط الصف و (الضبطية) أي الأفراد، أكثر من الضباط) أم من طرف أفراد الجالية الإيطالية خاصة أوساط من هم أكثر جهلاً وأقل شأناً، وأحدث عهداً بالمستعمرة. وأسباب هذه المعارضة غير واضحة، إلا أنها ناشئة عن قلق مبهم وخوف من أن تؤدي هذه العودة إلى انخفاض في درجة الرخاء الذي ظلوا ينعمون به أو بالأحرى من تحقيق هذا الرخاء بسرعة وأنا، من جانبي لا أشاطرهم إطلاقاً مثل هذا الشعور والقلق، لأنني أرى أن هناك مكاناً للجميع، من (وطنيين) (طليان) ومحليين (انديجني)، على الجبل أو في سفوحه وانحداراته نحو الجنوب. كما أنني أود أن أشعر سعادتكم بأنني أستبعد احتمال استئناف نشاط قطع الطريق واللصوصية، في المدة القريبة المقبلة، على الأقل تلك الظاهرة التي توفقنا في القضاء عليها، أخيراً

التهجير والاعتقال) في ضواحي المرج أو نقلهم للاقامة على الساحل، بين طوكرة وطلميثة، والعبيد، الذين انخفض عددهم بشكل ملموس بتوطينهم في أم الجوابي، حيث كان من الممكن إعادة حفر بئر رومانيه مردومة وينقل الدرسة، الذين أصبح عددهم يقل عن 5000 نسمة، إلى المناطق القريبة من طلميثة والحنية، وبإبقاء الحاسة حول شحات، أما البراعصة الذين هبط عددهم بصورة كبيرة، لما تكبدوه أكثر من سواهم من خسائر فادحة في الأرواح، ففي مراوة وجردس الجراري.وأخيراً، ينقل العبيدات إلى أم الرزم ومرتوبة وخولان.

فقطع الطريق في برقة كان منتظما وذا طابع سياسي وبقاؤه كان مرهونا بتوفر العوامل التي كان يعتمد عليها. واليوم زال هدا التنظيم السياسي وزالت معه شبكة المصالح التي كانت تربط بين زعماء حركة العصيان ورؤساء القبائل والعشائر. وهؤلاء الأخيرون فقدوا كل جاه ومكانة ونفوذ، لأنه تجمع ضدهم لدى مختلف القبائل، حقد أسود، دفين، بسبب شعورها بأنهم كانوا مصدر هلاكها. فالأهالي أصبحوا اليوم مطيعين للأوامر ولم تبق فيهم نية أو رغبة للتصدي لحكومتنا أو التمرد عليها. ولا هم قادرون على ذلك»[171].

ومع ذلك تأجلت عودة الأهالي إلى الجبل، لأسباب تتعلق بالأمن، على الأرجح. ففي النصف الثاني من عام 1932، أخلى سبيل عبيدات البطنان (وربما) المغاربة الذين كان لهم دور جانبي في حركة المقاومة وكانوا يقطنون في مناطق شبه صحراوية لا تهم مخططات التعمير الاستيطاني[172].

في مستهل عام 1933، عندما أخذ الوضع العام في البلاد يسير في طريق العودة إلى حالته الطبيعية[173]، ما زال أهالي الجبل والعواقير محشورين في ميادين سلوق وسيدي أحمد المقرون ومرسي البريقة وربما في معتقلات أخرى، صغيرة في ضواحي بنغازي. ولا تتوفر لدينا بيانات عامة حول الأوضاع في هذه المعتقلات إلا أنه

---

(171) داود ياتشي إلى قراتزياني - 5 يولية 1932 - المحفوظات التاريخية - م.قراتزياني 8/8/4

(172) الافراج عن عبيدات البطنان ثابت في وثائق مراسلات قراتزياني (رسائله إلى الوزارة، بتاريخ 2 أغسطس 1932، وإلى بادوليو، 2 أكتوبر 1932) - محفوظات وزارة أفريقيا الإيطالية 98/22/150، ولا توجد وثيقة تشهد على الافراج عن المغاربة إلا أنه يبدو لنا أن تاريخ إخلاء سبيلهم يرجع إلى النصف الثاني من عام 1932، إن لم يكن قبل ذلك (فاعتقال هؤلاء القوم، الذين كانوا يقيمون بمنطقة سرت، لا بد أنه كان أخف وطأة من غيرهم) أما عبيدات الجبل، الذين لعبوا دورا رئيسياً في حركة المقاومة، فقد أبقوا في معتقلهم إلى السنة التالية (إلا أننا نجهل تاريخ عودتهم إلى ديارهم، على كل حال).

(173) في يوم 28 يناير، أبلغ قراتزياني وزارة المستعمرات بالإفراج عن 11 زعيماً سياسياً آخر، كانوا معتقلين بالسجون ولم يبق إلا ثلاثة آخرون، كانوا معتقلين ببرقة والنفيون إلى (أوستيكا) - محفوظات وزارة أفريقيا الإيطالية 98/22/150.

باستطاعتنا تقديم بعض الأرقام عن ميداني سلوق وسيدي أحمد المقرون، كما كانت في ربيع عام 1973 [174]. كان عدد المعتقلين في سلوق حوالي 13000 بين عواقير وعبيد وعرفة وقبائل فرعية أخرى، بانخفاض كبير بالنسبة إلى العشرين ألف الذين كانوا قد نقلوا إليه قبل عامين، وهو انخفاض لم يقدم بشأنه أي مبرر (وقد يكون سببه حالات تفشي الأمراض وما أسفرت عنه من وفيات)[175].

وكان معتقل سيدي أحمد المقرون يضم 8400 شخص، بين براعصة ودرسة وأفراد قبائل أخرى تنتسب إليهم، وهنا أيضاً يلاحظ حدوث انخفاض ضخم في عددهم بالمقارنة بالـ 13000 الذين كانوا محشورين بداخله في عام 1931. وكان جميع هؤلاء المعتقلين قد فقدوا في الكامل تقريبا سبل معيشتهم، بعدما هلكت معظم قطعانهم. (كان لدى العرفة والعبيد ـ وعددهم 3400 ـ فقط 220 رأس ولدى البراعصة ـ الدرسة ـ وعددهم 8400 نسمة ـ حوالي 1000 رأس، والعواقير6200، كان معهم6800 رأس من الضأن و126 من الإبل و7 من البقر و18 حصاناً و176 حمارا) ولم يبق معهم إلا متاع قليل (إن كل ما تبقى معهم من ملابس ومفروشات وأغطية ومعدات طهي وأواني وأدوات عمل، لا يزيد وزنه، مع الخيمة، على 30 ـ

(174) جميع هذه المعلومات مأخوذة مستقاة من وثيقتين: تقرير «ايجيدي Egidi» المفوض المدني لمنطقة سعاري، على غراتزياني، في 18 فبراير 1933، وأيضا تقريره إلى إدارة الشؤون المدنية والسياسية لحكومة برقة، 6 مارس 1933 (الوثيقتان مودعتان بالمحفوظات المركزية ـ ملف غراتزياني ـ 8/8/4.

(175) في 2 أغسطس 1932، كان غراتزياني قد أمر بترحيل العواقير من سلوق إلى معتقلات «توفر لهم ظروف معيشة أفضل» (الرسالة المذكورة)، إلا أن هذا الأمر لم يوضع موضع التنفيذ لأن العواقير، في سنة 1933، كانوا ما زالوا يشكلون ثلاثة أرباع «سكان» ذلك المعتقل ولا بد من ملاحظة أن عدد المهجرين إلى كل معتقل على انفراد، كان من المتوقع أن يرتفع، بدلا من أن ينخفض بسبب أنه حدث، في عام 1932، أن كان قد رحل إلى هذه الميادين الثوار الذين صدر عنهم العفو وأيضا أقاربهم القادمون من معتقل العقاب المحل في العقيلة أضف إلى ذلك أنه لا يمكن أن يكون هناك شك في أن هذا الانخفاض الكبير في عدد المعتقلين بمختلف الميادين كان ناشئا عن ارتفاع معدل الوفيات بسبب قسوة ظروف المعيشة وسوء التغذية وعدم كفايتها، وهي أمور تؤدي حتما إلى انفجار الأوبئة وتفشي الأمراض، العارضة والمتأصلة.

40 كيلو غرام في المتوسط، بالنسبة للشخص الواحد). هذا وكان يجتاح مخيم سلوق، في تلك الفترة وباء (التايفوس اللطعي) الذي ظلت السلطات تحاول التقليل من خطورته، ويتضح ذلك من تقرير يحمل تاريخ 18 فبراير. إلا أنها اضطرت إلى التراجع، فاعترفت في 6 مارس، بفداحة الوباء وخطره:

« . ما لبث الوضع أن ازداد سوءا في مخيم سلوق، وليست هناك علامات على استقرار الوباء على ما وصل إليه، ولو تدريجيا (...) فخلال شهر فقط زاد عدد الخيم الموبوءة بنسبة 70 خيمة (...) ويبدو لي أنا والسيد مدير الصحة أن فترة الانتظار التي ظلت تلح على مراعاتها ادارتكم قد انقضت دون أن يتلاشى التايفوس اللطعي. بل أخذ في الانتشار. أرجو من إدارتكم الموقرة موافاتي بالتعليمات اللازمة وتزويدي بالوسائل الضرورية للقضاء على الوباء»[176].

أما النظام الصحي، الذي طالما أشادت به الدعاية الإيطالية، فكانت مستوياته، في الواقع، قد انحدرت إلى أسفل الدرك: نقصان في الخيم والملابس، مما كان يقتضيه عزل المصابين بالتايفوس عن غيرهم، ولا وجود حتى للمرجل اللازم لتعقيم ملابس من أفلتوا من الموت بأعجوبة.. وفي انتظار التخفيف من عدد المعتقلين الذي كان يطالب به المسؤولون بإلحاح، كأحد التدابير الأساسية للحد من انتشار هذا الوباء، لم تهتد السلطات إلا إلى اللجوء إلى طرق القمع والاضطهاد، وذلك بعزل معتقل العبيد والعرفة الذي كان أكثر المعتقلات تعرضا لانتشار الوباء، بخطوط إضافية من الأسلاك الشائكة وتشديد الحراسة عليه، غير أن السلطات لم تكن تتوهم بشأن جدوى تدابير كهذه، لأن التايفوس كان منتشرا أيضاً في معتقلات العواقير الثلاثة[177]، فاشتدت خطورة الموقف وتأزم الوضع، إلى درجة دفعت قراتزياني إلى الإسراع بالتدخل الشخصي وإصدار الأوامر بإخلاء ميدان سلوق من بعض المعتقلين به.

«لقد اقتنعت، منذ مدة، بضرورة القيام بصورة حازمة وبدون تردد، بتوزيع

(176) تقرير ايجيدي إلى إدارة الشؤون المدنية والسياسية، 6 مارس 1933، السالف الذكر.

(177) لا توفر لنا الوثائق التي بين أيدينا، مع الأسف، أية أرقام مباشرة عن نسبة الوفيات في ميادين الاعتقال.

المعتقلين بميدان سلوق على مخيمات أخرى. فلا مناص، إذاً، من تطبيق المبدأ المتبع لدى الجيش في لحظات الشدة: «التبعثر والانتشار من أجل البقاء...»، دون التفات إلى أي اعتبار آخر، تماما كما سبق أن طبق في حينه وبقضته وعزيمة من حديد المبدأ الثاني: «التجمع والتلاحم لخوض المعارك» مع التحفز والاستعداد لمواجهة ما تنطوي عليه مثل هده التدابير من مخاطر وعواقب أنا متأكد من أن حدس سيادتكم وتريثكم عند العمل كفيلان دائماً بالاهتداء إلى مواجهتها بأنجع السبل. بناء عليه، ها أنا أفوضكم سلطة القيام بإخلاء ميدان سلوق من العواقير، بالطريقة التي ترونها أكثر ملائمة مع مقتضيات الموقف. ومن جهة أخرى، يجب أن يبقى به العبيد/العرفة وحدهم، حيث أنه من الممكن توفير العلاج لهم ورعايتهم بصورة أفضل. هذا كما أنني أعتزم إصدار تعليمات أخرى بشأنهم وبشأن ميدان المقرون (...) أود أن يشرع في التنفيذ بأقصى السرعة[178].

هذا وتقرر في الأسابيع التالية حل جميع المعتقلات والأذن للأهالي بالعودة إلى مواطنهم الأصلية، مع فرض قيود كانت تمليها ضرورة إعطاء الأسبقية لمتطلبات خطة التعمير الاستيطاني الإيطالي ودواعي الحفاظ على الأمن العام. وفي شهر مايو نقل العبيد من سلوق إلى مخيم المرج، حيث أنهم ـ كما يقول قراتزياني ـ «سيخضعون إلى إعادة تنظيمهم وحشدهم قبل عودتهم نهائياً إلى جردس العبيد (جردس الأحرار الآن) موطنهم الطبيعي الذي سيشرع في إعداده وتجهيزه على نمط ميادين بطحاء سرت وجنوب بنغازي التي كانت تضم المعتقلين»[179].

وفي ذات الوقت أمر قراتزياني بنقل البراعصة إلى جردس الجراري والدرسة إلى طلميثة، بعد تجهيزهما بمرافق وخدمات تكاد لا تذكر. مركز للشرطة، ومكتب للإدارة ومستوصف ومسجد ومدرسة... إلخ[180]. وتمت عملية الترحيل من هذه

---

(178) قراتزياني إلى المفوض الحكومي لشؤون العواقير ـ 6 مدرس 1933 ـ م م ت/ قراتزياني ـ 8/8/4.

(179) قراتزياني إلى بادوليو ـ 29 مايو 1933 ـ المحفوظات المركزية/أفريقيا الإيطالية ـ 98/22/150

(180) قراتزياني إلى الكاتب العام لحكومة برقة ـ 16 مايو 1933 ـ م م ت/م ق 8/8/4 ـ نفي في

الميادين (وليست لدينا معلومات عن جماعات المعتقلات الأخرى) في الفترة ما بين أغسطس وستمبر. وما أن حل فصل الخريف حتى كان باستطاعة قراتزياني أن يعلن الانتهاء من عملية حل المعتقلات، دون تأثير أو عرقلة على سير التعمير الاستيطاني على الجبل، بل على العكس، كانت اليد العاملة الرخيصة المسرحة من ميادين الاعتقال عاملاً مساعداً على تنفيذ المخطط الزراعي[181]، كما يتضح ذلك من البيان الذي ألقاه قراتزياني على المستوطنين الإيطاليين في فبراير 1934.

«لقد نقل الأهالي المحليون، جميعهم، إلى مواطن تناسب طرق معيشتهم، مع التمسك بمبدأ أن الجبل، وهو العمود الفقري للاقتصاد الزراعي في المستعمرة، لا بد من أن يكون خالياً منهم ومخصصاً للتعمير الاستيطاني للطليان وحدهم، وأن عدداً لا يحصى من التدابير ذات طابع اجتماعي قد اتخذ لصالح الناس الذين تعرضوا لأقسى المحن من جراء العصيان، وإن كرم الحكومة الفاشية، المفعمة بروح رومانية أصيلة، قد شملهم وذلك بحل المعتقلات وتفكيكها وبالإفراج الذي يكاد يكون كاملاً عن المعتقلين وعن مرتكبي الجرائم السياسية الطفيفة، بحيث لم يبق من المنفيين إلى إيطاليا إلا حوالي خمسة عشر، وأقل من 400 معتقل في كامل تراب برقة، معظمهم من المجرمين العاديين المحتجزين في السجون»[182].

وبعد شهرين من ذلك اتخذت خطوة أخرى في سبيل إعادة الوضع إلى حالته الطبيعية:

معتقل المقرون البراعصة والدرسه، الذين تحولوا إلى زراعه الحقول، والعواقير النراعون لعصيان في لإيطاليا وهذا دليل على بقاء المعتقلات «ممنوحة» على الأقل بصورة مؤقتة وكوسيلة «قمع رفيعة».

[181] قراتزياني إلى بادوليو ودي بونو ـ 22 ستمبر 1933 ـ محفوظات وزارة أفريقيا الإيطالية 98/22/150 ـ يذكر حالة واحدة تتوفر لدينا أرقام عنها. كانت قبيلة الدرسة تتألف حتى يونية 1932 من 4000 إلى 5000 نسمة (ملاحظة دونها داود يتشي وعرضها على قراتزياني، في 27 يونية 1932، في التقرير السابقة الاشارة إليه) فهبط هذا العدد إلى 2600 عند عودتها إلى الجبل (قراتزياني إلى بالبو، 26 أبريل 1934 ـ السالف الذكر).

[182] خطاب قراتزياني ـ 25 فبراير 1934 ـ المذكور.

«بمناسبة حلول البيرام الكبير (عيد الأضحى) تم الافراج عن المنفيين بأوستيكا، وخلال هذه الأيام بالذات تم ترحيل العبيد من المرج إلى جردس العبيد (الأحرار)، موطنهم الطبيعي ومن خلال هذين الإجراءين أعيد تشكيل العشائر في المستعمرة واستقرارها واستتب السلام وهدأت الخواطر بصورة كاملة وشاملة. وهكذا تنطلق برقة في طريق العمل بهمة وإقدام نحو استكمال كيانها الاقتصادي وتطورها الحضاري»[183].

وفي الآونة التي كان يتأهب فيها لمغادرة برقة، في شهر أبريل من عام 1934 أعد قراتزياني كشف حساب كامل بالنتائج التي تم الحصول عليها.

«بعد توطين قبيلة البراعصة بمنطقة جردس الجراري، يتضح أن جميع قبائل برقة وعشائرها قد انتشرت على الأراضي التي كانت تقيم عليها قبل ترحيلها واعتقالها ببطحاء سرت ومنطقة جنوب بنغازي، وذلك باستثناء مناطق الجبل التي تقرر تخصيصها لأغراض «مؤسسة التعمير الاستيطاني». بطبيعة الحال، والتي لا بد من إخلائها من الأهالي المحليين».

وهناك استثناء طفيف يتعلق ببعض (لحمات) العبيدات، وهما فرعا (فائزة) و(عبد القادر) اللذان ينتميان إلى قبيلة مصور ويبلغ عدد أفرادها الإجمالي حوالي ألفي نسمة، كانوا يقطنون على الجبل، فيما بين القبة وسلنطة، ثم رحلوا إلى زاوية أم

(183) قراتزياني إلى بادوليو 26 مارس 1934 م م ت /ملف قراتزياني 2/2/1. كما أخذ وضع اللاجئين إلى مصر يعود تدريجيا إلى حالته الطبيعية، كما يتضح ذلك من (نشرة معلومات قيادة قوات برقة) محفوظات المكتب التاريخي ـ حافظة ليبيا 1/177. بعد فترة بالغة القسوة تعرض خلالها الكثير من اللاجئين إلى الموت بسبب سوء التغذية (نشرة رقم 7 ديسمبر 1932) نزل عدد اللاجئين إلى مصر إلى حوالي 12000 مهاجر من برقة و4000 من طرابلس هذا وكان قد عاد منهم إلى برقة 2250 (النشرة رقم 11 أغسطس ـ نوفمبر 1934) وبحسب ما جاء في مذكرة نائب القنصل الإيطالي في السلوم، كان ألفان من هؤلاء اللاجئين من ألد خصوم إيطاليا، وثمانية آلاف منهم كانوا يرغبون في العودة، خاصة وإن طلب اليد العاملة لانجاز مشاريع الجبل كان يضمن لهم مستوى معيشة أفضل من حياة البؤس التي كانت تسمح لهم بها الأزمة الاقتصادية المستفحلة في مصر.

الرحى، في البطنان بالمنطقة الكائنة بين مرسي اللوك والردية، حيث تتوفر لهم سبل معيشة ممتازة. ولكن، بالنظر إلى نزعتهم إلى الشعب، بسبب تماسكهم، لا بد من إبقائهم حيث هم، ليس لدواعي الأمن على الجبل فحسب بل أيضاً لأن موطنهم الأصلي أصبح يكون جزءاً من أراضي مؤسسة الاستيطان المذكورة

هذا وتعطي الخارطة المرفقة (كانت مرفقة في الأصل وغير متوفرة في الكتاب المعرّب)، صورة عامة لتوزيع القبائل وفروعها في المستعمرة، كما هو حالياً، وهو ما يتفق في الكامل مع انتشارها في برقة، الاستثناء الوحيد الذي ذكرناه، أي.

المغاربة: بين العقيلة ومرسي البريقة واجدابية.

الفواخر: على طرفي الخط الفاصل بين منطقتي احدابية والعواقير.

العواقير: على الأراضي التي تحمل اسمهم (منطقة بنغازي).

العبيد (الأحرار حالياً): بمنطقة جردس العبيد (الأحرار).

العرفة: في بطحاء المرج.

الدرسة: بمنطقة طلميثة.

الحاسة: بالقرب من ابولونيا (سوسة) التي لم يرحلوا عنها أبدا.

البراعصة: في منطقة جردس الجراري.

العبيدات: من درنة إلى طبرق.

وأهالي البطنان: أي جماعات الغيضان ومريم والشواعر ومنفة وحبون. الخ. بين طبرق والبردية.

وهذا التوزيع - كما يتضح مما تقدم - يتفق مع توزيع الأهالي الأصلي على مختلف المناطق إلا أن ذلك لا يعني أن مختلف العشائر قد عادت إلى حياة الترحال الحرة، كما كانت في الماضي. بل على العكس، إن توزيعهم الحالي، مع إفساح المجال أمام توفير المراعي وأراضي الحراثة، كان يلبي متطلبات المراقبة المشددة واليقظة السياسية تجاه هؤلاء الأقوام الذين بدأوا يشعرون، الآن فقط، بأن هناك حكومة بيدها الأمر والنهي ولديها إدارة راسخة.

كان أهالي برقة، في وقت من الأوقات، يتمتعون بحرية التنقل داخل الأراضي

التي تخصمهم، إلى درجة أن المفوضين الإداريين لمختلف النواحي كانوا يواجهون الصعوبات لمجرد التعرف على الموقع الذي يوجدون به. واليوم لم يعد هناك مجال لقيام وضع كهذا أو السماح به. فلم تعد هناك مناطق (خاصة) والخطوط الفاصلة بين الأراضي المخصصة لمختلف العشائر (كما ظهر على الخارطة المرفقة... وغيرها المرفقة في الكتاب) ما هي إلا علامات للمواقع التي خصصت لإقامة المخيمات بداخلها ضمن نطاق التقسيمات الإدارية المختلفة. ولا تعني مساحات الأراضي التي تتحرك خلالها جماعات الرحل بحرية.

ولقد خصص للرحل مواقع معينة لإقامة مضاربهم، بمناطق توفر لهم أفضل الإمكانيات لحياة تقوم على الزراعة والرعي. أما حرية التنقل والترحال الجمعي، فلا تمنح إلا بعد اتخاذ تدابير مناسبة للمراقبة اللازمة على مخيمات الرعاة فقط، فضلا عن أن شرطة (الكارابينييري) كانت على صلة دائمة ووثيقة بالأهالي، حيثما وجدت جماعات منهم، سواء في حالة استقرارهم في المضارب أم أثناء تنقلاتهم. باختصار، إن الشرطة هنا يحق وصفها بأنها شرطة متحركة مثلهم، ولا بد أن تظل كذلك لمدة طويلة، وإلى حين أن يحمل الجيل الجديد من الشباب الذي نما وترعرع في ظل النظام السياسي الجديد، محل الأجيال التي ظلت ترى أن بقاءها معلق على التنقل والترحال ولا تستحمل أي ضبط أو ربط وتنزع إلى التمرد على كل نظام سياسي واجتماعي يمنعهم من ذلك (...).

فكان البدو، في الماضي، لا يعترفون بسلطة غير سلطة رؤسائهم. واليوم أصبح لا وجود لهؤلاء الرؤساء. وأخذ الأهالي يتوجهون الآن. فيما يتعلق بشؤونهم إلى موظفينا أو إلى المديرين ومساعديهم (مختاري الناحية) كما أن هؤلاء المديرين لم يعودوا أدوات طيعة لألاعيب الرؤساء، بل أصبحوا عناصر تعاون مجد ونزيه ومأمون، لأنهم يختارون من بين السكان المحليين الذين تتوفر فيهم شروط الثقافة وحسن السلوك والولاء والماضي السياسي، وهي أوصاف تتطلبها مهامهم الدقيقة والمهابة التي لا بد أن تميز الموظف العمومي (..) فجميع (المديرين)، اليوم، ملمون باللغة العربية والإيطالية، حديثاً وكتابة ومعظمهم تخرجوا من مدارسنا.

كما أنهم هم المسؤولون عن النظام والأمن في المخيمات أمام سلطاتنا المحلية

المختصة وليس أمام رؤساء العشائر وتسلطهم، كما كان في الماضي[184].

إلا أنه ينبغي ألا ينظر إلى هذه السياسة على أنها ترمي فقط إلى طرد قبائل شبه الرحل من أجود وأخصب أراضي الجبل وإخضاعهم إلى مراقبة سياسية وعسكرية مشددة، بل هي تدخل في نطاق مخطط بعيد الأمد يستهدف تحطيم مجتمع الجبل الرعوي التقليدي وتحويله إلى مستودع لليد العاملة الرخيصة المتوفرة في كل وقت. وقراتزياني نفسه كان قد أظهر علانية مدى جهله وسوء تفهمه للحضارة والتقاليد العربية على الجبل: «يجب اعتبار حياة البداوة خطراً محدقاً. كتب يقول في سنة 1932: «ولا مفر من التشديد على مراقبة هؤلاء الرحل وكبح جماحهم «لأسباب سياسية واقتصادية لأن البدو الرحل أعداء بالسليقة للزراعة والتقدم، فضلاً عن روح التمرد المتأصلة فيهم[185]، فقراتزياني متناقض مع نفسه ومع كل هذه المقدمات، كان ينوي في واقع الأمر، نفي قسم لا بأس به من الأهالي الذين طردوا من أحسن أراضي الجبل إلى الأراضي الواقعة على تخوم الصحراء أي إلى ذلك الشريط القاحل والمجدب، الواقع بين المرتفعات والصحراء، الذي كانت تربية المواشي (المتنقلة) تشكل المصدر الوحيد للاسترزاق والحياة، وبدلاً من تشجعهم على الارتباط بالأرض، حكم على من بقي على قيد الحياة من أكثر القبائل على الجبل كبرياء وإباء وعزة، بحياة البداوى، في أقسى مظاهرها في منطقة تكاد لا توفر لهم أقل متطلبات الحياة وتبقيهم في حالة من المذلة والهوان تائهين على وجوههم داخل (ميادين مغلقة

---

(184) قراتزياني على بالبو ـ المصدر المذكور ـ 26 ابريل 1934، تم يواصل قراتزياني بيانه مطالباً بالحفاظ على النظام العسكري المفروض على الحدود مع مصر، إلى حين ترسيخ السيطرة الإيطالية الكاملة على الجبل.فهو كان يخشى في الواقع، من إقدام عناصر من المقاومة على تفجير انتفاضة أو شن هجوم بشكل أو بآخر. «إن أي فريق صغير يتكون من أربعة أو خمسة من عتاة قطاع الطرق هؤلاء، يتمكن من التسلل إلى داخل برقة ومن السطو على عائلة واحدة من عائلات (المستوطنين) يكفي لإثارة الرعب في نفوس جميع المعمرين وبالتالي لعرقلة تطوير عملنا الاعماري ـ الاستيطاني بصورة خطيرة، بعدما يبشر بنتائج حميدة».

(185) قراتزياني ـ المصدر المذكور ـ ص 122/123.

خصصت لهم)[186]، لأن السياسة الاستعمارية الفاشية، كانت ترى في هؤلاء ثقلاً إضافياً ودت لو تخلصت منه، لأنها كانت تفضل المراهنة على تنمية الزراعة فوق الجبل التي تعتمد على جلب أعداد ضخمة من الطليان لتعميره والاستقرار عليه. وفي مثل هذا التصور، تصبح تربية الماشية التقليدية نشاطاً اقتصادياً، ثانوياً، أما الغرض الأساسي منه، فهو خلق مستودع لليد العاملة الرخيصة والشبه عاطلة التي تستطيع القطاعات الاقتصادية القائمة بتنفيذ المشاريع أن تسخرها للقيام بأعمال ثانوية (مؤقتة) دون أن تتكفل الحكومة بأية نفقات لتوفيرها.

في ربيع 1934، كانت نسبة الأهالي الذين طردوا من الأراضي الجيدة على الجبل واستخدموا كعمال عاديين في المشاريع التي وضعتها الحكومة لمد الطرق وإقامة المباني، تتراوح ـ على حد تقدير قراتزياني ـ بين 20 و 25% فقبائل العبيد، مثلاً التي تضم 3800 نسمة (رجالاً ونساءً، شيوخاً وأطفالاً، كل من بقوا على قيد الحياة من هذه العشائر الأبية التي برهنت على أنها من أشجع قبائل برقة وأشدها بأساً) كانت توفر 800 عامل، والدرسة الذين كان عددهم 2600، 680 عاملاً[187]، إن نسباً على هذه الدرجة من الارتفاع، لا بد أن تحمل المرء على الاعتقاد بأن السلطات الإيطالية كانت تتغاضى عن أن تستخدمهم، على أساس ما يشبه السخرة، شركات المقاولة ومتعددو الأعمال، لما تحققه لهم طريقة كهذه من مكاسب طائلة، فبحسب البيانات التي يزودنا بها قراتزياني نفسه، كان الأجر اليومي للعامل الإيطالي ثلاثين ليرة

---

[186] في عام 1933، كان وما زال عدد الضأن والماعز 220000 رأس، والبقر 3000 والإبل 11500 راس (من قراتزياني إلى بالبو ـ 26 أبريل 1934) ـ وبعد بضع سنوات كان عددها كالآتي: 210000 رأس من الضأن، 70000 ماعز، و1000 رأس من الخيل و5500 حمار و9000 جمل و9500 رأس من البقر. ويرجع سبب ارتفاع عدد الأبقار إلى ما استورد منها لأغراض مشاريع الاستيطان الإيطالي (النادي السياحي الإيطالي ـ ليبيا ـ ص 121). وإذا ما أخذنا في اعتبارنا أنه كانت استوردت من قطر طرابلس، في عامي 34/1933، 160000 رأس من الماشية للاحظنا أن مثل هذه الزيادة ليست باهرة حقاً، بل تبرهن على عدم العناية بالمراعي وندرة الكلأ المناسب.

[187] من قراتزياني إلى بالبو ـ 26 أبريل 1934 ـ المصدر المذكور.

في المتوسط. وأجر العامل الليبي عشرة ليرات فقط، وكانت تستقطع من هذه الأجور بطريقة لبقة يوضحها قراتزياني، رسوم وأعباء متعددة.

«في مثل تلك الظروف الاقتصادية التي قد توصف بالرخاء، بالمقارنة بالأزمة المستفحلة آنذاك في العالم، كان من الضروري أن تتدخل الحكومة لفرض نظام للادخار على الأهالي، لصالحهم ولإعادة تكوين الثروة الحيوانية، فكانت تستقطع ـ لهذا الغرض ـ من أجر العامل اليومي، ليرتان، لإيداعها بكتيب توفير كانت تصدره مصلحة البريد باسم العامل. وحصيلة هذا الادخار التي بلغت في مجموعها حتى اليوم، حوالي مليون ونصف مليون ليرة، مخصصة لشراء المواشي التي تبقى مملوكة بطبيعة الحال، لكل عامل بحسب المبلغ الذي يكون قد ادخره عن طريق الإيداع في الكتيب»[188].

وتوج هذا العمل، الذي كان يقصد منه انتشال طبقة كادحة، عديمة الشخصية من الدمار الكامل، بعد حضارة عريقة امتدت لعدة قرون، بإنشاء معسكرات الأطفال (Campi Ragazzi) التي كانت تضم، في عام 1934، 2800 طفل

وأول هذه المعسكرات ـ كما يقول قراتزياني ـ وهو معسكر سيدي أحمد المقرون، تم تأسيسه في أواخر عام 1931، بقصد توفير رعاية مباشرة للأطفال الليبين الأيتام أو الذين أصحوا بدون عائل، وتتراوح أعمارهم بين 6 سنوات و15 سنة والنتائج الباهرة التي تحققت بسرعة بالسبة لأول فوج يتكون من 60 طفلاً إنتظموا في معسكر خاص، دفعت الحكومة إلى إقامة معسكرات مماثلة في مراكز أخرى من المستعمرة.

وبذلك أصبحت توجد اليوم عدة معسكرات نظمت على غرار معسكري سيدي أحمد المقرون وسلوق اللذين أخذا كنموذج في كل من طبرق واجدابية والمرج وشحات وحتى في الكفرة، بالإضافة إلى المعسكرات الرياضية في قمينس وسواني ترية وجردينة وكركورة والقوارشة وفي جميع مخيمات مختلف قبائل المستعمرة[189].

[188] تقرير قراتزياني إلى بالبو ـ بتاريخ 26 أبريل 1934 ـ السالف الذكر.

[189] تقرير قراتزياني إلى بالبو بتاريخ 26 أبريل 1934 ـ السالف الذكر.

ويواصل قراتزياني بيانه، موضحا أن معسكر سيدي أحمد المقرون يضم 539 طفلا بين براعصة ودرسة، (ويبدو من النص الذي أمامنا أن أفراد هاتين القبيلتين لم يلتحقوا بقبائلهم على الجبل) وكذلك 120 من العواقير.

والنظام في هذه المعسكرات، عسكري بحث، وفقا للقواعد المتبعة بالنسبة لوحدات المجندين المحليين، بعد تحويرها بما يتناسب وطبيعة هذه المعسكرات. فالأطفال مقسمون (حسب النظام المتبع في (الميليزيا) الفاشية ـ الجناح المسلح للحكم الفاشي ـ التي تختلف في تكوين وحداتها وتسمياتها ورتبها عن النظام المتبع في الجيش الملكي ـ المعرب) (تشينتوريا) ـ وتقابلها (السرية) في الجيش، (مائة شحص) التي تنقسم بدورها إلى (مانيبولي) (فصائل) وحضائر ـ (اسكوادري). ويختار من بين الأطفال المجندين بهذه الطريقة، العرفاء وما دونهم، استناداً على ما كانوا يظهرونه من صفات أو مواهب تميزهم عن غيرهم، بعد اجتياز احتبار عملي ونظري خاص، ويتولى قيادة (السرية) ويشرف على انضباطها، ضابط صف (وطني) = (إيطالي) من القوات الملكية في المستعمرة. ويتلقى الأطفال حصة تدريب عسكري لمدة ساعة، يوميا (حسب المقرر، بالنسة للمجندين المحليين) وساعة أخرى للتمارين والألعاب الرياضية. كما يتلقى معظم أطفال المعسكر (الذين يظهرون أكثر استعدادا، جسديا وفكرياً) تدريبا على حرفة من الحرف، تناسبهم، وتلحق بالمعسكر، لهذا الغرض، مدرسة حرفية يقوم بشؤونها عناصر من الحرفيين الطليان، تضم فصولا لتعليم النجارة والميكانيكا والحدادة وأعمال الفولاذ والتنك، وصناعة الأحذية والخياطة (...) وكذلك قسماً خاصاً لإعداد الممرضين (...)[190]، وهذا النظام كان متبعا في سائر المعسكرات باستثناءات طفيفة.

ومن المقرر أن تعد هذه المؤسسات التعليمية ـ المهنية، ذات الطابع المدني والتربوي والعسكري، النواة الأولى للأجيال الليبية الجديدة (إلى هنا تقرير قراتزياني)

---

(190) قراتزياني على بالنو . . وكان إجمالي تكاليف هذه المعسكرات السبعة حوالي مليون ليرة، أي ما يعادل انفاق 700 ليرة سنويا عن كل طفل وتحدر الملاحظة بأن معسكر سلوق كان يضم 34 طفلة، من مجموع 2800 طفل، كانوا ملتحقين بهذه المعسكرات.

كما أنه من المقرر أن توفر العناصر المحلية المؤهلة لسد حاجيات الزراعة والإدارة المدنية، (مجموعة الموظفين المحليين)، وخاصة حاجيات الوحدات الليبية التابعة لقيادة القوات المسلحة الملكية في المستعمرات التي أخذت تلتحق بها أولى أفواج (المستجدين) القادمين من البطنان، ومن المتوقع أن ينخرط حوالي مائة من شباب معسكري المقرون وسلوق الدين بلغوا السن القانونية (18 سنة) في الكتيبتين السابعة والتاسعة اللتين تم تكوينهما مؤخراً[191].

وأهم نتيجة حققتها هذه المعسكرات كانت في الواقع، توفير العناصر للانضمام إلى الكتائب الليبية التي كانت رهن التكوين أو إعادة تنظيمها من جديد وسوف تساهم تحت إمرة بادوليو وقراتزياني، دائماً، في نقل متاعب وأحزان المدينة الفاشية إلى الحبشة.

* * *

[191] ذات التقرير: من قراتزياني إلى بالبو ـ 26 أبريل 1934.

المصادر والمراجع للباب الثاني

GIORGIO ROCHAT

Sources

- Ausiello, Alessandro, La Politica Italiana in Libia, Roma, l'Amia, 1939.
- Canevari, Emilio, La Guerra Italiana - Retroscena della Disfatta, Roma, Tosi, 1948.
- Ciasca, R., Storia Coloniale dell'Italia Contenporanea, Milano, Hoepli, 1938.
- De Leone, Enrico, La Colonizzazione dell'Africa del Nord, Padova, Cedam, 1960.

  Dieci Anni di Stona Cirenaica, Comando Truppe della Cirenaica (Generale 0. Mezzetti), operazioni estive nel Gebel Cirenaico, 8 Luglio - 13 Settembre, 1929. Relazione Sommaria.
- Despois, Jean, La Colonisation Italienne de Lybie, Paris, 1935.
- Evans-Pritchard, E.E., The Sanusi of Cyrenaica, Oxford, Clarendin Press, 1949.
- Gaibi, Agostino, Storia delle Colotne Italiane, Torino, Schioppo, 1934.
- Giglio. C., La Confraternita Senussita dalle sue Origini a Oggi, Padova, Cedam, 1912.

  "Gli Studi Storici Italiani Relativi all'Africadal 1945 al 1967", in AA.VV. La Stonografia Italiana negli Ultima Vent'Anni. Atti del Primo Congresso Nazionale di Scienze Storiche, Milano, Marzorati, 1970.
- Mezzetti, Ottorino, Guerra in Libia - Espenenze e Ricordi, Roma, Cremonesse, 1974.
- Miège, J.I., L'Impertalisme Colonial Italien de 1870 I nos Jours, Paris, Sedes, 1968.

  "Notiziaro" del 28 Gennario 1928

  "Notiziario" del 4 Febbraio 1928.

  "Notiziario" del 3 Marzo 1928.

"Notiziario" del 10 Marzo 1928.
"Notiziario" del 24 Marzo 1928.
"Notiziario" del 31 Marzo 1928.
"Notiziario" del 7 Aprile 1928.
croowiziario" del 18 Agosto 1928.
"Notiziario" del 30 Giugno 1928.
"Notiziario" del 14 Luglio 1928.
"Notiziario" del 13 Ottobre 1928.

- Pierri, P.- Giorgio Rochat, Pietro Badoglio, Torino, UTET, 1974.
- Romano, S., Giuseppe Volpi, Milano, Bompiani, 1979.
- Romano, S., La Quarta Sponda - La Guerra di Libia 1911 - 1912, Milani, Bompiani, 1977.
- Rochat, G., "Colinialismo" AA.VV. Il Mondo Contemporaneo, Vol. Stona d'Italia, Firenze, La Nuova Italia, 1978.
- Romano, R., La Storiografia Italiana d'Oggi, Roma, Espresso-Libri, 1978.
- Segrê, Claudio, Fourth Shore-The Italian Colonization of Libya, Chicago, The University of Chicago Press, 1974, Traduzione Italiana, Milano, Rizzoli, 1976.
- Valori, F., Storm della Cirenaica, Firenze, Sansoni, 1961.
- Italia Contemporanea.

الباب الثالث

أسر عمر المختار ومحاكمته وإعدامه

في إطار السياسة الفاشية «لإعادة» احتلال ليبيا

رومين رائنيرو
Romain Rainero

إن الحديث، الذي طغى على جميع الأحداث الأخرى ووضع حداً، تقريباً، لكامل حملة «إعادة» السلام التي سعت إلى تحقيقها الحكومة الفاشية بالنسبة إلى مستعمرتها في ليبيا وبلغت ذروتها بتصفية زعيم المقاومة عمر المختار، لا يمكن النظر إليه منفصلاً عن السياسة الفاشية برمتها بشأن المستعمرات ومتطلبات طموحاتها الامبريالية التي أخذت تحتل مكان الصدارة كمطلب رئيس للحكم الفاشي القائم اعتباراً من عقد الثلاثينات.

أما اجتياز السياسة الليبرالية، التي ظلت موضع شجب واستنكار منذ سنوات، على اعتبار أنها كانت تعرقل الحماس الاستعماري والنخوة الوطنية، فقد تأكد من خلال التعاضي عن الاتفاقيات التي عقدها مع الزعماء المحليين «بيرتوليني Bertolini» و«كولوزمو Colosimo» وعدم الاكتراث بها. ولا ينبغي الإفراط في توسيع مفهوم السياسة التحررية «القديمة»، إذ أنها لم تكن كذلك، في واقع الأمر، بل على المرء أن يتذكر أنه، مع بقاء الكثير من مغالطات فترة 1922/1915 قائمة ومتبعة في سياسة إيطاليا إزاء ليبيا، كان باب التفاوض مع المقاومة مغلقاً في الكامل وأصبح هذا الاتجاه مذهباً وديدناً أقرته الحكومة الإيطالية وسارت على منواله بعد الزحف على روما.

والحكم الاستبدادي الذي كانت قد تهيأت له الظروف للظهور في العهد الليبرالي، أصبح الناموس المتبع الذي لا حياد عنه، منذراً ببداية عهد البطش والتنكيل بالأهالي المحليين، الذين كانت تضطرهم سياسة قصيرة النظر كهذه إلى اختيار المقاومة، التي ما لبثت أن ترسخت بانتظام مضطرد، في برقة، لتصمد، بعد الجهود العسكرية الجبارة التي بذلتها السلطات الفاشية، كقلعة صلبة تقف في وجه الاحتلال، على الجبل.

هذا ولم يكن من شأن استمرار المناخ الوطني المشحون بروح التعصب الذي

أصبح يخيم على حكومة روما، إلا الدفع بكامل قضية العلاقات بالليبيين إلى خلق أزمة مستعصية، تسيطر عليها الإشادة بالعنف كنظام للحكم، من جهة، والتمسك، عبثاً بمعاهدات ومواثيق أصبحت الحكومة الفاشية تتنكر لها وتهملها بازدراء وتعالي، من جهة أخرى.

ومن خلال إطار كهذا، زاد من دقته نداء زعامة المقاومة إلى الأهالي برفض الاحتلال والتصدي له بقوة وكذلك عقد الحكومة الفاشية العزم على حسم النزاع من جذوره بالقوة العسكرية، لم يكن هناك بد من الدخول في طريق مسدود يتمثل في ردود الفعل العسكرية وتعصب تلك السلطات الإيطالية بالذات التي كان يطالبها الحكم الفاشيستي بالإسراع إلى «تصفية» المشكلة، وذلك أيضا لغرض تنفيذ سياسة استيطان جماعي، لم يحسن تمويهها أو اخفاءه، على «الساحل الرابع».

ومع ذلك، فإن السنوات التي تبدأ باستيلاء الحزب الفاشي على مقاليد الحكم في إيطاليا وتنتهي بوصول المشير بادوليو إلى طرابلس (21 يناير 1929) كوالٍ للمستعمرة، لم تسجل ذلك النجاح الكبير الذي ما انفكت السلطات الفاشية تلح على القادة والولاة للإسراع إلى تحقيقه، وكان من شأنه أن يبرهن للعالم على مدى قوة عزيمتها وجبروتها، على القضاء على حركة المقاومة. فبعدما تنكر لاتفاقيات الرجمة (25 اكتوبر 1920) وبومريم (20 اكتوبر 1921) وألغاها من جانب واحد، لم يتمكن النظام الفاشي، طوال ما يقرب من سبع سنوات، من التغلب على «المقاومة» بصورة نهائية. ليس ذلك فحسب، بل حدث على أثر مؤتمر غريان (18 نوفمبر 1920)، ما كانت تخشاه إيطاليا أكثر من أي شيء آخر، وهو تلاحم أهالي طرابلس وفزان وبرقة واتحادهم، تمهيداً للدفاع عن «الوطن الليبي». وبذلك أصبحت القضية تكتسي طابعاً وطنياً أكثر من أي وقت مضى. فبعد سبع سنوات من الحرب، تحققت فعلاً بعض النتائج، من ناحية الأراضي التي تم احتلالها وتوسع نطاق السلطة الإيطالية، إلا أن الأمن ظل معدوماً بالتمام في تلك المنطقة بالذات، الجبل الأخضر، التي كانت تشير الدراسات الزراعية العلمية ومخططات التعمير إلى أنها تشكل البقاع الوحيدة التي تمكن من تنفيذ مشاريع تعمير استيطاني إيطالي بحقه وحقيقه؟

وبهذا الصدد، يبدو أن الزيارة التي قام بها موسوليني إلى ليبيا في أبريل 1926،

كان لها مغزى خاص، ليس بسبب «الخضة العنيفة» التي صرح بأنه جاء ليمهر كامل المشكلة الليبية بها، بل بسبب أنه أراد «نقل ليتوريو» روما المظفر والخالد[أ] إلى سواحل البحر الأفريقي، إعراباً عن «عزيمته التي لا تتزحزح» لنقل شعب روما إلى تلك البقاع[1]. وسوف يلهب خطاب كهذا مشاعر وحماس الاستعماريين المتطرفين ويزيدهم نخوة واعتزازاً. وقراتزياني، الجنرال الذي كان يرى في نفسه أنه أصبح أحد ولاة روما «القديمة»، سوف يشيد أيما إشادة، بهذا الخطاب في كتابه «نحو فزان»: «كان نزوله (يشير إلى موسوليني) بمثابة حفل تعميد يكرس قدرنا ومصيرنا العظيم في حوض البحر الأبيض المتوسط بعد أن ضرجه الدم المهدر في «الكامبيدوليو» «نصب الجندي المجهول في روما ـ المعرب) ـ إشارة إلى المحاولة التي قامت بها المسز «جبسن» لاغتيال موسوليني ـ قبل موعد سفره ببضعة أيام ـ وعلى الصعيد السياسي، بصورة عامة، فالمسألة لم تعد تقتصر على إعادة التأكيد على أن الاتفاقيات المعقودة مع الزعماء المحليين أصبحت ملغاة، بل على اقرار استمرارية عهد روما على هذه الأرض بصورة رسمية وقد وفق إلى ابعد حد الصحفي الفاشيستي «د. ليسكي» في توضيح «أهمية اللفتة الرئاسية، التي كانت إعادة جريئة وحاسمة للتأكيد على مقدرات إيطاليا وذكرى مثالية لماض لم يتوقف، رغم انفصاله عنا قروناً من الزمن، عن الشموخ بهيئته العملاقة وراء تاريخ العالم بأسره... ».

ودور ليبيا، في مخطط موسوليني الطموح لحل مشاكل البطالة واكتظاظ السكان في الأرياف، ما انفك يزداد خطورة، حتى استحال على الحكومة التخلي عن عملها في سبيل انتزاع أخصب أراضي الجبل الأخضر من قبضة المقاومة ولم يعد هناك أدنى شك في ترابط قطبي السياسة الفاشية، وآخر الدراسات التي أجريت بهذا الصدد تحدد معاييرها الإرشادية بوفرة من التفاصيل. فهناك سياسة «العودة إلى الأرياف» من جهة

(أ) «ليتوريو Littorio» شعار روما القديمة، وهو عبارة عن حزمة عصي يتحللها شاقور

(1) حطاب موسوليني، كما نشر في «أعماله الكاملة» ـ مجلد 12 ـ ص115 ـ وحول هذه الرحلة ومراحلها «الامبراطورية الرومانية» ما زال العدد الخاص رقم 3 من مجلة السء، مايو 1926 يشكل أهم وثيقة: مقال «في أفريقيا، مع موسوليني» الذي نقلنا عنه الفقرة الخاصة بداريوليسكي - ص ـ 1.

وسياسة الوضع السكاني، من جهة أخرى. وفي سنة1926 بالذات شرع في معالجة المشكلة السكانية، وانطلاقاً من دلك، أصبح لا مندوحة من إثارة موضوع «التعمير الاستيطاني» في ليبيا، كنتيجة منطقية لهذه المقدمات. إلا أن مسألة إعادة السلام إلى برقة ما زالت قائمة وبعيدة المنال: فرعم كل الجهود، لم تظهر أية علامة في الأفق على قرب انفراج الأزمة في برقة. وبعد انقضاء ثلاث سنوات على حلول موسوليني بطرابلس، لم يشرع في تنفيذ مشاريع تعمير مرتفعات برقة، التي كانت «مؤسسات التعمير الاستيطاني ـ Enti per la Colonizzazione» ترى فيها الركيزة التي لا غنى عنها لإقامة أي مشروع استيطاني إيطالي جاد.

هذا وسجل تاريخ 21 يناير 1929 تحولاً خطيراً في الوضع السياسي بالمستعمرة. وذلك عندما دعي المشير بادوليو إلى تقلد منصبه كوال وحيد لطرابلس وبرقة بعد أيام قليلة من اختياره والياً على القطرين (18 ديسمبر 1928) وبتعيينه بالصفة الجديدة، بإضافة «الوحيد»، الذي يعني تكريس تقدمه في المرتبة بصورة واضحة على جميع من تقلدوا منصب الوالي قبله، أراد بادوليو، الذي عزز مركزه من خلال تعهده بإنهاء حركة المقاومة في غضون خمس سنوات، أن يضفي على ولايته الأفريقية ملامح خارقة للعادة، توقعا لبلوغ «أهداف عسكرية» لابد أنه بالغها.

والمنشور الذي أصدره واكتسب شهرة واسعة، بمناسبة مباشرة مهام منصبه الجديد، يكتنف أهمية بالغة، في نظرنا، من حيث صياغته الصارمة «الرومانية» الطابع وبسبب ما تخلله من نثر عسكري «إسلامي» مزعوم ولا بد من القول، هنا، خطاب «اسمعوا. اسمعوا» لئن كانت قد حيته الصحافة الرسمية كـ «عمل مفعم بالإباء والإخلاص، فضلاً عن أنه ينم عن قوة العزيمة»[2]، إلا أنه لميم يمر دون إثارة بعض التحفظات من قبل مستشرقين أجلاء. فنالينو، مثلاً، لم يتردد برهة في إبداء رأيه حوله على صفحات مجلة «معهد الشرق» الرصينة، قائلاً بالخصوص: «لا أعلم ما إذا كان من المناسب مواصلة نشر نص المنشور، الذي يبدو للكثيرين غير موفق في كل

(2) من كلام «ح مكالوزو آلنو. قطع دابر العصيان في برقة ـ مجلة (اللوستراتريبوني كولونيالي ـ «المصور الاستعماري») عدد أول ديسمبر 1930م.

فقراته، بسبب بعض العبارات التي تتسم بالاعتدال إلا قليلاً، وبسبب بعض تفاصيل الصياغة، ونحن نقول ذلك رغم ما نكنه من فروض الاحترام والتقدير للمشير المبجل»[3].

وتكتنف هذه الانتقادات في ثناياها اعتبارات سياسية واضحة، حيث إنها تضمنت ما يشبه الرجاء في أن ينتهج قادة المقاومة سياسة تتفق مع شعورهم الوطني أكثر من انتهاج سياسة تقليد ساذج للسياسة «الموجهة» التي طبقت في ايريتريا. ومن جهة أخرى لم يحاول «نالينو» إخفاء دلك، عندما أشار، بصورة خاصة، إلى أن تكرار عبارة «اسمعوا. اسمعوا. » ثلاث مرات، كان توجيهها إلى عشائر ايريتريا والصومال، أجدى من توجيهها على أقوام يعيشون في ليبيا». ونقد صريح كهذا ما كان ليمر بسلام، فها هو «الدارس» ماكالوزو آلئو (Macaluso Aleo) اتهم مجلة «الشرق الحديث «Oriente Moderno» بأنها تحرر«بلغة تتسم بنثر لا هو إيطالي ولا شرقي» ما كان ليستطيع فهمه واستيعاب معانيه أكثر من عشرين دارساً متخصصاً على أكبر تقدير»، فضلا عن أنها لغة لا تجاري متطلبات العصر. وأنى لقراتزياني، وهو حامل راية العهد الجديد، أن يتخلف عن دخول المعمعة دون أن يدلي بدلوه فيها؟. فها هو ذا ينبري للرد على نالينو، الذي كان قد انتقد أيضاً، إلى جانب نقده لمنشور بادوليو، إحدى خطب قراتزياني نفسه، الذي كان قد وصف السنوسية بأنها «فرقة» (Sect) وليست «طريقة» (Confroternity) فعندما كان قراتزياني يلقي كلمة في «المعهد الثقافي الفاشي» بمدينة بنغازي، في يوم 23 نوفمبر 1930، أصر على تعريف السنوسية كما يتصورها بقوله: «عندما تمارس أية «طريقة» دينية السياسة بمثل هذه الوسائل، فأنا لا أتردد لحظة عن تسميتها «فرقة ـ Setto» لأن الأستاذ نالينو، عندما ناقش ماكالوزو حول هذا الموضوع، قال:لماذا فرقة متشعبة المجاس، هل لأنها تدعو إلى كسب أتباع وتحاول التوسع والانتشار؟. إذاً، إيطاليا نفسها متشعبة المجاس. أجل، ها أنا أتهمه أمامكم، بعدما أبلغت أمره على السلطات العليا. وأوضح أن الأستاذ نالينو لم يشاهد

---

[3] ك.أ.نالينو ـ عرض ونقد كتاب ج.ماكالوزو «أتراك وسنوسيون وطليان في ليبيا» ـ بنغازي ـ فيتالي، في «الشرق الحديث» ـ أكتوبر1930 ـ ص518.

في حياته منتجعاً بدوياً واحداً أو لاحظ طريقة حيته»[4]

إلا أن لهيب هذا الجدال لا ينبغي أن يبالغ في مداه، لأنه يكشف عما سوف يكون الخط المقرر لسير عمل قراتزياني، أي مخططه الرامي إلى إظهار نفسه على أنه «رجل جديد» لا يعبه بالسوابق ولا يتراجع، فيسير قدماً على درب النصر المؤزر الذي لا شك في تحقيقه، دون تنازلات دبلوماسية في معمنلة المقدومة ومموقف كهذا لا بد من مقارنته بسياسة الانفتاح الدبلوماسي الذي اختاره بادوليو نفسه في مستهل ولايته من أجل فتح باب التفاوض مع «العصاة» وربما كان مرد انتهاج بادوليو لمثل هذه السياسة رغبته في الحصول على مهلة، لكسب الوقت الكافي لإعادة تنظيم القوات المسلحة الإيطالية في برقة وانتظار وصول العتاد والمعدات الحربية الجديدة (خاصة الطائرات والدبابات) التي كان قد طلبها من روما ووعدته بها، لاستئناف العمليات، ولذلك كلف نائبه في برقة، دومينكو سيشيلياني، بالشروع في التحاور مع المقاومة.

وجرت فعلاً محادثات ومقابلات خلال شهري مايو ويونية من عام 1929م، إلا أن مثل هذه الصلات، من واقع طابعها المفعم بالمغالطات والنوايا المبيتة، سوف لن يسفر عن أكثر من سنوح فرصة أخرى لتفاقم سوء التفاهم واشتداد الأزمة، وفي هذا الإطار، فإن المقابلة التي جرت بمنطقة رحومة، في 19 يونية 1929، بين بادوليو وسيشيلياني، من جهة، وزعيم حركة المقاومة في برقة، عمر المختار، من جهة، تكتسي أهمية خاصة.

وكانت هذه المغالطات ودوافعها، أثناء هذه المقابلة، من الفداحة بحيث نجد أمامنا روايتين متضاربتين حولها لا بد من التعرض لهما وتناولهما بشيء من الإسهاب. فعلى «رواية قراتزياني، كان من المقرر أن تكون مقابلة 13 يونية[ب]، مجرد تكرار لمراسم «استسلام» عمر المختار أمام أكبر ممثل للسلطة الإيطالية في ليبيا، المشير بادوليو، بالشكل الذي كان قد تقدم به في المرج أمام العقيد سيشيلياني في 13 يونية، فالحجة التي يستند إليها قراتزياني في مذكراته لا تترك مجالاً للشك: «في ذلك اللقاء

---

[4] قراتزياني «الوضع في برقة» بنغازي ـ دار النشر ـ «برقة» 1930 ـ ص27.

[ب] خطأ واضح في الأصل، لابد أن يكون هذا التاريخ 19 يونية وليس 13 منه.

(لقاء 13 يونية) أدلى عمر المختار بالتصريح التالي:

«لا تسموني عاصياً، لأنه لم يسبق لي أن استسلمت للحكومة قبل هذه المرة. على العكس من ذلك، فأنا لم أتوقف عن محاربتها لأن ديني يفرض علي ذلك، واليوم، ها أنا أستسلم مع جميع رفاقي، ومن اليوم فصاعداً لا بد أن يسود السلام المطلق والكامل في برقة. وسيكون لزاماً علينا، جميعاً، طاعة حكومة إيطاليا الشرعية. تجولوا حيثما شئتم، ألغوا الحراسات، فكوا المخافر التي لم تعد هناك فائدة من وجودها في برقة، حيث إنه لم تعد هناك حرب قائمة فيها»[5].

واستناداً إلى المصادر الإيطالية، فإن موقف عمر المختار، عند انتهاء المقابلة، هو الموقف المحدد في هذا التصريح، الذي حظي، في إطار الهالة التي أضيفت عليه بنشره «كخبر الساعة»، عن طريق بيان أصدرته وكالة «ستيفاني» للأنباء، لا يترك مجالاً للشك في خطورة هذا الحديث أو مغزاه: «حصل حدث في برقة يكتنف خطورة سياسية بالغة، ذلك أن أخطر زعماء المقاومة تقدموا بفروض استسلامهم. ففي يوم 13 يونية، تقدم، إلى موقع قريب من المرج، أبرز زعماء المقاومة، ومن بينهم عمر المختار، وهو أول زعيم لحركة المقاومة، الذي قادها بهاء ورباطة جاش منذ سنة 1923 وحتى

---

(5) لئن كان التصريح الذي ينسب الإدلاء به إلى عمر المختار، قد نقل بالنص أعلاه في مؤلفين من مؤلفات قرانتزياني «إعادة السلام إلى برقة» (ميلانو مونتادوري 1932 ـ ص30) و «ليبيا المحررة (نابولي ـ توريلا، 1948 ـ ص 46)، إلا أنه أدخلت عليه تحويرات سواءاً في النص المعاصر تقريباً والوارد في كتاب ك جيليو (الطريقة السنوسية ـ بادوا ـ تشيدام ـ ص 136) أم كتاب أ.دي لئوني «التعمير الاستيطاني في شمال أفريقيا» المجلد 3 ـ بادوا ـ تشيدام 1960 ـ ص551)، بحيث أصبح نصه مغايراً بشكل واضح: «إنني قدمت اليوم لأستسلم. والجنرال بادوليو، في نظري هو أول وال تمكن من السيطرة على برقة، واعتباراً من اليوم أصبحت لبرقة حكومة، هي الحكومة الإيطالية، ومن اليوم يوجد مسلحو الحكومة، واعتباراً من اليوم تدخل برقة في عهد جديد عهد السلام. وأنا تحت تصرف الحكومة ولكن، أمهلوني الوقت الكافي لطمأنة خاطر جميع الرجال الذين كانوا معي، وجميع الآخرين، الموجودين شرقاً وغرباً، ولحل تشكيلاتهم لأنني أعتزم العمل على ألا يبقى مشق واحد، لأن السلام أصبح منذ الآن مطلقاً وشاملاً، تجولوا حيثما شئتم، ألغوا الحراسات، فكوا المخافر، فجميعها أمور لم تعد لها فائدة هنا في برقة لأنه لم يعد هناك وجود للثوار»

الآن. «وحسن ين محمد الرضا السنوسي، ابن الرضا الشهير، الذي كان قد سلم نفسه لنا في العام الماضي، وفضيل بوعمر، أكبر زعماء قبائل البراعصة، تقدموا جميعهم لنائب الوالي سيشيلياني وأعربوا له عن بيتهم في تسليم أنفسهم بدون شروط، للسلطات الإيطالية، بعد أن قطعوا العهد على أنفسهم بتقبل واحترام الشروط الواردة في المنشور الشهير الذي كان قد أصدره المشير بادوليو منذ توليه مقاليد الحكم في كل من طرابلس وبرقة.. » وحتى الهدية التي تقبلها عمر المختار من نائب الوالي سيشيليابي، وكانت ساعة «تشير إلى ساعات السلام» اعتبرت دليلاً آخر على الاستسلام».

إلا أنه استناداً إلى الروايات العربية، يتبين، العكس من ذلك. إن مثل هذا الاستسلام المهيب، لم يحدث، وإن اللقاء كان فقط لغرض شرح الشروط التي وضعتها المقاومة للمندوبين الطليان، بغية إيجاد طريقة جديدة للتعايش وحتى يتم التوصل على شيء من ذلك، عرضت المقاومة عقد هدنة ووقف للقتال، فقط

فلم تكن المتناقضات نادرة ولا طفيفة. ومن لم تخالجه شكوك حول جوهر «السلام» الزعيم المتمرد وجماعته. كان الوالي بادوليو نفسه، الذي بعث، قبل التأهب للذهاب على سيدي رحومة. إلى «الدوتشي» ببرقية مشحونة بالثقة في النصر الأكيد، لا شك أنها كانت متهورة سواء فيما يتعلق بصياغتها أم بتنميق ألفاظها. فا لاعراب بهذا النص عن حدث لم يحصل بعد: «سأتحول إلى بنغازي لتلقي فروض الاستسلام. وبقلب يخفق حماساً وغبطة أسطر هذه البرقية لسعادتكم لثقتي بقرب موعد حلول حياة جديدة بالنسبة لبرقة»، كان لا بد أن يسفر عن إظهار مدى استخفافه بالأمور وارتجاله، بالنظر إلى تعقد الأزمة في برقة[6].

وبعد سيدي رحومة، لم تتضح معالم هذا اللقاء وملابساته ولم تترسخ الروايات حوله: فالرواية التي يتمسك بها بادوليو وتؤكد على أن الاستسلام قد أقر به عمر المختار وجماعته تصطدم بالرواية القائلة بأن الغرض من المحادثات، وهو ما لم يتحقق، الإعداد لإيجاد صيغة لاستقلال ذاتي يضمن الاعتراف بسلطة الثوار في البلاد.

---

(6) البرقية رقم 6459 «مطبقة السرية» المؤرخة في 14 يونية 1929، في المحفوظات التاريخية بوزارة أفريقيا الإيطالية ـ 90/21/150.

والدليل الآخر على مدى وهن الرواية الأولى، هو استئناف المحادثات، حول هذا الموضوع، في 28 يونية ببئر قدولة، مع نائب الوالي سيشيلياني، التي لم يتم التوصل خلالها إلى عقد الاتفاق المرجو، وتطور تلك الأحداث ذاته كان يدحص، بعمق، الملابسات والأوضاع التي ذكرها بادوليو وينال من صدقها.

ويكفينا أن نلاحظ أنه حتى الكتاب شبه الرسمي الذي ألفه كارلو جيليو Carlo (Giglio) سنة 1932، وقدم له رودولفو قراتزياني نفسه، لم يحاول إخفاء ضعف حجة بادوليو إلى حد التمادي في التأكيد على «وجود روايتين حول هذا الحدث الضخم، الرواية التي مصدرها عربي والرواية الرسمية لحكومتنا، فمن الصعب، والحالة هذه، الوقوف على الحقيقة وتأكيد ما حدث بالفعل، استناداً إلى أية من هاتين الروايتين. وعلى حد ما ذكرته الرواية العربية، يبدو أنه جرت، في ربيع عام1929، محادثات بين حكومة بنغازي وإدريس، بغية حمل هذا الأخير على إصدار أوامره إلى عمر المختار بالتوقف عن حرب العصابات، وبما أنه كان من المتوقع أن تتواصل المحادثات لمدة غير قصيرة، تعهد عمر المختار، بالاتفاق مع إدريس، بالمحافظة على الهدوء والسكينة، طوال سير المحادثات:لذلك فإن الشيخ عمر لم يعرض استسلامه في لقاء سيدي رحومة، بل كل ما عرضه كان مجرد عقد هدنة. وكون ما حدث لم يكن استسلاماً، قد يؤيده واقع أنه لم يتبعه تجريد الأهالي من السلاح، الذي كان شرطاً أساسياً لأية عملية استسلام. لذلك، واستناداً دائماً إلى الرواية العربية، كان الجنرال (هكذا: الجنرال) بادوليو هو الذي أساء تأويل حركة الثائر العجوز، الذي لم يتعهد إلا بمراعاة الهدنة: لذلك كان وفياً للعهد الذي قطعه على نفسه عندما استرد حرية التصرف واستأنف الكفاح، على أثر فشل المحادثات وتضيف الرواية العربية قولها إن وزارة المستعمرات هي التي تنكرت فجأة لحكومة بنغازي وأصدرت إليها الأمر بقطع المحادثات واستئناف القتال ضد حركة المقاومة. ورواية الحكومة، على العكس من ذلك، تؤول ما حدث بطريقة مغايرة بالكامل... »[7].

---

[7] ك.جيليو، المصدر المذكور، ص 136، ولا نجد تفسيراً لإصرار جيليو على نعت بادوليو «بالجنرال» وليس بالمشير، كما كانت رتبته.

وواضح كذلك أن الجانب الفاشي كان يواجه الكثير من أضراب الحيرة والارتباك في الوقت الذي أخذت تلوح فيه، من خلال ما كتبه «جيليو» الاتهامات الموجهة على بادوليو بالسذاجة، خاصة بعدما عرفت رواية عمر المختار كما نقلها بادوليو، في مذكرة أعدت في 20 أكتوبر 1929، وتناولتها صحيفتان عربيتان كانتا تصدران في القاهرة (وهما: «الأخبار» و«المقطم»). ويتضح من هذه الرواية ما يحمل على تصديق ما تمسك به المناضل العجوز من أن المحادثات، في مختلف مراحلها، لم تسفر، ولم يكن من شأنها أن تسفر، عن أي «استسلام» من طرف المقاومة لا في سيدي رحومة ولا في أي مكان آخر. هذا وكان المشير بادوليو، والعقيد سيشيلياني من قبله، قد قبل نقاط الهدنة الأربع التي كان يتمسك بها عمر المختار[8]، وعلى حد ما تذكره هذه الوثيقة العربية، فإن المحادثات بدت مجدية، أول الأمر، إلا أنها اصطدمت بالنية المبيتة لدى الجانب الإيطالي لفشلها، عندما تبلور الاتفاق، الذي لم تكن أسسه _ لاحظوا جيدا، ولا يمكن أن تكون _ متفقة مع ما ظلت الحكومة الفاشية تردده في إيطاليا حول اعتزامها «إعادة احتلال» إلى برقة واعتراضها على إبداء أي تنامل في اتجاه المقاومة وتمسكها بالاحتفاظ بأحسن أراضي برقة، أي أراضي الجبل الأخضر بالذات لتنفيذ مخططها الاستعماري ـ الاستيطاني لصالح الطليان.

وما كان عمر المختار ليفوته إدراك فشل محادثات الاستسلام، طالما لم يواكب التحول إلى هدنة تقدم حقيقي في الحوار، بعد انقطاعه، ليس ذلك فحسب، بل فطن كذلك إلى أن الإيطاليين كانوا يسخّرون هذه الهدنة لمواصلة دعم قواتهم المسلحة، التي طالب بادوليو بتعزيزها، من الناحية الإستراتيجية وكذلك تقوية قواعد إمدادها وتموينها، وكانت خيبة أمل الجانب العربي عميقة واتجاجاته صارخة:

«فليعلم كل مجاهد، إذاً ـ هكذا عبر عمر المختار ـ أن غرض الحكومة الإيطالية

[8] كانت النقاط الربع تتضمن ما يلي. « 1) إصدار العفو العام عن جميع المحكوم عليهم في جرائم سياسية، سواء من كان منهم داخل البلاد أم الفارين إلى الخارج، والافراج عن المعتقلين السياسيين 2) سحب جميع الحاميات التي أقيمت خلال حرب 1341 هـ (1922 _ 1923م).بما فيها حاميات الجغبوب وجالو 3).الاعتراف لي بالحق في جباية الأعشار الشرعية من العرب المقيمين حول الحاميات الإيطالية على الساحل.4) مدة الهدنة شهران، قابلة للتجديد».

الوحيد هو إثارة الفتنة والشقاق وحبك الدسائس بيننا للقضاء على نضالنا وتضامننا وتراص صفوفنا وتمكيك وحدتنا، لكي تستطيع التغلب علينا بسهولة وانتزاع جميع حقوقنا المشروعة منا، كما سبق لها أن حاولت مراراً، دون أن تحقق شيئاً من ذلك، والحمد لله.

فليشهد العالم على حسن نوايانا إزاء الحكومة الإيطالية وإنه ليس لنا غرض آخر عدا التمسك بحقنا في الحرية وأن أغراض إيطاليا ترمي إلى قمع كل حركة وطنية تصبو إلى نهضة الشعب (في ليبيا) وتقدمه.

ومع ذلك، نحن لا نستطيع أن نقول إن الشعب الإيطالي بأسره يوافق على فكرة الحرب، خاصة في الآونة التي تظهر فيها الدول الأخرى تساهلاً أمام شعوب الشرق، ويوجد، على العكس من ذلك، رجال سياسة يجنحون للسلم ويأخذون في اعتبارهم كما يحبون مصلحة بلادهم ويعلمون بمدى ما تسببه الحرب من خسائر ودمار. كما أنه يوجد أفراد قلائل يريدون تدمير الشعب (.. في ليبيا) بكل الوسائل. ونحن نتضرع إلى الله تعالى ألا يمكن هؤلاء القوم من تنفيذ مآربهم.

ولا توجد أمة واحدة لا تدرك أن عليها، لكي تحقق حريتها، بذل كل جهد، خفيفاً كان أم شاقاً.

ونحن الآن ندافع عن وجودنا ونضحي بدمائنا في سبيل إنقاذ الوطن وبلوغ الأهداف التي نصبو إليها، بناء عليه، نحن لسنا مسؤولين عن استمرار مثل هذا الوضع، ما دام أولئك الأشخاص الذين يسعون إلى استخدام العنف ضدنا لا يرتدعون فيسلكون سلواء السبيل ويعاملوننا بصدق ووفاء بدلاً من الإغراء والخديعة»[هـ].

ومن الأهمية بمكان ملاحظة المغزى الخاص الذي تكتنفه. بهذا الصدد، الرواية التي نشرها قراتزياني في سنة 1948. ويمكن اعتبارها الأخيرة، حول ما حدث في سيدي رحومة وفشل التوصل إلى سلام موهوم، والتي كان دافعها، بدون شك، سواء التنافر والضغينة الدفينة بينه وبين المشير بادوليو أم الأحداث اللاحقة في العلاقات

(هـ) هذه ترجمة حرفية للترجمة الإيطالية، فلا يتوقع الإنسان أن تكون متفقة في الكامل مع النص العربي الأصلي، خاصة وأن المؤلف لم يذكر المصدر الذي نقل عنه هذا البيان الواضح.

المشبوهة بين الرجلين، بالنظر إلى أن بادوليو كان بطل الهدنة (في الحرب العالمية الثانية) بعد الإطاحة بالحكم الفاشي، والثاني ظل معتصما داخل القلعة الفاشية حتى النهاية وكان المسؤول الأول عن المصير العسكري «للجمهورية الاجتماعية الإيطالية» الواهنة (التي أقامها موسوليني في بلدة «سالو» بعد اختطافه المثير من السجن - المعرب). وعندما نقل في كتابه «ليبيا المحررة» (Libia Redenta) جزءاً مما أورده عن هذا الحدث، قبل ذلك بست عشرة سنة، في كتابه «عودة السلام على برقة» في جو نشوة الانتصارات، ركز قراتزياني، على ذكر ما أصاب الصحافة الفاشية آنذاك من مضايقات بسبب تضخيم خطورة هذا الحدث بصورة لا تتناسب البتة مع الواقع، إلى درجة استدعت إجراء "تحقيق سياسي" حوله. ويقول قراتزياني: «وصل الاستياء بوزارة المستعمرات من كل ذلك الصخب والإشادة إلى حد استدعاء مدير الصحيفة اليومية «مستقبل طرابلس» LAvenire di Tripoli التي كانت تصدر في طرابلس، من قبل مدير شؤون الصحافة بروما.. إلا أنه تبين، من خلال التحقيق الذي أجري بهذا الصدد، أن صاحب الإشادة بمناقب بادوليو و"بانتصار" سيدي رحومة كان... بادوليو نفسه: بخط يده من أول كلمة إلى آخر كلمة وعلى ورقة رسمية لديوانه، مسطرة في صدارتها عبارة «والي ليبيا العام» .. فانقلب امتعاض روما وغضبها، بطبيعة الحال، إلى ضحك متواصل»[9]

وما حدث في برقة بعد الهدنة معروف، وما لا يعرف عنه الكثير هو ما طرأ على الموقف العسكري السياسي بشأن تغيير الاتجاه الذي أراده بادوليو بالعدول عن انتهاج طريق التفاوض التي لم يحالفها التوفيق منذ البداية، وباضطراره إلى التضحية بنائبه سيشيلياني في سبيل تحوله المثير في خط سياسته هذه، إلا أن الحكم على هذا الأخير بالإقصاء لا يعزى إلى بادوليو وحده، بل أيضاً إلى السلطات المركزية، عن طريق وزير المستعمرات دي بونو، الذي يحشر دائماً موسوليني نفسه في تصرفاته ويدعي تدخله. وتعتبر البرقية التي بعث بها دي بونو إلى بادوليو في 10 نوفمبر 1929 جوهرية في

(9) ورد سرد هذه الحادثة في الملحوظة بصفحة 58 من المصدر المذكور وكذلك حادثة الساعة الشهيرة.

الموضوع، إذ أنها كانت تتضمن، في الواقع، مخططاً جديداً وتسلط الضوء على سياسة الحكم الفاشي الجديد بشأن برقة وقسوتها. يقول دي بونو في برقيته:

«إن كل ما كنت أتوقعه وأخطركم به تباعاً في خطابات متعددة، أخذ يتحقق، لسوء الحظ، بعد إحاطة رئيس الحكومة بالوضع، وافق على مقترحاتي التالية:

(1) قطع كل تفاوض مع المقاومة أو إبداء أي تسامح لهم، مهما كان شكله، والهجوم عليهم بدون هوادة.

(2) تشديد الحراسة على السنوسيين الذين في قبضتنا وعدم تمييزهم، علانية، بأية معاملة خاصة.

(3) التوقف عن الكلام بشأن عمليات الاستسلام قبل أن تتم بالفعل.

(4) شنق الزعماء المقبوض عليهم.

وطالما أن نائب الوالي أثبت بصورة واضحة أنه دون مستوى منصبه. فلا بد من استبداله في أول مناسبة، دون مواجهته أو إشعاره بما صادفه من أضراب الفشل»[10].

وعند هذه المرحلة بدا أن المشكلة في برقة برمتها قد هوت إلى منحدر القمع العسكري المعتاد: فكانت حركة المقاومة قد استأنفت كفاحها، هنا وهناك بعد الهدنة، فحطمت آخر أمل في التفاوض. وبادوليو، الذي ظل متردداً عن أخذ عبرة بعواقب تهوره في سيدي رحومة وما زال يراوده الأمل في تفاقم الخلافات بين قوات المقاومة، لم يتأخر وزير المستعمرات دي بونو عن الرد عليه بحدة وبلهجة جافة: «أرى أنه لا لزوم لتوقع قيام ثوار آخرين باقتفاء أثر أتباع عمر المختار، بل يجب منع حدوث شيء من ذلك، بكل الطرق. كما أنني أرى أن الوضع، بناء على ما حدث، يستوجب التصلب مع «المقاومة» والضغط عليها حتى تلقي سلاحها، خاصة وأن سعادتكم كنتم قد أعلمتموني شفوياً بأنه باستطاعتنا تقويضها والقضاء عليها متى شئنا. فأنا لست منزعجاً إطلاقاً من الموقف ولكنه من المؤكد أننا لم نخرج من ذلك التفاوض بصورة مشرفة، لأن السياسة في برقة كانت كلها مبنية على حلول سلام ظهر فيه عمر المختار

[10] البرقية رقم 7325 بتاريخ 10 نوفمبر 1929، م م ت/وزارة افريقيا الإيطالية 90/21/150

على أنه صانعه وبطله الحقيقي»[11]. أما بالسبة لسيشيلياني الذي، أصبح فجأة المسؤول الأول عن أخطاء بادوليو، فإن دي بونو، لم يتوان، قبل إقصائه، عن كيل أخطر الاتهامات له:

«منذ أشهر وأنا أدعو إلى عدم الثقة بأحد ـ هكذا أبرق دي بونو إلى سيشيلياني ـ وقد ألححت، في خمس مناسبات على الأقل، على القيام بتجريد المقاومة من سلاحها، ولكن سعادتكم ظللتم أبداً متشبعاً بالأوهام. وسعادتكم توافقونني على أننا ما زلنا بعيدين حتى الآن عن الظهور بمظهر يليق بمقامنا وسعيت بكل الطرق على الإفهام بأن كل تنازل كان يعتبره العصاة علامة ضعف»[12].

وواضح أنه يجدر بنا، في هذه المرحلة، أن نتفحص القضية عن قرب، للوقوف على حقيقة ما إذا كان سيشيلياني «متشبعاً بالأوهام» فعلاً، أم على العكس من ذلك، سياسة الحكومة الإيطالية بالذات هي التي كانت محفوفة بالغموض سواء فيما يتعلق بحقيقة نواياها أم بما كانت تضمره من كيد في علاقاتها بالأهالي المحليين. ويبدو لنا أنه من غير المعقول اتهام سيشيلياني، كما فعل دي لئوني فيما بعد، بأنه «ينقصه الحدس السياسي الرهيف الذي تميز به فولبي والمنطق السليم الذي حذا بدي بونو إلى عدم الحياد عن السير في الطريق التي اختطها سلفه «أو أنه اهتم، منذ وصوله «في المقام الأول، بالبحث عن وسيلة تمكنه من ربط اسمه بحدث عظيم ومثير»، ولا يبدو أن هناك ما يبرر اتخاذ مواقف كهذه ضده[13].

ومما لا غنى عن إضافته على كشف حساب الحكومة الفاشية، هو تلاعبها ومغالطاتها عند تعاملها مع حركة المقاومة، وما أجرته من محاولات لكسب الوقت الذي يسمح لها بإرسال الكميات الضخمة من الأسلحة والعتاد الحربي على برقة واستكمال استعداداتها التكتيكية الجديدة التي كانت تتوقع أن تحقق من خلالها الهدف

---

(11) البرقية رقم 7335 بتاريخ 11 نوفمبر 1929، المحفوظات التاريخية، وزارة أفريقيا الإيطالية ـ الملف المذكور.

(12) البرقية رقم 132 بتاريخ 10 يناير 1930، المحفوظات التاريخية، أفريقيا الإيطالية، مراجع ملحوظة (10)

(13) أ.دي لئوني ـ المصدر المذكور ـ ص 550.

الوحيد الذي كانت ترمي غليه، وهو تصفية أفراد المقاومة جسدياً.

وبهذا الصدد يشكل تعيين الجنرال قراتزياني وإقصاء سيشيلياني (15 مارس 1930) عنصرين حاسمين على الصعيد السياسي. ونزعة قراتزياني إلى العنف في بطشه والشدة في تنكيله، كانت قد جعلت منه، من حلال عمله العسكري في ليبيا، «سفاحاً» على شاكلة «قاليبني Gallıeni» ولم يكن قط رجل كياسة ودبلوماسية أو سماحة، وهي صفات كانت متوفرة ـ في نظر البعض ـ في سيشيلياني ـ والملاحظات التي أبداها أحد أصدقائه لتبرير موقفه، وهو جيليو، تكتنف أهمية معينة فيما يتصل بعمله: «كان أنسب رجل للاضطلاع بالمهمة، لما كان يتحلى به من معرفة لنفسية الليبيين، فهو «جنرال» شجاع تتجمع فيه، على جانب الذكاء، حكمة شعبنا، بعدما حنكته التجارب والمحن، إلا أن الأهم من ذلك كله، هو عدم ارتباطه بأفكار مسبقة، من أي نوع... »[14]. وكونه لم يكن «متأثراً بأفكار مسبقة» يتجلى بوضوح في أول تقرير خطير رفعه على بادوليو، في 5/أبريل/1930م، وأبدى فيه حرصه على اعتزامه عدم الالتفات «بصورة مطلقة إلى السوابق»، الأمر الذي كان يعني، بعبارة أوضح، دفن كل مظهر من مظاهر الدبلوماسية التي كان يراعيها بادوليو نفسه في الماضي، والاعتماد على قوة السلاح وحدها للقضاء على المقاومة. ومن ناحية أخرى، فإن التحليل السياسي للوضع في برقة كان واضحاً بما فيه الكفاية، إلا أن جميع الملابسات والعناصر التي تساهم في اعتبار تقريره «5أبريل» وثيقة ذات أهمية جوهرية، لا يجب قبولها على علاتها أو بدون تحفظ. فمن جانب قراتزياني فإنه كان يضع في مقدمة اعتباراته، إتباع سياسة متبصرة ذات طابع شخصي، ترمي إلى تحطيم أسطورة استسلام بعض الجماعات من الأهالي المحليين والإصرار على أنها قضية تسترعي الاهتمام، من جهة، ومن جهة أخرى كان يتعمد تهويل وتضخيم جدوى وفعالية القوات المعادية، وذلك بإعطاء صورة قاتمة تعسة للوضع الذي تركته وراءها السلطات الإيطالية السابقة على عهده في بنغازي، هذا، ويجدر بنا أن نتوقف قليلاً لطرح وتحليل هذه الأقسام الثلاثة الواردة في الوثيقة. فالملاحظة «بأن النشاط كان يشمل

[14] ك.جيليو، المصدر المذكور، ص 141.

الكافة وفي كل مكان» لم تكن تعني الاعتراف للمقاومة بأية «قائمة فعلاً، بقدر ما كانت تشفياً من أسلافه وتوجيه تهمة ضد نمط معين من السياسة الاستعمارية، وهي تهمة كانت تدبر لحمل إيطاليا على الإستسلام. وهذا الكلام، على غموضه، يصبح أكثر وضوحاً بقراءة الفقرتين التاليتين بتمعن وانتباه.

«يأمل الجميع في أن الحكومة، ما دامت لم تتمكن من إحلال السلام بقوة السلاح، سوف تجبر على التراجع، ومن ثم على إبداء تنازلات متنوعة.

«يسعى الجميع، الأعيان الذين من هذا النمط والمستسلمون وغير المستسلمين من الأهالي، إلى إبقاء العصيان قائماً على قدميه، أي البقاء على حالة الاضطراب وانعدام الأمن.

وهذا واقع مطلق، وإنكاره يعني رفض النظر إلى الأمور الواضحة للعيان بواقعية»[15].

لم يكن الأمر «واقعاً مطلقاً» كما كان يدعي قراتزياني، الذي لم يترك هذه الفرصة تمر دون الإساءة إلى العرب المقاتلين مع عمر المختار، ولكنه كان مدفوعاً إلى الإدلاء بمثل هذا القول من شدة رغبته في إعادة التأكيد على عدم جدوى فكرة «الاستسلام» التي كانت تعدها السلطات الاستعمارية الإيطالية، حتى ذلك الحين، قاعدة جوهرية لممارسة عملها القمعي، ويتضح بجلاء من تحليل قراتزياني للوضع، الذي كان يقارنه «بحالة جسم متسمم، ينبتر في جزء معين منه ورم خبيث متعفن». إن «الأعمال.. التي يقترفها رجال عمر المختار، مصدرها، جميعا، قصور القوات المسلحة الإيطالية، رغم تفوقها الضخم في العدد والسلاح، وسياسة الانتظار والترقب، والاتفاقيات التي تم عقدها على ذلك الحين، وكذلك انعدام التشدد على أقصى حد مع جميع الأهالي المحليين، الثابت عليهم قيامهم بمساعدة المقاومة والتواطؤ المباشر وغير المباشر معهم».

ومشروع إعادة تنظيم الأوضاع في برقة، الذي أعده قراتزياني لم يكن، في

(15) يوجد النص الكامل لتقرير قراتزياني إلى بادوليو وإلى وزارة المستعمرات والمؤرخ في 5أبريل 1930، في المحفوظات التاريخية لوزارة أفريقيا ـ الترتيب 22/150 ملف 98

صلبه، خطة «تقتصر على هذه الجوانب فحسب، بل كان ينطوي على الدعوة إلى التصلب في القمع إلى أقصى حد، ولم لا؟ على فرض مبدأ المسؤولية الجماعية على الأهالي، إد كان باستطاعته أن يعرض عليهم كل دلك، أو بالأحرى رأى من واجبه اتخاذ كل هذه التدابير لإظهار السلطة الإيطالية بأقسى مظاهر البطش والتنكيل. وما كان يعتزم قراتزياني تنفيذه في المجالين العسكري والسياسي، كان يستدعي اتخاذ سلسلة من الإجراءات، الغرض منها «إقامة إدارة لمختلف المناطق، تكون أكثر تجانساً، وذلك بتأسيس (مفوضية الحبل Commis sariato del Gebel التي رآها أداة أفضل لتنظيم شؤون تلك المناطق، وفرض جو مفعم بالقسوة والتعصب، وذلك بإعادة سريان العقوبات التي كانت مقررة على الهاربين من وحداتهم العسكرية واعتبار جريمة التواطئ بمثابة خيانة للدولة، قد تؤدي عقوبتها على الإعدام، واعتبار تجريد جميع الأهالي من السلاح، داخلياً وخارجيا، ركنا أساسياً ومقدمة لا غنى عنها لكل تصالح».

فالتقرير المؤرخ في 5 أبريل كان يطرح، في نهاية الأمر معادلة من أبسط المعادلات:طالما أن حركة المقاومة ضد الإيطاليين يؤيدها العرب جميعاً، إذا، لا يمكن التفريق بينهم، فجميعهم يضمرون العداء لإيطاليا، وبالتالي لا بد من معاملتهم على هذا الأساس. فكل استنتاج عشوائي كهذا يصطدم مع التعليمات التي زود بها «موسوليني» قراتزياني وأوجزها في ثماني نقاط، شرحها له دي بونو بمناسبة تعيينه نائباً للوالي بعد ترحيب مجلس النواب بهذا التعيين (21 مارس 1930) أهمها: 1) فصل المستسلمين عن غير المستسلمين، نشكل مادي واضح، سواء من حيث أماكن إقامة وتحرك كل فريق منهم أم فيما يتعلق بالصلة بهم وبنشاطهم، 2) توفير الأمن والحماية للمستسلمين، مع مراقبتهم مراقبة نشطة ومتبصرة... »[16].

فسياسة قراتزياني الملازمة لأمانيه في تحويل منصبه كنائب للوالي إلى قاعدة انطلاق ممتازة لتأكيد شخصيته ومركزه على حساب رئيسه الطبيعي المباشر وللنيل من مكانته، وأعني «الوالي الأوحد» المشير بادوليو، دفعته إلى اتخاذ الشدة والتعصب

[16] ر قراتزياني: عودة السلام إلى برقة . المصدر المذكور ـ ص 49، ودي بونو إلى بادوليو وقراتزياني، 24 مارس 1930، في محفوظات وزارة أفريقيا الإيطالية ـ 22/150 ـ ملف 98

كأسلوب «جديد» يعالج به الموقف، أساساً، لحميع القرارات والتعابير التي كان يتخذها هذا، ووصول قوات جوية ضخمة أدى إلى استخدام الطائرات لاكتشاف عدو دائب الحركة خلال أراض تعد من أصعب المواقع من حيث وعورتها وتضاريسها، وأيضاً للقيام بسلسلة من العمليات التي لم يسبق أن استخدمت فيها الطائرات، «كالمحاكم الطائرة» مثلاً، التي كانت تختصر الإجراءات وتحول دون المماطلة في تطبيق «العدالة العسكرية»، الأمر الذي أدى إلى إجراء محاكمات مجملة بواسطة هيئة «محكمة خاصة» كانت تنتقل، جواً، فكان قراتزياني مرتاحاً نوعاً «لابتكاره» هذا، هو ورئيس هذه المحكمة نفسه، الجنرال أوليفييري». «... بهذه الطريقة يسير عمل المحكمة بسرعة ويسر، فحالما تصل الإشارة بالقبض على متهم في حالة تلبس بالجريمة، تنتقل المحكمة إلى المكان على الفور، فتهبط «العدالة» من السماء. وإجراء كهذا أصبح مألوفاً إلى درجة أنه عندما تهبط طائرة بالمكان الذي اقترفت فيه الجريمة، تتردد في المخيمات عبارة «المحكمة... المحكمة. . »[17] كانت وسائل الطعن في الأحكام التي كانت تصدرها هذه المحكمة معدومة، لأن الاستئناف لم ينص عليه، أصلاً، عند وضع قواعد إجراءات «المحكمة الخاصة». باختصار كانت «عدالة» قلما تراعى أصول الحقيق لجمع الاستدلالات قبل عقد الجلسة، إلا أن الاتهامات التي كانت توجه إليها وإلى تصرفاتها وإجراءاتها، وكانت لها أصداء ترددت لمدة طويلة في العالم العربي، (خاصة فيما يتعلق بتنفيذ أحكامها بالإعدام عن طريق إلقاء المحكوم عليهم من الطائرات)، ينبغي اعتبارها، في غالب الأحيان، خالية من أي أساس.

وصاحبت مجموعة هذه التدابير، على الصعيد التكتيكي، خطة تستند إلى ثلاثة أنواع من القرارات: إعادة تنظيم القوات المسلحة، تهجير واعتقال جميع أهالي المنطقة الرحل، وأخيراً مد «حاجز من الأسلاك الشائكة» على الحدود مع مصر. وإثارة هذه الجوانب الثلاثة، ولو بصورة مقتضبة، لا بد منها لأن وضعها موضع التنفيذ قد أدى إلى القبض على عمر المختار وإعدامه، مما أسفر عنه نهاية كفاح

---

(17) تقرير الجنرال أوليفييري، كما أورده قراتزياني: «عودة السلام إلى برقة» السابقة الإشارة إليه، ص151 (وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية بعنوان «برقة الهادئة»).

أتباعه. وللوقوف على حقيقة العرض من الخطة الذي كانت تتوخاه قيادتنا، لا يجب الاقتصار على الاستناد إلى إعادة تنظيم شؤون التموين والإمداد فحسب، بل أيضاً وفي المقام الأول، إلى جملة القرارات التي اتخذها قراتزياني ونفذت لإعادة تنظيم القوات وطرق استخدامها وأساليبه.

والمنهج الإرشادي الذي أتبع عند إعادة تشكيل القوات وتنظيمها، التي شرع فيها خلال شهر مايو 1930 (منشور 6 مايو)، كان يتضمن تجريد معظم المرتزقة الليبيين من السلاح، ثم تسريحهم، استناداً إلى قلة الاعتماد عليهم في محاربة المقاومة، وتقرر في ذات الوقت الأخذ باستخدام «التشكيلات الخاصة» المكونة في معظمها من مجندين ايريتريين، بعد توزيعها إلى «فرق سريعة الحركة» كلفت بالقيام بعملياتها في القطاعات الأربعة الكبيرة التي تتركز فيها حركة المقاومة ونشاطهم. البطنان، الجبل الأخضر، أراضي العواقير (بنغازي) وبطحاء سرت. والتعريف الذي أعطاه قراتزياني لهذه الفرق السريعة الحركة، التي كانت تعززها أسراب، بعددها، من الطائرات، واضح في منشور أول أوكتوبر: «إن الفرق السريعة الحركة، بعد تخليصها من ثقل الاعتبارات السياسية التي كانت تعيق حركتها أو تشكك في نتيجتها، أصبحت بمثابة كلاب الصيد تنقض بضراوة على «أدوار المقاومة»، تنشب فيها أنيابها وتأخذ بتلابيبها وتلاحقها في كل مكان، حالما تسنح الفرصة، تستفز رجالها وترغمهم على القتال، رجلاً برجل، كما تفرضه علينا حرب المقاومة أو تسمح لنا به، مكتفين بانتصارات محدودة، حقاً، ولكنها مضطردة.

«فهذه الفرق متيقظة حتى لا تؤخذ عن حين غرة، أبداً، لأن في ذلك احتمالاً لهزيمتها.

ينسى رجالها مشاغلهم اليومية ليعيشوا تحت الخيام في كل جو وعلى كل أرض، خطتهم في القتال الانقضاض والهجوم المتواصل ولا يفرطون في إطلاق النار، بل يبالغون في استعمال الحراب، أي أنهم في موقف هجوم في كل مكان.

فهم لا يعرفون هدنة ولا هوادة»[18].

[18] منشور ر. قراتزياني رقم 3500، بتاريخ أول أكتوبر 1930، ص3

وعلى خط متواز لعمليات إعادة التنظيم هذه، التي كانت تنبئ بقرب عهد عمليات المطاردة والتطهير على نطاق واسع والمنسقة حسب مختلف القطاعات، كانت السلطات الإيطالية تقوم باستكمال تنفيد مخطط حشر كافة عشائر الأهالي المقيمين على الجبل في ميادين للاعتقال، وهو مخطط رهيب يرجع طرح أول فكرة حوله إلى نفس فترة مايو ـ يونية 1930م. وفداحة قرار كهذا بإنشاء «ميادين الاعتقال» ينبغي ألا تغفل أو أن يقلل من مداها. حيث أنها تسجل في الواقع نقطة تحول خطير وابتكاراً في نوعية التعامل مع أهالي المستعمرة الذين لم يسبق لهم أن قاسوا ويلات كهذه على مدى التاريخ الاستعماري الإيطالي.

والبحوث التاريخية الرسمية، وما صدر من كتب بناء على نتائجها، ظلت تخفي، لحقبة طويلة من الزمن، مساوئ فظاعة عملية إبادة بمعناها ضد أهالي برقة أو تمجدها وتشيد بها لتطهرها، كما يفعل «باتشي Pace على أنها كانت «مجموعة من التدابير للرعاية الاجتماعية بمعناها. وترسيخ قاعدة متينة لصالح أهالي برقة الذين وفر لهم مجال عمل جديد يضمن لهم سبل الحياة «بواسطة أعمال زراعية ورعوية يمارسها الأهالي بحرية... »[19].

إلا أننا نعلم الآن، من خلال الوثائق، أن تهجير أهالي الجبل، قسراً، عن أوطانهم كان شيئا آخر يختلف اختلافا كبيراً عن ذلك كله، إذ أنها كانت كارثة نكب بها الأهالي، كلفتهم الكثير من الآلام وأبهظ ثمن دفعوه من الضحايا. والهدف الذي كانت السلطات الإيطالية تسعى إلى بلوغه بعملية كهذه قطع كل صلة، من ناحية البر، بين أهالي الجبل وحركة المقاومة، من جهة، ومن جهة أخرى منع الأهالي من تقديم أي دعم أو مساعدة لتشكيلات المقاومة، الضعيفة في عددها والفعالة في كفاحها[و].

ويرجع تاريخ تأسيس ميادين الاعتقال الخمسة العادية، التي حشر بداخلها ما يقرب من ثمانين ألف شخص، إلى ما بين منتصف عام 1930 وأوائل عام 1931،

(19) ب باتشي ـ ميادين الاعتقال ـ في مجلة «لاريويي كولونياني» روما عدد 25أبريل 1933، ص2

(و) والعرض الثالث والأساسي عدم تمكينهم من العودة إلى أراضيهم الأصلية التي حصر معظمها وأدخلت ضمن المشروع الاستيطاني الضخم الذي خص به الطليان، كما هو معلوم.

الأمر الذي أدى على إخلاء رقعة شاسعة من الأرض من سكانها وما شيتها، ما لبثت الطائرات تضمن مراقبتها من الجو، والفيالق السريعة، من البر، بكل سهولة، حيث إنه اعتبر «ثائراً» كل شخص وجد داخل نطاق تلك الأرض الخالية. ويستفاد من تقرير 2 مايو 1931، الذي أعد بعد الانتهاء من عمليات الترحيل والاعتقال، إن عدد المعتقلين داخل الميادين العادية و«المعتقل الخاص» المعد للمشتبه فيهم وأقارب المقاومة، كان 78,313 شخصاً[20].

وأدت إقامة هذه المعتقلات، المعزولة عن بقية العالم بحواجز من الأسلاك الشائكة والخاضعة لحراسة عسكرية مشددة، إلى تفاقم أحوال وظروف معيشة الأهالي الذين كانوا شهودا على مجرى أحداث الحرب وتقلباتها دون أن يصمموا على الاشتراك فيها. فعملية ترحيلهم كانت قاسية ومؤلمة زادت من تعاستهم وتدهور أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، فكابروا وصبروا على ما آلوا إليه دون أن يجدوا في العالم ذلك التضامن وتلك الأصداء، مما كان لا بد أن تثيره سياسة خرقاء ومأساوية كهذه.

لقد شل «التضامن الاستعماري» العديد من ردود الفعل في أهم العواصم الأوروبية والأفريقية والآسيوية، التي كانت غالبا ما تنصاع، في سلبية، إلى تقبل ما ظلت تؤكده الدعاية الفاشية بلباقة لا يمكن إنكارها، وهو أن عمليات التهجير تلك كانت تمليها «ضرورة مؤلمة» للقضاء على أشكال مقاومة النظام والقوانين المتفشية كالوباء في أقوام رحل. ولئن كانت الاحتجاجات قليلة ومتهيبة، إلا أنها لم تنعدم في الكامل، ولا بد من تناولها والتذكير بها، على كل حال.

ولدينا، من بين هذه الإحتجاجات، ما شهد به الإشتراكي «ايف فارج Yves Farge» بشأن تشريد الأهالي وسياسة إيطاليا في ليبيا، بصورة عامة، وتعتبر شهادته هذه

---

(20) بحسب ما جاء في تقرير نائب الوالي قراتزياني، المؤرخ في 2 مايو 1931 ـ بنغازي (استقرار الأهالي الرحل، بعد تهجيرهم) فإن ميادين الاعتقال العادية كانت في الأبيار (3123 شخص) وسلوق (20123) وسيدي أحمد المقرون (13050) ومرسي البريقة (21117) واجدابية (10000)، أما «المعتقل الخاص» فكان في العقيلة ويضم 10900 من المشتبه فيهم (محفوظات وزارة أفريقيا الإيطالية. الترتيب 22/150 ـ ص 98، ملف رقم. 7 ـ).

أكثر الوثائق إثارة للسخط على هذه الإجراءات واستنكارها:

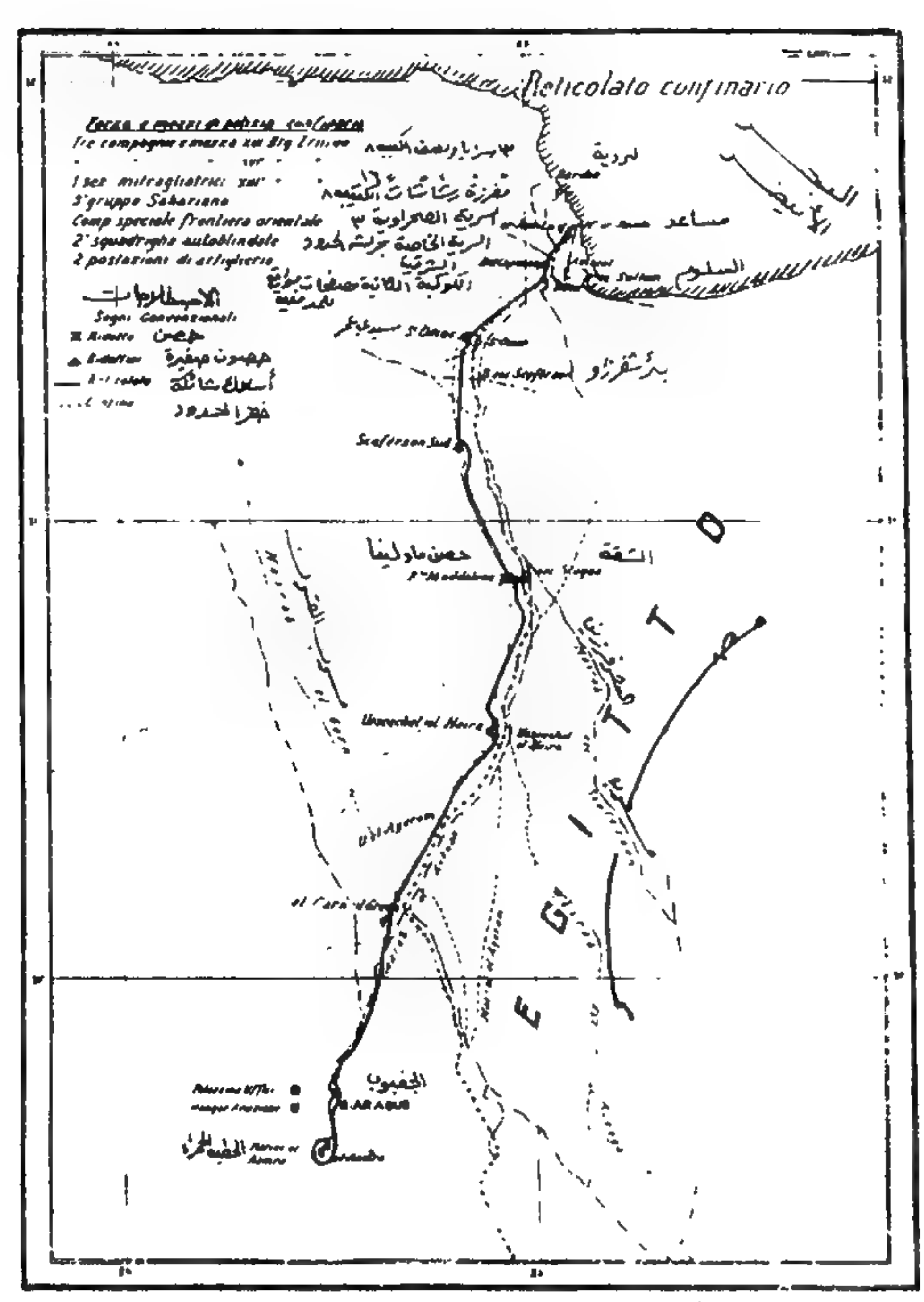
«اقتلع ثمانون ألف عربي من جذورهم الضاربة بعمق في الجبل الأخضر ـ برقة ـ حيث ظلوا يعيشون على مدى قرون وقرون من الزمن. وهذه المنطقة، وهي إحدى البقاع التي تسهل فلاحتها، كانت تتفق تماماً مع الأعمال الزراعية التي على النمط الأوروبي، لهذا السبب بالذات كانت تجلب أطماع المعمرين الطليان في الاستئثار بها. انتشلت العائلات والقبائل والعشائر بأسرها من مواطنها وأبعدوا عنها. لقد منحوا مهلة خمسة أيام لجمع ما يمكنهم جمعه من متاع ورزق قليل ونقله معهم... وبعدها تبدأ القوافل مسيرتها الأليمة تحت حراسة (شرطة) «الكارابينييري». فهل تعرف هذه القبائل إلى أي مصير تقاد؟. إنها سوف تعلم بعد مسيرات شاقة، حزينة تتواصل لبضعة أيام أن محط رحالها صحراء سرت»[21].

وما لم تكن ردود فعل المجلة شبه الرسمية «افريك فرنسيز» التي كانت تصدر في باريس، على هذه الدرجة من الصراحة، بسبب انتمائها إلى ما يشبه «الجبهة الاستعمارية»، إلا أنها كانت، مع ذلك، مثيرة للاهتمام، فهي وإن لم تعرب عن شجبها واستنكارها، قطعاً، لسياسة قراتزياني في مجموعها، بعبارات صريحة، إلا أنها أبدت سلسلة من التحفظات إزاء جدوى ووجاهة قرارات كهذه[22]. وبالنسبة لصحيفة استعمارية، كان موقف كهذا دليلاً واضحاً على ما انتابها من ضجر وحيرة. وعلى كل حال، لقد أحدثت فكرة تهجير أهالي الجبل بأسرهم وحشدهم في ميادين اعتقال قاسية، موجة عارمة من الغضب والاستنكار، خاصة بعد تكرار التصريحات الفاشية بنهاية المقاومة التي، لو كانت صحيحة، لما كان هناك مبرر «للضرورة الأليمة» لاتخاذ مثل هذا الإجراء.

---

(21) ذكره ب.ماريون في مقال «الاسلام يتهم...» ـ في صحيفة «له كوتيديان» Le Quotidien، باريس 22 سبتمبر 1931.

(22) لم تكن المقالات التي نشرتها في عام 1930م مجلة «افريك فرنسيز» كثيرة، ولكن المقالات القليلة كانت كلها بلهجة استنكار وتنديد، فضلاً عن أنها تصر على جدوى سياسة فرنسا نحو الأهالي المحليين التي «على طريقة ليوتي» التي تختلف جذرياً عن السياسة الإيطالية التي كانت تعبر عن نفسها بإقامة ميادين الاعتقال».



حاجز الأسلاك الشائكة الذي أقيم على خط الحدود بين ليبيا ومصر

ثم إن هناك مسألة الإجابة عن السؤال الذي سبق أن طرح في مناسبات أخرى «للتفاخر بعظمة» العمل الاستعماري الفاشي، و هو: إلى من تعزى مثل هذه المبادرة؟. هل إلى الوالي الوحيد بادوليو، أم لنائب الوالي المتهور قراتزياني؟ أم وزير المستعمرات دي بونو؟، أم لأحد غيرهم؟ إذا اعتمدنا على نص خطابات بادوليو إلى قراتزياني المؤرخة في 20 يونية 1930، وكذلك على خطاباته الموجهة إلى الوزير دي بونو بتاريخ أول يوليو التالي، فإن «الفضل» في هذه المبادرة يرجع إلى الوالي بادوليو، ولو أن قراتزياني يتغاضى عن هذا الجانب في مذكراته ويعزو إلى نفسه «مأثرة» هذه المبادرة. وقد يكون ذلك فصلاً آخر في تاريخ التنافس والتنافر بين الرجلين، المشحون بالأدلة على اصرار قراتزياني، على تخطي رئيسه وربط صلة وحوار مباشر مع «أصحاب السلطة في روما» سواء أكان دي بونو أم موسوليني نفسه.

وعلى كل حال، لا بأس من الفحص والتدقيق في الوثيقتين الأهم، وهما التعليمات التي أصدرها بادوليو إلى قراتزياني بتاريخ 20 يونية 1930 ومذكرته إلى دي بونو بتاريخ أول يولية. فالوثيقة الأولى، فعلاً ولأول مرة، فكرة حشد أهالي الجبل في مواقع خارج الجبل ذاته: «فما هي الطريق التي يجب السير عليها؟. لا بد، بادئ ذي بدء، من خلق منطقة حزام، شاسعة ومحددة بدقة، تفصل بين تشكيلات المقاومة والأهالي المستسلمين. وأنا لا أخفي عن نفسي مدى فداحة مثل هذا الإجراء وخطورته، إذ أنه يعني هلاك من يطلق عليهم اسم «المستسلمين» ولكنها الطريق التي حددت لنا وما علينا إلا إتباعها إلى النهاية، حتى ولو أدت إلى فناء أهالي برقة عن بكرة أبيهم. فينبغي، إذاً، الإسراع إلى ترحيل جميع الأهالي، وحشرهم داخل مساحات ضيقة ومحددة، بحيث تتسنى مراقبتهم مراقبة مجدية وعزلهم عزلاً كاملاً وبصورة مطلقة عن الثوار. وبعد الفراغ من ذلك كله، يتم التحول إلى العمل المباشر ضد الثوار».

«إن الطريق الوحيد التي لا مناص من إتباعها، هي عزل الأدوار «تشكيلات العصاة» عن بقية الأهالي، في المقام الأول، ثم تخبيل نسيج كل صلة وترابط بين الأهالي الأدوار. ولا ينبغي أن نخفي عن أنفسنا فداحة إجراء كهذا، ولا تعقده أو توقع الحصول منه على نتائج سريعة، ولكنه الإجراء الذي أراه ممكناً. وهو ما يجري تنفيذه

حالياً. سوف يتم ترحيل جميع أفراد القبائل عن الجبل وحشدهم عند سفوحه، على السهل الذي بينه وبين البحر... ».

والغريب في الأمر هو أن عواقب إجراء على هذه الدرجة من القسوة والفظاعة كانت متوقعة، على فداحتها ويشار إليها صراحة وبدون خجل: «... ومن الممكن أيضاً أن تؤدي إلى هلاك جميع الأهالي» إلا أن سياسة كهذه أصبح من غير الممكن تغييرها.

فهذه المبادرة انطلقت، إذاً، أول ما انطلقت، من بادوليو، غير أن قراتزياني ينافسه في ذلك فإيراده للحكمة اللاتينية المأثورة (Salus Publica, Suprena lex) المصلحة (السلامة) العامة أقوى قانون) دليل على إقراره الواضح لهذا المخطط، ولجوءه إلى لغة الطقوس الدينية كان إمعاناً منه في التمسك بعظمة إمبراطورية روما، عن طريق استخدام لغتها، وهو ما أصبح تقليداً متبعاً.

والعنصر الأساسي الآخر لسياسة بادوليو وقراتزياني «الجديدة» ظهر، كما سبق أن ذكرنا، في إقامة حاجز الأسلاك الشائكة على الحدود، الذي أريد به نصب فخ قاتل لجميع اللاجئين الذين وجدوا في مصر، القريبة منهم، ملاذاً وقاعدة تموين وإمداد.

فهو ضمان لمنع أي تهريب وهروب وبالتالي لمنع وصول أية مساعدة ودعم إلى حركة المقاومة على الجبل، انطلاقاً من مصر. ثم إن تمكن جماعات ضخمة من أهالي برقة، من اللجوء إلى أراضي مصر، كان دائماً حافزاً لحمل رجال عمر المختار على اعتبار مصر عامل ثقل مؤثر في إستراتيجية حرب العصابات ككل، استناداً إلى أن الحدود «النظرية» للمستعمرة الإيطالية هي وسيلة مضمونة للإفلات من أية ملاحقة وأي حصار. فتسرب الأسلحة والمسلحين عبر مثل هذه الحدود، شكل دائماً عائقاً يؤثر على نجاح العمليات العسكرية الإيطالية في المناطق الشرقية، فحاجز منيع من الأسلاك الشائكة كان من شأنه أن يطبق على حركة المقاومة في «مصيدة فئران» على حد تعريف مجلة «أفريك فرانسيز» المذكورة، فضلاً عن أنه كان يبرهن، من خلال وسائل عرقلة حركة المقاومة بطريقة فنية وما كلفه من نفقات مالية باهظة، على مدى تصميم الحكومة الفاشية على انتزاع النصر، مهما كلفها من ثمن، بتصفية عمر المختار

وأنصاره جسدياً.

وفي مثل هذا الإطار الذي يتسم بإصرار سياسة الفاشيست على القضاء على المقاومة وتصميم هذه الأخيرة على مواصلة الكفاح حتى آخر رمق، تندرج المرحلة الأخيرة من إعادة السكينة عن طريق العمل العسكري»، التي كان قد سبقها حدث غالباً ما مر دون أن يلفت انتباه أحد، ولكنه يكتنف أهمية خاصة، في نظرنا، وهو قيام الليبيين، خلسة، بإحياء الذكرى التاسعة عشرة لإنزال القوات الإيطالية إلى شواطئ طرابلس وبدء الاحتلال الاستعماري. ولم يأت أبداً ذكر هذا المكتوب، المسهب إلى حد كبير، الذي انتشر بين الليبيين داخل المستعمرة بعدما وزع في كل من سوريا ومصر وتونس، وليس للمؤرخين الليبيين، اليوم، فكرة واضحة عنه، عثرنا عليه نحن في محفوظات وزارة أفريقيا الإيطالية، ويبدو لنا أن نصه يكتنف مغزى خاصاً بالنسبة إلى اللهجة المحببة لقلب مصطفى الأشرف حول «المقاومة الدائمة» لشعوب شمال أفريقيا. وعند أحياء ذكرى «اليوم الأسود» الذي كان قد حل بالبلاد قبل تسع عشرة سنة، أي يوم هبوط القوات الإيطالية إلى ساحل طرابلس، لم يتردد محررو المنشور في كيل أشد الاتهامات لطريقة الحرب وأساليبها، كما أرادها قراتزياني: «لو خاض الطليان الحرب كرجال وكأبطال لهانت، ولكان من السهل استحمالهم، رغم قوتهم، هم وضعفنا نحن. فهم لا يعرفون للحرب طريقاً سوى الإرهاب والبطش والتنكيل والتدمير والاستبداد، و«تنصير الأهالي، وتلطيخ الشرف وقتل الشيوخ والأطفال، واحتقار الشعب والتهكم على معتقداته ودينه، وإفساد طبيعة البلاد وعاداتها، والقضاء على اللغة العربية والاستعاضة عنها بلغتهم والدوس على مصالح البلاد وطمس ثقافتها، والاستيلاء على أرزاق الأهالي وسلب حقوقهم وتسليمها لقراهم الاستيطانية، حتى يتم إفقار أهل البلاد وتحويلهم إلى عمال يدويين وتعريضهم للاذلال والفاقة. فسجونهم مغتصة بالأبرياء، ولا حد للتعذيب في هذه السجون ولا أساليبه، مما ليس له مثيل في التاريخ، وتعقد المحاكمات للحكم على المسلمين بأحكام وحشية وقاسية، والبعثات التبشيرية منتشرة في جميع أرجاء البلاد والدم يهدر في كل مكان، والجثث مهملة وعظامها مبعثرة... والإيطاليون، مع اقترافهم كل هذه الأعمال الوحشية، التي تتنافى مع أبسط قواعد القوانين الإنسانية، لا يخجلون من القول

لشعبهم إن طرابلس وبرقة ينعمان بالهناء والسكينة، وأن أهاليهما يحبون الحكومة الفاشية حباً جماً (كل شيء إلا هذا.) وإن السلام يعم كل مكان ولم تعد هناك حرب ولا أزمة. فالأمور فيهما تسير سيراً عادياً، شأنهما شأن أكثر بلاد أوروبا حضارة. أيتها الحكومة الفاشية. ماذا دهاك لبث كل هذه الأكاذيب؟ ما هو الكسب من وراء تغيير الحقيقة والإدلاء بكل هذا الزيف والتضليل؟ إلى متى التمادي في سياسة المهابة بهذا العناد؟ وإلى متى تخفي حقيقة الوضع عن بلادك؟ ولماذا عدم الاعتراف بأخطاء الماضي وخطورة الوضع الحالي وظلام المستقبل؟ عمن تخفون وحشية البطش والتنكيل التي تقترف في وطننا في زمن لا يمكن إخفاء شيء مما يحدث فيه، مهما كانت الوسائل التي تسخر في سبيل ذلك؟. أو لم تكفكم هذه السنوات العشرون لتغيير سياستكم، رغم أنه لم يمر يوم واحد، طوال هذه المدة، بسلام؟. أم أنه لا يسعدكم عدم خضوع الشعب في طرابلس وبرقة للمذلة والعار؟ ماذا كسبتم من تطبيق الإرهاب بمثل هذه الوحشية؟ إنكم لم تنتبهوا بعد لخطأ سياستكم، رغم تعاقب ما لا يقل عن أربعة عشر والياً على حكم البلاد... »[ر].

وأخيراً يوجه المنشور نداءاً إلى جميع الأهالي الليبيين ليتذكروا دائماً ما قاسوه من ويلات ويشير إلى أن النضال الذي لا مناص منه هو الطريق الوحيد للتخلص من الاستعمار الفاشي الجارف.

بعد انجاز مد «حاجز الحدود» في مدة قصيرة تعد قياسية، وتحديد المعايير الجديدة لملاحقة المقاومة، داخل تاريخ «إعادة احتلال» برقة في العهد الفاشي، طوراً جديداً، طابعه المميز تطبيق أقسى أنواع البطش الوحشي من جهة، والإسراع إلى احتلال المناطق البعيدة، من جهة أخرى.

ولم يغب عن ذهن أحد خطورة وضع أفراد المقاومة، بعد تطويقهم بهذه الطريقة، بين فكي كماشة من الحديد والنار، داخل بلاد خالية من الحياة، بعد تهجير سكانها وحشرهم في معتقلات معزولة عن الخارج، وبعد إقامة الحاجز، وانتشار

[ر] هنا أيضاً أعتذر عن إضطراري إلى ترجمة نص عربي عن ترجمة إيطالية لا يمكن أن تكون طبق الأصل.على أمل الحصول على صورة من النص العربي، لا برادها في الطبعة الثانية..بإذن الله..

مواقع القوات الإيطالية ومرابصها على طول الجبل وعرضه وحتى خارجه.

وها هو، شكيب أرسلان، يوجه، من منفاه في جنيف، بلهجة أسى، مثيرة، اتهاماته للإمبريالية الإيطالية:

«... نحن نطلب من السادة الإيطاليين الذين لم يتورعوا في الإعراب عن تفاخرهم بحشد 80 ألفاً من العرب المدنيين المجردين من السلاح منذ أمد بعيد، هم وأنعامهم، داخل مساحة ضيقة من سهل سرت، بقصد أفنائهم وإعطاء أراضيهم في برقة لمعمرين طليان، ها هم اليوم يعتزون بأسرهم 100 امرأة وطفل من بين بضع مئات من سكان الكفرة، بعد مقاومة الفيلق المحتل: إلى أي جانب من جوانب المدنية والحضارة نضع تصرفاً كهذا...؟

في عصرنا الحديث هذا، لا يسمح بإتباع مثل هذه الأساليب والإجراءات وبعثها من جديد بعد أن طواها تاريخ القرون الوسطى، أضف إلى ذلك أنها أمور لا ترفع من مكانة الحركة الفاشية ولا من مكانة إيطاليا في نظر العالم. فما بالكم بإيطاليا الجديدة التي تصبو إلى تحقيق تقدم سياسي واقتصادي، على نطاق واسع، في الشرق؟. هل يظنون أنهم سيحققون أهدافهم بوسائل وأساليب كهذه...؟»[23]

هذا، ولم تكن أصداء مثل هذه الأحداث في العالم العربي قليلة، إلا أن أخبار مراحل الاحتلال الإيطالي، على خطورتها، ساهمت في الاقتناع، هنا وهناك، باليأس من المقاومة، وبالتالي بالحكم عليها، بمرور الأيام بالانهيار لاستنفاذ قواها، حيث إنها حصرت داخل كماشة من الحديد والنار، مع انعدام خلفية تضمن لها التموين والإمداد.

هذا وأضفت عمليات منطقة «فايد» وقمع المقاومة بحركة خاطفة، 2 أغسطس 1931طابع الإصرار على تطبيق منتهى القسوة التي عقد الجنرال قراتزياني العزم على إتباعها «لتصفية» مشكلة تسمى «عمر المختار» وعند احتلال الكفرة الذي تم باستخدام كميات ضخمة من وسائل النقل التقليدية (أكثر من 7,000 رأس من الإبل) والعصرية

(23) ش.أرسلان: الامبريالية الإيطالية في طرابلس الغرب ـ في «الأمة العربية ـ جينف» ـ فبراير 1931 م ص 15 ـ والنص منقول باللغة الفرنسية في الكتاب.

(20 طائرة وأكثر من 300 شاحنة وعدد كبير من السيارات المصفحة) _ 19 يناير 1931 _ اتضح أن حركة المقاومة كانت تحتضر، بعد نصب الفخ لها بمنطقة الجبل ولم تبق أمامها دروب تتحرك من خلالها ولا منفذ للنجاة أو مصدر للإمداد.

إلا أن عملية احتلال الكفرة، رغم ما حققته من نجاح، كانت محفوفة، كالمعتاد، بخطر بقائها بمثابة نصر منفصل لا يؤثر في قوات المقاومة الرئيسية على الجبل، أكثر من تردد أصدائه المؤقتة. ومنشور قراتزياني القديم سرعان ما عاد إلى الأذهان ليثير حنون القيادات الإيطالية: لماذا يواصل أفراد المقاومة صمودهم؟. كان هذا السؤال الذي ما انفك قراتزياني يطرحه على نفسه، ليرد عليه بقوله:

«أولا وقبل كل شيء، لأن عمر المختار لن يستسلم أبدا، وأيضاً لأنه دائما في وضع يمكنه من الهروب (الثائر العجوز يفلت دائما بجلدته.)، ثم من اللجوء على مصر، تاركا أنصاره يواجهون مصيرهم (وهي عادة قديمة، بالنسبة لأي زعيم محلي)، وسوف يقاوم دون أن يفقد الأمل ليس في تحقيق أي انتصار يرفع من وضعه المادي والمعنوي، بل في الله لإيمانه بقضاء الله وقدره، ككل المسلمين. وفضلاً عن ذلك فهو يأمل، ومعه مستسلمون وعصاة، في احتمال حدوث تغير مفاجئ في مقررات الحكومة من شأنه أن يؤدي إلى العودة بالكفاح من جديد إلى ميدان المساومات والحلول الوسط القديمة التي انقضى عهدها. وأخيرا لأن المشاغب والقلاقل التي أحدثها رجاله التعساء في برقة، قد تحمله على الرجاء في أن تتراجع الحكومة عن تنفيذ التدابير التي اتخذتها لإنهاء الوضع الحالي، غير الطبيعي»[24].

بدا أن مسألة المقاومة واستمرارها قد تحولت إلى الاهتمام بالمشاكل المرتبطة بالأمن على الحدود، حيث تبين أن حاجز الأسلاك الشائكة لم يف بالغرض.

والبرقية التي بهذا المعنى، وبعث بها قراتزياني إلى سفير إيطاليا في القاهرة - روبيرتو كانتالوبو Roberto Cantalupo كانت تؤكد على «أن سقوط الكفرة سوف لا يحمل عمر المختار، قطعا، على الجلاء عن الجبل الأخضر، ما دامت الحدود توفر

(24) مشور نائب الوالي قراتزياني، رقم 189 _ بتاريخ 17 أغسطس 1930م.ص 11 (تعليمات سياسية عسكرية)

له الوسائل والمؤن لمواصلة الكفاح بعدما استحال عليه الحصول عليها من الأهالي. إلا أن كانتالوبو، بعد ذلك بقليل، أبدى ردود فعله على هذه البرقية، موضحاً أن أعزاء ذلك إلى أضراب الطواطئ المزعوم من جانب مصر واستمرار حركة التبادل التجارية، عبر حاجز الحدود، على حد رأي قراتزياني، ليست هي السبب. «فللقضاء على العصيان في برقة، لا مناص من إنزال الهزيمة بالعصاة داخل برقة... »[25]

فإذا كان الجو المخيم على الجانب الإيطالي هكذا، لا يمكن القول أن وضع المختار وأنصاره كان على ما يرام: ذلك أنه ظهر، في جانب المقاومة، عنصر جديد لا بد من الإشارة إليه إشارة واضحة، ويتمثل في النزعة الجديدة لدى بعض الأشخاص المحليين، التي تبلورت في استعدادهم للتحول، مقابل مكافآت مالية، إلى «مخبرين» لحساب قيادة القوات الإيطالية، بعدما أيقنوا من قرب موعد الانتصار الإيطالي. كما أنه لا ينبغي التقليل من خطورة الدور الذي قاموا به، وقراتزياني نفسه تناول في مذكراته، وصف هذا الدور ومدى الاستفادة من المخبرين في هذه المرحلة:

«كانت مهمة المخبرين تعقب العصاة عن كثب واقتفاء أثرهم أينما حلوا، وبحكم معرفتهم العميقة للأرض وطبيعتها وعادات واحتياجات العصاة أنفسهم، ومصادر المياه وأغنى المراعي، والمخابئ المفضلة ومستودعات الشعير، كانوا على علم تام بالاتجاه الصحيح الذي يرشدهم إلى مكامن العصاة. وما أن يهتدوا إلى مكان تجمع «دور» أو قسم منه، حتى يهرعوا إلى استنفار الجهة المعنية، وفي الوقت الذي يواصل فيه بعضهم تعقب تحركات الجماعة، يكون الفريق الذي أسرع لاستنفار أقرب قيادة، قد عاد ومعه تشكيلة كافية لمداهمة فريق العصاة. وكان يحدث عندما تكتشف الطائرات، من خلال عمليات الاستطلاع التي كانت تقوم بها يومياً تقريباً، شيئاً أو تحركات غير عادية في منطقة ما: أن تقدم المعلومات والبيانات المتوفرة لدى المكلف بالاستطلاع على متن الطائرة عند عودته، إلى قيادة الجبل التي تسرع إلى إطلاق العنان للمخبرين، الذين يندفعون، على الفور، لتفتيش المنطقة المنعوتة شبراً شبراً. وكانت

(25) البرقية رقم 300 بتاريخ 4 فبراير 1931، من قراتزياني إلى كانتالوبو والبرقية رقم 453 بتاريخ 9 فبراير من كانتالوبو إلى قراتزياني ــ في محفوظات وزارة الخارجية السالفة الإشارة إليها.

العمليات فوق الجبل تسير على هذا المنوال حتى القبض على عمر المختار (11 سبتمبر)، وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي كانت تسمح باستخدام الوحدات المقاتلة وهي على بينة من أمرها، فضلاً عن أنها كانت طريقة اقتصادية لتحقيق نتائج مجدية»[26].

إلا أن الوضع بصورة عامة، وبغض النظر عن قضية المخبرين، كان كافياً للوقوف على مدى دقة موقف المقاومة وما وصلت إليه من ضعف، وبالتالي على تدهور قدرتها على الصمود أكثر مما أبدته. ولم يفلت وضع كهذا من جلب انتباه عمر المختار وإثارة قلقه. فالمحفوظات الإيطالية ما زالت تضم بعض الرسائل التي كان يبعث بها، في عدة مناسبات، إلى زعماء برقة اللاجئين إلى مصر. وبعد الاطلاع عليها، يجوز للمرء أن يؤكد على أن رأي زعيم المقاومة حول تفاقم الأزمة كان يتركز على إبراز هذا الجانب.

ومن خلال الواحدة وأربعين وثيقة التي احتجزتها القوات الإيطالية، في 21 أغسطس 1931 في أعقاب العملية التي قامت بها في منطقة «بئر حمرين» ضد قافلة صغيرة تتكون من 5 جمال، تتوفر الأدلة على مدى المخاوف والمشاكل التي كانت تقاسي منها حركة المقاومة في برقة في تلك الآونة[27].

وحتى الوثائق التي عثر عليها في «شنطة» عمر المختار، عند أسره، والوثائق الأخرى التي أخذت من أحد سعاة المقاومة، بعد قتله، في 27 سبتمبر 1931، بوادي معطن، تسلط الضوء على آخر مرحلة للمقاومة، وبعض الوثائق من المجموعة التي تضم (41) وثيقة، لا يسوغ غض النظر عنها، بهذا الصدد، إذا أردنا أن نفهم المتاعب والمشاكل التي كانت تعاني منها حركة المقاومة وما وصل إليه وضعها من تأزم. ففي رسالة تحمل تاريخ 22 أغسطس 1931، مثلاً، وموجهة إلى أحد أمراء

---

(26) قراتزياني ـ المصدر المذكور ـ ص 233.

(27) توجد مجموعة هذه الرسائل، الآن، بمحفوظات وزارة الشؤون الخارجية ـ 1931 ـ ب ـ 1 ـ ملف ـ 5 ـ رقم الترتيب 3/1 ـ ، رسالة بتاريخ 5 سبتمبر 1931، موجهة إلى وزير المستعمرات.

العائلة المالكة المصرية، يعرب عمر المختار عن سخطه «على أعمال البطش الفظيعة ضد إخوانكم المسلمين الضعفاء في ليبيا» و «الويلات والمحن التي يتعرض لها الرجال والنساء والأطفال، حتى في أرزاقهم»، ويشير إلى الحالة التي آلت إليها جماعة من المسلمين، و«كيف أنهم ظلوا يعيشون، على مدى ما يقرب من 20 عاماً، في حالة بائسة من الجوع والعطش والحرمان من أشياء ضرورية أخرى، دون أن يستجيب أحد لأنينهم أو يرحمهم، إلا الله عز وجل والناس الأتقياء الذين يخافون الله وأبطال الحكومة المصرية وزعماء مصر العرب، الغيورون على قضية الإسلام العظيم... »[ح]

و في رسالة أخرى موجهة إلى شخص يدعى (الوريدي) يعرب عمر المختار عن الحسرة والمرارة التي تغمره، بصراحة، عن نوع التضامن الذي حصل عليه بالفعل بشأن قضية المقاومة:

«إنكم تحيطونني علماً، بنبأ مفاده أن بعض الأشخاص الذين يذهبون إلى هناك (مصر) يبدون أسفهم لما يمر بنا في الوقت الحاضر، إن الأسف والحسرة لا تكفي وحدها لوصف ما نحن فيه، والأحرى بمن يطلع على الوضع الذي وصلنا إليه، أن يبكي لحالنا، لأنه وضع لم يحدث (بهذه الفداحة) في قرن من القرون التي مرت بها البشرية...».

وضد من كانوا قد أرسلوا إليه بضع «كيلات» من الفول السوداني، هدية، لا يسعه إلا أن يصرخ: «نحن لسنا في حاجة إلى فول سوداني أو أشياء من هذا القبيل، نحن نحتاج إلى مؤن نطعم بها الناس الفقراء الذين يمتشقون السلاح، وينتظرون العون، متحفزين، ليلاً ونهاراً، ... والأيام تمر...».

وفي رسالة تحمل نفس التاريخ، يوضح الوضع لزعيم آخر:

«لا أرى أنه من العيب، بل أرى أنه من واجبي، أن أشرح بكل صدق، الوضع الذي نحن فيه الآن، وضع لم يسبق للبشرية أن شاهدته على مر القرون من تاريخها الطويل، ونحن نقاسي كل ذلك باسم الإسلام وحباً في رسوله (سيدنا محمد) عليه

[ح] حاولنا الحصول على صورة من هذه الرسالة الأصلية وغيرها مما تناوله المؤلف هنا، ولكن بدون نتيجة حتى الآن ومن هنا وجب التنبيه بالفرق بين هذه الترجمة والنص الأصلي

الصلاة والسلام ولكن مأساتنا وآلامنا قد بلغت ذروتها، ونحن أدينا واجبنا وزيادة وأصبح الآن من واجب الآخرين أن يؤدوا ولو قسطاً من ذلك، حتى لو كلفهم الأمر بيع أرزاقهم وأمتعتهم... وإذا غلب المرء على أمره، فلغلبته لا يبررها...».

وعندما كتب إلى اثنين من شيوخ عشائر الجبل، من أتباعه، ذكرهما بالأهجوزة البدوية التي تقول: «إن قدرهم القاسي يضعهم تحت رحمة خادمهم، ولكن ذلك لا يهم، فالأمل ما زال قوياً ولم نفقد الرجاء».

والمعلومات التي توفرها لنا الوثائق التي بأيدينا حول الصعوبات التي أصبحت تواجهها المقاومة في برقة ورجال عمر المختار، بالغة الأهمية، خاصة ما جاء في شهادة من صادف وقابل عمر المختار، غداة احتلال الكفرة، وهو محمد أسد، الذي يفيدنا، من خلال مذكراته، بوصف مهمة كان يقوم بها على الجبل الأخضر. بعد تذليل سلسلة لا تنتهي من الصعوبات، كانت تواجه تنقلاته من جراء ما كان يحيق به من خطر الوقوع في شراك التشكيلات العسكرية الإيطالية التي كانت تتعقبه، قبل أن يتمكن من مقابلته.

وأفضى عمر المختار ـ بأخبار حزينة، دون أن يبدي عليه أي تزحزح عن إصراره، على مواصلة الكفاح:

«كانت نبرات صوته تنم عن قوة الشكيمة ورباطة الجأش، وعند حديثه عن المصير المحتوم للكفاح الطويل الذي ظل يخوضه في سبيل حرية بلاده، لم تظهر عليه علامة لليأس. كان يدرك جيداً أن ليس هناك شيء آخر ينتظره سوى الموت، ولكن الموت لم يكن يرهبه كما أنه لم يكن يبحث عنه، ولا عن الإفلات منه. وأنا متأكد من أنه، حتى لو علم بنوع الموت الذي كان يتربص به، ما كان ليسعى لتحاشيه. كان يبدو وكأنه يدرك، بكل جوانحه ومن خلال كل عرق ينبض في جسمه ومن خلال عمله، واقع أن كل إنسان يحمل بداخله قدره ومصيره، حيثما حل وأي شيء فعل»[28].

---

[28] محمد أسد: الطريق إلى مكة ـ باريس ـ فيار ـ 1979 ـ ص 309.وهذا الكتاب، كما هو معروف، يضم مذكرات البحاثة النمساوي ليئوبولد فائس (Leopold Weiss) الذي كان قد اعتنق الاسلام، وكان له ضلع، في تلك الفقرة، في جميع الأحداث العربية، تقريباً.

ويتضح من ذلك كله أن الوضع، في أوائل شهر سبتمبر، كان ميؤوساً منه بالنسبة إلى الرجال الذين كانوا يقاتلون فوق الجبل، بسبب ما كانوا يقاسونه من المجاعة وتناقص الذخيرة وأنانية السنوسيين المقيمين في مصر وتواصل هجمات القوات الإيطالية، ومن جراء إقامة سد الأسلاك الشائكة على الحدود ومصيبة الطائرات التي تراقب كل شيء ولا يفلت منها شيء.. وفي ربكة مثل هذا الوضع بالذات حدث القبض على عمر المختار صبيحة يوم 11 سبتمبر، بمنطقة «سلنطة» فكان له وقع الصاعقة ومذاق مرارة آخر نبأ خطير بقرب نهاية المقاومة في برقة. أما ظروف وملابسات القبض على زعيم المقاومة فبسيطة من حيث مراحلها والوسائل التي استخدمت للقضاء على هذا الزعيم الأبي.

وفحص المحفوظات الإيطالية بهذا الصدد، لا يوفر عناصر وقرائن يعتد بها لتأكيد صحة الرواية التي راجت حولها الشائعات، وهي أن القبض على عمر المختار كان نتيجة خيانة أحد زعماء المقاومة (ويدعى «حمروش»).

ولأخذ فكرة كاملة عن القرائن والملابسات المتصلة بالأحداث التي أسفرت عن أسر عمر المختار ومحاكمته وإعدامه، يجدر بنا أن نعود إلى مراجعة نص التقرير الضافي الذي أعده الجنرال قراتزياني وضمه إلى ملف سري خاص، ضمنه أيضاً موجزاً للتقارير التي أعدتها قيادات مختلف الوحدات العسكرية التي كان لها ضلع في العملية[29]. ولا تختلف المعلومات الواردة في مثل هذه المجموعة الوثائقية كثيراً، على ما يبدو، عن العديد من الوثائق الأخرى المتعلقة بأحداث أقل إثارة وصخباً.

هذا ولا يؤيد قراتزياني، في مقدمة تقريره الشائعات حول الخيانة المزعومة، بل يستند إلى عامل «المفاجأة»، الذي يدخل في عداد عناصر العمليات العادية:

«في أوائل شهر سبتمبر، أصبح واضحاً لدى قيادة الجبل، من خلال المعلومات التي جمعتها من مصادر متنوعة، إن دور الدرسة، ومعه عمر المختار، كان محتشداً

(29) تقرير عن الأحداث التي أدت إلى القبض على عمر المختار ـ الرسالة رقم 16972، بتاريخ 18 ستمبر 1931 التي بعث بها قراتزياني الى دي بونو ـ محفوظات وزارة أفريقيا الإيطالية ـ ملف فولبي ـ ترتيب 2/5.

بالمنطقة الواقعة إلى الجنوب من البيضاء، تأهباً لشن غارة خاطفة على المواشي بمنطقة شحات... ».

والرسالة الصوتية التي كان قد بعث بها، في 9 سبتمبر، قائد حامية سلنطة، كانت تصف هذا الحدث كما لو كان مجرد صدفة:

«في الساعة 24 وصل ثلاثة «كشافة» من مجموعة «راقاتزي Ragazzi كانوا قد غادروا بلقيس مساء يوم 8 مع 5 كشافة آخرين. كان خط سيرهم قصور الصخر تلقزة ـ غوط ستلون ـ على مقربة من معطن العروس. في جيفاس شوهد حارسان للعصاة. مكثوا في جيفاس حتى الساعة 17 لمراقبة التحركات. اكتشفوا وجود الدور. بالنظر إلى طبيعة الأرض الغنية بالبساتين والكهوف، تعذر عليهم تقدير عدد أفراد الدور، ولكنهم يعتقدون أن عددهم كبير، من خلال ضجيج الأطفال وأصوات النساء وصهيل الخيل. بقي خمسة كشافة بالقرب من الدور لمراقبة تحركاته. الرجاء تزويدي بالتعليمات بخصوص الكشافة الذين عادوا إلى سلنطة».

وعندما تلقى معلومات كهذه، أمر العقيد «مالطا»، بالقيام بعملية التفاف حول المنطقة بواسطة أربع مجموعات من القوات المتحركة، تضم جماعة «راقاتزي» و«اسكوادروني» و«بياتي» و«ماروني» (Ragazzi, Squadroni, Piatti, Marone) واستنفر مركزي العمليات الجوية في كل من بنغازي وسوسة وكذلك الكتيبة الايريترية الخامسة عشرة والسرية السابعة «صواري» (برقة)، بدعم الآليات المدرعة المتواجدة بالمنطقة. وكانت الطائرات الإيطالية الثلاث هي التي حققت أول نجاح لحركة الاحتواء المقررة وساعدت على مداهمة جماعة المقاومة بفضل المعلومات التي وفرتها حول مواقعهم، وقطع خط الرجعة عليهم من ناحية الجنوب. وانتهت الملاحقة باشتباك وادي «بوطاقة» حيث تمكنت سرية الصواري السابعة، بقيادة النقيب ر. بيريه (R. Berre) من احراز أكبر انتصار، وهو القبض على عمر المختار. هذا، ويوضح التقرير آخر تطورات العملية:

«بعد دقائق من حلول الساعة الثامنة (وعلى بعد 6 ـ 7 كيلو مترات من جنوب غربي سلنطة)، اتضح لي أن الجماعة أصبحت متبعثرة، فأدركت أنهم كانوا يحاولون التفرق والانتشار داخل الغابة الكثيفة القريبة منهم. قتل أحد فرسان الصواري وهو على

صهوة فرسه، جواد أحد العصاة: فهوى راكبه إلى الأرض، ثم نهض بتثاقل على قدميه، محاولاً الفرار، بمشقة وبطء واضحين. انقض عليه فارسان آخران، أخذا بتلابيبه (لم يحاول الدفاع عن نفسه، لأنه لم يمتشق البندقية القصيرة الماسورة المتدلية من كتفه) وكان أحدهما يهم بقتله، إلا أن الفارس الثاني منعه من ذلك بعدما تعرف على ذلك «العاصي» وأنه كان عمر المختار. فأكد لي أربعة آخرون من فرسان الصواري تعرفهم عليه.

أمرت بحمل عمر المختار، الذي كان مصابا بجراح في ساعده الأيسر، على صهوة جواد أحد فرسان السرية، وأطلقت النفير للتجمع حولي، وأصدرت الأوامر بوقف الملاحقة وفك الاشتباك على الفور، وباصطفاف الصواري القليلين الموجودين حول الأسير، على هيئة نصف دائرة، أطلقت العنان لفرسي واتجهت بكل سرعة نحو سلنطة، التي وصلتها في الساعة التاسعة...».

ولدينا، حول هدا الحديث، أيضاً الرواية التي أعدها أفراد المقاومة الناجين بشأن وقوع قائدهم في الأسر فيما يشبه التقرير الذي يبتعد كثيراً عما ذكرته التقارير الإيطالية.

«... عندما كان عمر المختار يقوم، يوم الجمعة 12 سبتمبر 1931، بزيارة لضريح سيدي رافع، الأنصاري، بالقرب من الزاوية البيضاء، برفقة ستين من فرسانه، كحرس، بلغ نبأ وجوده بالموقع المسمى «الجبوبية» البعيد عن معاقل الأدوار، إلى علم الحكومة الإيطالية، فأرسلت على الفور قوة قوامها حوالي 5000 رجل، بين مشاة وفرسان لقطع الطريق عليه هو ورفاقه من جهة، والانقضاض عليهم وعلى رجال الدور من جهة ثانية. فحصل اشتباك عنيف بين الجنبين دام زهاء ثماني ساعات استخدمت فيه القيادة الإيطالية الطائرات والدبابات فاستشهد، من بين رجال الدور، خمسون فارساً... »[30].

---

[30] رسالة اثنين من «القائمقامين» إلى السنوسي بتاريخ 14 ستمر 1931 الوثيقة رقم 6 من بين الوثائق التي احتجزت من «الساعي» محمد مؤمن في 27 سبتمبر، بالقرب من وادي المعطن - محفوظات وزارة الخارجية - نفس المصدر - ليبيا - رقم الترتيب 1 - 3

ومن خلال الاطلاع على هذه الوثائق وغيرها من نفس المصدر، ومنها الوثيقة الخاصة التي تؤبن عمر المختار، بعد إعدامه، وسنتناولها فيما بعد، لا يبدو أن شيئاً منها يؤكد الإشاعات حول الخيانة التي أدت إلى موقعة بئر «بوطاقة».

وما أن تلقت السلطات الإيطالية نبأ القبض على الزعيم (عمر المختار) حتى ذهلت واحتاحتها موجة من ردود الفعل العنيفة الارتباك لوقع بأ مثل هدا الحدث الخطير، فكان هناك خوف، في بادئ الأمر، من عدم صحة النبأ، إلا أنه بعد تأكيد القائم بأعمال نائب الوالي موريتي (Moretti) على صحة النبأ لقراتزياني، ظهرت، أول ما ظهرت النية إلى الانتقام الرادع.

ولما زف الوالي العام على ليبيا، بادوليو، إلى وزير المستعمرات دي بونو البشرى بالقبض على عمر المختار، لم يصدقه الوزير، فأبرق إليه معرباً عن شكوكه: «لا أصدق أن يكون عمر المختار من البلاهة بحيث يمكن من القبض عليه (قف) لذلك لا بد من التحقق بكل الوسائل من هويته (قف) أما إذا صحت هذه البشرى، فلا بد من عدم مراعاة الثقة في شيء ومن مواصلة السير بعملن السياسي والعسكري حسب الخط المقرر (قف)[31]. أصدروا التعليمات التي ترونها أكثر ملائمة للظروف...».

وكادت هذه البرقية المؤرخة في 12 سبتمبر أن تضيع في دوامة البرقيات المتقاطعة في ذلك اليوم بالذات بين بنغازي وطرابلس وروما حيث علم رودولفو قراتزياني بالنبأ عندما كن يهم بالصعود إلى القطار المتجه إلى باريس، لزيارة المعرض الاستعماري، فيسرع بالعودة إلى بنغازي، حيث يؤكد له هوية الأسير الجليل نائب الوالي، «الكومنداتور» داودياتشي، الذي سبق له أن قابل عمر المختار في عدة مناسبات، آخرها مفاوضات عام 1929 التي انتهت باجتماع سيدي رحومة.

بعد نقل عمر المختار إلى مرسي سوسة، تحت الحراسة، صعد على متن الطراد «اورسيني» (Orsini) الذي أقله إلى بنغازي، حيث أودع السجن.

أصدرت السلطات الإيطالية بيانات وبلاغات لا تحصى، كانت تردد، ببهجة

---

(31) من دي بونو إلى بادوليو، 12 سبتمبر 1931 ـ محفوظات الدولة المركزية ـ ملف قراتزيني 2/3/2

المنتصر، ما جاء في البرقية «السرية جداً» التي بعث بها «المفوض» موريتي إلى دي بونو وبادوليو وقراتزياني وكانت توضح أن عمر المختار كان يبدو «محتفظا برباطة جأشه وهدوئه، فرد على الأسئلة بصراحة ودون تملص»[32].

لحق قراتزياني بعمر المختار في بنغازي وأجرى معه حواراً سوف يفرد له مكانا في مذكراته ويوضح فيه تفاصيل ما دار بينهما ويخرج منه عمر المختار بصورة مشرقة، أكثر وقاراً ومهابة لما أظهره من رباطة جأش وشمم وإباء أمام غالبه، خاصة عندما رفض كل تدخل شخصي لحمل المقاومة على الجبل على «الاستسلام».. أننا أقسمنا اليمين أن نموت جميعاً، فرداً فرداً، ولن نستسلم... وأنا لم أكن أبداً مستعداً لتقديم نفسي للاستسلام... هذا أمر مؤكد... »

أخذت محنة زعيم المقاومة تقترب من نهايتها، فيما كان وضعه يثير إجراء اتصالات محمومة بين مختلف السلطات الفاشية حول الطريقة التي سوف تتقرر بها نهايته. وكانت طريقة التصرف معه التي اقترحها بادوليو على الوزير دي بونو قاسية على بساطتها: «... إذا كان الشخص المقبوض عليه هو فعلاً عمر المختار، فإنني أرى من المناسب تقديمه إلى محاكمة نظامية، وسيكون الحكم الصادر عليه فيها بدون شك حكماً بالإعدام، يتم تنفيذه داخل أحد ميادين اعتقال الأهالي الكبيرة... »[33]

---

[32] سوف تصبح هذه البرقية رقم 2058 المؤرخة في 12 سبتمبر 1931، المصدر الذي سوف يصاغ على عراره بعد فترة وجيزة، البلاغ الرسمي الموجه إلى الصحافة. «لقد ألقي القبض على عمر المختار، على أثر عملية نفذتها قيادة الجبل بقصد تطويق «دور» أشير إلى وجوده بمنطقة وادي «بوطاقة»، إلى الجنوب من البيضاء، وكان يتأهب، على ما يبدو، لشن غارة على أراضي شحات وسوسة وتمكنت السرية السابعة «صواري» التي داهمت بعنف، مجموعة كانت تتألف من حوالي خمسين فارسا، من القبض على عمر المختار، بعد أن انفصل عن جماعته وحاول اللود بداخل الغابة ووصل مرسي سوسة مساء أمس وصرح داود ياتشي، الذي كان يعرفه، بأنه بدا محتفظا برباطة جأشه وهدوئه، كما كان يرد على الأسئلة بصراحة وبدون تملص.وكانت الخسائر الثابتة الأخرى التي مني بها العصاة في العملية أحد عشر قتيلاً، وفقد أربعة بنادق قصيرة السبطانة وقتل أربعة عشر من الخيل والاستيلاء على سبعة جياد أخرى بسروجها وكانت خسائرنا جريحا واحداً وإصابة فرس»...محفوظات وزارة الخارجية _ المصدر المذكور.

[33] بادوليو إلى دي بونو، 12 سبتمبر، المحفوظات المركزية للدولة المذكورة.

ولم يتردد بادوليو برهة في إشعار نائبه قراتزياني بمقترحاته التي بعث بها إلى دي بونو وأقرها، مقترنة بتعليمات محددة. «القيام فوراً بعقد محكمة جنائية نظامية لا يمكن أن تنتهي إلا بإصدار حكم بالإعدام، وفقا للتقاليد المحلية. العمل على تنفيذ الحكم داخل أحد ميادين اعتقال الأهالي المحليين الكبيرة...».

وفي ذات اليوم، أصدر مكتب الوالي، مر قبيل التأكيد، بلاغاً «سرياً للغاية» مذكرا بأن الوزارة قد قررت أنه: «ستجري محاكمة نظامية وسيتبعها حتماً تنفيذ حكم الإعدام بصورة علنية صاخبة...».

هذا وقد يطول الجدال لدحض هذا القرار بعقد محاكمة «نظامية» مع المطالبة بضرورة أن تنتهي بصدور حكم بالإعدام على عمر المختار، غير قابل للطعن، خاصة إذا أخذنا في اعتبارنا أن الأساس الذي بنيت عليه وقرار عقدها، في الأيام الأولى، كانت تهمة الخيانة، المترتبة على استمرار المقاومة. ومنشأ الخيانة، على حد حجج السلطات الفاشية، اتفاق سيدي رحومة والاستسلام بدون قيد أو شرط الذي تدعى بأن عمر المختار قد أقره ووقع عليه، وبالتالي فإن استئنافه للقتال في أوائل عام 1930 وإخلاله بالعهد الذي قطعه على نفسه بتوقيعه على الميثاق مع بادوليو، كلها أمور كانت تشكل دليلاً على فداحة الغدر والخيانة التي اقترفها عمر المختار إلا أننا أصبحنا اليوم على علم تام بأن سيدي رحومة وما جرى فيه مع كل الملابسات وحجة استسلام عمر المختار لاكتنفها الكثير من الشكوك، بحيث نستطيع أن نؤكد عدم صدق المحاولات التي ترمي إلى وصمه بالغدر والخيانة، ليس ذلك فحسب بل ظلت وسائل الإعلام والدعاية الفاشية وكتابها يتمسكون بحجج واهية لا تستند إلى أساس، لتعزيز افتراءاتهم. ومن خلال وضع كهذا يتبين تناقض الأساس الذي بنت عليه المحكمة جلساتها وأصدرت حكمها: كان الأحرى أن تجري المحاكمة على غرار ما تم بشأن زعماء المقاومة العديدين، الذين تزخر بهم «حوليات» شمال أفريقيا، إبتداء من عبد القادر فصاعداً. فكانت نتائج محاكماتهم وإجراءاتها تختلف تماما عما جرت عليه محاكمة عمر المختار ففي مثل ظروف المقاومة بالشمال الأفريقي، كان الجانب السياسي للوقائع المتصلة بها قد دفع السلطات الفرنسية إلى اختيار الحلول السياسية كالنفي والاعتقال وليس الحلول المبينة على قواعد قانونية مزعومة، حاولت السلطات

الاستعمارية إضفاءها على «قضية عمر المختار» ونستطيع أن نلاحظ، بهذا الصدد، إن هذا الحدث قد تعرض، في الأيام القليلة الفاصلة بين القبض على عمر المختار وإعدامه، لتطور خطير لا مندوحة من ذكره. فنقول إن الصحافة لم تنشر إلا الرواية المخلة بالشرف، ذاكرة «الغدر والازدواجية التي ظهرت بأشنع المظاهر من خلال الخيانة الفاضحة التي قابل بها الشهامة والأريحية التي راعتها حكومة المستعمرة بشأنه عندما تقدم هو وأنصاره بفروض الاستسلام...»[34].

فمن خلال وقائع المحاكمة، المتوفرة أمامنا اليوم، بعدما كانت سرية، نلاحظ أنه لم يرد في قائمة صحيفة الاتهام أي جرم يؤيد الخيانة. فصحيفة الاتهام، التي كانت تتضمن ستة وعشرين بنداً، كانت خالية من أية لمحة إلى مثل هذه الجريمة الخطيرة، إذ اقتصرت كل هذه التهم على ما ينال من شرف المتهم، وبذله بإسناد جرائم خبيثة مكرة إليه كسرقة المواشي والسلب والنهب واستعمال العنف ضد المدنيين والعسكريين ومداهمتهم غدراً، وما استتبع ذلك من جرائم القتل والشروع فيها: ولا ذكر لمواثيق الاستسلام، سواء فيما يتعلق بعقدها أم خرقها.

فكل تهمة من هذه التهم، في نظر السلطات الفاشية، تكمن أيضاً في مشكلة كيفية تسخيرها للإشادة بما اتخذته كل منها من إجراءات ولتنصب نفسها كالقاهرة الوحيدة لهذا الزعيم المتمرد. ومن ناحية أخرى، فإن نهاية عمر المختار كانت بعيدة كل البعد عن توطيد الوئام والوفاق في العلاقات بين هذه السلطات نفسها، وأدت إلى حصول خلافات عميقة، زادت من تعقد سياسة النظام الحاكم في المستعمرة، وليس فيها وحدها.

وحرصاً منا على سرد الأحداث حسب تسلسلها، نقول إنه، بعد أول استجواب أجراه على متن الطراد «أورسيني» «الكومنداتور» داود ياتشي، ولم يعثر حتى الآن على أي أثر له في الوثائق، قدم عمر المختار لاستجوابه رسمياً، للمرة الأولى، إلى مكتب

[34] كانت جميع الصحف الإيطالية تنشر أنباء وبيانات من هذا القبيل والفقرة المنقولة هنا، مستقاة من مقال «القبض على عمر المختار» الذي نشرته صحيفة «المساجيرو» في عددها الصادر في 16 سبتمبر 1931م.

التحقيق بسجون بنغازي، أمام القاضي جوسيبي فرانشيسكينو (G. Franceschino) ومساعده، المحامي العسكري، جوسيبي بيدنيدو (G. Bedendo). فلم يجد قاضيا التحقيق صعوبة في الحصول من السجين على اعترافه الكامل بالهجمات ونشاطه في خوص حرب العصابات التي كان يقودها، حقدا على الوجود الإيطالي.

والشيء الأكثر إثارة للدهشة في ردود عمر المختار عن الأسئلة الموجهة إليه بشأن استئنافه للقتال بعد «خرق ميثاق» الرحمة والنتائج التي أسفرت عنها محادثات عام 1929، ما أظهره من رباطة جأش وثبات. وفيما يتعلق باستئناف القتال، كان رده صارما: «لم أبادر أنا بإصدار الأمر باستئناف القتال... إنني أرى أن الإيطاليين هم الذين بادروا بالقتال، لأنهم أطلقوا النار على جماعتنا الذين كانوا قد ذهبوا لسحب المؤن...».

وفيما يتعلق بلقاءات عام 1929، فإن الرواية التي تمسك بها عمر المختار، تبدو اليوم أقرب للتصديق والقبول: «إن قطع المحادثات، في رأيي، كان خطأ من الحكومة الإيطالية.. كتبت إلى المشير بادوليو بهذا الخصوص، ولما لم أستلم منه رداً، انصرفت واستأنفت الكفاح... »[ط]، وإذا كانت هذه ردود عمر المختار على أسئلة محددة، فلا بأس من التوقف عندها لإبراز ما كان قد أفضى به بمناسبة التحقيق في سجن بنغازي، عندما أثيرت معه مسألة «خيانته»: «.. لم أستسلم قط للحكومة الإيطالية: لم يجر لي معها أكثر من مجرد محادثات».

وكون تصريح كهذا كان مبنيا على أساس لا يدع مجالا للشك واعترف به آنذاك، يمكن استنباطه من مرافعة رئيس الإدعاء، الذي لا ينكر هذه الحجج بل فقط يتخطاها ويتجنب الخوض فيها، حيث يؤكد على « .. إن عمر المختار إنما يتستر اليوم وراء قوله إنه كتب إلى صاحب السعادة بادوليو ولم يستلم منه ردا. إن الحكومة الإيطالية لا تقبل المساومة على سيادتها. أقصى ما يمكنها فعله هو إبداء تنازلات. وتبا

[ط] حرفيا: «استأنفت حرب العصابات، ولا أعتقد أنه استعمل هذه العبارة، التي لم يشع استعمالها إلا ابتداء من الحرب الأهلية الاسبانية سنة 1936، والعبارة نفسها (Guerilla) أسبانية أو على الأقل لا يمكن أن يسمي عمر المختار «جهاده» حرب عصابات».

للذين لا يقدرون لفتة كهذه «وحصل المحامي، الذي كانت قد عينته هيئة المحكمة للدفاع عن المتهم، النقيب روبيرتو لونتانو (Roberto Lontano) وتبنى القضية بذمة وحماس لم يكن يتوقعه رؤساؤه، على اعتراف رسمي من عمر المختار بأنه لم يتقاض قط مرتباً من الحكومة» دون أن يحظى بطائل.

وقد يكمن جوهر الاتهام «بالخيانة» في هذا التصريح الواضح، الذي لم يتعرض له الادعاء بالنفي أو التكذيب طوال سير المحاكمة، ذلك الاتهام الذي لا يستقيم، بعد كل هذه القرائن، إذا حللناه تحليلاً هادئاً، بعيداً عن الشطط إلا أن المحاكمة لم يمر بها، طوال انعقادها، شيء اسمه هدوء، منذ أن التأمت هيئة المحكمة عند الساعة 17 من ذات يوم 15 سبتمبر، بقصر «الليتوريو» بعدما أحيطت بكل مظاهر المهابة والرهبة: كانت المحاكمة، في الواقع، مهزلة، استهلت بتدخل وكيل النيابة جوسيبي بيديندو، لأمر لا شأن له بالموضوع وهو تصادف ذلك اليوم مع عيد ميلاد (ولي العهد) أمير البيمونتي، فكانت فرصته لينصب نفسه ناطقاً «بلسان الأهالي» وليعبر عن شعورهم بالهتاف، مهنئاً «سموه» بهذه المناسبة، بعبارة «آلا لا...»[*].

ولئن أردنا أن نطيل تفسير هذا «الفاصل» اللامعقول، والذي أدرج بانتظام في محاضر الجلسة، رسمياً، لدخلنا في متاهات لا نرى لها مقتضى. وكذلك الأمر بالنسبة إلى السبب الذي دعا رئيس المحكمة، المقدم اومبيرتو مارنيوني (Marinoni) على ترك مبادرة كهذه، على سخافتها، لبيديندو هذا، الذي سوف يظهر على أنه البطل الحقيقي في المحاكمة واليد الطولى لقراتزياني فيها، وهو الذي سوف ينظم كذلك أهزوجة بلهجة سكان روما يمجد فيها قراتزياني ومناقبه ويشيد فيها بالمحاكمة مهللاً لنهاية عمر المختار[35].

بعد استهلاك كهذا سرعان ما حمت الجلسة: فقاعة المحكمة، وهي مقر

---

[*] Eıa, Eıa, Alala كان الهتاف الفاشي الرسمي للتعبير عن مشاعر الإجلال والإكبار بالنسبة للدوتشي وحزبه.وهي تقابل «ليحيي الدوتشي» أو غيره، كما كان المقصود في هذه المناسبة

[35] إنه كتاب ر بيديندو الشهير «مناقب الجنرال قراتزياني وسياسته» روما تشيرا، 1936، والجدير بالملاحظة وفرة «الألقاب» المشينة التي نعت بها عمر المختار، (ص 202)

البرلمان القطري الذي نصت عليه دساتير 1914، كانت مغتصة بالعسكريين الإيطاليين و«المستسلمين» المحليين الذين تجمعوا بأمر السلطات الاستعمارية، لإفهامهم، على حد ما أوضحه «بيديندو» حال التئام هيئة المحكمة، «أن سياسة زمان قد ولت وأن مصير عمر المختار من المقرر أن يحدد معنى هذا التحول الإمبريالي الجديد»...

فسرعان ما انقلبت الإتهامات الموجهة رسمياً لعمر المختار إلى الذريعة التي استند عليها رئيس الإدعاء العسكري لكيل تهجماته التهكمية عليه، وهو الذي لا يترك فرصة إلا وسخرها للانقضاض على المتهم وصب غضبه عليه. فالجو سيهيأ، للسير بالمحاكمة حسب «الطقوس» النظامية المؤدية «نظاميا» كذلك إلى إصدار الحكم بالإعدام. إلا أن المحامي الذي عينته المحكمة، النقيب لونتانو، سوف يتمكن من إصابة صلب القضية وموضع النزاع في الصميم، ألا وهو شرح حقيقة اتفاق المتهم مع السلطات الإيطالية حول الاستسلام، وذلك عندما حصل على الرد الشافي الذي يهدم، بما لا يدع مجالا للشك، إدعاءات من ظلوا يتمسكون بحجة «الخيانة» من أساسها. فإذا لاحظنا أن الاستسلام كان مرتبطاً، عملياً، بتخصيص مرتب شهري للمستسلم يتناسب مع مكانته، فإن رد عمر المختار على السؤال: «هل تقاضيت من الحكومة الإيطالية مرتبا شهريا، في أي وقت من الأوقات؟» بقوله: «كلا، أبداً»، يبدو حاسماً حتى بالنسبة لأغراض القضية، التي بعد هذا الرد الحازم، عادت لتكون محاكمة «نصب» (Processo Truffa) أو محاكمة المهزلة، كما سيسجلها التاريخ

وفي مثل هذا الوضع، لا بد من قراءة مرافعة وكيل النيابة المثبتة في وثيقة تكشف النقاب عن «تلك الروح الاستعمارية» الفاشية التي أخذت تكتسي، في تلك الفترة بالذات، أي بعد مرور ما يقرب من عشر سنوات على زحف الفاشيست على روما، طابع «الإنجيل» الذي لا يناقش، في الراضي الإيطالية وراء البحار.

فهناك، بادئ ذي بدء، التشنيع المنتظم بعدو غلب على أمره خلال محاكمة اعترت نهاية: «الشهرة بطل أسطوري كهذا، دأبه الفرار في لحظات الخطر»، ثم تأتي الشتيمة: «أنت لست مقاتلا، ولكنك قاطع طريق، عشت دائماً هاربا من العدالة»، وأخيرا، الاحتقار والاستهزاء: «قلت أنه قبض عليه، لأن الله تركك، إذا كان قد تركك، فإن عدالة الإنسان قد أدركتك » فمجمل ما دار في المحاكمة محصور كله

هنا، في هذه المرافعة التي لم تكن سوى مجادلة «من طرف» واحد، كانت تستحملها المحكمة في سبيله، إذا استثنينا طلب المحامي المألوف بمراعاة ظروف التخفيف: «تقدم المتهم في السن وتمسكه بدينه حتى التعصب». وسوف تكلفه المهمة المعهود بها إليه، ليس فقط الحكم على موكله بالإعدام، بل تعرضه هو نفسه للمؤاخذة والعقاب، بسبب «ردود الفعل الفاشية» على ما أظهره من ذمة وإخلاص في «دفاعه عن المتهم بلهجة حماس والتماس الأعذار له وتبريره، دون التفات على كونه جانياً عاتياً، ولا على البيئة التي يدور فيها النقاش ولا إلى الظروف المحلية...»[36].

وفي جو كهذا، ليس الحكم بالإعدام، الذي توصلت إليه المحكمة بعد مداولة لم تدم أكثر من نصف ساعة، سوى النتيجة المنطقية لإجراء قضائي لم يتسم، إطلاقاً، لا بالإنصاف ولا ببعد النظر.

ورباطة الجأش وعدم الاكتراث الذي أظهره المحكوم عليه واكتفاؤه بترديد الآية: (إنا لله وإنا إليه راجعون). عندما ترجم له منطوق الحكم، لم يكن قطعاً في الاتجاه الذي كانت ترجوه السلطات الاستعمارية، والسرعة التي نفد بها حكم الإعدام ذاتها، لها مغزاها: فعندما أخفقت هذه السلطات في إثارة مشهد المحكوم عليه وهو يبدي يأسه أو «ندمه» علانية، أحاطت عملية الإعدام بالبهرجة والصخب، وهو الطابع المميز للنظام الفاشي. اقتيد عمر المختار إلى المشنقة على مشهد من العشرين ألف من معتقلي الجبل الذين جيء بهم إلى معتقل سلوق، ونفذ الحكم في تمام الساعة التاسعة من يوم 16 سبتمبر. والمحنة التي عاشها في تلك اللحظات الرهيبة استناداً على ما صرح به قراتزياني نفسه «بسلوك ثابت وأبي وعزة نفس واضحة» كانت خاتمة لحدث أبت إيطاليا الفاشية إلا أن تتحرش فيه بخصمها

وفي هذه المناسبة لم تشأ السلطات الفاشية أن تستجيب إلى التوسلات للاقتداء بمعاملة الفرنسيين عندما عفوا عن زعماء آخرين غلبوا على أمرهم (من أمثال عبد

---

(36) كان عقاب النقيب «لونتنو» 10 أيام سجن مشدد، كما يتضح من مشور لقراتزياني، لا يحمل اسمه، إلا أن فيه من القرائن المتنوعة، ما يحمل على الاقتناع بأنه صادر عنه ـ في المحفوظات المركزية للدولة، ملف قراتزياني ـ 1/11/6.

القادر وعبد الكريم)، كما أنها لم تقتنع بالفائدة السياسية المتأتية من عدم قلب زعيم المقاومة إلى «شهيد» بالنظر أيضاً على تلك السياسة «العربية» التي ظل موسوليني يصرح مرارا وتكرارا باعتزامه انتهاجها، تلك السياسة التي وقفت أبداً في طريقها العقبة الكأداء المتمثلة في عملية الإعدام التي نفذت في سلوق.

وإذا كانت النهاية التي آلت إليها محنة عمر المختار قد أفقدت المقاومة زعيماً لا شك في علو شأنه وثقله المعنوي لحركة المقاومة ككل، وأصبح من الصعب عليها استرجاع كيانها، إلا أنها سوف لن ينتهي بها المطاف إلى الزوال أو الاندثار، أبداً فضلاً عن أنها لم تساعد على استقرار الوفاق والوئام بين السلطات الفاشية العليا، خاصة بين بادوليو ونائبه المعوق «قراتزياني». فعدم الثقة المتبادل بينهما، وإصرار كل منهما على إسناد الفضل في تصفية عمر المختار وحل مشكلته إلى نفسه، سوف يسمم العلاقات بين هذه الأوساط العليا ويحملها على الشك والارتياب فيما بين بعضها البعض. فتمادى مسؤول كقراتزياني في الجحود إزاء رئيسه وإصراره على عدم الإفصاح بنواياه أو السماح بمراقبة تصرفاته، ظهر بجلاء كامل أيضا بمناسبة تنفيذ حكم الإعدام في سلوق، حيث أن قراتزياني بادر بإرسال تقريره الخاص به إلى وزير المستعمرات دي بونو، رأسا كما لو أنه أراد بذلك إثبات استقلال تنازعه عليه سلطات طرابلس. ولهجة البرقية ذاتها التي بعث بها نائب الوالي[ي] والمؤكدة على «. أنه باختفاء عمر المختار عن المسرح، تبدأ حياة جديدة في برقة التي تتطلع بتحرق إلى العمل في سلام وسكينة»، لم يكن يتوقع منها، قطعاً، تصفية الضغائن القديمة التي ازدادت حدة وتفاقماً وتشعبت إلى مجادلات وحزازات لا تحصى، ظاهرة أو دفينة، تشهد عليها المحفوظات التي تسجل جوانبها وأطوارها[37]. ومن خلال الاطلاع بإمعان على مراسلات السفير الإيطالي في مصر، روبيرتو كانتالوبو، يتضح أن قراتزياني يعزو

[ي] عبارة «بروكونسولي» الواردة في الأصل، تعني، تهكماً، «نائب القنصل» في عهد الإمبراطورية الرومانية حيث كان «القنصل» بمرتبة الوالي.

[37] البرقية رقم 2098 من قراتزياني إلى دي بونو ـ محفوظات وزارة الخارجية ـ المصدر المذكور ـ 1931/9/16.

إلى نفسه أيضاً الفضل الكامل في المجال العسكري دون سواه، مع نعيه على فشل الدبلوماسية، بعد حادثة سلوق، في مراقبة التهريب والحد منه، لصالح حركة المقاومة انطلاقاً من مصر، وبالتالي في الجهود التي ظلت تبذلها، عبثاً، في سبيل تحقيق السلام عن طريق التفاوض والتصالح، وإن عمل السفارة، في هذا المجال، متناقض وقابل للجدل. ويندرج تحت هذا الإطار، التقرير البرقي الذي أعده العقيد «مالطا» Malta حول موقعة وادي بو طاقة وأعزى فيه إلى التخطيط العسكري و«لباقة» المرشد طريقة تنفيذه (يعني التعليمات التي أصدرها قراتزياني) لإنجاح هذه العملية.

«تتفق عملية وادي بو طاقة مع تعليمات هذه القيادة بشأن تنفيذها، أي دحر جماعات فرسان العصاة بواسطة مجموعة السرايا حيثما أمكنها التحرك لهذا الغرض (قف) ولئن كانت السرية الأقرب إلى العدو هي التي حققت هذه النتائج بفضل اندفاعها الساحق، إلا أن جميع الوحدات، مع الطائرات، التي ساهمت بقسط وافر في دقة وفعالية هذه العملية، يرجع إليها الفضل في هذا النصر (قف) أوجه كلمة ثناء وإكبار إلى الـ 22 ايريتري الذين تمكنوا، من خلال مسيرة باهرة، من الدخول في المعمعة بمنطقة «العبيد» وإلى مجموعات «بياتي» و «راقانزي» التي كانت قد ساهمت بصورة فعالة في توفير معلومات مفيدة من خلال عملياتها السابقة لتحديد موقع الدور، وإلى جميع التشكيلات، مشاة وفرساناً، وقادتها اللامعين، الذين مهدوا الطريق، بحركة التفاف محكمة، للقبض على زعيم العصاة (قف) أرجو إبلاغ الجميع بمشاعر إعجابي وامتناني وكذلك إعجاب وامتنان قيادة القوات المسلحة والحكومة»[38].

والاهتمام بوضع كهذا نجده أيضاً في مذكرات قراتزياني، التي شحن بها مكاتيبه وتعليماته، دون التفات أو ذكر ما بذله بادوليو، أو سلطات طرابلس، بصورة عامة، من جهود في سبيل إنهاء المقاومة.

وسوف يحاول بادوليو، عبثاً، التشديد على تحديد المسؤوليات، بواسطة

---

(38) برقية لاسلكية رقم 14322 بتاريخ 14 سبتمبر 1931 بعث بها قائد قوات الجبل العقيد «مالطا» ـ محفوظات وزارة الخارجية ـ نفس المرجع.

منشوره الشهير الذي أصدره في 24 يناير 1932 («أعلن أن العصيان في برقة قد قطع دابره بصورة شاملة ونهائية... »)، وعلى تحديد من يرجع إليه الفضل في ذلك، موضحاً أن الجنرال قراتزياني يجب أن يحظى بتقدير الجميع، حيث إنه «باتباعه»، بذكاء وصرامة ومثابرة، التعليمات التي أصدرتها إليه» تمكن، أخيراً، من إنجاز المهمة الموكولة إليه. ولم يكن الدور الذي اعترف لقراتزياني باضطلاعه به، هو الدور الذي كان يطمح إلى إسناده لنفسه. ونفس القول ينطبق على ما أبداه السفير كانتالوبو من نقد وجدال بشأن النشرة التي أصدرتها قيادة قوات الأركان العامة (اقرأ. قراتزياني) ووزعتها في الأشهر الأولى من عام 1932، بعنوان «حاجز الأسلاك الشائكة على الحدود». وعند إعادة سرد تعاقب الأحداث التي أدت إلى هزيمة حركة المقاومة واستتباب «السلام الفاشي» في ربوع برقة، تورد القيادة في هذه النشرة، قائمة الإجراءات والتدابير التي نفذت «لامتصاص» اندفاع حركة المقاومة واستنزاف قواها، وفقاً، «لتسلسل منطقي» كالآتي:

- عمليات ترحيل الأهالي: من مواطنهم الأصلية وحشرهم في مناطق على الساحل، وفرض مراقبة شديدة، ومجدية عليهم.
- تجريد الأهالي من السلاح: بصورة شاملة، وأخيراً.
- إغلاق الحدود مع مصر.

فاستند كانتالوبو على الاعتبار الأخير _ إغلاق الحدود _ للتهجم على النشرة وانتقادها خاصة الإدعاء بأن إغلاق الحدود مع مصر، وهو «ما كانت السلطات العسكرية في بنغازي (أي قراتزياني) تصفه بأنه كان آخر التدابير التي اتخذت في حينه لحرمان المقاومة من التزود بالمؤن والأسلحة التي كانوا يحصلون عليها من مصر، كان عاملاً حاسماً في الموضوع. «الحقيقة هي أن من سبقوني وسبقوا قراتزياني في المنصب، في كل من القاهرة وبرقة، كان عليهم أن يستحملوا، على مضض، حركة تهريب نشطة من مصر وإليها، دون تعرض أو ملاحقة تقريباً، إلى سنتي 1928 و1929، ونتيجة للتدابير التي اتخذت بعدها بفرض مراقبة مضطردة على منطقة الحدود وما واكبها من إجراءات عسكرية أخرى نفذها قراتزياني، حتى قبل إقامة حاجز الأسلاك الشائكة على الحدود (ومن هذه التدابير إرسال كتائب ايريترية محملة

على الشاحنات، وطائرات لتعزيز الحراسة والمراقبة، وكذلك إقامة حامية وادي «مري» على الحدود، أيضاً) تقلص نشاط حركة التهريب المنتظم حتى اندثر، في الكامل، تقريباً. أضف إلى ذلك ما بذلته أنا، منذ اللحظات الأولى لتقلدي مهام منصبي، من سعي حثيث لدى السلطات الإنجليزية والمصرية للتعاون على مكافحة التهريب. وفعلاً شاهدت برقة، في هده الفترة، تقلص حجم التهريب عن طريق مصر حتى كاد يتلاشى في الكامل. وكل إدعاء بخلاف ذلك يصطدم بالواقع ويتناقض معه. ليس ذلك فحسب، بل إن إدعاء كهذا ينال من عمل الدبلوماسية الإيطالية ومن عمل قراتزياني نفسه، الذي حقق النصر، بفضل مجهوده السياسي المشكور والمقرون بعمل عسكري معقد، بدون شك، وليس بإقامة .. حاجر من الأسلاك الشائكة».

والمسألة، في رأي كانتالوبو، كانت تستوجب الإشادة بالعمل الدبلوماسي الإيطالي في مصر، الذي ساهم بطريقة مباشرة في تحقيق هذا النصر. ويوضح كانتالوبو: «إن تأكيد الجنرال قراتزياني على أن سلاح المقاومة كان يتألف في معظمه، من نوعي البنادق (الإيطالية) ـ الطويلة والقصيرة الماسورة ـ نموذج 91، ـ وأن المستسلمين أنفسهم كانوا يزودونهم بالذخيرة التي كانوا يشترونها من التشكيلات الليبية وعصابات المجندين غير النظاميين، يتفق في الكامل مع الحقيقة والواقع. ويأتي إدعاء كهذا ليؤكد فقط فعالية التدابير الحاسمة بشأن تجريد الأهالي من السلاح بصورة شاملة وترحيل جميع القبائل وحشدها في معتقلات على الساحل، تلك التدابير التي تنسب لنفسك مسؤوليتها ـ لأسباب وجيهة ـ هذا، وأفراد المقاومة، أنفسهم الذين لجأوا إلى مصر، هم أفضل من يحكم على الأسباب الحقيقية التي أدت إلى تشتيت «الأدوار» وهم مجمعون على التأكيد على أن عمر المختار ورجاله المسلحين اقتنعوا بقرب نهاية وجودهم كمقاتلين من واقع إدراكهم لما آل إليه من دقة في وضعهم، بعدما أصبحوا معزولين عزلة كاملة، فوق الجبل فامتنعت عنهم حرية التحرك والمناورة والاعتماد على قبائل المستسلمين «المزعومين» بعدما كانوا يجدون لديهم طعاماً وملاذاً. فسقط عمر المختار في الكمين لهذا السبب بالذات ودخلت بعد الثورة مرحلة الاحتضار لتلفظ أنفاسها الأخيرة في الأشهر القليلة التالية، وليس بسبب زوال القاعدة الأجنبية، بل بسبب زوال القاعدة الداخلية.

وأنا لا أستطيع أن أمر مر الكرام بتأكيدات لا تمت للحقيقة والواقع بصلة، كما يتضح من خلال إجراء تحليل هادئ ونشر تأكيدات كهذه كتابياً، لا يمكن عدم تسربها إلى الخارج، فضلاً عن أنها تثير انعكاسات غير مناسبة على العلاقات ببلاد أصبحت تميل أكثر فأكثر إلى الدخول في فلك صداقاتنا، رغم أنها كانت في الماضي تبدي تعاطفاً كبيراً مع المسلمين، كما أنها تؤثر تأثيراً سلبياً على عملنا الدبلوماسي وتنال منه. فالجهود الحثيثة التي بذلتها الحكومة الفاشية في العامين الماضيين للقضاء على آخر معاقل المقاومة في برقة، كانت متزامنة مع بعضها البعض، ولأن اختلفت في نتائجها الحاسمة بمقاييس متفاوتة، إلا أنها كانت على نفس الدرجة من النجاعة والفعالية: حملة عسكرية شاملة وتدابير جذرية في المستعمرة، وعمل دبلوماسي دؤوب ونشط، هنا.

وبصفتي ممثلاً لبلادي في مصر ومنفذاً لتعليمات وزير الخارجية للقيام بهذا العمل، الذي دعم منذ اللحظات الأولى حملة قراتزياني الحاسمة، من واجبي، بل ومن حقي أن أطلب إلى وزير المستعمرات العمل على تلافي عدم الاعتراف بالمجهود الذي بذل، والامتناع عن إبداء تقديرات غير سليمة، من شأنها أن تنال من هيبة دبلوماسيتنا...».

إن هذه المجادلة ليست خالية من المغزى: فكما أنها تبرهن على أن اختفاء عمر المختار لم يحل مشاكل سياسة الحكومة الاستعمارية، فهي تدل كذلك على إخفاق ميادين الاعتقال في حل مشكلة إقناع الأهالي المحليين بتقبل الوجود الإيطالي.

هذا وكانت هناك أصداء واسعة، على الصعيد الدولي، لتنفيذ الإعدام في سلوق، ولكنها لم تصل على درجة ترهب النظام الفاشي الاستعماري أو تحمله على العدول عن سياسته المتشبثة بعنت بتبرير ساحة القضاء لحكمه على «عمر المختار». ولم ينشر النبأ في الصحف الإيطالية إلا حسب رواية الحكومة المزرية، أما الصحافة الأجنبية، باستثناء الصحافة العربية، فلم تفرد له إلا حيزاً ضيقاً. إد أن الوضع العام المتأزم في العلاقات الدولية، في تلك الأشهر، كان يجلب اهتمام المراقبين السياسيين إلى بقاع أخرى من العالم. ومن جهة أخرى، فإن رغبة الدولتين الاستعماريتين العظيمتين في أفريقيا وهما فرنسا وبريطانيا، في عدم ريادة حدة أزمة كان من شأنها أن

تظهر، في النهاية، خطرها على ممتلكاتها، اضطرتهما إلى التقليل من الحديث عن برقة في تعليقات مقتضبة، ثم إلى تناول الحديث عن عمر المختار بصورة أكثر إيجازاً. وهذه المواقف ومظاهر الصمت، في جملتها، دفعت السلطات الفاشية إلى التمادي في غطرستها والعبث بهذه القضية، ووفرت لوزير المستعمرات دي بونو الفرصة للرد على الحملة الصحافية التي شنتها بعض البلاد العربية، ليؤكد، من جملة تأكيداته: «إنه آن الأوان لإسكات هذه الأبواق: فلم يعد هناك مكان لحفنة من المشاغبين لخداع العالم الإسلامي، فاسم إيطاليا، الذي يحمل في طياته حضارة آلاف السنين، التي تعترف بها كافة الشعوب، يباركه في الجوامع والمدارس والمحاكم الشرعية، وفي المستشفيات، أكثر من مليون مسلم، تتولى إدارة شؤونهم حكومة كريمة، ديدنها الحكمة والعدالة المقررة في القوانين واللوائح، المفتوحة لإطلاع الكافة. فلا يمكن أن يشهر باسم إيطاليا، جماعة تتألف من بضع مئات من اللصوص والمتمردين على كل نظام وقانون، وضعياً كان أم سماوياً، والذين يحاولون تمديد موعد حسم وضع مبني على المغالطة إلى ما لا نهاية، في سبيل تحقيق مصلحة شخصية، ولا يتورعون عن ارتكاب فظائع السلب والنهب والاستغلال وجميع الموبقات، بغطرسة وعنجهية...».

أما بخصوص حادثة القبض على عمر المختار وإعدامه، بالذات، فإن دي بونو يتمسك بعناد بحجة ضرورة المحافظة على النظام العام، وهي حجة كثيراً ما أثيرت في أماكن ومناسبات أخرى:

«لقد قبض على عمر المختار، شاهراً سلاحه، في 11 سبتمبر المنصرم، بالقرب من شحات. قبضت عليه قوات الحكومة الإيطالية، عندما كان يتأهب على رأس جماعة من أنصاره، لنصب كمين لقافلة تموين، قرر الإغارة عليها وسلبها.

قدم عمر المختار نظامياً أمام محكمة بنغازي الخاصة، وهي المحكمة المختصة بالنظر في التهم المنسوبة إليه.

ومن أخطر هذه التهم: الخيانة العظمى والتمرد المسلح ضد سلطات الدولة وقتل الضابطين الإيطاليين «بئاتي» و «هبنر Beati, Hubner» بعدما قبض عليهما، القتل جزافاً، عند الهجوم على نقطة شرطة «الكارابنيير» في «قصر بني قديم» في نوفمبر 1929، عندما كانوا يعملون في تصليح خط الهاتف، ومعتمدين على استسلام عمر

المختار، بصورة رسمية، للحكومة الإيطالية قبل ذلك بوقت قصير. عمليات إعدام نفذت، بأمره، في أشخاص محليين، أدانهم بعدم امتثال تعليماته، علاوة على عمليات سلب ونهب لا تحصى، إضراراً بالقبائل المستسلمة.

«واعترف عمر المختار بجميع التهم الموجهة إليه. وما الحكم بالإعدام إلا النتيجة الحتمية لسلسة من الجرائم على مثل هذه الدرجة من الخطورة.

ولا أحد يستطيع أن يدعي، ما لم يكن سيء النية، بأن هناك بلداً واحداً في العالم، مسيحياً أم مسلماً، بإمكان حكومته أن تتصرف بخلاف ما تصرفت به الحكومة الإيطالية أو تتخذ موقفاً غير الموقف الذي اتخذته، أمام اضطراب الوضع الاجتماعي والتمرد المضطرد على القوانين، على مثل تلك الدرجة من الفداحة، كما حدث في برقة بفعل عمر المختار. فالقانون هو القانون، يتساوى فيه الجميع، و عمر المختار واجه قدره، كما أراده الله له...»[39].

وبنفس الطريقة استفزت الأوساط الدينية الإسلامية بطرابلس، لإقرار السياسة الفاشية وإبراز إن كافة التهم الموجهة ضد النظام الفاشي لا تقوم على أساس وأن الحكم الذي أقامته السلطات الإيطالية في ليبيا مبني على الاحترام الكامل للدين الإسلامي ومعتنقيه[40]

وعلى الصعيد المحلي، لقد أدى اختفاء أعظم أبطال المقاومة شأناً ومقاماً، الذي لم يستطع أحد ممن خلفوه في الزعامة مضاهاته، إلى إفراغ حرب العصابات من محتواها. فانفتح باب الهجرة أمام جميع أولئك الذين لم يرضخوا لتقبل الوجود الإيطالي، توقعاً لحلول أفواج المهاجرين الطليان بالجبل، ضمن خطة التعمير الاستيطاني الضخمة التي بلغت أقصى مظاهرها بوصول «العشرين ألفاً دفعة واحدة».

ولم تكن مصر وحدها هي الجهة التي تركزت عليها جمهرة المهاجرين الليبيين، بل كانت مجموعات ضخمة قد اتجهت إلى تونس وسوريا ولبنان وتركيا والعراق

(39) بلاغ وزير المستعمرات دي بونو 20 أكتوبر 1931، ص 1 و3و4.

(40) لقي بيان زعماء ليبيا من المسلمين، بتوقيع قاضي المحكمة الشرعية في طرابلس، محمود بورخيص، مكاناً بارزاً في الصحف الإيطالية الصادرة في يومي 29 و 30 أكتوبر 1931

وشرقي الأردن (آنذاك). وما زال تاريخ هؤلاء المهاجرين ينتظر من يعنى بكتابته، غير أنه من الأهمية بمكان السعي لإبراز الوطنية المتقدة لتلك الشعلة من الروح الوطنية التي سوف تلهب المشاعر وتتأجج بعد 10 يونية 1940 (إعلان إيطاليا الحرب).

وأول إشعار صاخب وخطير بوجودهم، قبل أن يخيم عليهم الصمت نسبياً، كان بدون شك، المنشور الذي أصدروه، في غمرة إحيائهم للذكرى الأولى لاستشهاد عمر المختار «شهيد الأمة العربية» ووزع في 16 سبتمبر 1932، وتضمن شرح أخطر مسببات المقاومة ودوافعها، بصياغة هي بمثابة وصية للزعيم الشهيد وحركته.

ذكرى عمر المختار شهيد الأمة العربية

«في مثل هذا اليوم الموافق 16 أيلول سنة 1931 أعدم البطل المغوار السيد عمر المختار صلباً على أعمدة المشنقة. وفي مثل هذا اليوم سطت القوة الغاشمة الفاشيستية على ذلك الشيخ الجليل والمجاهد الكبير ونفذت فيه حكم الإعدام، ولم تراع شيخوخته ولا مكانته في قلوب المسلمين.

في مثل هذا اليوم أضاف الفاشيست إلى تاريخهم المملوء بضروب العسف والجور صحيفة سوداء تعرب عن منتهى العار وأعظم الشنار.

لم يحدثنا التاريخ ولا أساطير الأولين أن أسيراً يقع في ميدان الحرب وهو شيخ في العقد التاسع من عمره يعدم إلا في عهد الفاشيست الذي أنسى العالم مظالم القرون المظلمة.

نردد هذه الذكرى في هذا اليوم ونفوسنا تفيض بالحزن والألم الشديد على ذلك البطل الشهيد الذي سطر بسيفه آيات من الشجاعة والبسالة في تاريخ الأمة العربية وجاهد في سبيل الدفاع عن وطنه جهاداً يورث المجد والفخر الأثيل.

إن عمر المختار قد كافح جيوش الاستعمار عشرين سنة وكان لا يخشى الموت ولا صلصلة الحديد إلى أن كبا به جواده في معمعة القتال فامتدت إليه أيدي الظالمين.

فيا للشناعة ويا للعار من تلك الجريمة التي تحمر لها الوجوه وتتجافاها الوحوش.

برئت ذمة التاريخ وبرئت ذمة الإنسانية من تلك الفعلة البربرية التي أقدم عليها الفاشيست وهم يعدون أنفسهم في مصاف الأمم الراقية والأقوام المتمدنة.

إننا لن ننسى ما حيينا تلك الفعلة الفظيعة التي أدمت منا القلوب وفتتت منا الأكباد. ظن الفاشيست أن إعدامهم عمر المختار يمكنهم من اغتصاب تلك الديار ولكن خاب ظنهم وطاش سهمهم. فإن أرواح الشهداء هي الشعلة الأزلية لإذكاء روح الوطنية في قلوب الشعوب الحية.

إن شهيد الأمة... (العربية) لن يموت لأنه ترك لقومه أثرا خالدا في البطولة والإقدام يتاورثها الأحفاد جيلاً بعد جيل إلى يوم التناد.

إن هذه الذكرى الأليمة التي ولدتها أيدي الفاشيست ستبقى ما تعاقبت السنون والأعوام يتجدد هولها ويزداد خطبها لما لها في القلوب من جروح بليغة وآثار دامية.

تبت أيدي الظالمين الذين لم يرقبوا شيبة ذلك الشيخ الجليل ولم يحترموا بطولته ولا شجاعته التي أراهم من آياتها العجب العجاب ولكن أبى لهم أن يعرفوا لتلك المزايا معنى أو يقدروا لها قدراً.

إن توالي الأيام وتعاقب الأعوام لن يخفف من هول تلك الجريمة التي جرحوا بها قلوب العرب جمعاء والتي ستبقى أبد الدهر وصمة في تاريخهم الملطخ بدماء الأبرياء من نساء ورجال وشيوخ وأطفال.

فيا أيها الشعب... (العربي)... ردد ذكر هذا اليوم الذي أصبت فيه بأكبر فاجعة وأعظم مصاب احفظ هذه الذكرى واستعرض روعتها مخيلتك في كل لمحة وحين وخذ منها عدة لمستقبلك لتعرف كيف تثأر لشهدائك الأبرار.

إن في هذه الذكرى لعبرة تثير في النفوس روح الإقدام وتحرك ما كمن في الصدور من حس الانتقام ممن اغتصب بلادك وسلبك كل حق من حقوقك وقضى على نخبة من رجالك بالقتل والتشريد والظلم الذي ما عليه من مزيد.

إننا في هذا اليوم ندعو الأمة العربية ورجالها الأحرار أن يشاطرونا الأسى في ذلك المصاب الذي نردد ذكراه اليوم فعمر المختار لم يكن شهيد الشعب... (في ليبيا) وحده بل هو شهيد الأمة العربية بأسرها، إن آيات البطولة والشجاعة التي كان يتلوها على جيوش الفاشيست هي مفخرة للعرب على اختلاف أقطارهم، وما الشعوب العربية إلا كالجسد الواحد تشاطر بعضها البعض الأسى والحسرة في كل حال فهذه الحقيقة يجب أن نفهمها للغربيين بتضامننا وتكافتنا. إن هذه الذكرى يجب أن لا تنسى بل تحفظ في طيات القلوب إلى أن يأتي يوم تحاسب فيه الأمة العربية أرباب القمصان السود الحساب الشديد على تلك الفعلة الفظيعة التي لم يسبق لها مثيل في تاريخ الأمم.

اذكروا يا رجال العرب، يا أباة الضيم والحيف شهيدكم الذي اعدم بعد الأسر،

أذكروا ذلك البطل الذي رفع راية العروبة وجدد مجد أسلافكم الكرام.

أحيوا ذكرى هذا اليوم لكي يعلم الفاشيست أنكم لن تصبروا على الأذى ولن تناموا على القذى وأنكم أمة متضامنة لا تتحمل الاستهتار الذي يوجهه إليكم غواة الاستعمار.

وأنتم، أيها الفاشيست يا أرباب القمصان السود بيننا وبينكم يوم نحاسبكم فيه الحساب الشديد ذلك اليوم الذي ترونه بعيداً ونراه قريباً، يوم نسألكم عن دم عمر المختار وشهدائنا الأبرار بأن للباطن جولة وللحق صولة وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون

جمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوي[41]

ومن جهة أخرى، ظلت الشدة والمكابرة هي القاعدة المتبعة لدى الحكومة الفاشية حيال هؤلاء المهاجرين، الذين لم يفتح أمامهم باب العودة إلى أوطانهم، إذ كانت السلطات الفاشية تتوخى تحقيق أملها في عدم إثارة قضية «العودة» إلا في أدنى حدّ.

ففي شهر ديسمبر 1932، أي قبيل موعد الشروع في تقسيم الجبل لأعداد مزارع تخصص للتعمير الإستيطاني الأوروبي بواسطة « مؤسسة التعمير الإستيطاني الفاشية»، Ente Fascista di colonizzazione، ضيّق وزير المستعمرات مجال العودة إلى أدنى حد:

"إن الأساس والدعامة لأية عملية استسلام بالنسبة للنازحين من الأهالي - Fuorusciti ـ لا يمكن أن يقوم إلا:

أ ـ باستسلام مباشر وفردي وغير مشروط.

ب ـ بعدم جواز مجرد التفكير في أن يمثل أحد منهم غيره، ومن أولى، قبول طلب «إجراء محادثات». فأدنى مظهر يوهم العرب بأن هناك سلطة غير سلطة الحكومة الإيطالية لا يتأتى منه إلا الضرر، القاتل.

(41) هذا نص المنشور الأصلي الذي يحمل تاريخ 11 سبتمبر 1932، دون ذكر المكان الصادر فيه.

«فمن المستحسن، إذاً، أن يزود رجال قصلياتنا ودبلوماسيينا بتعليمات رسمية صارمة حول هذه النقطة.

«إن عودة رعايانا إلى ليبيا أمر جوهري، إلا أن هذه الوزارة شأنها شأن حكومة طرابلس، وأكثر منها حكومة برقة، عليها أن تفكر في الطريقة التي سيعيش بها هؤلاء الناس، ذلك أنه لا يمكن إثارة موضوع أمكانية مجرد الحديث عن ترجيع الأرزاق المصادرة»[42].

إن صمت الكثيرين وعف البعض الآخر سوف لن يفيد الحكومة الإيطالية في شيء لضمان فوزها الاستعماري الذي سوف لن يدوم مجرد عقد من الزمن، رغم المرحلة التالية التي تصاعد خلالها جاهها وتعلى مركزها بإقامة إمبراطوريتها في آثيوبيا. فهذه الانتصارات، وخاصة التي حققتها إيطاليا منها في برقة. ما أبعد أن يكتب لها الدوام فعبارات شكيب أرسلان التي أبن بها بصورة مؤثرة وحزينة، عمر المختار، أخذت تتسرب إلى قلوب العديد من المغلوبين على أمرهم كبشائر أمل وحقيقة: «.. إن دم عمر المختار سيبقى وصمة عار في جبين إيطاليا... وسيأتي ذلك اليوم الذي ترى فيه ثمرة اعتزازها وتعلم أن المسلمين لم يموتوا وأن حقوقهم لم تضع..»[43].

---

[42] برقية «سرية جداً» رقم 238006 بتاريخ 22 ديسمبر 1932، مرسلة من وزارة الشؤون الخارجية، بإشارة من وزارة المستعمرات إلى البلاد المعروفة التي لجأ إليها المهاجرون الليبيون دمشق ـ جدة ـ بيروت ـ حلب ـ القدس ـ تونس ـ الجزائر ـ أزمير و أنقرة (ربما يقصد أنها أرسلت إلى القنصليات الإيطالية هناك ـ المعرّب).

[43] شكيب ارسلان عمر المختار في صحيفة «الجهاد» بتاريخ 10 أكتوبر 1931. (هنا أيضاً ترجمة إيطالية لنص عربي ومن الصعب أن تكون الترجمة إلى العربية طبق أصلها العربي ـ المعرّب)

الملاحق

ملحق رقم (1)

الوقائع السرية لمحاكمة بنغازي

15 سبتمبر 1931م

1 ـ محاكمة بنغازي الخاصة : استجواب المتهم :

إنه في سنة ألف وتسعمائة وواحدة وثلاثين، وفي اليوم الخامس عشر من شهر سبتمبر، بنغازي، وبمكتب التحقيق للسجون الإقليمية.

وأمامنا نحن د. فرانشيسكينو جوسيبي، قاضي التحقيق، وبحضور وكيل النيابة العامة الممثلة في شخص المحامي العسكري الملكي «الكواليير أوفيتشالي» جوسيبي بيديندو، أيضا بصفته قاضي التحقيق وبمساعدة كاتب المحكمة الآتي ذكره فيما بعد، (Bedendo) مثل السجين عمر المختار الذي، عند سؤاله عن هويته، بواسطة الترجمان السنيور فالنزا جوفاني Giovanni Valenza) رد بقوله:

«أنا عمر المختار وهو اسمي، ابن المتوفاة عائشة بنت محارب، البالغ من العمر 73 سنة، والمولود في «دفنة» قبيلة منفة، عائلة بريدان بيت فرحات، متزوج ولي أولاد وأعرف القراءة والكتابة، وليس لي سوابق، ورئيس الزاوية السنوسية بقصور

بعد سرد المتهم الموجه إليه، يجيب: أعترف بأنه تجري محاكمتي، بعد صدور الأمر بالقبض علي لاتهامي بالجرائم المنصوص عليها في المادتين 284 و285 من القانون الجنائي.

س ـ ج: لم استسلم قط للحكومة الإيطالية. لم يجر لي معها إلا محادثات.

س ـ ج: كان المجاهدون يطيعونني طاعة عمياء، بحيث كل الأفعال التي قاموا بها، كنت قد أمرت أنا بها.

وبعد مواجهته بالتنكيل بأسرانا وتعذيبهم، أجاب:

س ـ ج: «الحرب هي الحرب لم أصدر قط أي أمر بتشويه الأسرى، شاهدت جثثهم بعد قتلهم في الميدان ولم أشاهد أي تدنيس للجثث.

س ـ ج: لم أكن أنا الذي أصدرت الأمر باستئناف القتال بعد ميثاق الرجمة، لأنني كنت بعيداً والإيطاليون، في رأيي، هم الذين بادروا باستئناف العمليات العسكرية، لأنهم اعتقلوا صالح العوامي، وفي الزيتونة أطلقوا نار البنادق على جماعتنا، الذين كانوا قد ذهبوا لسحب مواد التموين.

س ـ ج: رأيي هو أن قطع المحادثات، في عام1929، كان لذنب الحكومة الإيطالية لأنها أثارت الخلاف بيني وبين الحسن، الذي نقلته بعدها إلى بنغازي: كتبت أيضاً إلى المشير بادوليو، ولما لم أتلق منه رداً، انصرفت واستأنفت القتال.

س ـ ج: خضت العديد من المعارك ومن ثم لا أستطيع أن أحددها.

س ـ ج: سكان المدن يحقدون علي لأنني جلبت لهم المصائب، وأنا أبادلهم الشعور لأنهم لم يساندوا قضية دينهم، والتي كافحت في سبيلها.

س ـ ج. لم أصدر الأمر بقتل حارس مركز صيانة الطرق في القبة، كان «المحافظية»بدافع من الجوع يسرقون ويقتلون بأمري وبدون أمري.

س ـ ج: لقي الرائد «باسي» (Bassi) مصرعه في المعركة، فالحرب هي الحرب: وكل من اشتركوا فيها، لو كان باستطاعتنا، قتلهم لقتلناهم.

س ـ ج. أعترف بأنني منحت رتباً لضباط ورؤساء، ولكن بالنسبة لأتباعي فقط.

س ـ ج: بما أن فضيل بو عمر كان موجوداً قبل ذلك بأرض «قبايل» كان يتسنى له نتيجة ذلك، معرفة الجميع، وربما كان قد أشار على هو بضرورة تعيين «المستسلم» عمر ابي بكر قبايل كرئيس لعائلة موسى.

س ـ ج. كانت هناك اتصالات مستمرة بين المستسلمين والثوار: قد يكون عمر نفسه هو الذي حث على تعيينه رئيساً.

س ـ ج. لا يوجد في«الأدوار» إيطاليون هاربون من وحداتهم، إلا كارميني يوريو

(Iorio Carmine) (يوسف المسلماني) الذي حكمت عليه المحكمة العسكرية في جالو في ديسمبر 1928، كما أنه كان يوجد شخص آخر يدعى عمر المسلماني، في جالو أيضاً، ولكني لا أعلم ما إذا كان هو الهارب المقصود بالحديث أي نائب عريف المدفعية (Coporale). وكان يوجد هارب ثالث لا أتذكر اسمه ولا أعرف كيف كانت نهايته.

س - ج: بخصوص الملازم طيار «بئاتي» (Beati)، كنت قد أصدرت أنا الأمر بإبقائه مع عبد الحميد العبار لأنه كان لديه مال وبما أن الحكومة الإيطالية كانت تحركت بقوات كبيرة، لا أعلم ماذا فعل به «المحافظية»، الذين لا يفكرون حتى في دفن قتلاهم، خاصة إذا كان القتال عنيفاً.

س - ج: لا يبلغ عدد أفراد الأدوار، في تقديري، الألف رجل، منهم أربعمائة فارس.

س - ج: قتل الملازم «بئاتي» في الوادي، ولكنني أجهل مكان دفنه.

س - ج: ربما دفع بعض الإيطاليين الأعشار في ميناء «البردية» كما حدث في المرج، ولكنني قد أعجز عن تحديدهم. إلا أنه كان يقال أن مدنيين إيطاليين في المرج كانوا يدفعون الأعشار لحماية مواشيهم، ولكنني لا أعرف من هم. وعيسى الأكوص «بلطجي»[ب] ولا علم لي بكل ما يجبيه.

س - ج. يأتمر جباة الأعشار بأوامر «القائمقام» وليسوا تحت إمرتي، وهم مسؤولون أمامه عن تصرفاتهم.

س - ج: سمعت عن غارة النهب التي تعرضت لها مزرعة «يونغ»: ولكنني لم أكن موجودا بالموقع، لأنني كنت بأرض العبيدات. ولا أعرف من قاد هذه الغارة.

س - ج: اشتركت أنا أيضاً في غارات سلب ونهب ولكني لا أتذكر أيها...

س - ج: ليست لنا مواقع ثابتة نلوذ بها، فنحن في تجوال مستمر، بحكم الضرورة، خلال أراضي البراعصة والعبيد (الأحرار الآن).

[ب] من رحال «الكامورا» في الأصل، والعبارة هنا موعزة إليه ولا يمكن أن يكون عمر المختار قد نطق بها.

س ـ ج: وللحصول على قوتنا، فإننا لا نقتصر على العارات بل نستغل فرصة وجود الإبل، التي نرسلها إلى مصر ونشتري بحصيلة بيعها هناك مواد التموين.

س ـ ح: الرؤساء الأكثر نفوذاً وتحت إمرتي هم: عبد الحميد العبار، «قائمقام» دور العواقير، وبعده «الكومندار» عثمان الشامي «قائمقام» دور البراعصة وأحمد موسى «قائمقام» وكومندار الحاسة ـ عبيدات. أما رئيس «طابوري»[جـ]. أنا، فهو أبو بكر ذكري.

س ـ ج: أعترف بأنه قبض علي والسلاح بيدي في 8 سبتمبر، أمام الزاوية البيضاء، في سهل يسمى «غوطا الفو» بالقرب من سلنطة. قبل أن أتمكن من إطلاق رصاصة واحدة من البندقية، لأن قوات الحكومة كانت تطوقنا.

س ـ ج: أطلقت النار في مناسبات أخرى، هل تتصورون أنني أبقى واقفاً دون إطلاق النار أثناء القتال؟.

س ـ ج: منذ سنتين تقريبا، أصابت كتفي قذيفة من الطائرات، بل كتفي اليسرى، في الواقع، كانت شظية قنبلة.

س ـ ج: ليست لدينا مدافع ولا رشاشات، وتلك التي استولينا عليها منها، دفنها بأمر من شخص له خبرة بالموقع، وحتى أنا لا أعرف أين مكانها.

س ـ ج: عبد القادر، الذي من مصر ولا أعرف اسم والده، كان يعرف كيف يشغل المدافع، ولكنني لا أعرف ماذا يفعل في مصر.

س ـ ج: ابني محمد صالح، عمره ثلاث عشرة سنة: وموجود مع الأسرة في مصر. لا أعلم ـ الآن ـ ماذا سيحدث «للأدوار»، أي ما إذا كانت ستعيّن خلفاً لي، لا أستطيع أن أتكهن باسمه، أم أنها ستجتاز الحدود وتلجأ إلى مصر.

س ـ ج: لم تخطر ببالي قط فكرة اجتياز الحدود، بالنظر إلى التدابير التي اتخذها الوالي قراتزياني: «كنا، أنا وأتباعي، قد قررنا إيثار الموت في سبيل ديننا»

س ـ ج. أستبعد، بصورة مطلقة، أنه يوجد بين المحافظية من ينوي الاستسلام

[جـ] بهذه العبارة في الأصل.

س ـ ح: صحيح أنني قمت أنا، في أوقات أخرى، بتحرير «مظبطة»[*]، صد من كانوا يعتزمون التخلي عني، وهي تحمل أسماء رؤساء آخرين. واليوم ليس الأمر كذلك فاليوم ظهرنا «على المكشوف» ومن أراد الانفصال عنا، لا يأتي ليخبرنا، بل يبتعد عنا ببندقيته.

س ـ ج: ليس لدينا إطلاقات مودعة في أي مكان: فالمحافظية يتبايعونها أو يتنازلون عنها فيما بينهم. فهناك ما أرشده مكره إلى جمع كميات منها في الوقت المناسب.

س ـ ج: ليست لدينا مستودعات للمؤن في الكهوف.

س ـ ج: أستبعد أننا تلقينا إمدادات عن طريق البحر. كل الإمدادات كانت تأتينا عن طريق السلوم.

س ـ ج: عندما كانت النجوع والمخيمات في أراضيها، كان يقدم لنا المساعدات بكل الطرق، المستسلمون سواء بأداء الأعشار والإيواء تحت الخيم، أم بتزويدنا بمعلومات حول مواقع القوات (الإيطالية).

س ـ ج: لا أشعر بوخز ضمير، لما قمت به لأنها كانت مشيئة الله.

س ـ ج: ليست لي مراسلة مع إدريس.

بعد تلاوة الترجمة وتأكيدها، وقع عليها:

عمر المختار (بإمضائه بالحروف العربية)

توقيعات:

ـ فانزا

ـ فرانشيسيكينو

ـ ببدیندو

ـ ديه كريستوفانو ادواردو، كاتب المحكمة بالوكالة.

---

[*] «مطبطة» بهذا النص في الأصل وتعني «العريضة، التماس، وحتى الاحتجاج الجماعي».

2 ـ محضر المناقشة التي دارت ضد عمر المختار (مضبطة حررت عن طريق «الاختزال»)

بعد الإعلان عن افتتاح الجلسة، طلب المحامي بيديندو، وكيل النيابة، الكلمة ليذكر بأن هذا اليوم يصادف ذكرى ميلاد صاحب السمو الملكي أمير بييمونتي، ومن واقع تأكده من أنه المعبر الصادق عن شعور الأهالي، يدعو هؤلاء إلى الهتاف بأعلى صوتهم: «ألا لا... (راجع الملحوظة بذيل الصفحة 157)، فينتفض الجميع، وطنيين[و] ومحليين، قياماً مرددين الهتاف. . وبعد عودة السكون، ودعوة المترجم .. إلى أداء اليمين القانونية، يطلب الرئيس، العقيد مارينوني، من المتهم الإدلاء ببيانات هويته، فيقول: إن اسمه عمر المختار، ويبلغ من العمر 74 سنة، وأنه رئيس دور، وعند سؤاله حول ما إذا كان قد سبق أن حكم عليه جنائياً، رد بالنفي، كما أنه نفى معرفة أنه صدرت ضده أوامر بالقبض عليه.

وبعد ذلك يتلو كاتب الجلسة الملازم «دي كريستوفانو De Cristofan صحيفة الاتهام.

وبهذا تدخل المناقشة في صميم القضية:

الرئيس: أنت، قاتلت ضد من ؟

عمر المختار: قاتلت ضد الحكومة الإيطالية

الرئيس : في كم معركة اشتركت ؟

عمر المختار: معارك كثيرة، لا أستطيع تحديدها، وحتى المعارك التي لم أشترك فيها، كان خوضها بأمري.

الرئيس : وأطلقت أنت النار أيضاً ؟

عمر المختار: نعم، مرات عديدة

الرئيس : هل أعطيت الأمر بقتل الملازم «بثاتي» ؟

عمر المختار. كان قد قبض عليه ومكث بضعة أيام مع الدور، وذات يوم، عندما كنت غير موجود، اقتربت قوات الحكومة الإيطالية من الدور، عندها

[و] (يقصد الطليان الحاضرين).

قتلته «المحافظية» فالحرب هي الحرب، وأنا لا أعلم أين دفن.

الرئيس : هل أصدرت أمراً بقتل جميع الأسرى ؟

عمر المختار: لم أصدر أمراً كهذا.

الرئيس : هل أصدرت أنت الأمر بقتل من أرسلوا لإصلاح خط الهاتف في قصر بني قديم، معلناً بذلك استئناف القتال ؟

عمر المختار: نعم، أصدرت الأمر بقتلهم وقتل غيرهم.

الرئيس : حتى رجال الحراسة، من الكارابنيير ؟

عمر المختار: الحرب حرب...

وعند هذه النقطة أعرب رئيس الادعاء عن شكره للعمل الذي أسداه المترجم، وبما أنه لاحظ أن صوته ضعيف وبالتالي يتعذر سماعه على الزعماء والعرب الآخرين الموجودين بالأماكن المعدة للمتفرجين، في الوقت الذي تتطلب فيه المحاكمات العسكرية أن يتابع الجمهور سير القضية حتى يقتنع بإثبات التهم على المقدمين للمحاكمة من عدمه، لذلك يطلب من رئيس المحكمة أن يحل محله الكواليير لومبروزو (Car. Lumbrozo).

يستدعي الرئيس الكواليير لامبروزو وكلفه بأداء اليمين القانونية.

الرئيس: تريد المحكمة أن تعرف السبب الذي أدى إلى استئناف القتال ؟

عمر المختار: لأن الحكومة فصلتني عن الرضا.

الرئيس: كان عليك أن تنتظر الرد على الرسالة التي بعثت بها إلى صاحب السعادة بادوليو.

عمر المختار: وصلني الرد ولكنه كان بدون مضمون.

الرئيس: هل منحت براءات برتب « ضباط » للمحافظية التابعين لك ؟

عمر المختار: نعم.

الرئيس: هل كنت أنت الذي تصدر دائما الأمر بالقتال ؟

عمر المختار: بالنسبة للمعارك الأولى، كان هناك غيري كانت بيدهم القيادة، أما أنا فقد أصدرت الأوامر بالنسبة للمعارك التي حصلت قبل الاتفاق وتلك التي تلته وأنا رئيس منذ عشر سنوات.

الرئيس: كيف ألقي القبض عليك؟

عمر المختار: نشب القتال بالقرب من الزاوية البيضاء. أصبت بجراح وهويت من على صهوة الجواد، الذي قتل. ومن ثم قبض علي جنود الحكومة.

الرئيس: هل أفضيت إليهم باسمك ؟

عمر المختار: نطقت به، في الحال.

الرئيس: هل كانت معك البندقية ؟

عمر المختار: كانت معي البندقية وستة مخازن.

الرئيس: هل قمت بغارات ؟

عمر المختار: نعم.

الرئيس: هل أمرت بجباية الأعشار من المستسلمين ؟

عمر المحتار. من قبل نعم، ومن بعد، فلا، أي منذ أن أبعد الأهالي عن ديارهم.

المدعي العام: منذ أيام دعيت المحكمة الحربية الاستثنائية إلى الانعقاد في مرسى البريقة «المستسلم » عمر بو بكر قبايل، عائلة موسى، لأنه كانت قد وجدت بحورته بعض الوثائق، وأتشرف بأن أقدم إحداها إليكم، حضرة الرئيس. ويتبين من هذه الوثيقة أن عمر أبا بكر المذكور كان قد عينه عمر المختار رئيسا «للعائلة» مع تفويضه بجباية الأعشار من الفلاحين وبالقيام با لدعاية. وتحمل الوثيقة تاريخ 17/أبريل/1930م، فهي إذا تالية على استئناف القتال: إنها تحمل إمضاء عمر المختار وطابعه. تقدم الوثيقة إلى الرئيس الذي يعرضها بدوره على المتهم للتحقق منها، ثم يسأله ما إذا كان يعترف بأنها صادرة عنه:

عمر المختار: كانت القبائل تؤدي الأعشار، في أول الأمر.

المدعي العام: لا تته في الإجابة أليس التاريخ تاليا على العودة إلى الحالة الطبيعية؟ (يقصد بعد الهدنة)؟

عمر المختار: كانت قبائل القبائل خاضعة الفضيل الذي كانت تتبعه.

المدعي العام: أوليس الإمضاء والختم إمضاءك وختمك ؟ ماذا تقول الوثيقة ؟

عمر المختار: يقر بأنه لا يستطيع قراءتها، ولكنه يعترف بإمضائه.

المدعي العام: لا يعرف القراءة؟ هل الوثيقة مكتوبة باللغة الإيطالية وليست العربية؟ أم
هل ليست معك تلك النظارات التي فقدتها في معركة حديثة العهد،
عند هروبك، وكانت لك الجرأة بمطالبة الوالي بترجيعها إليك؟

وعندما طلب الرئيس إلى المستشارين والمدعي العام والمحامي ما إذا كان لديهم سؤال يودون توجيهه إلى المتهم، يسأله النقيب «لونتانو»:

«هل تقاضيت من الحكومة الإيطالية » في أي وقت من الأوقات، مرتباً؟

عمر المختار: كلا. أبداً.

الدفاع: هل حاربت أبداً ضد الأتراك قبل احتلالنا؟

عمر المختار: بعض المرات.

وبعدما انتهى من استجواب المتهم، يعطي الرئيس الكلمة للمدعي العام العقيد بيديندو، الذي يبدأ مرافعته، وسط صمت مطبق:

مرافعة وكيل النيابة

«كان صاحب السعادة الجنرال قراتزياني، من واقع رهافة الحس الذي طالما إمتاز بها، قد كتب في مقدمة كتيبه الذهبي الذي جمع فيه المحاضرات التي ألقيت بمناسبة زيارة صاحب السعادة «ليسونا Lessona» والصحافيين لبنغازي والذي آمل في أن يكون قد اطلع عليه الجميع، لأنه وزع مجاناً، ليقول:

«... وهكذا نرى، مع كل يوم يمر، تلاشي هالة هذا البطل «الأسطوري» أكثر فأكثر، الذي دأب على الفرار في لحظات الخطر.. » ولئن كان قد قبض على عمر المختار هذه المرة، كذلك يرجع إلى أنه كان محاصراً من قبل جنودنا الأبطال، بعد قتل جواده، الذي كان يحاول به الإفلات عندما احتدم القتال.

«وليس من قبيل الصدف أن تعقد المحاكمة في مقر البرلمان السابق، واليوم قصر «الليتوريو Palazzo del Littorio». إن صاحب السعادة هو الذي أراد أن تعقد هنا بالذات، ليبرهن للجميع على أن سياسة الماضي قد انقضت.

وهو إنما أراد انعقادها هنا ليمكن أكبر عدد ممكن من الوطنيين الإيطاليين والأهالي المحليين من المشاهدة وسماع الإتهامات المنسوبة إلى عمر المختار، حتى يستطيع أن يحكموا هم عليه، بتجرد ووجدان، شأنهم في ذلك شأن المحكمة.

والأشياء التي نستطيع أن نواجه بها عمر المختار كثيرة، ولكننا نريد أن نقتصر على ما تمليه علينا العدالة وليس من دواعي الفضول والانتقام.

ولا مجال للقول أن حكومة إيطاليا قد تركت هؤلاء الأهالي يواجهون مصيرهم: فهي اختارت، مراراً اللحظة المناسبة لمحاولة التوصل إلى اتفاق، ولكن سوء نيتهم أدى بهم، إلى خرق المواثيق. وما البياضة وقصر بني قديم إلا أمثالاً ساطعة على ذلك، وعبثاً يحاول عمر المختار اليوم التستر وراء الأعذار، كقوله أنه كتب إلى صاحب السعادة بادوليو ولم يتلق منه رداً شافياً.

إن الحكومة الإيطالية القوية لا تساوم على سيادتها، وأكثر ما تستطيع عمله، إبداء تنازلات، فتباً لأولئك الذين لا يقدرون أريحية كهذه.

قلت إنك تريد أن تعيش حياة كريمة في هذا الوطن، ولكنك في الواقع لا تريد ذلك، لأنك تمردت على سيادة الحكومة الإيطالية، وكنت أنت الذي أصدرت الأمر بتعذيب وقتل رجال شرطة الكارابنيير، في قصر بن قديم، عندما كانوا يحرسون عمال إصلاح خط الهاتف، في فترة كان السلام فيها قائماً بيناً.

انتهزت فرصة ضعف الحاميات الصغيرة لمباغتتها وقتل رجالها. «فأنت لست مقاتلاً، بل أنت قاطع طريق، عشت دائماً خارجاً على القانون، مختفياً في الأدغال. فالمقاتل الحقيقي يقتل عدوه في المعركة، ولا ينكل به، ولكنك، أنت، دنست جثث ضباطنا وجنودنا وشوهتها، وقتلت جرحانا، ولا أحد منهم عاد إلينا. وأبديت اعتزازاً بأنك اشتركت في جميع المعارك، وبأنها نشبت بأمرك حتى عند غيابك عنها.

هاجم أتباعك قواتنا عند تفوقهم عليها، أما أنت، فقد كنت دائماً هارباً، شأنك شأن ديماغوجيينا في الماضي، الذين كانوا يحرضون العمال على الشغب، ويختفون، هم، فراراً من العقاب.

وكونك معتاداً على الهروب، يؤكده، مرة أخرى، إقرارك بأنك كنت قد «أصبت»، من قبل، في عظم الكتف، عندما كنت تحاول الابتعاد عن ميدان القتال،

بشظية قنبلة ألقاها سلاحنا الجوي المجيد، الذي تلاحقكم طائراته، على حد قولك أنت نفسك، وتكشف معاقلكم داخل الكهوف وفي الوديان، وتتعقبكم عند فراركم، وأنت دائماً في فرار، والدليل الآخر على ذلك نظاراتك وختمك، التي عثر عليها في معركة أخرى، في الوديان تلك النظارات التي وصلت بك الوقاحة إلى حد المطالبة بترجيعها إليك، صبيحة هذا اليوم، عند استجوابك.

إلا أنني لا أعتقد أنه سيتوفر لك وقت تخصصه للقراءة، أصدرت الأمر «بقتل الأسرى». فعليك أن تتلقى العقاب عن عمليات القتل هذه، أعددت أتباعك لمواجهة القوات المسلحة التابعة للحكومة الإيطالية التي لها وحدها الهيمنة على هذه المستعمرة، التي عقدت أنت العزم على انتزاعها وفصلها عن الوطن الأم، وستنال عقاب هذه الجريمة أيضاً، كما أنك قمت بعمليات غزو للسلب والنهب، عليك الآن أن تواجه عواقبها. «البياضة ـ قصر بني قديم ـ مخفر جونا ـ الموثق رونيوني ـ الرائد «باسي» ـ الملازم «بثاتي» ورئيس العرفاء (الماريشالو) هبنر: هذه هي جرائمك، وعشرات وعشرات غيرها: إنها «أمجادك، التي ستسأل عنها بعد قليل».

«قلت أنهم قضوا عليك، هذه المرة، لأن الله تخلى عنك. أجل إذا كان الله قد أهملك، فإن عدالة الإنسان قد أدركتك.

«إنك لا تشعر بوخز الضمير لما اقترفت، ولا للحالة التي وضعت فيها أهالي هذه الأرض. وليكن. ذلك شأنك.

«أطلب من هذه المحكمة، بعد إثبات مسؤولية المتهم عن الجرائم المنسوبة إليه، أن تصدر عليه الحكم الذي تستحقه أخطر هذه الجرائم، ألا وهي امتشاق السلاح لفصل هذه المستعمرة عن الوطن الأم، وهو الحكم بالإعدام، الذي يجب العقوبات الأخرى التي يستحقها عن الجرائم الأقل شأناً وخطورة...»

فقوبل طلب المدعي العام بهمسات الاستحسان التي أخمدها رئيس المحكمة في الحال.

وعندما أعطى المحامي الكلمة، طالب هيئة المحكمة بمنح المتهم ظروف التخفيف العامة، بالنظر على تقدمه في العمر وتعصبه الديني.

وبعد سؤال المتهم عما إذا كان لديه شيء يريد إضافته، دفاعاً عن نفسه، ورده

بالنفي، قامت هيئة المحكمة بالانسحاب إلى حجرة المداولات، لتعود بعدها، بحوالي نصف ساعة إلى قاعة المحكمة، ووسط سكون مطبق، تلا الرئيس الحكم بإدانة المتهم عمر المختار بالجرائم المنسوبة إليه والقضاء بإعدامه.

وبعدما فرغ الترجمان من قراءة الحكم على المتهم، قال هذا الأخير « إنا لله وإنا إليه راجعون» فنهض المدعي العام ليأمر رجال الحرس: «حسناً، هيا، رافقوه إلى خارج القاعة...»

وأخذ الجمهور يغادر القاعة بتباطؤ، وبالتعليق على الحكم، بالموافقة والاستحسان.

3 ـ محضر المناقشة :

إنه في سنة ألف وتسعمائة وواحدة وثلاثين السنة التاسعة[ح]، وفي اليوم الخامس عشر من شهر سبتمبر، ببنغازي، وفي تمام الساعة 17 بقصر «الليتوريو» بعد إعداده كقاعة لجلسات المحكمة الخاصة بالدفاع عن أمن الدولة، والمؤلفة من السادة:

- المقدم الكواليير اوبيرتو فانتيري مارينوني (Fanteri Marinoni)
- (رئيساً بالوكالة، نيابة عن الرئيس الأصيل الغائب لعذر مشروع).
- المحامي د. فرانشيسكو رومانو (قاضي مقرر) (Romano Francesco)
- الرائد الكاواليير قوناريو ديليتلو (مستشار، أصيل) (Delitala Gonario)
- رائد «الميليشيا التطوعية للأمن الوطني الكواليير جوفاني منزوبي (مستشار أصيل)
- رائد «الميليشيا التطوعية للأمن الوطني «الكواليير ميكيلي مندوليا (مستشار أصيل)[ط]

[ح] تاريخ العهد الفاشي (28 أكتوبر1922) الذي يضاف تارة إلى التاريخ الميلادي، وأحيانا يكتفي به وحده، وكان يرمز إليه بالحرفين الأولين بعبارة «العهد الفاشي».

[ط] في جميع الشؤون الرسمية (توثيق، قيد، قضايا، الخ) يدرج لقب الشخص أولاً ثم الصفة الأكاديمية، تليها المرتبة الشرفية المقرونة بالاسم و«كواليير» إحدى هذه المرتبات وأرقى منها مرتبة «كوميداتور» وهاتان الصفتان تضاف إليهما، كرتبة إضافية، عبارة «أوفيتشالي» أي ضابط رسمي.وتعني عبارة «كاواليير» أصلا «فارس» استنادا إلى ما تتحلى به «الفروسية» من صفات الشجاعة والشهامة والنبل...

والرئيس بالنيابة عن الرئيس الأصيل، الغائب بعذر مشروع).

ـ بمساعدة الملازم بسلاح المشاة، ايدواردو ديه كريستوفانو (كاتب الجلسة العسكري بالنيابة).

للنظر في القضية المرفوعة ضد:

عمر المختار، بن عائشة بت محارب، البالغ من العمر 73 سنة، والمولود بدفنة ـ قبيلة منفة، عائلة بريدان، بيت فرحات، حالته الاجتماعية: متزوج وله أولاد، يعرف القراءة والكتابة، وليست له سوابق جنائية، في حالة اعتقال منذ 12 سبتمبر 1931.

المتّهم

بالجرائم المنصوص عليها وعلى عقوباتها في المواد 284 ـ 285 ـ 286 ـ 575 و576 (3) والمادة 62، البنود: 2 ـ 4 ـ 6 ـ 10 وذلك أنه قام منذ عام 1911م وحتى القبض عليه في جنوب سلنطة في 11 سبتمبر 1931، بإثارة العصيان وقيادته ضد سلطات الدولة الإيطالية، داخل أراضي المستعمرة، وباشتراكه في نصب الكمائن للوحدات المعزولة من قواتنا المسلحة وفي معارك عديدة وأعمال الإغارة للسلب والنهب واللصوصية مع ارتكاب جرائم قتل بدافع نزعته إلى القسوة والتوحش، وأعمال البطش والتنكيل، بقصد احداث الدمار وسفك الدماء لفصل المستعمرة عن الوطن الأم.

بعد ذلك سمح للجمهور بدخول قاعة الجلسات، بينما جلس المتهم في المكان المخصص للمتهمين، تحت حراسة عسكرية، وهو طليق اليدين وغير مكبل بأغلال من أي نوع.

كما حضر وكيل النيابة العامة السنيور «كوالبير» اوفيتشالي جوسيبي بيديدو، كمدعي عسكري، والمكلف بالدفاع عن المتهم، المحامي، النقيب في سلاح المدفعية، روبيرتو لونتانو.

يعلن الرئيس افتتاح الجلسة.

فيحضر أيضاً المترجم السيد نصري هرمس الذي يطلب إليه الرئيس الإدلاء ببيانات هويته فيجيب:

ـ نصري هرمس، ابن المتوفي ميشيل، وعمري 53سنة، ولدت في ديار بكر ببلاد ما بين النهرين (العراق) رئيس مكتب الترجمة لدى حكومة برقة.

يكلفه الرئيس بأداء اليمين المقررة، بعد تحذيره حسبما هو مقرر، فيؤديها بصوت عال وبالصيغة التالية: «أقسم بأنني سأنقل الأسئلة إلى الشخص المقرر استجوابه بواسطتي بأمانة وصدق، وبأن أنقل الردود بأمانة».

فيوجه الرئيس، عن طريق الترجمان، أسئلة للمتهم حول هويته، فيدلي بها بما يتفق مع ما تقدم، ومن ثم ينبه عليه بالاتصالات إلى ما سيسمع.

وعند هذه النقطة، يثبت في المحضر طلب وكيل النيابة بإعفاء المترجم نصري من المهمة بسبب وعكة ألمت به والاستعاضة عنه بالكواليير لومبروزو (Lumbroso) ابن آروبة وماريا قاندوس، المولود بتونس في 1891/2/27م، ومهنته صناعي.

فيكلفه الرئيس بأداء اليمين المقررة، بعد تحذيره نظامياً، فيؤديها بصوت عال وبالصيغة التالية: «أقسم بأنني سأنقل الأسئلة إلى الشخص المقرر استجوابه بواسطتي بأمانة وصدق وبأن أنقل الردود بأمانة...».

يتلو كاتب الجلسة صحيفة الاتهام، فيتولى الترجمان ترجمتها للمتهم، ويسرد بعدها قائمة المستندات والوثائق المتصلة بالدعوى، المرفقة بالوقائع بالصفة.

وبعد سردها يكلف الرئيس الترجمان بترجمتها، حيث أن المتهم غير ملم باللغة الإيطالية، ومن ثم يبدأ استجوابه حول الأفعال المنسوبة إليه، فيرد عليها، ويتولى الترجمان ترجمة ردود المتهم عليها.

ويثبت بالمحضر أن المتهم يرد بانتظام عن كل اتهام حسب ما جاء في محضر استجوابه المكتوب، معترفاً بأنه زعيم المقاومة في برقة وبهذه الصفة فهو الفاعل والمحرض لجميع الجرائم التي اقترفت في أراضي المستعمرة خلال العقد الأخير من الزمن، أي الفترة التي ظل خلالها الرئيس الفعلي للمقاومة

ورداً عن سؤال، يجيب: منذ عشر سنوات، تقريباً، وأنا رئيس المحافظية.

ويثبت هنا أن المتهم ظل يرد عن كل سؤال محدد حول تهمة بعينها، بقوله:

«لا فائدة من سؤالي عن وقائع منفردة: وما أرتكب ضد إيطاليا والإيطاليين، منذ عشر سنوات وحتى الآن، كان بإرادتي وإذني، عندما لم أشترك أنا نفسي في تلك الأفعال ذاتها».

ورداً عن سؤال، يجيب. كانت الغارات تنفذ أيضاً بأمري وبعضها قمت بها أنا نفسي.

يعطي الرئيس الكلمة لوكيل النيابة: بعد أن تنول الكلمة، أوجز مطلبه في أن تتكرم المحكمة، بعد تأكيد إدانة المتهم بالجرائم المنسوبة إليه، بإصدار حكم الإعدام عليه وما يترتب عليه من عواقب.

وينهي الدفاع، بدوره، مرافعته بطلب الرأفة بالمتهم.

وبعدما أعطى المتهم الكلمة كآخر المتحدثين، يعلن الرئيس قفل باب المناقشة، وتنسحب هيئة المحكمة إلى حجرة المداولة لتحديد الحكم

عادت المحكمة بعد قليل إلى قاعة الجلسات، لينطق الرئيس بصوت عال بالحكم بالإدانة، بحضور جميع الأطراف المعنية. فيقوم الترجمان بترجمة منطوق الحكم.

أثبت تحريرياً كل ما تقدم بهذا المحصر الذي وقع عليه· كاتب المحكمة العسكري، الإمضاء: ادواردو ديه كريستوفانو ـ الرئيس (المقدم الكاوالبير أوميركو مانزولي).

كاتب المحكمة العسكري، الإمضاء: ادواردوديه كريستوفاني
Edoardo De Cristofano

الرئيس: (المقدم الكاوالبير أوميركو مانزوني) الإمصاء أومبيرتو مانزوني
Umberto Marnoni

ـ صورة طبق الأصل ـ

كاتب المحكمة العسكرية بالنيابة

التوقيع

4 ـ صحيفة الاتهام :

«تولى عمر المختار، اعتبارا من سنة 1912 وإلى تاريخ القبض عليه (11 سبتمبر 1931) قيادة العصيان في برقة ضد سلطات الدولة الإيطالية، وفضلاً عن ذلك، اشترك في نصب الكمائن لقواتنا وفي القتال ضدها وفي عمليات سلب ونهب وقتل، ومن ثم وجهت إليه التهم بارتكاب الجرائم التالية التي تنص عليها وعلى العقوبات المقررة بشأنها المواد: 284 ـ 285 و575 ـ 576 و62 من القانون الجنائي، في المواقع والأوقات والظروف الموضحة فيما يلي:

1) اشتباك مسلح خاضه نفر من شرطة الكارابنيير ضد عصابة من العصاة، بمنطقة بوشربية (قمينس)، في 20فبراير 1914، لقي فيه مصرعهم ضابط صف وخمسة من رجال «الظبطية»[1].
2) قتال بين جنود حامية شحات ومجموعة صخمة من العصاة، في 25 مارس 1914 بموقع يسمى الرديمة (شحات)، لقي فيه مصرعه أحد رجال الظبطية وجرح كارابنييري واحد و«ظابطي» آخر.
3) اشتباك مسلح بين فيلق بقيادة الرائد «الكاواليير روبيرتو بونته» وجماعة كبيرة من العصاة، في 5 أكتوبر 1914، بالقرب من «مستينة»، سقط على أثره «عريف» الكارابنيير فيليبو ماري.
4) قيام تشكيلة، تتألف من 400 مسلح من العصاة، في 6 نوفمبر1914، بالهجوم على مخفر سلنطة، لقي فيه مصرعه البطل، الملازم كيابيني وأحد رجال الظبطية».
5) كمين نصبته عصابة من العصاة، في 21 سبتمبر 1922، لحافلة البريد عندما كانت متجهة إلى شحات، عن طريق البيضاء، لقي فيه مصرعهم اثنان من الكارابنيير ومواطنان إيطاليان مدنيان، أحدهما موظف بالبريد، و«عسكري» محلي ومدني عربي وأبت وحشية المهاجمين إلا أن تشوه جثث الضحايا، للتشفي.

---

[1] يسمى « طابطي» وجمعه ظبطية رجال الشرطة العسكرية الليبيون فقط لعرض تفريقهم عن «الناتزيونالي» أي «الكارابنيير» الطليان والطاء، هنا، تنطق كزاء مفخمة أو ظاء مخففة

6) الهجوم على«دورية» كارابنيير وظبطية، عندما كانت تقوم على حراسة الطريق بين شحات ومرسي سوسة، في 29 أبريل 1924، فسقط أربعة عسكريين، من بينهم ضابط صف عندما كانوا يقومون بواجبهم، وجرح ثلاثة آخرون.
7) قيام مجموعة من العصاة بغارة سلب ونهب، استولوا خلالها على 1800 رأس من الغنم، مملوكة للمستسلمين، في 25 يوبية 1924م، بالقرب من سيدي بوليفة، استردها جنودنا بعد قتال ضار احتدم في ذات اليوم بوادي العوينات، سقط على أثره أربعة من المستسلمين وجرح رجل ظبطية وأحد مجندي «العصابات Bande» واثنان من المستسلمين.
8) الاعتداء على بقالين محليين في مرتوبة، والاستيلاء منهم على مواد غذائية ونقود، في 14 أغسطس 1924، من قبل حوالي 50 رجلاً من العصاة، والاشتباك الذي تلاه مع الجنود «الوطنيين» والمحليين بمركز شرطة الكارابنيير هناك، اسفر عن قتل شرطي برتبة «ممتاز» وجرح اثنين من الظبطية[ي].
9) الهجوم على قافلة تتكون من خمس شاحنات، إحداها عسكرية، في 30 يونية 1925، وذلك عندما كانت تمر بالقرب من مخفر «سيينا» قادمة من سوية، ومتجهة إلى شحات فتعرضت لمداهمة عدد ضخم من العصاة وتلاها قتال مرير أدى إلى قتل 28 شخصا، بين عسكري ومدني، «وطنيين» ومحليين، مع تدمير الشاحنات.
10) قيام جماعة ضخمة من العصاة بهجوم على دورية كبيرة من شرطة الكارابنيير و الظبطية بوادي الخيشة (درنة) في 16 يونية 1928، أسفر عن قتل ستة من العسكريين الأمجاد، من بينهم وطني (أي إيطالي _ Nazionale).
11) نهب 4000 رأس من الغنم، مملوكة لمستسلمين، في 8 ديسمبر 1928، بالأبيار، من قبل مجموعة كبيرة من العصاة تتألف من 3000 رجل، وما تلاه من

[ي] أولى «الشارات» (وليست الرتب) التي كانت تمنح للمجندين من غير الطليان، والأصل كما ورد «ممتاز» ولكن الناس حوروها لتصبح «مطار» والمرتبة الثانية (بيلوقباش)، وأعلى مرتبة هي «الشمباشي» أي عريف، التي توقف عندها «ترقية» المجندين الليبيين.

قتال عنيف مع قوات حامية المنطقة، اسفر عن قتل 24 مجند «دورية» (حراسة) وأحد رجال الظبطية، وجرح 5 عساكر ايريتريين وسبعة من حرس الدورية.

12) الاعتداء على دورية عسكرية من سلاح الكارابنيير الملكي، كانت تقوم بحراسة عمال كانوا يقومون بإصلاح خط الهاتف، وذلك في يوم 8 نوفمبر 1929، بقصر بني قديم قام به حوالي 40 رجلاً من العصاة: فلقي مصرعه من جراء هذا العدوان ضابط صف وثلاثة مجندين ليبيين.

13) الهجوم على دورية كبيرة لشرطة الكارابنيير والظبطية، عندما كانت تقوم بواجبها في حراسة طريق الشاحنات بين القيقب والقبة، في 15 مايو 1930م، بالقرب من زاوية ترت، من قبل حوالي مئة مسلح من العصاة، تمكنوا من قتل ستة مجندين محليين وجرح اثنين آخرين.

14) هجوم «الدور» على قافلة للمستسلمين من العبيدات، الذين كانوا في طريقهم من البطنان إلى منطقة سرت، في 9 يناير 1931، بالقرب من بير بوسفية (شحات). فقد فريق حراسة القافلة أحد المجندين المحليين وجرح من بينهم ضابط.

15) الإغارة على قطعان المواشي، على اختلاف أنواعها مملوكة للمستسلمين، وفي 27 فبراير 1931، من قبل حوالي 300 من العصاة، بمنطقة سوسة، تلا ذلك قتال عنيف، قتل من جرائه راعيان وجرح ثلاثة من رجال عصاباتنا وعدد مماثل من المستسلمين.

16) معركة اشترك فيها الدور بكامله ضد وحدات مختلفة من قواتنا، في 30 مارس 1931، بوادي الرملة (درنة)، جرح على أثرها ثلاثة من العساكر الاريتريين.

ملحق رقم (2)

المنشور السري الذي أصدرته المقاومة لإحياء الذكرى الأولى لشنق عمر المختار (سبتمبر 1932م)

عندما كانت الدعاية الرسمية الفاشية ما زالت تهلل وتشيد «بالسلم الروماني» (Pax Romana) الذي استتب في ليبيا، بعد القضاء على الثورة، يأتي الرد الصامت على هيئة منشور وزعته المقاومة البرقاوية، سراً، بمناسبة الذكرى السنوية الأولى لوفاة من أصبح معترفاً به بطلاً وطنياً ليبياً. وهذا المنشور الذي ظل سرياً حتى الآن، ها نحن ننقله، لأول مرة، إلى هذا الكتاب، عن نصه الأصلي الذي عثر عليه، لحسن الحظ، في المحفوظات الاستعمارية، إعراباً عن إجلالنا وتعظيمنا لبطل الجبل الأخضر، على سبيل التأبين المتأخر:

ذكرى عمر المختار

شهيد الأمة العربية

في مثل هذا اليوم الموافق 16 أيلول سنة 1932 أعدم البطل المغوار، السيد عمر المختار صلباً على أعمدة المشنقة.

في مثل هذا اليوم سطت القوة الغاشمة الفاشيستية على ذلك الشيخ الجليل والمجاهد الكبير ونفذت فيه حكم الإعدام، ولم تراع شيخوخته ولا مكانته في قلوب المسلمين.

في مثل هذا اليوم أضاف الفاشيست إلى تاريخهم المملوء بضروب العسف والجور صحيفة سوداء تعرب عن منتهى العار وأعظم الشنار.

لم يحدثنا التاريخ ولا أساطير الأولين أن أسيراً يقع في ميدان الحرب وهو شيخ في العقد التاسع من عمره يعدم إلا في عهد الفاشيست الذي أنسى العالم مظالم القرون المظلمة. نردد هذه الذكرى في هذا اليوم ونفوسنا تفيض بالحزن والألم الشديد على ذلك البطل الشهيد الذي سطر بسيفه آيات من الشجاعة والبسالة في تاريخ الأمة العربية، وجاهد في سبيل الدفاع عن وطنه جهاداً يورث المجد والفخر الأثيل.

إن عمر المختار قد كافح جيوش الاستعمار عشرين سنة وكان لا يخشى الموت ولا صلصلة الحديد إلى أن كباه جواده في معمعة القتال فامتدت إليه أيدي الظالمين. فيا للشناعة ويااللعار من تلك الجريمة التي تحمر لها الوجوه وتتحافاها الوحوش. برئت ذمة التاريخ برئت ذمة الإنسانية من تلك الفعلة البربرية التي أقدم عليها الفاشيست وهم يعدون أنفسهم في مصاف الأمم الراقية والأقوام المتمدنة.

إننا لن ننسى ما حيينا تلك الفعلة الفظيعة التي أدمت منا القلوب وفتتت منا الأكباد ظن الفاشيست أن إعدامهم عمر المختار يمكنهم من اغتصاب تلك الديار

ولكن خاب ظنهم وطاش سهمهم. فإن أرواح الشهداء هي الشعلة الأزلية لإذكاء روح الوطنية في قلوب الشعوب الحية إن شهيد الأمة الطرابلسية البرقاوية لن يموت لأنه ترك لقومه أثرا خالداً في البطولة والإقدام يتوارثهما الأحفاد جيلاً بعد جيل إلى يوم التناد.

إن هده الذكرى الأليمة التي ولدتها أيدي الفاشيست الأثيمة ستبقى ما تعاقبت السنين والأعوام يتجدد هولها ويرداد خطبها لما لها في القلوب من جروح بليغة وآثار دامية. تبت أيدي الظالمين الذين لم يرقبوا شيبة ذلك الشيخ الجليل ولم يحترموا بطولته ولا شجاعته التي أراهم من آياتها العجب العجاب لكن أنى لهم أن يعرفوا لتلك المرايا معنى أو يقدروا لها قدراً إن توالي الأيام وتعاقب الأعوام لن يخفف من هول تلك الجريمة التي جرحوا بها قلوب العرب جمعاء والتي ستبقى أبد الدهر وصمة في تاريخهم الملطخ بدماء الأبرياء من نساء ورجال وشيوخ وأطفال.

فيا أيها الشعب الطرابلسي البرقاوي؟ ردد ذكرى هذا اليوم الذي أصبت فيه بأكبر فاجعة وأعظم مصاب، احفظ هذه الذكرى واستعرض روعتها على مخيلتك في كل لمحة وحين وخذ منها عبرة لمستقبلك لتعرف كيف تثأر لشهدائك الأبرار.

إن في هذه الذكرى لعبرة تثير في النفوس روح الإقدام وتحرك ما كمن في الصدور من حس الانتقام ممن اغتصب بلادك وسلبك كل حق من حقوقك وقضى على نخبة من رجالك بالقتل والتشريد والظلم الذي ما عليه من مزيد.

إننا في هذا اليوم ندعو الأمة العربية ورجالها الأحرار أن يشاطرونا الأسى في ذلك المصاب الذي نردد ذكراه اليوم. فعمر المختار لم يكن شهيد الشعب الطرابلسي وحده بل هو شهيد الأمة العربية جمعاء. إن آيات البطولة والشجاعة التي كان يتلوها على جيوش الفاشيست هي مفخرة للعرب على اختلاف أقطارهم، وما الشعوب العربية إلا كالجسد الواحد تشاطر بعضها الأسى والمسرة في كل حال فهذه الحقيقة يجب أن نفهمها للغربيين بتضامننا وتكاثفنا إن هذه الذكرى يجب أن لا تنسى بل تحفظ في طيات القلوب إلى أن يأتي يوم تحاسب فيه الأمة أرباب القمصان السود الحساب الشديد على تلك الفعلة الفظيعة التي لم يسبق لها مثيل في تاريخ الأمم اذكروا يا رجال العرب يا أباة الضيم والحيف شهيدكم الذي أعدم بعد الأسر اذكروا ذلك البطل

الذي رفع راية العروبة وحدد مجد أسلافكم الكرام. أحيوا ذكرى هذا اليوم لكي يعلم الفاشيست أنكم لن تصبروا على الأذى ولن تناموا على القذى وإنكم أمة متضامنة لا تتحمل الاستهتار الذي يوجهه إليكم غواة الاستعمار. وأنتم أيها الفاشيست يا أرباب القمصان السود بيننا وبينكم يوم نحاسبكم فيه الحساب الشديد ذلك اليوم الذي ترونه بعيداً ونراه قريباً يوم نسألكم عن دم عمر المختار وشهدائنا الأبرار إن للباطل جولة وللحق صولة وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

«جمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوي»

المصادر والمراجع للباب الثالث

ROMAIN RAINERO

Sources

Arslan, C., "L'Imperialisme Italien en Tripolitaine", La Nation Arabe, Ginevra, February, 1931.
Asad, M., Le Chemin de la Mecque. Paris, Fayard, 1979.
Bendenda, R., Le Gesta e la Politica del Generale Graziani, Roma, CESA, 1936.
Graziani, Ro., La Situazione Cirenaica, Bengasi, La Cirenaica, 1930 Libia Radenta, Napoli, Torella, 1948.
Macaluso, A., "Lo Stroncamento della Ribellione in Cirenaica", L'Illustrazione Coloniale, I Dicembre, 1930.
Marion, P., "L'Islam Accuse", Le Quotidien, Paris, 22 Settembre, 1931.
Mussolini, Benito, Opera Omnia, Vol., XXII, Firenze, 1957.
Pace, B., "I Campi di Concentramento", L'Azione Coloniale, Roma, 25 Aprile, 1933.

الباب الرابع

القبض على عمر المختار
ومحاكمته وشنقه في الصحافة الإيطالية

لويجي قوليا
Luigi Goglia

عمر المختار :

إن شخصية عمر المختار ليست معروفة في بلادنا إلا لدى الدارسين القليلين جداً لتاريخ الاستعمار والعائدين من حملات «استعادة السلام» إلى ليبيا وبعض الموظفين القدامى في الإدارة الاستعمارية.

في النصف الثاني من عام 1979، استيقظت الصحافة الإيطالية، اليومية والأسبوعية، لتجدد اهتمامها، بعد سبات طويل، بشخصية زعيم المقاومة العجوز في برقة، وذلك بمناسبة نشر أنباء دعاية الشركة لشريط خيالة «جبار» يتناول، على ما يبدو، كفاح عمر المختار ضد الحكم الإيطالي.

إلاّ أن انتعاش اهتمام الصحف بالموضوع، باستثناء ما أوردته من شهادات، مشبع بأسلوب التقاليد الصحفية الجديدة، المناهض للاستعمار، مع تعليقات واعتبارات مقتبسة من وثائق تاريخية _ سياسية أصبح الآن من المتيسر الاطلاع عليها والاستفادة مها بأمانة وصدق، بعدما ظل البعض، في الماضي، يصرون بعنت، وبدافع من شعور وطني خاطئ يستحق الشجب والمؤاخذة، على التزام الصمت وتشويه الحقائق. ولكن الوثائق المزامنة لتلك الأحداث هي التي تتحدث عن واقع أليم، طابعه الاضطهاد والقمع كما أنه يلاحظ في تلك المقالات كانت في مجموعها، سطحية ومتهيبة وقليلاً ما اتسمت بالتعمق والتحليل الموضوعي المستفيض.

وها نحن نتناول اليوم، من خلال هذا المكتوب، أيام سبتمبر 1931، التي كان قد ظهر فيها اسم عمر المختار في الصحف الإيطالية بمناسة أحداث القبض عليه ومحاكمته (تلك المحاكمة التي تختلف جوهرياً عن المحاكمات التي واجهها واستحمل عواقبها العديد من الإيطاليين المناهضين للفاشية).

كان عمر المختار هو المقاوم الليبي الذي عبر عملياً عن أسمى معاني النضال ضد الحكم الإيطالي، سواء من حيث مواهبه العسكرية، التي أثبتها منذ أوائل هذا

القرن في الكفاح ضد التغلغل الفرنسي إلى داخل مناطق الجنوب الليبي، أم لكفاءته السياسية وولائه وإخلاصه، وهيبته كرجل دين، ورع، كانت تضفي عليه هالة من الاحترام والتقدير وتعطيه نفوذاً معنوياً عظيماً يجعل منه، إلى جانب مميزاته العسكرية والسياسية الأخرى، البطل الأعلى مكانة وشأناً طوال مدة المقاومة التي أبداها الأهالي الليبيون ضد الاحتلال من عام 1911 إلى عام 1932.

ولئن كان لغيره من الزعماء، بدون شك، نفس الشجاعة ونكران الذات الذي أثبته عمر المختار، إلا أنه لم تكن تتوفر فيهم الصفات الأخرى التي أثبتت شخصيته كمناضل يفرض احترامه وطاعته، على مدى عمره النضالي، حيث كان دائما يربض في الخط الأمامي، كلما تعرضت مصالح شعبه للخطر، إلى حد التضحية بحياته، عن وعي وإدراك.

هذا، وكان أهالي برقة يطلقون عليه لقب «صيد الليل» إشارة إلى أن السيطرة الإيطالية، في سنوات الثورة، كانت مقتصرة على ساعات النهار، وإن المقاومة كانت لها السيطرة المطلقة ساعات الليل[1].

هذا هو، إذاً، الرجل الذي لم يتردد والي عام ليبيا، المشير بادوليو، ولا وزير المستعمرات، دي بونو، أحد قادة الزحف الفاشي الأربعة على روما، عن الحكم بإعدامه قبل تشكيل تلك المحكمة الخاصة بحماية أمن الدولة التي كان من المقرر أن تتولى محاكمته.

إننا لم نتمكن من العثور على مجموعة الوثائق التي من شأنها أن تيسر لنا تحديد موقف موسوليني من هذه القضية، إلا أنه لا شيء يحول دون الافتراض بأن لا يكون هناك بالضرورة تناقض أو خلاف بين رئيس الحكومة ووزيره للمستعمرات وواليه،

---

[1] هذه شهادة والد كاتب هذه السطور، رودولفو، الذي كان يتولى، خلال فترة 1935/1937، كملازم ثان، رئاسة سرية قيادة الكتيبة الليبية الثامنة المرابطة باجدابية، ثم قيادة سرية الهجانة (ميهاريستي: راكبي المهاري) بواحات الكفرة. وكان يردد في الكثير من المناسبات، قوله إن ذكرى عمر المختار كانت عالقة وبعمق ليس بأذهان الأهالي العرب فحسب، بل أيضا بين معظم العسكريين الإيطاليين الموفدين للعمل في برقة، الذين كان عدد كبير منهم يذكرونه باحترام وتقدير كبيرين.

فموسوليني لم يظهر، أبدا، اهتماما كبيرا بالأحداث الداخلية في المستعمرات، أما فيما يتعلق بالنزاع مع سكانها الأصليين. فكان ينزع إلى إتباع أقسى الإجراءات وأشدها صرامة لحله، وبالتالي فإنه باستطاعتنا أن نؤكد، فيما يخص الحكم بالإعدام وتنفيذه، على عمر المختار، أن القرار الذي اتخذ بهذا الصدد، كان يتفق مع أفكاره حول كيفية معاملة أفراد المقاومة المحليين[2]. وقراتزياني، الذي كان يتقلد، آنذاك، منصب نائب الوالي وقائدا للقوات المسلحة في تلك المستعمرة كان _ كعادته المنفذ النشط لتعليمات بادوليو، وعندما تناول هذا الحدث من جديد في كتاباته، أظهر من اللؤم وخبث النفس ما حذا به إلى إعطائنا صورة مشوهة لهذا الأسير[3]، ومن الغطرسة والانحطاط الخلقي إلى حد التبجح برفضه مصافحة يد عمر المختار وهي مكبلة بالأغلال: «يحاول مد يده المكبلة بالحديد إلي دون أن يتمكن، وأنا، من جهة أخرى، ما كنت لألمسها»[4].

ونحن لا نريد أن نحلل، في هذا المقام، سلوك السلطات العسكرية وموقفها من عمر المختار، ولكننا نرى أننا نقف إلى جانب الحق إن نحن قلنا إنه كانت تنقصها، ليس فقط الاعتبارات الإنسانية والسماحة والحلم عند الانتصار، (وهذه فضائل، أيضا، دون شك، ولكنها غير ملزمة بالنسبة إلى من بيده السلطة) بقدر ما كان يعوزها الذكاء وتقدير الظروف المناسبة وبعد النظر.

كان من الممكن إنقاذ حياة عمر المختار، والاكتفاء بنقله إلى إيطاليا وفرض الإقامة الجبرية عليه، أو في أسوأ الظروف، نفيه واعتقاله هناك. ولكن تصرف الحكومة ورد فعلها كان، على عكس ذلك، قاسيا ووحشياً. تجسد في تصفية العدو

---

(2) عندما اتصلت برينزو دي فيليتشي (Renzo De Felice) لمعرفة ما إذا كان قد عثر، خلال اطلاعه الواسع على الوثائق التي راجعها قبل وضع كتابه لسيرة موسوليني، على أية إشارة بخصوص عمر المختار، في أي وقت من الأوقات، كان رده بالنفي، أما فيما يتعلق بموقف زعيم الحرب الفاشي وسياسته إزاء الأهالي المحليين، بصورة عامة، فهو يتفق معنا في الكامل تقييما لها وحكمنا عليها.

(3) راجع. رودولفو قراتزياني «إعادة السلام إلى برقة» _ ميلانو، 1932، ص 269 272

(4) المصدر السابق _ ص 272

المغلوب جسدياً.

ولئن كان القبض على عمر المختار وإعدامه، علامة على قطع دابر الثورة وحرب العصابات، في برقة (حيث قبض، في الأشهر القليلة اللاحقة، على آخر مقاتلي المقاومة الذين لم يلجأوا إلى اجتياز الحدود والإقامة في مصر، وأعدموا)، إلا أنه يحل كذلك لحظة تأكيد المغزى الأخلاقي للنضال ضد الحكم الإيطالي. ومرد ذلك، هذه المرة أيضا، موقف الزعيم الأبي ورباطة جأشه وقوة بأسه ورصانته وتقبل مصيره بدون تشنج أوشظظ: لقد واجه حبل المشنقة بنفس قوة الشكيمة والاطمئنان الذي قابل به أي بطل من أبطال حركتنا التحريرية وبنفس الإباء والشعور بأداء الواجب المقدس الذي يبديه المجاهد الأصيل.

أما الصحافة الإيطالية، الخاضعة آنذاك في الكامل للرقابة الفاشية، فلم تولي اهتماما خاصا بهذا الحدث أو تفرد له أماكن أو مقالات بارزة، حيث أنها اقتصرت، في معظمها، على نقل نشرات وكالات الأنباء وبلاغات وكالة «ستيفاني Stefani وأحياناً، وبالنسبة إلى الصحف التي كانت تصدر في عير أمهات المدن الإيطالية، كانت تنقل مقالات كبريات الصحف، بعد تحرير طفيف وتعليق مقتضب. ونلاحظ، عند الاطلاع على المقالات التي نشرت بتاريخ 15و16 سبتمبر، أي قبل تنفيذ الإعدام، لا يمكن للمرء أن يستشف منها ما يدل على أنها مرت على المراقبة أو فرضت عليها من جهات عليا. أما بالنسبة إلى فترة ما بعد الإعدام، فذلك شأن آخر ..

كان من شأن نبأ القبض على عمر المختار، بحكم المنطق، أن يلقى انتشارا واسعا وتعليقات مستفيضة لدواعي مصلحة الدعاية الفاشية نفسها، ولكنه لم يحظ بدلك الصدى المتوقع، إد أن جميع الصحف ما كانت لتغفل عن إيراد النبأ، قطعا، ولكن المرء لا يسعه من خلال الأماكن المنزوية التي أفردت لنشره ولهجة تحليله، إلا أن يلاحظ تعمد عدم إبراز الحدث بشكل خاص واعتباره أقل أهمية مما كان يستحق، وكان صدور الحكم بالإعدام وتنفيذه نقطة نهاية الاهتمام بالواقعة في حد ذاتها وبصورة أعم، بالانتصار على حرب العصابات والثورة في برقة.

وهذا يدل، في رأينا، على الموقف الحرج الناشئ عن تنفيد الإعدام، من جهة، وأيضا قلة اهتمام صحافتنا الوطنية بمستعمراتنا، من جهة أخرى، وفعلاً، وحتى إبان

العهد الفاشي، كانت معظم المقالات والمراسلات ترتبط، بالامبريالية الاستعمارية، التي كان النظام الحاكم أخذها كذريعة للإشادة بمنجزاته في الوطن الأم وفي المستعمرات، كما هو معروف لدى الخاص والعام، أكثر من ارتباطها بالاهتمام بالمعلومات المتعلقة بمشاكل المستعمرة ومجرى الحياة فيها أو بالمُستعمِرين (بكسر الميم) والمُستعمَرين (بفتحها).

فهذا، بطبيعة الحال، كان الاتجاه العام لهذه الظاهرة، كما يتبين لنا اليوم، والاستثناءات غير معدومة، بداهة. ولكن النظريات التي قام بها موسوليني ووزراء المستعمرات والملك وأمراء آل سافويا، إلى ليبيا، والأشغال العامة، هي التي كانت تستأثر باهتمام الصحافة الوطنية (ومن المفهوم، بداهة، أن الحروب كان لها شأن آخر، منفصل عن كل هذه الاعتبارات).

وقبل أن نسترسل في التحليل، لا بد لنا أن نتوقف قليلا عند واقعة بالغة الخطورة أحدثت أو ساعدت كثيرا على إحداث تطورا في طريقة جلب اهتمام الصحف، في حينه، وهي أنه على الرغم من أن الاشتباك بين مجموعة صغيرة من الثوار الذين كانوا في معية عمر المختار، بالقرب من سلنطة، والقبض على قائدهم، قد حدث في 11 سبتمبر، إلا أن الاعتراف الرسمي بالحادث لم يعلن عنه إلا بعد مرور بضعة أيام ولم تصل أولى أنبائه إلى الصحافة إلا في يوم 15، أي ذات اليوم الذي جرت فيه محاكمة عمر المختار في بنغازي، أمام المحكمة الخاصة بالنظر في قضايا أمن الدولة وحمايتها، وصدر فيه الحكم بإعدامه، الذي نفذ في صبيحة اليوم التالي في ساحة سلوق، عند الساعة الثامنة والنصف.

نشر نبأ أسره في الصحف الوطنية في يوم 16 سبتمبر، ونبأ إعدامه في يوم 17 والفترة الوجيزة بين الاعتراف الرسمي ونشر نبأ القبض عليه وإعدامه[9]، سهّلت عملية

---

[9] يتحدث بلاغ وكالة «ستيفاني» للأنباء، بصورة لا نجد لها تفسير، عن إعدام عمر المختار رميا بالرصاص، الأمر الذي ما زال يؤثر على البعض حتى اليوم، إلى درجة أن أحد المشتركين في التجمع التاريخي الذي عقد بجامعة قاريونس في الفترة من 10 إلى 16 سبتمبر 1979، قدم سؤالا حول ما إذا كان عمر المختار قد أعدم رميا بالرصاص، ثم علق جثمانه بحبل المشنقة

التكتم عن الموضوع وتصفيته، مما يمكن استنباطه من مضمون المقالات التالية على الإعدام ولهجتها.

فعند نشر نبأ أسره في الصحف الوطنية، بلهجات وعبارات متباينة، كان اتجاهها، في أغلب الأحيان، نحو الاعتراف بجاه العدو المغلوب وشخصيته. إلا أنه سرعان ما انقلبت التعليقات رأساً على عقب في لهجتها إلى حد الإسفاف، لتهبط إلى مستوى إدانة عمر المختار بألفاظ وضيعة والتهجم عليه بالتشهير والشتيمة.

ومجمل القول هو أننا نستطيع أن نثبت كيف أن صورة عمر المختار فقدت، خلال يومين أو ثلاثة، تلك الملامح والصفات التي عبرت عنها تلك الصحف، ولو بصورة مبطنة، بالإعجاب والتقدير، وكيف أنها أصبحت تعرض على الإيطاليين في هيئة رجل شقي، محتقر، لا يتورع عن التنكيل بالجنود الإيطاليين وتعذيبهم.

يوم 16 سبتمبر 1931 :

تضمن بلاغ وكالة ستيفاني للأنباء، الصادرة في ليلة 15 سبتمبر، نبأ مقتضباً للقبض على عمر المختار، نقلته صحف اليوم التالي، دون إيراد شيء مما جاء فيه حول حقيقة ما كان يجري في مستعمرة برقة:

«روما، 15، ليلاً ـ في ليلة 11 من الشهر الجاري. وعلى أثر عملية تطويق باهرة، بمنطقة سلنطة، تمكنت سريتنا السابعة «صواري»، من خلال ملاحقة قطاع الطرق والعصاة حتى القضاء عليهم، تمكنت من القبض على رئيس العصيان في برقة، عمر المختار. وسقط في الميدان، خلال هذه العملية 12 مسلحاً و14 جواداً، بينما غنمت قواتنا 7 من الخيل بسروجها وحوالي 10 بنادق قصيرة الماسورة (موسكيتي). والقبض على عمر المختار، النشط الأبي، خطوة جديدة، وأصيلة وإيجابية إلى الأمام في عملنا السياسي والعسكري الرامي إلى إحلال السلام والسكينة في برقة، الذي سيتواصل بإصرار وصرامة حتى استتباب السلام الكامل على أراضي برقة بأسرها»... ستيفاني...

هذا ونشرت صحيفة «لاستامبا Lastampa» في عددها الصادر 16 سبتمبر إلى جانب نص بلاغ وكالة ستيفاني، مقالاً يتألف من سبعة وعشرين سطراً، يشيد بشخصية

عمر المختار ويعترف للبطل الشيخ بعدد من الفضائل والصفات:

«يتمتع عمر المختار بكافة أوصاف القائد والرئيس العربي: البراعة ـ فنون القيادة ـ المهابة وإدراك معنى العدالة. فهو جندي ورئيس ممتاز، والعصيان في برقة، الذي ظل متأججا إلى تاريخ أمس، بفضل ما ظل يتمتع به هذا الشيخ من سلطة وثقة به وبشخصيته. وعمر المختار، الذي ناهز السبعين من العمر، قد حنكته تجارب وتقلبات صادفته في ميادين القتال إلى درجة أنه أصبح مشهوراً بتحصنه من الآذاء والمناعة من الموت لدى أتباعه. فسقطت الأسطورة وسقط معها الرجل، عمر المختار، أعظم دعامة في صرح العصيان، على جبل برقة.

وتجريد الأهالي من السلاح وترحيلهم عن أوطناهم وحشرهم في ميادين اعتقال جبرية، على الساحل، وقفل الحدود مع مصر، وعمليات التطهير والحراسة على الجبل والمناطق الصحراوية التي عهد بها إلى عناصر من المستعمرين المحنكين والخبراء في هذا المجال، وضعف حركة العصيان تحت رحمة الحكومة. والقبض على زعيم في مكانة وشجاعة رجل كعمر المختار، من طرف نفر من فرسان الصواري، إنما يبرهن على درجة الكمال التي وصلها تنظيمنا العسكري في برقة».

أما صحيفة «الجورنالي ديتاليا Il Giornale d Italia فبالإضافة إلى نقل بلاغ وكالة «ستيفاني» نشرت مقالا مسهبا، أطول من المقال الذي نشرته «لاستامبا» غير أن مضمونه يكاد يكون دات المضمون، على أننا نرى أنه يجدر بنا أن ننقل مقتطفات نراها هامة بهذا الصدد:

«إن القبض على عمر المختار، على يد حفنة من فرسان الصواري المغاوير التابعين لقواتنا، يسدد ضربة قاصمة لحركة العصيان المتهاوية في برقة وتتوفر في عمر المختار مميزات المقاتل والزعيم العربي: وقار السن ـ الشجاعة الشخصية ـ التمكن من فنون القيادة والمكانة المرموقة في العالم العربي ـ فهو جندي جيد ورئيس ممتاز ـ ومن ثم فهو مرهوب الجانب بقدر ما هو عدو أبي، وتقدمه في السن، حيث أنه ناهز السبعين، وأحداث وتقلبات المعارك العديدة التي خاضها، أضفت عليه شهرة الحصانة والمناعة من الإصابات لدى أتباعه. وعندما نفذت التدابير الصارمة التي اتخذها قراتزياني بفرض الارتباط بالأرض على أهالي الجبل شبه الرحل واستقرارهم

بميادين الإقامة الجبرية على الساحل، قطع عمر المختار، برهافة حس سياسي رفيع، كل صلة بمخيمات المعتقلين، حرصا منه على تجنيبهم ويلات القمع وكذلك على الحفاظ على مكانته وجاهه كرئيس، لدى الأهالي. وحتى هذه الأسطورة، شأنها شأن الأساطير التي يلفها الغموض وتحتضنها تقاليد العالم الاستعماري في أفريقيا، انهارت الآن. وانهار معها عمر المختار، أعظم دعامة لصرح العصيان على جبل برقة».

وصحيفة (ال ريستوديل كارلينو ـ Il Resto del Carlino) تنقل هي الأخرى، جزءاً من نفس المقالين السابقين، مضيفة قولها:

«عندما نفذت التدابير الصارمة التي اتخذها قراتزياني وفرضها على الأهالي شبه الرحل لربطهم بالأرض، في مخيمات إقامة جبرية، قطع عمر المختار، برهافة حس سياسي رفيع، كل صلة بالقبائل المعتقلة، تحاشيا لتعريضها لعمليات القمع والتنكيل، ومن ثم توخياً للمحافظة على مكانته وجاهه، كرئيس، لدى الأهالي».

وتقول صحيفة (ال تيلغرافو Il Telegrafo)، التي كانت تصدر في ليفورن بهذا الصدد:

«يفقد العصاة بوفاته، داعية نضال من الدرجة الأولى ورئيسا يتمتع بنفوذ وسلطة لا جدال فيها. فما كانت تعوزه، في الواقع، لا براعة القيادة ولا أصولها ولا المهابة الشخصية المقرونة بتمسكه بالعدل والإنصاف. كان عدوا أبياً، رغم تقدمه في العمر، إذ أنه ناهز السبعين. . وأصبح من الصعب على العصاة إيجاد خلف له تكون له نفس الصولة والمكانة التي كان يتمتع بها عمر المختار».

أما صحيفة (ال سيكلو 19) (القرن التاسع عشر ـ Il secolo XIX) التي تصدر في جينوا، فكتبت تقول:

«.. هذا الزعيم المغوار» و«المفاجأة التي حققها نفر من رحال الهجانة الصحراوية»[6]، بالقبض على زعيم في مكانة وشجاعة عمر المختار «دليل على درجة الكمال التي وصلتها قواتنا المسلحة في أفريقيا وتنظيمنا العسكري في المستعمرة».

---

(6) لم تكن وحدة من «راكبي المهاري» هي التي فاجأت عمر المختار وقبضت عليه، بل نفر من فرسان «الصواري».

وتنقل صحيفة (ال قادزيتينو ـ Il Gazzettino) التي كانت تصدر في البندقية، ما أوردته صحيفة (ال جورنالي ديتاليا) والصحف الأخرى سالفة الذكر، كما تناقلته أيضا صحيفة (لانازيوني «الأمة») التي تصدر في فلورنزا، وصحيفة (لاقادزيتا ديل بوبولو ـ تورينو ـ والجورنالي دي جيبوفا)، و(ال تشيتا دينو) ـ جنوا ـ و(لاقادزيتا ـ مسينا) ـ و(البوبولو توسكانو) ـ لوكا ـ وصحيفة (ال بيكلوولو ـ تريستي).

والتزمت جميع هذه الصحف موقفاً يتسم، في جوهره، باحترام العدو المقبوض عليه، مستمدة معلوماتها، فصلا عن بلاغ وكالة ستيفاني الصادر في 15 سبتمبر، من مصدر مشترك «لم نتمكن من الوقوف على حقيقته، ولكنه لا بد أن يكون إحدى الوكالات أو منشوراً سرياً».

شذّت على ذلك صحيفة (ال ميساجيرو ـ Il Messaggero)، التي كانت (وما زالت) تصدر في روما، التي ابتعدت عن أمهات الصحف الوطنية وأيضا عن صحف الأقاليم، لتنفرد بموقف مغاير، طابعه الاستخفاف والسخرية بصورة الزعيم والمحارب، وذلك بإيراد حكاية هزلية بقدر ما كانت سقيمة حتى الإسفاف: إن عمر المختار، ذلكم العجوز الماكر، اللئيم، الخائن، الذي شيمته «الغدر والنفاق» وليست شيمة ذلك المقاتل العظيم الذي تقدمه لنا الأسطورة. إن حظه الوحيد ـ هذا ما تلاحظه الصحيفة ـ يتمثل في جواده، ذلك الحيوان الذكي حقاً، الذي كان يضمن له طريق النجاة عند احتدام المعارك، والفرار به بأقصى السرعة. وفي 11 سبتمبر تخلى عنه الحظ، إذ أصيب هذا الحواد «الذكي» إصابة مميتة، فقبض على صاحبه، نتيجة لذلك».

أما صحيفة (لاسيرا ـ La Sera «المساء»)، التي كانت تصدر في ميلانو فتصفه «كزعيم أبي وعنيد إلى أقصى حد لحركة العصيان».

وتعود الصحيفة لتتحدث عن عمر المختار، واصفة إياه «بالبدوي»، «قاطع الطريق»، وتنتهج نفس المسلك، ولو بالإعراب عن مشاعر متناقضة، صحيفة (لابروفينتشا) ـ كومو ـ التي بعد أن قالت عنه إنه « .. أبيّ، عزيز النفس وعنيد إلى أبعد حد، كان القائد الوحيد بين القادة في ليبيا الذي تمسك، على مدى عشرين عاما، بموقف العدو اللدود لنا، دون أن يترحزح . »، تختم مقالها بذات المضمون

والمعنى الذي قصدت إليه صحيفة ميلانو المسائية المذكورة.

الصحف اليومية الصادرة في يوم 7 سبتمبر 1931 وما بعده :

عندما كان الإيطاليون يطالعون أنباء القبض على عمر المختار وأولى التعليقات على هذا الحدث في الصحف اليومية، التي كان بعضها يعبر عن تقديره لعمر المختار واعترافه بشمائله ومناقبه، كان هذا الأخير يصعد إلى منصة المشنقة، في سلوق، ليطبق حبلها على رقبته.

وحسم قضية عمر المختار بهذه الطريقة السريعة القاسية، أدى إلى انحدار مماثل في لهجة الصحف اليومية وغيرها وهبوطها إلى حد نقل الرواية الموحدة، المغرضة والموجهة إلى طمس شخصية هذا الزعيم والاستخفاف بعمله ونشاطه.

ولم يخرج عن هذا الخط المقرر ويشذ عن هذا اللحن الناشز، إلا صحيفت (القرن التاسع عشر) التي كانت تصدر في جينوا، وصحيفة (روما) التي كانت تصدر في نابولي. فتقول الأولى، في عددها الصادر في يوم 17 سبتمبر :

«كان عمر المختار زعيم حركة العصيان، بدون منازع، زعيم له سلطة لا جدال فيها وبراعة خارقة في القيادة. ظل يقاتل ضد الإيطاليين بتصميم لا يفتر وبمكر لا يصدقه العقل... فهو مقاتل فذ، لا يشق له غبار، وحتى بعدما اجتاز سن السبعين، كان ما زال يعتبر عدوا شهماً وأبيا، قوي الشكيمة، مرهوب الجانب».

أمّا صحيفة (روما) فعبّرت عن وجهة نظرها بالآتي :

« . عمر المختار، البالغ من العمر 74 سنة، كافح ضد الإيطاليين بإصرار وتصميم وشجاعة ما كان بالإمكان عدم الاعتراف له بها... فهو سريع التحرك إلى أقصى حد... وماكر... لم يتهاون و لم يلن أو يرضخ حتى النهاية...».

وفي نظر مجموعة أخرى من الصحف اليومية، فإن عمر المختار «الخائن» و«قاطع الطريق»، ما زالت تعتبره، مع ذلك، رجلاً شجاعاً، شديد البأس، قوي الشكيمة. وينطبق هذا القول، بالخصوص، على صحيفة (بولو توسكانو «شعب توسكانا») التي أفردت لهذا الحدث مقالاً بعنوان: «عمر المختار، رئيس العصاة الخائن، يعدم على مشهد من ثلاثين ألف مستسلم من العرب»، بقلم مراسلها

«قبريلي اسكريمالي»، وصفت فيه بلهجة متّزنة وجادّة محنة عمر المختار، ناعتة إيّاه بـ «المتمرد الصامد»، حيث عبارة «الصامد» تنمّ بجلاء عن التقدير والاحترام. أما صحيفة (البوبولو دي تريبستي) الصادرة في يوم 18، فكتبت تقول:

«عندما تخلّى السنوسيون عن النضال المباشر، بقي عمر وحده يغذي نار الثورة ويؤججها.. عمر العجوز، وحده. وأصبح قاطع الطريق العجوز معزولاً».

وصحيفة (البوبولو دي بريشا Ilpopolo di Brescia) في عدد 19 ستمبر، كتبت تقول: «.. ربما كان يساورنا الوهم في أن يتردد سيف روما المصقول أمم شخصية عمر المختار. فهل سيجرأ معاونوه على مواصلة النضال، بعد تبحر ذلك السحر الذي كانت تثيره شخصية عمر المختار ومهابته لدى عصاة برقة.. ».

يكتنف هذا السؤال اعترافاً صريحا بقوة شكيمة عمر المختار. وتعبر عن نفس الشعور أيضا صحيفة (لا سيتينيلا ديتاليا ـ La Sentinella d Italia) التي كانت تصدر بمدينة كونتو، في عددها الصادر في يوم 19 ـ وصحيفة (لابروفنتشا دي بولزانو) في العدد الصادر في ذات يوم 19 سبتمبر، تسميه «الوغد»، وحول إعدامه تقول:

«.. إن 5 لا يحتفي (بإعدامه) رئيس قطاع طرق، يتمتع بقوة جبارة وشجاعة خارقة، فحسب، بل أيضا زعيم يتّقد حركة ونشاطا، بمكر رفيع،.. كان رئيس العصيان وزعيم عصابة قطاع الطرق. ويؤمن الدهماء بمناعته وحصانته من الأذى...»

وعن خلافته، تقول:

«ومساعدوه الأربعة، الذين ليست لهم مكانته ونفوذه... لا تتوفر فيهم قوة تأثيره المعنوي...».

وأخيرا هناك مجموعة من الصحف اليومية التي تواجه الأحداث والوقائع بلؤم وعنجهية تكتسي أحياناً طابع غطرسة «الفرق الفاشية .. Squadrismo دون أي اعتبار لمكانة العدو المغلوب، حتى بعد إعدامه ودون الاعتراف له بشيء تقريبا. وها هي صحيفة (ال بوبولو ديتاليا)[1]، الصادرة في يوم 17، تنشر مقالاً بعنوان «العدالة تقتص

[1] Il Papolo d Italia كانت الصحيفة الفاشية النزعة التي اصدرها موسوليني قبل استيلائه على الحكم، ثم ترك رئاسة تحريرها لشقيقه آرنالدو.

من عمر المختار» تتحدث فيه عن «غدر عمر المختار ونفاقه» وتصفه «بقاطع الطريق الماكر» وتعزو سبب استحالة القبض عليه في الماضي، إلى «جواده السريع جداً والذكي إلى أبعد حد، فضلاً عن حيويته الخارقة». ناقلة ما سبق أن ذكرته صحيفة «ال ميساجيرو» في عددها الصادر في اليوم السابق.

وصحيفة (ال تيلقرافو) ليوم 17، كتبت تقول:

«... وأخيراً تبخّرت الأسطورة، تلك الأسطورة السخيفة المنتشرة في برقة حول مناعة عمر المختار وإفلاته دوماً من الإصابة أو الموت، التي كانت تظهر هدا العجوز الماكر والغادر والمتوحش بمظهر البطل الخارق للعادة الذي لا أحد يقدر على القبض عليه، أبداً».

وجل المقالات تصف عمر المختار كذلك «بالمتمرد العجوز، الخبيث» وتشير إلى«غدره ونفاقه»، بالإضافة إلى تكرار حكاية جواده الذكي

وفي تعليق مقتضب بعنوان «إعدام عمر المختار» تقول صحيفة (ال ريستوي ديل كارلينو) في عددها الصادر يوم 17 سبتمبر: «لم يكن عمر المختار عاصياً فحسب، بل كان خائناً كذلك وداهية وبدوياً ماكراً... والحكم بالإعدام الذي نزل على رأس عمر المختار بسرعة وصرامة، هو بمثابة الدرس الشافي لبقايا فلول العصيان التي ما زالت تعشش، هنا وهناك، في الدواخل...».

وتختار صحيفة (لابروفنتشا دي بادوفا ـ La Provincia di Padova) عنواناً لمقالها الذي نشرته في عددها الصادر في يوم 17، «صورة الخائن» فتصفه بأنه «قاطع طريق ماكر» شيمته «الخبث والنفاق».

أما المقال الذي نشرته صحيفة (ال جورنالي ديتاليا) عن عمر المختار، بإمضاء «أو ف. » في عددها الصادر في يوم 18، فيتحدث عنه بهذه العبارة:

«إنه كان خائناً... خائناً من الطراز (الكلاسيكي). شأنه شأن أي لص يختفي بين الأشجار والأعشاب اليابسة...».

وأفردت صحيفة (ال بوبولو ديتاليا) في عددها الصادر في يوم 19، مكاناً بارزاً لنشر مراسلة وافاها بها من بنغازي «ساندرو ساندري» بعنوان: «القضاء المبرم على العصيان في برقة ـ كيف تم القبض على عمر المختار، «معذب» الجنود الإيطاليين،

ونفذ فيه حكم العدالة». ويحشر في المقال عنصر جديد يهدف إلى النيل من مكانة الزعيم عمر المختار ومهابته، وهو الإدعاء بموقفه الجبان سواء أمام المحكمة أم عندما صعد إلى منصة المشنقة:

«... إن سلوكه عند مثوله أمام المحكمة، التي عقدت جلستها في قصر «الليتوريو»، ببنغازي، وأثناء محاكمته، كان لا ينطق، إطلاقَ، مع شهرته كقائد أسطوري، للتي أحيط بها طوال كل هذه السنوات. اعترف بسوء أفعاله مؤكداً على أنه قاتل، وقابل قراءة الحكم بإرتجاف وانفعال ظاهرين».

وما ظنه ساندري وغير ساندري اعترافاً بالذنب، كان في الواقع نقيض ذلك في الكامل، ففي اعتراف عمر المختار إصرار على تحمل المسؤولية وتقبل التهم المنسوبة إليه من قبل خصمه، على أساس أنها تدخل ضمن متطلبات الكفاح الذي كان يخوضه، فليس هناك ندم أو ضعف، إذاً، وذلك واضح أيضاً فمن خلال ما أشار إليه عمر المختار من أن نضاله كان في سبيل الله.

وتتناول صحيفة (البيوكولو ـ Il Piccolo) ليوم 20، هذا الموضوع لتتحدث عمن جديد، عن طريق مراسلها في طرابلس، عن سلوك عمر المختار أثناء أسره، مع التقليل من انفعاله عند سماع الحكم عليه:

«.. وعمر المختار، الذي كان قد استطاع التحكم في نفسه خلال المحاكمة وتلاوة منطوق الحكم، لم يتمكن من إخفاء انفعاله أمام حبل المشنقة...».

أما صحيفة (ال جورنالي دي جينوفا ـ Il Giornale di Genevo) في عددها الصادر في يوم 20 نفسه، فتختار عنوان: «موقف عمر المختار غير المجيد «للمقال الذي قامت فيه جميع الصحف الأخرى من حيث الاستخفاف والاحتقار لموقفه أمام المحكمة وقرب موعد إعدامه:

«.. عند سماعه للحكم عليه بالإعدام، خارت عزيمته ولم يعد عند مستوى شهرته بالشجاعة ورباطة الجأش.. صعد عمر المختار إلى منصة المشنقة وعلامات الخوف ظاهرة عليه، كان يسنده رجال «ظبطيتنا» ومات وهو ينحب بصوت مسموع...».

ونأتي الآن إلى مجلة (جيراركيا ـ Gerarchia)، التي كانت لسان حال الثورة

الفاشية وتصدر مرة في الشهر. فهي تتناول الموضوع في عددها التاسع لشهر سبتمبر 1931، بطريقة سخيفة، وبعبارات بذيئة، في جوهرها، ودعائية بصورة بلهاء. نشرت هذا المقال في باب «يوميات السياسة الاستعمارية»:

«... عمر المختار ـ إن القبض على عمر المختار، في 11 سبتمبر، بمنطقة سلنطة، ما هو إلا إحدى العمليات الباهرة التي تقوم بها القوات الإيطالية في ليبيا، للحفاظ على الأمن والسكينة. ونحن سوف لن نطيل الحديث لعرض صورة قاطع الطريق المعتمة، لأن القراء يعرفونها، سنكتفي فقط بملاحظة أن نهاية عمر المختار كانت متوقعة، إذ لم يعد باستطاعته الإفلات من خطة احتوائه وتطويق جماعته من قبل تشكيلاتنا المسلحة حسب استراتيجية استعمارية أبهرت العالم الخارجي ومكنتنا من الاستيلاء على مستعمرتين في حوض البحر الأبيض المتوسط. ماديا و«روحياً».

وبعد القبض على زعيم شرس كان يقود مقاومة يائسة يتصدى من خلالها العصاة لقواتنا، إنكمشت المقاومة وتلاشت لتصبح ذكرى أليمة لسياسة استعمارية مهيبة وجبانة كانت سائدة في الماضي. هذا، وكان عمر المختار يسعى قدر جهده إلى أن يغذي المقاومة والصمود ضد الإيطاليين، على أمل إهباط عزيمة القيادة الإيطالية. ولكنه لم يتمكن إلا من إظهار عزلته المتفاقمة وبث الأحقاد والضغائن بين أتباعه الذين أصبحوا قلة بعدما ضاقوا ذرعاً بتسلطه وتحكمه. وأصبح قاطع الطريق المعير كأحقر ملك فقد عرشه، حتى انقلب، في الآونة الأخيرة وبعدما فقد اعتماده على تبرعات الأهالي وجباية الضرائب التي كانت مفروضة عليهم، انقلب إلى تعاطي اللصوصية وأعمال السلب والنهب ـ واحتلال الكفرة ـ الذي سدد ضربة قاتلة للمقاومة ـ اضطر عمر المختار إلى العيش في ترحال مستمر وشعوراً منه بعدم ضمان أمنه بمنطقة الحدود مع مصر، أصبح هذا المغامر يصول ويجول في منطقة سلنطة، معتمداً على ثقته في شجاعة جماعته وجرأتهم. وبحكم خبرته بالأرض وطبيعتها، ما كان ليتصور نهاية غير مجيدة كهذه. وقد نسي عمر أن قواتنا قادرة على اقتحام كل الصعوبات. وكان لا بد أن تذكره الدروس القاسية التي تلقاها في الفترة القريبة الماضية بأنه لا يمكن تحدي رئيس كقراتزياني بدون عقاب».

الصحافة الاستعمارية في إيطاليا :

تنقل مجلة (لازيوني كولونيالي ـ L Azione Coloniale ـ العمل الاستعماري) في عددها الصادر في يوم 20 سبتمبر في مقال بقلم ماريو بيليي Mario Pigli، نبأ إعدام عمر المختار رمياً بالرصاص. وواضح أنها كانت عجالة كتبت بعد صدور بلاغ وكالة ستيفاني وأحيلت إلى المطبعة دون اعتناء بتصويب الأخطاء بعد تسليمها للطبع.

والكلمة المكملة التي أعدتها هيئة التحرير، تعقيبا على مقال ساندرو ساندري بعنوان: «لقد هرم حاجز الأسلاك الشائكة العصيان في برقة» الذي نشرته المجلة المذكورة (لازيوني كولونيالي) في عددها الصادر في أول أكتوبر، تكتسي أهمية خاصة من حيث أنها تتناول الجانب العقائدي، ونحن ننقلها فيما يلي:

«... إننا تركنا الكلمة للرفيق (كاميراتا)[ب] ساندري ليتحدث، من واقع إلمامه الجيد بظروف البيئة والمجتمع ولباقته في التعبير عن أفكار الرؤساء، عن مدى خطورة الحدث وتقييم العملية ونتائجها من الناحية التكتيكية. إلا أن هناك جوانب أخرى في تاريخ ليبيا الحديث تستحق تسليط الضوء عليها لاستيضاحها، أولها الأسلوب المتميز، في بساطته وقوة فعاليته وتأثيره، ثم وضوح الرؤية الذي ميز دائما عمل الجنرال قراتزياني عن غيره، سواء في الإعداد للعملية أم في تنفيذها وطريقة نشر نجاحها بين الجماهير الإيطالية والأجنبية، يحذوه مبدأ راسخ لا يتزحزح عنه التصميم على النصر وتوفير وسيلة مناسبة وناجعة لتحقيقه لم يألفها تاريخنا الاستعماري من قبل، فحقق فوزاً كاملاً وشاملاً، خالياً من الثغرات أو الندم.

وهذا هو السبب الذي دعانا إلى إبراز هذا الأسلوب الفريد، سواء في إيطاليا أم فيما وراء البحار، لأنه ممهور بطابع عريمة رئيس أوحد ـ الدوتشي المظفر ـ لأن قادة إيطاليا الفاشية المستنيرين لا يقصدون إلى هدف غير هذا الهدف، الذي يسعى إلى بلوغه جميع أولئك الذين يتشرفون بخدمة الوطن».

وأفردت مجلة (ليتاليا كولونيالي ـ Coloniale L Italia ـ إيطاليا الاستعمارية) في

[ب] كان الفاشيست يتخاطبون بهذه العبارة، شأن النازيين، وهي في الإيطالية «كاميراتا (Camerata)» التي تختلف عن العبارة التي تستعملها أحزاب أخرى وهي (كومبنيو) التي تعني أيضا «الرفيق»

عددها لشهر أكتوبر، عدة صفحات لنشر مقال مسهب بعنوان: «نهاية عمر المختار» ضمنته عدداً من الصور والخرائط الجغرافية. إلا أنه مقال لم يأت بجديد في حملته، إذا استثنينا الصور، فهو لا يتعدى «الكشكول» من البلاغات الصحفية ومقتطفات من المقالات التي ظهرت على صفحات الجرائد اليومية في النصف الثاني من الشهر السابق.

هذا ولم تخصص مجلة (ريفيستا ديلي كولونيي ايتالياني Rivista delle Colonie Italiane ـ مجلة المستعمرات الإيطالية) في عددها لشهر أكتوبر، إلا بضعة أسطر، في باب «اليوميات الاستعمارية» بعنوان «برقة» أكدت فيه من جملة ما أكدته «إن قطاع الطرق في الجبل فقدوا رئيساً ليس من السهل، إطلاقاً، التعويض عنه»

فيما نشرت مجلة (اولتريماري ـ Oltremare ـ ما وراء البحار) عموداً صغيراً بعنوان «عمر المختار في التعليقات الأجنبية»:

«لقي نبأ القبض على عمر المختار وإعدامه، ذلك الخائن والقائد المتعصب لآخر شراذم العصاة في برقة، صدى واسعاً جداً حتى خارج حدود إيطاليا ولم تصلنا حتى كتابة هذه الأسطر إلا تعليقات قليلة من الخارج، ولكن جميعها مستوحى من الشعور بالإعجاب بالصرامة التي قاد بها النظام الفاشي معركته المظفرة ضد الثوار، مشيدة على الأخص بالمحكمة ورباطة الجأش التي برهن عليها الجنرال قراتزياني الذي أصبح يمثل الرمز الساطع والصورة اللامعة للجندي الاستعماري، من طراز (بيجو Bugeaud) و(كيتشنر kitchner).

وها هي صحيفة «التايمس» في مقال افتتاحي نشرته غداة القبض على عمر المختار، تشيد، في عبارات حارة، بالنجاح الإيطالي الباهر، الذي توج، بما تستحقه، سلسلة من العمليات الحربية التي نفذت بحنكة ودراية لا تضاهي. وبعدما تناولت نشاط المتمرد العجوز في كفاحه ضد إيطاليا، قالت الصحيفة اللندنية الكبرى إن الحرب قد قربت من نهايتها بعد أن تواصلت بدون انقطاع تقريباً، زهاء عشرين عاماً، أي منذ خريف 1911م عندما انتزع الإيطاليون من تركيا طرابلس وبنغازي ودرنة وأعربت التايمس عن وجهة نظرها بهذه العبارة: «كان كفاحاً طويلاً ودامياً، كانت حرب غزوات وغارات، وكمائن ومباغتات خاطفة لا تعرف نتائجها، حتى

كانت الغلبة، بفضل عزيمة الحكومة الفاشية التي لا تلين، للغزاة على أعدائهم ومكنتهم من فرض سيطرتهم وهيمنتهم عليهم».

أما صحيفة (تامب Temps) فنشرت تقريراً مسهباً علّقت فيه على عملية القبض على رئيس التمرد، كما يلي:

«.. تلقّت بذلك آخر حركة لمقاومة إيطاليا في ليبيا، ضربة من أشد الضربات التي نزلت على رأسها حتى الآن. إذ أن حركة العصيان في برقة كانت تعتمد في الكامل على شجاعة عمر المختار وشدة بأسه وما ظل يتمتع به من مكانة ونفوذ شخصي وجاه. ويمكن مقارنته، والقياس مع الفارق الكبير، بعبد القادر. فهو كان، على كل حال، زعيماً من طينة خاصة، له لباقة وبراعة في القتال صقلتها التجارب والاختبار الطويل. لقد تعرض مراراً لخطر الوقوع في قبضة الإيطاليين ولكنه كان يتمكن من الإفلات، بمعجزة، في كل مرة، ومناقبه والمعارك المتكررة التي خاضها، ولم يصب خلالها بأذى، أكسبته شهرة التحصن والمناعة من الإصابات أو الوقوع في الأسر. وفضلاً عن ذلك. كان يعتبر حربه «جهاداً» وعلى هذا الأساس كان يمثل المقاتل المسلم الذي واصل كفاحه ومقاومته ضد الاحتلال الإيطالي. وهذا ما يحمل على إدراك مدى خطورة القبض عليه. كما يجوز القول أنه باختفاء عمر المختار قد انهار نهائياً آخر معقل ضد التغلغل الأوروبي إلى الشمال الأفريقي. هذا، ويرجع الفضل في القبض على الزعيم البدوي العجوز إلى عدد من التدابير التي أعدها بلباقة وتبصر ونفذها الجنرال قراتزياني (بيجو ليبيا ـ Bugeaud).

وبعدما تناولت بالكثير من التفاصيل العمليات المعقدة التي قام بها الجنرال لمجابهة حركة المقاومة وكسر شوكتها، تواصل الصحيفة عرضها للحدث وتختتمه كالآتي:

«.. أصبحت محاولات عمر المختار وأتباعه تظهر بيأسها أكثر فأكثر، بل قل إنها كانت، في الواقع، تلفظ أنفاسها الأخيرة، والقبض على عمر المختار كان، في واقع الأمر، آخر فصل في الرواية. وبهذا الحدث الذي يدل دلالة واضحة على حصول تحسن كبير في التنظيم العسكري الإيطالي في ليبيا، وخاصة في برقة، يمكن اعتبار القطرين التركيين القديمين في شمال أفريقيا، قد عادا إلى حياة السلام والسكينة، وهذا

واقع ستكون له، دون شك، نتائجه الخطيرة، ذلك أن حركة العصيان كانت تسيطر، حتى الآن، في قلب البلاد، على أخصب الأراضي وأغناها وأكثرها مبعثاً لأطماع المعمرين الإيطاليين في الاستيلاء عليها فمشاريع التعمير الاستيطاني في برقة أصبح تنفيذها وتطويرها متيسرا، في كنف السلم والأمان، ولم يعد هناك شيء يحول دون قيام إيطاليا بأداء رسالتها الحضارية المجدية في هذه البقاع».

ويبدو أن محرر هذا التقرير كان يبحث عن نوع من الشرعية الدولية أو الحصول على ما يشبه الشهادة من صحف كبرى لها مكانتها في دول استعمارية عظمى، كبريطانيا وفرنسا.

الصحف الاستعمارية في برقة :

اكتست محنة عمر المختار، في صحف المستعمرة التي ولد فيها عمر المختار وترعرع وناضل، صبغة أكثر صخبا وبروزا وإثارة ويستشف من مقالاتها أن برقة من وجهة النظر الاستعمارية - هي، بداهة، أول من يستفيد من إعدام عمر المختار والقضاء على حركة المقاومة.

فصحيفة (تشيرينانكا - برقة) في عددها الصادر في يوم 16 سبتمبر، تنقل تعريفا لعمر المختار ابتكره قراتزياني ولا يخلو من قوة التأثر المباشر كشعار دعائي ولكنه تعريف عبي، بعد كل اعتبار. فكان نائب الوالي يصف عمر المختار بأنه «بطل أسطوري، في حالة فرار أبدا».

ومن جهة أخرى فإن مقال ساندرو ساندري هام من حيث أنه يبين إلى أي حد يصل تهور نفسيات فاشية وضيعة مهرت بطابعها الأوساط الاستعمارية وتصرفاتها فساندري من المقربين إلى قراتزياني[7]

وجاء المقال كخليط ملبك من الاعتبارات المميزة لعقلية الفاشيست

[7] سوف يمق ساندري عبرات إعجابه بـ «شيبيو الفاشيستي» ويشيد بمناقبه وأمجاده في كتبه «الجنرال قراتزياني» - دار النشر - العمل الاستعماري - روما - 1932، وكذلك في كتبه حول الحملة على الحبشة «ستة أشهر حرب على الجبهة الصومالية» - مطابع بيرتاريلي، ميلانو، روما، 1936

الاستعماريين، مشوباً بنوع من «الرومانتيكية» من أدنى المستويات، ولكنه يتضمن، ولو تلميحاً، اعترافا بشمائل العدو، لكي ينقضها وينكرها عنه في سياق الكلام. ثم يشيد باللجوء إلى استخدام القوة كمنهج لحل المشاكل على الصعيد المحلي، بتفاوت في الصراحة، ثم يتعرض، بتعمد أو ربما بدافع من جهله بالموضوع، تشويه الثقافة المحلية ولا يتناولها على حقيقتها.

وأخيرا يلجأ إلى الأساليب المألوفة لوصف غرابة تلك البقاع وسكانها، فيسبغ عليهم أوصافاً تثير فضول القارئ وتدغدغ مخيلته، ولكنه يتمادى فيها إلى حد الإسفاف والسخف حتى يشمئز منها القارئ.

والمقال الذي نقصده، ظهر على صفحات جريدة (تشيريبانكا) في عددها الصادر في يوم 23 سبتمبر. ونحن ننقل نصه الكامل كملحق.

وهناك مقال آخر، دائما على صفحات الجريدة المذكورة ويكتنف شيئا من الأهمية، نشر في عدد 16 ديسمبر 1931، بقلم صاحبنا ساندري، بعنوان «العصيان في برقة يحتضر». وتكمن أهميته في أن كاتبه، في نهاية المطاف وبعدما اتضح أن حرب العصابات ضد إيطاليا قد لفظت أنفاسها الأخيرة وانتهى أمرها، يبدي اعترافا بمناقب عمر المختار ولو من طرف لسانه، ويعرب عن وخز ضمير ربما كانت تكبته لحظة حياء أو خجل.

في الصحافة المناهضة للفاشية :

إذا استثنينا ما كانت تتخذه المعارضة في الخارج من مواقف حد عائمة وعامة، من نوع التمسك بمبدأ الحرية والاستقلال للشعوب المستعمرة وما تنشره، بين الفينة والفينة، من مقالات في الصحف المناوئة للفاشية، وخاصة الصحف الشيوعية، فإنه لا يعرف أن نضال المعارضين أخذ مكانا ملتزما التزاما قويا بالكفاح ضد الفاشية على الصعيد الاستعماري. والاستثناء الخطير من ذلك، يتمثل في الموقف الذي اتخذه هؤلاء المعارضون من الهجوم على الحبشة، الذي يتعدى، بالنظر إلى خطورته القصوى على الصعيد الوطني، والدولي على الأخص، المجال الاستعماري البحث ليقلب، في تلك السنوات، إلى حدث بالغ الخطورة على السياسة العالمية في مجموعها.

هذا ولم يثر إعدام عمر المختار وقمع المقاومة، وحرب العصابات ضد إيطاليا، في ليبيا بصورة قاسية، اهتماماً كبيراً في صفوف الحركة المناهضة للفاشية، أو على الأقل ليس إلى درجة استخدامه كحجة لشن الدعاية ضد الاستعمار (تلك الدعاية النادرة إلى أبعد حد، كما سبق أن ذكرنا) وخاصة ضد الحركة الاستعمارية الفاشية.

ولا شيء يحول دون ملاحظة أن حركة النضال ضد الفاشية كانت تواجه مشاكل أعتى وأشد من أن تمكنها من الاهتمام بقضايا الاستعمار، سواء بسبب رسوخ الحكم الفاشي في الداخل أم بسبب ما تمكن من الحصول عليه من رضى وتواطئ في الخارج أو للصعوبات القائمة في وجه كسب أنصار مناضلين. إلا أن عدم الاكتراث بأحداث المستعمرات من قبل مناهضي الفاشية في الخارج، كانت له، في رأينا، مسببات أخرى أقل ارتباطاً بالأحداث ذاتها، ونعني أنه كان يرتبط بعوامل ثقافية بحتة، تتفق، في جورها، مع قلة شعبية موضوع المستعمرات بصورة عامة، لدى أغلبية الرأي العام الإيطالي.

فنلاحظ مثلا، أن صحيفة (لونيتا L Unita) التي كانت تصدر في باريس ظلت منشغلة طوال عام 1931 فقط بأتفه الوقائع المتصلة بتنظيم الحرب الشيوعي الإيطالي، وتركز جل اهتماماتها على إثارة موضوع المؤامرات الامبريالية ضد الاتحاد السوفييتي والصين، في محاولة لا كتشاف حقيقتها، في الوقت الذي كانت فيه المقاومة في برقة تواجه مأساتها وتعاني من محنتها. وفي يولية 1929، كانت نفس الصحيفة قد نشرت نداءا للحزب الشيوعي الإيطالي تندد فيه «بأعمال القرصنة الفاشية في المستعمرات» وهذه هي إحدى الوثائق الشيوعية القليلة حول القضية الليبية، ولو أنها لم تخل من الأخطاء من حيث الواقع (فهي تتحدث عن عمليات عسكرية في قطر طرابلس، في الوقت الذي توقفت فيه هذه العمليات منذ سنوات، فيما ظلت متواصلة في فزان وبرقة)، وكانت تعتمد على العموميات وعلى معايير قديمة، الأمر الذي يحمل على الاعتقاد بأنها مذكرة كان قد أعدها من داخل هيئة التحرير شخص لم يكن لديه إلا إلمام قليل بالواقع الذي كان يتناوله ويعلق عليه، أو ربما كان يجهله في الكامل

والتقرير الآخر الذي نشرته (لونيتا L Unita) في أحد اعدادها لشهر ديسمبر 1929، ويتناول هدنة سيدي رحومة علامة على سطحية معلومات هيئة التحرير

وأساليبها البيروقراطية، حيث أنها ذكرت أن عمر المختار، زعيم المقاومة قد استسلم، في الوقت الذي واصل فيه الشعب القتال. إن ما حدث في سيدي رحومة كان مجرد عقد هدنة، ولم يكن استسلاماً، كما نعلم، وطوال الفترة التي تعهد عمر المختار بمراعاة الهدنة خلالها، لم يقم بأية عمليات عسكرية ضد القوات الإيطالية[8]، إلى أن رأى أن هناك داعياً لخرقها. وينتهي المقال بشعار «ليبيا لليبيين».

والخبر الوحيد الذي تطالعنا به (Internationale Correspondare ـ المراسلة الدولية) ـ لسان حال «الدولية الثالثة» الشيوعية (14نوفمبر 1931) باللغة الفرنسية كان بقلم مراسل لها في القدس لم يمض باسمه، بل اكتفى بالحرفين الأولين منه: «ج ب» وبعنوان «المؤتمر الاسلامي ودروسه السياسية»، وجاء فيه، بنصه الأصلي:

«... ويلاحظ في ذات الوقت ظهور ميول نحو توطيد التضامن وإقامة جبهة موحدة ضد الإمبريالية كلما حاولت أية دولة إمبريالية كبت أنفاس بلاد عربية أو إسلامية ضعيفة. فنحن شاهدنا عاصفة بمعناها من المظاهرات ضد فرنسا عندما انتشر نبأ ما قامت به من أعمال العنف في المغرب أو في سوريا، وضد إيطاليا التي تقوم بعملية إبادة منتظمة لسكان طرابلس الغرب العرب وأعدمت، مؤخرا، عمر المختار، زعيم الثائرين، وضد الاضطهاد الإمبريالي الذي تمارسه هولندا في أندونيسيا، الخ. ».

ونشرت صحيفة (لافانتي) ـ الناطقة بلسان الحزب الاشتراكي الإيطالي - في عددها الصادر في باريس يوم 27 ستمبر 1931، مقالا قصيرا بالصفحة الثالثة، بدون توقيع، وبعنوان «من داخل السجن الفاشي»، وبعنوان فرعي «شهيد آخر». فالمقال، على اقتضابه، متنوع ومليء بالمفاجآت، ويتحدث بصراحة غريبة، عن أطفال ليبيين

(8) للحصول على معلومات أكثر تفصيلا، يراجع بحث «جورجو روشا» بهذا الكتاب نفسه أما لويجي لونقو، فيحلل، بدوره، المشكلة الليبية في مقال نشرته مجلة (لوستاتو اوبيرايو) ـ دولة العمل ـ باسم مستعار، ل قالو، في عددها الصادر في نوفمبر 1929، ص 678 ـ 679 ـ بعنوان «سنتان من الحرب الاستعمارية الفاشية» ـ ولونقو، الذي ربما استقى معلوماته من الصحف الإيطالية «الموجهة»، قد توفق إلى حد بعيد في استنباط أن بادوليو كان قلب لقمع العسكري ودمعه، و أنه كان يعتبر، هو الآخر، أن هدنة سنة 1929، استسلام وفي الثلاث مرات التي ذكر فيها عمر المختار، يقر بأنه ألقى سلاحه واستسلم.

رحلوا إلى إيطاليا «لقلبهم إلى عبد، وكاثوليك» وعن منفيين ليبيين حشروا على السواحل لقتلهم جوعاً. أما فيما يتعلق بحكاية «إلقاء الزعماء العرب من الطائرات وهي تحلق في الجو، متعة لأصحاب القمصان السوداء»، فلم نعثر على ما يؤكد صحتها، رغم تردد ذكرها في الصحافة العربية المزامنة لتلك الأحداث وأيضاً في الأوساط العسكرية في المستعمرة.

«... وكما سبق أن سقط «قورطان»[9]، بوشهداء «بولا» الأربعة، كذلك سقط عمر المختار، شهيداً جديداً، لقضية ليست قضيتنا، ولكنه سقط ضحية عدونا المشترك، في سبيل تحرير بلاده، من شراذم الفاشيست السفاحة. إن الفظائع الرهيبة التي اقترفتها الفاشية في ليبيا والتي تتجسد في الإبادة المنتظمة للأهالي، ونفي الأطفال إلى إيطاليا لقلبهم إلى عبيد وكاثوليك، إلى اعتقال آلاف من العرب في ميادين على الساحل لقتلهم البطيء جوعاً وإلى الإلقاء بالزعماء العرب إلى الأرض من على متن الطائرات المحلقة في الجو، متعة لأصحاب القمصان السوداء، معروفة من جميع أرجاء العالم. وصد هذه الفظائع التي ليس من السهل وصفها، كان قد نزل عمر المختار إلى الميدان، ليكافح بهمة الأبطال على رأس جماعة من الشباب الشجعان. وبعدما تغلب عليه العدو بعدده وأسلحته المتفوقة ووسائله الحديثة، وقع عمر المختار في الأسر واقتيد أمام محكمة هزيلة أقامها أصحاب القمصان السوداء. وهناك، وبهامته الشامخة، وفي شمم وإباء، صرخ في وجوه دمي الفاشية القذرة، بحقده العارم عليهم ـ فمات موتة الأبطال ـ المجد للشهيد الجديد. فلنتذكره، هو أيضاً، في يوم الحشر».

إن مقال الصحيفة الاشتراكية له هدف تاريخي موضوعي محدد، ذلك أنه يكتسي، حتى في هذه الحالة، أهمية الوثيقة النادرة، شأنه شأن مقالات الصحف الشيوعية، لأنها تعد إلينا أصدق صورة لعمر المختار، المقاتل الذي قاد شعبه، بحكمة وشجاعة وشدة بأس وإباء، ولم يتخاذل أو يستسلم أبداً.

[9] فلاديميرو قورطان W.Gortan فلاح كرواطي أعدم رمياً بالرصاص بعد أن أصدرت المحكمة الخاصة بأمن الدولة حكمها بإعدامه في عام 1929، لأنه خاض اشتباكا مسلحا ضد «الميليشيا» الفاشية.

المصادر والمراجع للباب الرابع

Sources

"La Stampa", 19 Settembre, 1931.
"La Cirenaica", Bengasi, 23 9 1931.

G. Bedendo, La Politica di Graziani 1930 - 1934, Bengasi, 1934
Gallo, L., "Due anni di guerra coloniale fascista", Stato Operaio, III 8 Novembre, 1929, 678 - 683.
Graziani, Rodolfo, Cirenaica Pacificata, Milano, 1932
Sahdri, Sandro, Il Generale Graziani, Roma, Edizione Azione Coloniale, 1932.
Sandi, Sandro., Sei mesi di Guerra sul Fronte Somalo, Milano - Roma, Arti Grafiche Bertarelli, 1936.

الملاحق

رأيت أن أجمع عدداً من المكاتيب التي يبدو لي من المناسب عرضها، بنصها الكامل، على القارئ كملاحق بدلاً من إثقال الكتاب بها. كما إنني أود أن أدرج بعض المعلومات التكميلية حولها. وأول هذه الملاحق مقال «دانتي ماريا تونينيتي ـ Dante M. Tuninetti» الذي يستمد أهميته، في المقام الأول، من كون كاتبه كان آنذاك «مفوض» الاتحاد الفاشي لبرقة.

والمقال الثاني كنت قد تناولت عرضه بما فيه الكفاية في صلب الكتاب

وأما الثالث فيعتبر مصدراً وثائقياً نادراً، أدين باكتشافه للصديق «جورجو كانتيلي ـ G. Cantelli»، فهو كناية عن أنشودة «ملحمية» صغيرة، باللهجة الدارجة لإحياء روما الشعبية «وأنا أنقل منها الفقرات الثلاث الأخيرة المتعلقة بعمر المختار» ألفها الرائد جوسيبي بيدندو «على شرف قراتزياني» وعمل على طبعها في بنغازي، بمناسبة عودة هذا الأخير إلى إيطاليا، في عام 1934. والرائد، قارض هذه الأبيات الشعرية «الملحمية» السمجة، الذي تعمد، في نظمها، تقليد «باسكاريلا». وتمادى في غيه إلى حد الإسفاف والوقاحة في خاتمتها، كان وكيلاً للإدعاء في هيئة المحكمة التي نظرت في قضية عمر المختار وأصدرت عليه حكمها بالإعدام.

والملحق الرابع والأخير يتضمن قائمة بالصحف التي تناولت أنباء القبض على عمر المختار ومحاكمته وإعدامه، وتمكنا من جمعها ومراجعتها كما أنني مدين بالشكر للأستاذ «فرانشيسكو كاسترو ـ Francesco Castro» لتكرمه بوضع معظم هذه المواد تحت تصرفي. ولئن كان البحث غير مستوفي إلا أنه يكفي بما فيه الزيادة لتوفير الفرصة لتكوين صورة نقدية للصحافة الإيطالية حول آخر مرحلة في حياة عمر المختار.

ملحق رقم (1)

أولاً: مقال دانتي ماريا تونينيتي (مفوض الاتحاد الفاشي - برقة):

بعد إعدام عمر المختار شنقاً،
دعوة صاحب السيادة قراتزياني إلى الثوار الباقين على قيد الحياة للاستسلام.
بنغازي، 18، ليلاً.

«استمراراً في تنفيذ برنامجه السياسي ـ العسكري الذي كان قد أعلن عنه منذ أن وطئت قدماه ساحل المستعمرة، بعدما اتفق في شأنه مع وزير المستعمرات دي بونو ومع والي ليبيا، المشير بادوليو. كان صاحب السعادة رودولفو قراتزياني قد أرغم، في الآونة الأخيرة، الباقين على قيد الحياة من رجال العصيان، على العيش في ظروف قاسية، حياة مغامرة وحياة الغجر الذين لا يقر لهم قرار، مطاردين بدون انقطاع، تتعقبهم وحداتنا السريعة الحركة في كل مكان، أضف إلى ذلك توقف مصدر تزودهم بالمؤن والمساعدات والذخيرة، بعد ترحيل أهالي الجبل وإيصاد الحدود المصرية في وجههم بحاجز منيع من الأسلاك الشائكة، طوله 320 كيلو متراً، وتشديد الحراسة عليهم.

فكان من الطبيعي أن يستنفذ العصيان قواه وينهار، ولذلك لا بد من إدراج القبض على عمر المختار رئيس العصاة، في نطاق الصورة الشاملة للحرب ضد حركة العصيان، التي يمثل هذا الحدث فيها أبلغ مرحلة من مراحلها والنتيجة الحتمية لها، منطقياً، ولا نتيجة غيرها.

القبض على عمر المختار:

أصبح اليوم بالإمكان إعطاء المزيد من التفاصيل حول العملية المثيرة التي

أسفرت عن القبض على عمر المختار الزعيم العجوز، الذي ظل على رأس حركة العصيان المطلق طوال تسع سنوات. ففي فجر يوم 11 وعلى أثر تلقي إشارة من طائراتنا، التي كانت قد قامت في اليوم السابق بغارة على المنطقة، عززتها معلومات أفاد بها «مخبرونا» مؤكدين على وجود «دور»ضخم للعصاة بمنطقة سلنطة البيضاء، أعدت القيادة الإيطالية على الجبل خطة لمباغتة الدور وتطويقه، وعهدت بالترتيب لها وتنفيذها إلى «مجموعات» رقاتزي وبياتي وماروني ـ Ragazzi, Piatti, Marone ـ تدعمها كواكب من السيارات المدرعة، وحشدت، في ذات الوقت، بعض تشكيلات من الفرسان المحليين، الذين عني قراتزياني، في الآونة الأخيرة بانتقائهم وتحسين تدريبهم وكفاءتهم، بنقطة معينة لقطع خط الرجعة المحتمل أن يفلت من خلاله العصاة عند تقهقرهم. وكانت المهمة المكلفة بها هذه الوحدات ممارسة أقصى ضغط على العصاة، أينما كانوا، وإرهاق جيادهم، بالخصوص، بحيث يسهل القبض على راكبيها المسلحين.

فتطورت الخطة حسب المقرر: حاول دور عمر المختار، نتيجة ضغط مجموعة راقاتزي، الهروب إلى ناحية الغرب، فتصدت له مجموعة بياتي، ودار اشتباك عنيف بين الطرفين، فحاول الدور الإفلات من جديد، إلا أنه اصطدم بالدبابات التي كانت قد اصطفت من قبل، تحسباً لمثل هذه المحاولة، على طول غابة «شنيشن». ولما أدرك رجال العصاة أنهم كانوا محاصرين من ثلاث جهات، حاولوا المستحيل للإفلات من التطويق الكامل، فاندفعوا، في فوضى عارمة، وبأقصى السرعة، صوب غوط جليمانة، حيث كانت مترصدة لهم، كما سبق أن ذكرنا، السرية السابعة «صواري» التي كانت متحفزة للانقضاض عليهم وتشتيتهم.

فاحتدم القتال واستمر أتونه، عندها حاول عمر المختار، قائد الدور، الإفلات من الموت، كما حدث في السنة السابقة «لقائمقامه» «فضيل بو عمر» جرياً على عادته القديمة: التملص من المعركة تحت حماية نفر من أتباعه. فاختفى وسط الأحراش والأعشاب اليابسة القريبة من الغابة. ولكن مناورة هذا الرعيم المتمرد الذي لم تكن تنقصه الحيلة والمكر وكثيراً ما لجأ إليها في نصب الكمائن لقواتنا لم تنطل على الصواري. أدركه على الفور أحد هؤلاء الفرسان. كان فرسه قد أصيب ومن ثم لم يعد

أمام عمر المختار أي مفر. عندها حاول، أن يلعب الورقة الأخيرة الباقية لديه، معتمداً على شهرته كقائد محصن ضد الإصابات والموت، تلك الشهرة التي اكتسبها من خلال الكمائن والخدع التي ظل يحبكها، إضراراً بإيطاليا. فما أن واجه فارس الصواري حتى صرخ باسمه عالياً «أنا عمر المختار.» على أمل الإفلات من العقاب العادل، وهو أمل لا يتصوره عاقل، في تلك اللحظة كان الاشتباك يوشك على نهايته لصالح قواتنا وأخيراً هزم عمر المختار، ذلك العنيد وآخر رئيس لعصابات قطاع الطرق، المتمردين، الذي اعتاد قتل دورياتنا وشن العدوان على المستسلمين وقتلهم وسلب أرزاقهم.

الشنق :

نقل إلى أبولونية «مرسي سوسة» ومنها إلى بنغازي، لتقديمه للمحاكمة أمام «المحكمة الخاصة» المنعقدة بقصر «الليتوريو» الذي كان قد استضاف - في عهد الوهن والمساومات التعسة - البرلمان الهزيل، الذي سمحت بإقامته حكومة روما قبل قيام الحكم الفاشي.

جرت محاكمته بسرعة ولكن بوضوح وصراحة واستيفاء الإجراءات. فاعترف المتمرد العجوز بجميع التهم المنسوبة إليه: الثورة المسلحة، الخيانة، تزعم العصيان، وغيرها، عديدة.

وسلوك التكبر والاستعلاء الذي أظهره هذا السفاح، الذي ظل يقتل جنودنا والأهالي المحليين الموالين لإيطاليا، لم يتمكن من الاحتفاظ به طوال سير المحاكمة. فعند مرافعة وكيل الإدعاء والنطق بالحكم، بعدها، ظهر عليه بوضوح، أكثر من مرة، الانفعال، الذي غلب عليه وعجز عن إخفائه أمام حبل المشنقة.

فتم إعدامه شنقاً، أول أمس، بساحة سلوق، كما أعلن البلاغ الرسمي الصادر أمس.

هذا وكان قد شاهد عملية شنق عمر المختار حوالي عشرون ألفاً من البدو وجميع المعتقلين السياسيين في المستعمرة، الذين أعربوا عن فرحتهم لاختفاء هذا

المتمرد العنيد والسبب الأول والوحيد للوضع الراهن في برقة.

ولكي يدرك الإيطاليون ويقدروا مدى صعوبة حرب العصابات التي كان لا بد من خوضها لقطع دابر العصيان، ولكي يتمكنوا كذلك من تقدير خطورة حدث اليوم على حقيقتها، نقدم فيما يلي موجزاً للبيانات المتعلقة بما كلفته عمليات قمع نشاط قطاع الطرق الذي ظل يمارسه العصاة، واستعادة السلام والأمن إلى برقة، بعدما تولى الجنرال قراتزياني مهام نائب الوالي للمستعمرة.

فها هي قائمة بليغة تعبر عن نفسها بنفسها، أكثر من أي تعقيب أو ملاحظات: 17 معركة ـ 151 اشتباكاً ـ و23 صداماً تلاه على الفور تقهقر العصاة وفرارهم ـ تكبد العصاة على أثرها خسارة: 1141 رجلاً و803 بنادق، و6 مسدسات و3 مدافع و3 رشاشات بالإضافة إلى 74 بندقية غنمت من المستسلمين. أما المواشي فقد فقدوا منها: 28606 رأس: 21459 من الضأن و6399 من الإبل و673 من الخيول، والباقي من البقر(*).

وهذا هو كشف حساب خسائرنا: قتل 3 ضباط وإصابة 6، وقتل 121 جندياً وإصابة 228، فقد 29 بندقية، بالإضافة إلى حوالي 3000 رأس من الماشية، فقدها الأهالي المستسلمون للسلطات الإيطالية، على أثر غزوات سلب ونهب قام بها العصاة.

وتعطينا هذه الأرقام الجافة فكرة مجملة عن الجهود التي بذلها بحماس وقوة وعزيمة جميع القادة والمرؤوسين في قواتنا المسلحة الدين خاضوا غمار هذا الصراع المرير دونما كلل أم ملل.

المنشور الموجه إلى العصاة :

«على اثر تنفيذ حكم الإعدام في عمر المختار، أصدر صاحب السعادة قراتزياني، المؤتمن الوفي على الالتزام بالعدالة الرومانية والإيطالية العريقة، المنشور التالي، الذي ألقي اليوم بواسطة الطائرات على إمتداد الجبل الأخضر. يقول المنشور.

(*) لا بد أن يكون هناك خطأ في الأصل.لا يعقل أن تكون الخسارة في الأبقار 75 رأس فقط «المعرّب»

«إلى أدوار عمر المختار. إن الزعيم المشاغب والرئيس المشاكس لحركة العصيان، عمر المختار، الذي ظل يقودكم على مدى عشرين عاما إلى الخراب والدمار، فقد ألقت عليه القبض قوات الحكومة الإيطالية، وأصدرت عليه المحكمة الخاصة حكماً بالإعدام. وهذا عقاب من الله وأمنية الناس المساكين الذين اضطروا، بسببه إلى النزوح عن مواطنهم الأصلية[1].

«... يا أهالي الأدوار... ها أنا أنذركم الآن، مرة أخرى، بأن الحكومة الإيطالية، القوية والكريمة، قررت، بعد زوال هذا الرئيس، العفو عن جميع من يبادرون بإلقاء سلاحهم وتقديم فروض الإستسلام. وفي حالة امتناعهم عن ذلك، فإن الحكومة التي هزمت عمر المختار، ستنزل الهزيمة بجميع أولئك الذين يتمادون في عصيانهم، طال الأمد أم قصر. اسمعوا كلامي وقدموا أنفسكم».

بعد اختفاء زعيم المقاومة في برقة من على مسرح الأحداث وتوجيه هذا النداء إلى بقية الثوار، من أجل إعادة السكينة إلى القطر وتجريده من السلاح، تمهيداً للسعي به نحو بلوغ عهد عمل حضاري مثمر، واصلت الحكومة الفاشية السير في طريق سياستها الحكيمة والكريمة، متحاشية كل عودة إلى الماضي ومحددة إرادتها ومسؤولياتها بالنسبة إلى المستقبل.

د. م. تونينيتي

---

[1] هذا هو النفاق الذي ما بعده نفاق... اضطر الناس إلى النزوح عن مواطنهم الأصلية .. أو لم يكن ذلك الإجراء التعس من تدبير بادوليو وتنفيذه هو...؟

ملحق رقم (2)

عمر المختار:

بالنسبة للكثيرين منا، نحن الذين نأبى إلا أن نعجب بالبطولات ولو كانت صادرة عن أعدائنا، ونستسلم في الكثير من الأحيان، لتيار العواطف الذي قد يدفعنا إلى اعتبارات تختلف اختلافاً كبيراً في طابعها عن كل ذلك، تظهر لنا صورة عمر المختار محاطة بهالة من الأساطير، كأسطورة شجاعته وقوة شكيمته وإقدامه الملحمي وبطولاته الخارقة.

كان عمر المختار عدونا، العدو اللدود، والعنيد والخبيث واللئيم.

وبين حضارتنا الضاربة بجذورها في أعماق آلاف السنين ومجموعة القيم التي تغذي أحاسيسنا «الرومانسية» وجمال مشاعرنا الساطعة بالأنوار الروحية، وبين رجل الجبل هذا، المنعزل في وحشته، كان يفصلنا بون سحيق يستحيل طمره، وفي الوقت الذي كنا نحن ننظر فيه إليه بسماحة وأريحية الأقوياء، كان هو يكن لنا إحتقاراً متوحشاً، عميقاً...

ولا أعتقد أنه من الجائز إجراء أي مقارنة بين زعيم عصابة من المتطرفين كهذا وبين أي قائد لجماعة من الناس، حتى لو توغلنا في البحث إلى أعماق القرون الوسطى. فحتى «قادة المرتزقة» في تاريخنا الوسيط، كانوا رجال سياسة، يتصفون بالمنطق والصدق مع أنفسهم، في المقام الأول، وبغض النظر عن أعمال السلب والنهب التي كانوا يسمحون بها إرضاءً لخاطر جنودهم من المرتزقة مثلهم، كانوا أيضا مدفوعين بجملة من الاعتبارات التي تمجد البطولات والقوة بالقدر الذي يتمشى مع العصر الذي عاشوا فيه وظروفه وقيمه.

أما عمر المختار، فما كان يحذوه أي منطق. فظل معزولاً وبعيداً كل البعد عن

المناخ التاريخي لعصرنا هذا.

ويسهل إدراك ذلك كله. فعزلته وانفصاله عن العالم ليس لها مثيل في سلبيتها، إذ أنه ظل يتنكر للحضارة ويعزف عنها لإعتقاده أنها خطر عليه. فكان يستنكرها وينفي عنها أية فائدة بالنسبة إلى الناس الذين على شاكلته من بني جنسه ومن معتقدي دينه، بالإضافة إلى أنه كان يعتبر من الدنس أي احتكاك بنا، في الوقت الذي يقوم فيه العالم الإسلامي بأسره بالتعامل والتعايش مع الأوروبيين ويربط الصلة بهم.

ونفس كبار رؤساء البدو الرحل، في قطر طرابلس، بمن فيهم رمضان الشتيوي وأفراد عائلة سيف النصر، ونحن نذكرهم على سبيل المثال لا الحصر، كانوا قد تقبلوا، أول الأمر، سيطرتنا كأمر واقع، رغم ما كانوا يضمرونه في قرارة أنفسهم من ضغائن ضدنا. وشتان بينهم وبينه. في تلك الآونة ظل عمر المختار يقف منا موقف العدو اللدود في إصرار وتعصب أعمى، منذ أول يوم وطأت فيه أقدامنا سواحل هذه الأرض وإلى آخر رمق، عندما تدلت جثته من حبل المشنقة في سلوق.

لذلك فهو ليس شهيداً لأية قضية، لأن الشهداء لا يخدمون أحداً، مهما كان. أما هو فقد تعدى كل الحدود، معرضاً أتباعه إلى أفدح الأضرار.

وإذا ما استعرضنا حياة هذا النموذج الغريب في طموحاته، من خلال تحليل هادئ وخال من الشطط، لكي نعثر على «العقائد المثلى النيرة» أو قل الصوفية، التي ربما كانت تحذوه حتى انقلب إلى نمط من رهبان القديس «دومينكوس» من خلال حياته اللا معقولة التي أفقدته الصفة الإنسانية، لوجدنا فيه، على العكس من ذلك، أبرز خصائص رجل الجبل، البدوي، العنيد والمتعصب حتى الهلاك.

فهو قد اختار، فعلاً، الجبل مملكة له، تحذوه نفس الروح التي كانت تدفع زعماء البدو الرحل في قطر طرابلس، إلى الاتجاه إلى الصحراء، ظنناً منهم أنهم قد حلوا مشكلتهم ومشكلة وجودهم وحريتهم، حيث إن الصحراء، بالنسبة إليهم، منيعة لا يقدر على اقتحامها الأوروبيون.

فاعتصم عمر المختار بجبل برقة القاسي، بكهوفه المخيفة ومنحدراته السحيقة، ذلك الجبل الرهيب الذي تتخلله منعرجات وتضاريس مهولة وغابات وأحراش كثيفة ومتشابكة، لا درب فيها ولا مسلك. اعتصم به وهو واثق من عجزنا عن إطفاء ألسنة

لهيب الثورة المتأججة التي تمكن من جر جميع القبائل إلى الاشتراك فيها بطريقة قد نسميها «تصنيع حرب العصابات». ولكنه. في الوقت الذي كان فيه كبار شيوخ القبائل والعشائر في قطر طرابلس يدافعون عن حقهم في السيطرة على ناسهم، شأنهم شأن قدماء سادة الإقطاع الذين كانوا يهبون للدفاع عن قلاعهم من هجمات الغزاة، ويعلنون باعتزاز عن أنهم هم أصحاب الحق في الغزو وقطع الطريق واللصوصية، باسم حق يستمد شرعيته من تقاليد ضاربة بجذورها في القدم تخولهم حق السرقة والسلب والنهب، كتركة وتراث تلقوه من أبائهم وأجدادهم، ضد المستضعفين الذين لا حول لهم ولا قوة، كان عمر المختار فقيراً، معدماً، فيستحق من سبق ذكرهم، بصورة ما، احترامنا، بقدر ما يستحق العجوز احتقارنا.

وإزاء اعتبارات واضحة ومحددة كهذه، تسقط «صوفية» عمر المختار وروحانيته وتنهار معها هالة البطولة التي تتوج هامة هذا المجاهد في سبيل العقيدة لتنحدر إلى درك الهزل والتفاهه، خاصة إذا ما فكر المرء في أن الأسرة السنوسية لم تكن تلك الأسطورة العربية بالنسبة لهذا. العجوز... بل كانت واقعاً وضيعاً يظهر على هيئة مساومات وعقد صفقات مريبة.

«إنني مصمم على الموت في سبيل العقيدة» هكذا قال عند صعوده إلى خشبة المشنقة، وقد نطق بهذه العبارة على أن يصل صداها إلى أسماع القبائل، وبذلك يحقق أعلى أحلامه وأكثرها طموحاً، ألا وهي أن يصبح، بعد موته، أحد أولياء الله، تقدس ذكراه ويتوسل بجاهه عند الله.

ولكن هيهات... لقد فات الآوان: بقيت القبائل ثابتة ولم تتأثر أو تكترث بهذا الصوت، ومنفضة عن الرجل الذي خان رسالته الخيرة وأودى بها إلى مهاوي الهلاك، بسبب خوض حرب ضروس، عديمة الفائدة.

لقد تعدى حدوده. ولو نحن شنقناه في عام ألف وتسعمائة وثلاثين لخلقنا منه شهيداً، وها نحن اليوم نقضي عليه كرجل مجنون، أشد خطراً على الآخرين من خطره على نفسه...

كان عمر المختار قد صمد في وجهنا لما يقرب من عشر سنوات والمعجزة الوحيدة التي تمكن من تحقيقها كانت تتجسد في رسوخ صلابة تنظيم حركة المقاومة

وتلاحمها والتي كانت «الأدوار» تمثل التعبير عن جانبها المسلح.

وكانت تنبعث من جيشه الصغير، الذي لم يتعد قوامه الألف رجل إلا في حالات نادرة، قوة جبارة، تستحوذ على قلوب أهالي الجبل وتسيطر على مشاعرهم وأرواحهم كما كان تأثيره ونفوذه في صفوف المقاتلين عظيمة بقدر قسوته في شؤون الانضباط الذي عرف كيف يفرضه عليهم.

ولا شك أن انضباطاً حديدياً كهذا إنما تمكن من فرضه بسهولة أكثر لأن رجال المحافظية التابعين له ـ أو «المجاهدين» كما كان يسميهم هو ـ كانوا في نظرنا رجال عصابات، خارجين عن القانون يتعين «إعدامهم رميا بالرصاص حال القبض عليهم ممتشقين السلاح» وذلك كان من مصلحتهم الالتحاق بالأدوار حيث عناء المعيشة ووحشة البيئة تناسب السرقة التي جبلوا عليها كبدو رحّل.

فمن واقع علمه الكامل بنفسية أتباعه وعقليتهم، لم يشأ أن يأخذ أي شيء لنفسه، بل كان يترك لضباطه ومقاتليه الأسلاب الذين كانوا يحصلون عليها من خلال غزواتهم وغاراتهم.

في أيام عزته، عند نشوب كل معركة وسماع ذوي أولى الطلقات المنبعثة من بنادق «عساكرنا» لتمزق سكون الليل. على الجبل، كان هو يتألق فوق جواده الأبيض، محفوظاً بحاشيته، ويدفع رجاله الأكثر شجاعة حتى التهور إلى المعمعة، متظاهراً بأنه يستعد لسبقهم إليها. وحدث كهذا إسلامي الطابع، سليم المظهر: إنقاذ ماء الوجه... ومعه الحياة...

هذا، ويصفه من عرفوه عن كثب بأنه كان سلطوياً، متغطرساً في تعاليه إلى درجة الخبث، وكان يتحدث بمقاطع الكلمات، يقذف بها كالسياط كما كانت أوامره مقتضبة إلى أبعد حد، ولا يقبل أي اعتراض عليها أو ملاحظة، مهما كانت. وبعض مكاتيبه، المتعلقة بشؤون مقاتليه، والتي وقعت في أيدينا، من قبيل الصدف، تعطينا فكرة واضحة عن سلوك هذا الرجل: «بسم الله الرحمن الرحيم ـ هكذا كتب في سنة 1928 ـ آمرك بالذهاب إلى الشيخ صالح الطبجي، وبالعودة إليّ برأسه». وحامل الرسالة ـ الذي أعدمناه في جالو رميا بالرصاص ـ لم يتورع في أقواله أمام المحكمة عن الاعتراف بأنه كان قد نفذ هذا الأمر.

ولا نعرف عن طفولته وشبابه إلا الشيء القليل، باستثناء أنه، على أثر وفاة والده عندما كان يقوم بأداء فريضة الحج في سنة 1224 هـ (1877 ـ 1878م). أوصى عنه والده في لحظة الاحتضار، عضو أعيان بنغازي «الغرياني»، والد الشيخ الغرياني، الذي ما زال حيا يرزق في مدينة بنغازي.

يقول عنه الشارف: «بعد أداء الفريضة وعودتنا إلى أرض الوطن اتصل والدي وشقيقته، مع والدتهما، بأبناء الفقيد».

وهكذا أرسل عمر المختار إلى الجغبوب والتحق بالمدرسة القرآنية هناك بمسعى من عائلة الغرياني التي كانت تنتمي إلى الطريقة السنوسية وتمكن من مواصلة دراسته القرآنية.

«وعلى حد قول الشارف: «لم يكن قد وهب إلا قليلاً من الذكاء، ولذلك ظل يواجه صعوبة في استيعاب الدروس». غير أن تأكيداً كهذا يتعارض مع إختياره لايفاده إلى الكفرة من صحبه المهدي».

وخلال السنوات الثلاث التي قضاها في تلك الواحة الصحراوية النائية، توفي شيخ زاوية القصور ـ وهي بلدة تقع على الجبل الأخضر، في أراضي «العبيد» ـ فاختار المهدي عمر المختار ليكون خليفة للشيخ الراحل في وظيفته. وكان هذا التعيين بداية لحياته الوظيفية. وكان المهدي السنوسي قد أدرك الأوصاف الخارقة التي كان يتصف بها عمر المختار إلى درجة أنه قرر، بعد رحيله إلى السودان وبقائه فيها لبضع سنوات، استدعاه ليتولى قيادة قبائل «واداي» الثائرة على الفرنسيين، فهرع عمر المختار للقتال بمناطق الجنوب الليبي، حيث تقلد، بعد فترة وجيزة، إدارة شؤون زاوية «عين كلك»، خليفة لشيخها الذي لقي مصرعه في إحدى المعارك ضد الفرنسيين.

وبعد عودة السلام والسكينة إلى واحات الجنوب، طلب العودة إلى أراضي «العبيد» إلى زاويته القديمة في القصور، فلبي طلبه.

كان عمر المختار يناصب الأتراك العداء ويكافح ضد وجودهم في ليبيا وهناك ما زال من يتذكر كيف كان الموظفون الأتراك المكلفون بجباية الضرائب من القبائل التابعة لدائرته يقاسون الأمرين في أداء مهمتهم هذه.

وفي عام ألف وتسعمائة واثني عشر، أظهر عدائه السافر لنا بدون تردد، ومنذ

ذلك الحين بدأ عمله ضد الوجود الإيطالي بعناد وإصرار، ولم يتوقف عنه حتى النهاية.

وبمناسبة إجراء المفاوضات حول الحلول الوسط مع السنوسيين، حافظ على سلوكه المتعال، رغم مجاراته السلبية لخزعبلات إدريس السنوسي السياسية. وفي عام ألف وتسعمائة واثنين وعشرين بعد إلغاء المواثيق المعقودة مع القيادة السنوسية وفرار إدريس إلى مصر، عين رئيساً لجميع «الأدوار» وهو المنصب الذي احتفظ به إلى اليوم الحادي عشر من شهر سبتمبر الماضي، أي يوم الذي وقع فيه أسيراً في قبضتنا.

وما إن وطئت قدما الجنرال قراتزياني تراب بنغازي، حتى واجهه بما يشبه التحدي وذلك ببث شعار يقول: «سوف لن يتم أبدا مد الطرق فوق الجبل، وأرخى العنان لقطاع الطرق من أنصاره للقيام بأعمال لم يسبق لها مثيل حتى تلك الآونة: قطع أسلاك خطوط البرق والهاتف. ولكنها كانت عنترية فارغة. فأولى تدابير «منهج» قراتزياني الصارمة أدخلت الذعر في روعه، حتى إنه اصطر ـ كما علم فيما بعد ـ إلى التصريح بأنه ربما كان من الأفضل مصافحة يد المشير بادوليو عندما مدها بصدق وتسامح، من العودة إلى المقاومة.

ولكن هيهات لقد فات الآوان وضاعت الفرصة. كان منشور بادوليو غاية في الوضوح ووجد في قراتزياني منفذه العجيب. فلا هوادة، إذاً، إلى النهاية.

ومع ذلك ظل يراوده شيء من الأمل لمدة سنة كاملة أخرى.

وعندما بدأت عملية الاعتقال لأهالي الجبل نحو مراعي مناطق جنوب بنغازي، حيث أصبحت مراقبتهم مضمونة، ما كان على الشيخ إلا أن أدرك أنها كانت علامة على بداية نهايته.

أخذ الجبل يفرغ من سكانه. وحيث كانت هناك، حتى بضعة أيام مضت، مضارب ونجوع عامرة لقبائله، أصبح صحراء قاحلة، خالية من الحياة. فكان من المستحيل التعرض لنزوح الرحّل ومسيرتهم صوب الساحل، فهبط رهط «العبيد» أتباعه، من جبالهم وغاباتهم الكثيفة، و«عبيدات» منطقة درنة، والعرفة والدرسة والبراعصة الأوفياء، وحاسة شحات وحتى أفراد عشيرته أخذوا يحتازون الجبل، من موطنهم في البطنان، في أفواج متتابعة، متجهين غرباً، في فوضى عارمة تشبه هجرات

الأقوام التي تتحدث عنها الثوارة، حارّين قطعان أنعامهم وإبلهم وحاملين معهم أمتعتهم وخيامهم.

وجاء اليوم الذي وجد فيه نفسه وحيداً، معزولاً فوق الجبل الحالي.

فلا بد أن الضربة كانت قاسية، رهيبة.

وها هو سيد الجبل، سيد الوحشة وملك الصحراء. بإمكانه أن يرفع رايته السوداء فوق المقابر، الباقية على الجبل، شاهدة على حياة اندثرت، حيث لم تعد تستقبله أهازيج الرعاة بلحنها البطيء ولا زغاريد النسوة البدويات، عند مروره بالقرب منهن. وعلى العكس من ذلك أصبح يستقبله عويل الضباع الحاد وعواء الذئاب الكئيب.. ليس ذلك فحسب، بل أصر قراتزياني على عدم إمهاله لحظة واحدة يسترد فيها أنفاسه.

ففي كل يوم، ومهما كانت حالة الجو: في رمضاء أغسطس المحرقة، وهبوب الرياح الجنوبية اللافحة، وتحت تهاطل الأمطار المتقطعة، شتاء، التي تحول البراري إلى برك ومستنقعات لزجة والوديان إلى سيول جارفة، مخيفة، كانت قواتنا تتعقب عمر المختار وفلوله الطريدة بدون توقف أو هوادة.

فانقلب البطل الأسطوري إلى عجوز، مسكين، طريد، يستبد به الرعب من سماع هدير محركات طائراتنا التي لا تنقطع عن التحليق في أجواء الجبل وتكشف مجاهله، فيحاول هو الاختفاء، كالحيوان الشارد، من جرف إلى جرف ومن غابة إلى أخرى، ومن كهف إلى كهف».

أمر «الأدوار» بأن تتوزع على فرق صغيرة، انتظاراً لحلول ظروف وأوقات أفضل، وبعدها أطلق صيحة فزع واستغاثة، منذراً بأنه لم يعد قادراً على إرسال المال إليه حيث أن ذلك الملعون قراتزياني قد طرد رؤساء الزوايا وبعث بهم إلى المنفى وهو يعاقب بالإعدام كل من يجرأ على دفع درهم واحد من الأعشار، وتمادى إلى حد قطع المرتبات ـ يا للفظاعة ـ عن الزعماء (المستسلمين)...

وكان رد قراتزياني إقامة حاجز الأسلاك الشائكة الذي أوصد به الحدود بين مصر وبرقة، وبالتالي قطع آخر أمل عن عمر المختار في مساعدة المهربين المصريين الذين كانوا يفلتون من الحراسة الإنجليزية.

وبقيت أكذوبة فظاعة البطش الإيطالي على ما كانت عليه من غموض وانحدرت محنة العصيان إلى مأساة غامضة هي الأخرى.

وحدث ذات يوم أن لقي فضيل بو عمر، القائم بشؤون الأدوار والساعد الأيمن لعمر المختار مصرعه في المعركة، وبعد هذا الحدث بقليل كاد يلقي الرئيس العجوز نفس المصير، إلا أنه أفلت بأعجوبة من قبضة قواتنا ولم يفقد إلا نظاراته التي أرسلت إلى بنغازي. وفي ذلك اليوم ذاته ـ أتذكر هذه الحادثة جيدا ـ عرضت على صاحب السعادة قراتزياني، فقال: «أنها مقدمة وبشرى وقبل مرور وقت طويل، سنأتي برأسه»، فصدقت نبوءته.

فجر يوم 11 سبتمبر. فجر صاف وساطع، وسماء زاهية ستحول الشمس لونها إلى لون جوف الأصداف المتلألئة.

وها هو عمر المختار يتجه، بعدما أصبح عجوزا مترهلاً، نحيلاً ومتهيباً، صوب مرسى سوسة (أبولونية) للقيام بغارة على النجع. أصبح مضطرا، هو «جنرال» الجبل، والمبارك من عند الله إلى أن ينهب نعجة يقتات بها لسد رمقه، حتى المجازفة بحياته... بئس المصير الذي آل إليه. كان يحف به حوال خمسين فارساً، من رجال حرسه الأوفياء.

تتجه الكوكبة ببطء نحو نجوع الحاسة: إنه الطُّعم.
فها هي طائرة تمرق كالبرق، وتشق عنان السماء...

يا للعنة... هل كلأ الله قراتزياني بنصر من لدنه. .؟ على الفور تنطلق عيارات البنادق، تمزق السكون، يليها بريق، ثم ومضات مبرقة، خاطفة، من هنا وهناك: إنها عيارات «العساكر» المختفين وراء كل خميلة ومجموعة من الصخور والنباتات الشوكية. يفر الشيخ على صهوة جواده الذي ينطلق به بسرعة الريح صوب الغابة الكثيفة، فيما تسرع الطائرة إلى الهبوط من ارتفاع تحليقها، تتابعه لتبتعد من جديد، فتعيد الكرة: عندها تدوي العيارات من جديد، المصوبة هذه المرة إلى الجياد التي ينتابها الذعر والفزع فترتبك كأن بها مساً من الجن.

وما زال الشيخ التعيس هارباً، يتلمس طريقه نحو غابة شنشن، هذه المرة، وسط خمائل شجر البطوم القزمية المتشابكة، السوداء لكثافتها، ولكن، ها هي

الدبابات الرهيبة تسد طريقه وترغمه على التراجع. إلى أين... ورجال السرية السابعة «صواري» له بالمرصاد هناك؟. كان هؤلاء متربصين عند مجاز الغاب، في انتظار الجماعة الذين هبط عددهم إلى حوالي خمسة عشر فارسا فقط، وخيولهم منهوكة القوى ومتهالكة، تعلوها طبقة من الرغوة المتناثرة. وما أن يصلوا مدى مرمى الصواري حتى تنهال عليهم رخات مكثفة من العيارات الفتاكة إنها للحظة رهيبة..

يصاب جواد عمر المختار إصابة قاتلة، فيحني هامته، ثم يترنح، ليهوي، ميتاً، إلى الأرض، ويهوي معه راكبه، الذي يتعثر في خطاه وهو يحاول الفرار والاحتماء وراء إحدى الخمائل، ولكن الصواري كانوا منقضين صوبه، لمداهمته: يشاهد أنصاره قرب نهايته، غير مكترثين بقرب نهايتهم هم، من هول المشهد الذي سمرهم في أماكنهم، مذهولين.

يصوب أحد فرسان الصواري...، بندقيته إلى صدره، مصمماً على القضاء عليه... وما هي إلا لحظة، حتى يصيح: ـ أنا عمر المختار... ـ إنها النهاية.

ساندرو ساندري

ملحق رقم (3)

الأهزوجة الملحمية (بلهجة أحياء روما الشعبية)

القبض على «متاري» (المختار)

الحوار :

- 1 -

إنتهى العصيان، وانتهى معه كل شيء:
قبض على الرئيس وهو يقاتل
على صهوة جواده وممتشقاً البندقية
وكان هذا مجداً «للسور» (السنيور) غرزياني
سمعته وهو يخاطبه في صباح ذلك اليوم:
«متاري»... أنا أنا أعرفك ولا أفتخر بمعرفتك،
عرضت عليك السلام، ولكنك تركت من وضع فيك ثقته، واستسلمت للبكاء...
«من ذا الذي أوقعك في مثل هذه الخديعة؟»
إرتبك عمر المختار وظهرت عليه علامات الحيرة،
فأشار عليه أن يجلس على الكرسي:
جال بنظرة فأبرقت عيناه وأجابه
كما لو كان يصدر أمراً:
«أمرتني مصر الغامضة بأسرارها...

ـ 2 ـ

فردّ عليه: ترى، هل قالت لك مصر أن تقتل
الجرحى، كلهم، وتبقر بطون جنودنا،
وتشحنها بالشعير، أيها اللعين؟...
هل قالت لك أيضاً أن تأتي أفعالاً منكرة:
حرقهم بالنار، واختراق أجسامهم بالخوازيق
وطبعتهم بالسكاكين، من وجوههم وصدورهم
وإغراقهم بالشتائم، وهم ينحبون ويذرفون الدموع؟
ـ أنظر هذه نظاراتك... أعطينها، أريدها...
ـ كلا... ذلك غير ممكن ـ أحتاج إليها...
ـ أخطأت، ياعزيزي ـ ولكن، هذه خدعة...
ـ أصحيح؟ انتظر قليلاً... حتى أقدمك إلى المحاكمة
لأنني قررت التخلص من غطرستك ونزهاتك...

ـ 3 ـ

النهاية :

في ذلك اليوم قدم إلى المحاكمة.
سمع ما قيل له، كل ما قيل له.
فردد، متفاخراً، اعترافه...
باقتراف كل تلك الشرور.
سمعه الناس واستاءوا حتى البكاء
لسماع ما كان يقوله ذلك الحيوان،
فحكموا عليه هم، بوجدانهم،
وتجاوب معهم القضاء في حكمهم عليه،
وفي اليوم التالي، وعلى مشهد من عشرين ألف شخص، إيطاليين وعرباً وعدداً كبيراً

من المسلحين، مات في سلوق موتة فأر...
ذلك الشخص الذي كان يعيش على الإثم والعدوان،
ولما لم يعد للعرب هدف،
ارتموا من أحضان غرزياني...

ملحق رقم (4)

قائمة بالجرائد اليومية والمجلات التي نشرت أثناء إلقاء القبض على عمر المختار ومحاكمته وإعدامه.

"L'Arena", Verona, 16 settembre 1931, *Brillanti azioni in Cirenaica.*

"L'Arena", Verona, 17 settembre 1931, Il *traditore el Muktar giustiziato a Bengasi.*

"L'Avanti!", Parigi, a XXXVI, n. 34, 27 settembre 1931, *Dalla ga/era fascista. Un martire.*

"L'Avvenire d'Italia", Bologna, 16 settembre 1931, *La cattura del capo del ribelli Cirenaici.*

"L'Avvenire d'Italia", Bologna, 18 settembre 1931, *La fine dell'ultimo capo dei ribelli Cirenaici.*

"L'Azione coloniale", 20 settembre 1931, *La cattura e lafucilazione del ribelle Omar el Muctar.*

"L'Azione coloniale", l ottobre 1931, *Il reticolato ba vinto la ribellione in Cirenaica.*

"La Cirenaica", Bengasi, 12 settembre 1931, *Lapolitica colonlale italiana nel giudizio degli stranieri.*

"La Cirenaica", Bengasi, 16 settembre 1931, *Omar el Muctar ii capo della ribellione senussita in Cirenaica catturato*

"La Cirenaica", Bengasi, 17 settembre 1931, *La condamna a morte di Omar el Muctar.*

"La Cirenaica", Bengasi, 18 settembre 1931, *Per la pac~ficazione definitiva della Cirenaica*

"La Cirenaica", Bengasi, 23 settembre 1931, *Omar el Much tar, cane del Signore*

"La Cirenaica", Bengasi, 10 ottobre, *La funzione del reticolato nello stroncamento*

della ribellione cirenaica.
"La Cirenaica", Bengasi, 16 dicembre 1931, *L'agonia della ribellione Cirenaica*
"La Cirenaica", Bengasi, 27 dicembre 1931, *Agonia della ribellione cirenaica*
"La Correspondance Internationale", 14 novembre 1931.
"Corriere della Sera", Milano, 16 settembre 1931, *La cattura di Omar elMuktar Il capo del ribellidella Cirenaica.*
"Corriere della Sera", Milano, 17 settembre 1931, *Omar el Muktar giustiziate. Come avyenne la cattura.*
"Corriere della Sera", Milano, 17 settembre 1931, *Omar el Muktar giustiziato .. Un commento britannica.*
"Corriere del Tirreno", Livorno, 15 settembre 1931,1/ *capo dei roribelli della Cirenaica catturato dopo una brilante azi one notturna.*
"Corriere del Tirreno", Livorno, 19 settembre 1931, *Come a caduto ne/la rete di Grazlani il capo del ribelli della Sennussia.*
"Corriere Emiliano", Parma, 16 settembre 1931, *Il capo della ribellione senussita catturato.* "Corriere Emiliario", Parma, 17 settembre 1931, *Il traditore Omar el Muctar giustiziato.* "Corriere Mercantile", Genova, 15 settembre 1931, *'a cattura del capo delegato della Senussia (sic).* "Cronaca Prealpina", Varese, 16 settembre 1931, *Il capo del ribelli cirenaici è stato arrestato.*
"Cronaca Prealpina", Varese, 24 settembre 1931, *Scech Omar el Muktar*
"L'Eco di Bergamo", Bergamo, 18 settembre 1931, *Omar el Muctar é stato fucila to.*

"La Gazzetta", Messina, 16 settembre 1931, *Omar el Muk tar capo della Senussia catturato da uno .squadrone di Savari cirenaici*
"La Gazzetta", Messina, 17 settembre 1931, *Omar el Muctar giustiziato.*
"La Gazzetta", Messina, 18 settembre 1931, *Pronta inesorabile giustizia contro ii traditore Omar el Muctar.*
"La Gazzetta", Messina, 29 settembre, *Con la morte di Muctar La Cirenaica è pacj/icata.*
"*La Gazzetta del Poplla", Torino, 16 setiembre 1931, Il capo della ribellione senussita catturato dai savari*
"La Gazzetta del Popolo", Torino, 17 settembre 1931, *Omar el Muctar* è *stato giustizia to.*
"La Gazzetta del Popolo", Torino, 18 settembre 1931, *Il cerchio diferro di*

Graziani si stringe attorni agli ultimi ribelli.
"La Gazzetta del Mezzogiorno.., Ban. 16 settembre 1931, *Il capo dei ribelli cirenaici catturato dalle nostre truppe*
"La Gazzetta del Mezzogiorno", Ban, 18 settembre 1931, *Il passato di Omar el Muctar.*
"Gazzetta di Venezia", Venezia, 16 settembre 1931, *La cattura di Omar el Muctar capo dei ribelli del Gebel cirenaico.*
"Gazzetta di Venezia", Venezia, 17 settembre 1931, *La condanna a morte e l'eccuzione di Omar el Muctar*
"Il Gazzettino", Venezia, 16 settembre 1931, *Vittoriosa azione in Cirenaica contra bande dipredoni: ii capo della ribellione cat tura to.*
"Il Gazzettino", Venezia, 17 settembre 1931, *Traditore giustiziato.*
"Gerarchia", a. IX, n. 9, settembre 1931.
"Giornale di Genova", Genova 16 settembre 1931, *Il capo della ribellione senussita catturato*
"Il Giornale di Genova", Genova, 17 settembre 1931, *Omar el Muctar condamnato a morte.*
"Il Giornale di Genova", Genova, 20 settembre 1931, *La morte senza gloria di Omar el Muctar.*
"Il Giornale di Sicilia", 16 settembre 1931, *La cattura di El Muctar*
"Ii Giornale di Sicilia", 17 settembre 1931, *El Muctar i vnpiccato a Soluk*
"Il Giornale d'Italia", Roma, 16 settembre 1931,I I *capo della ribellione in Cirenaica catturato cia un nostro squadrone di savari.*
"Il giornale d'Italia", Roma, 18 settembre 1931, *Il capo dei ribelli della CirenQica ê Stato giustiziato presso Bengasi.*
"L'Italia", Milano, 16 settembre 1931, *Brillanti azioni militari: ii capo dei ribelli catturato.*
"L'Italia", Milano, 17 settembre 1931, *Ornar el Muctar è stato giustizia to.*
"L'Italia coloniale", n. 10, ottobre 1931, *La fine di Omar el Muktar.*
"L'Italie", Roma, 15 settembre 1931, *Une brillante action de nos troupes en Cyrénuique.*
"L'Italie" Roma, 18 settembre 1931, *Omar elMuctar condamne a lapeine capitale. L'execution de la sentence.*
"Il Lavoro", Genova, 16 settembre 1931, *La cattura di Omar el Muctar il recchio*

capo di tutte le ribellioni della colonia
"Il Lavoro", Genova, 17 settembre 1931,Il *Senusso Omar el Muk tar condamnato allapena capitale.*
"Il Lavoro Fascista", Roma, 16 settembre 1931, *La cattura in Cirenaica dela delegato della Senussia.*
"Il Lavoro fascista", Roma 18 settembre 1931,Il *ribelle e traditore Omar el Muctar èstatoprocessato efucilato ieri.*
"Il Mattino", Napoli, 16 - 17 settembre 1931, *Il capo dei ribeii in Cirenaica catturato.*
"Il Nessaggero", Roma, 16 settembre 1931, *La cattura di Omar el Muktar, capo dei nibelli della*
Cirenaica.
"Ii Messaggero", Roma, 17 settembre 1931, *Omar el Muctar è stato giustiziato.*
"La Nazione", Firenze, 16 settembre 193 *1,Il Capo dei Nibejli in Cirenaica Catturatodalle Nostre Truppe*
"La Nazione", Firenze, 17 settembre 1931, *Omar el Muctar ii senusso traditore ê stato condamnato a*
morte e giustiziato
"La Nazione", Firenze, 19 settembre 1931, *Il proclama di Graziani agli ultimi ribelli.*
"Il Nuovo cittadino", Genova, 16 settembre 1931, *Il capo della ribellione senussita catturato in Cirenaica dalle nostre truppe.*
"Il Nuovo cittadino", Genova, 17.settembre 1931, *Omar el Muctar è statofucilato iero.*
"Il Nuovo Giornale", Firenze, I 6settembre 1931,Il *capo dei ribellidella Cirenaica catturato dopo una brillante offensiva.*
"Il nuovo Giornale", Firenze, 18 settembre 1931, La *pacjficazione della Cirenaica dopo la scomparsa di Omar el Muctar.*
"L'Oltremare", n. 10, ottobre 1931, *La line di Omar el Muktar nei commenti stranieri.*
"L'Ora", Palermo, 17 settembre 1 931, *Omar el Muctqr capo dei ribelli cirenaici cutturato dopo brillante combattimento*
"L'Ora", Palermo, 17 - 18 settembre 1931, *Omar el Muktar giustiziato a Soluch.*
"L'ordine", Como, 16 settembre 1931, *Brillante operazione in Cirenaica.*

"L'Ordine", Como, 1 7 settembre 1931, *Il capo deli ribelli cirenaici catturato dalle nostre truppe*

"Il Piccolo", Roma, 17 - 18 settembre 1931, *Il capo dei ribelli senussiti condamnato a morte.*

"Il Piccolo", Trieste, 16 settembre 1931, La *cattura di Omar el Muctar capo della Senussia in Cirenaica.*

"Il Piccolo", Trieste, 17 settembrè 1931, *Omar el Muc tar giustiziato.*

"Il Piccolo", Trieste, 20 settembre 1931, *Unproclama del gen Graziani dopo l'esecuzione di Omar el Muctar.*

"Il Popilo di Brescia", Brescia, 16 settembre 1931, *Il capo della ribellione Omar el Muctar catturato dalle nostre truppe.*

"Il Popolo di Brescia", Brescia, 17 settembre 1931, *Omar el Muctar giustiziato a Soluch*

"Il Popilo di Brescia", Brescia, 19 settembre 1931, *Ii cerchio diferro si stringe intorno ai ribelli*

"Il Popolo d'Italia", Milano, 16 settembre 1931, *Omar el Muc tar, capo del ribelli, fat to prigioniero.*

"Il Piccolo", Trieste, 16 settembre 1931, La *cattura di Omar el Muctar capo della Senussia in Cirenaica*

"Il Piccolo", Trieste, 17 settembre 1931, *Omar el Muc tar giustizia to.*

"Il Piccolo", Trieste, 20 settembre 1931, *Unproclama del gen Graziani dopo l'esecuzione di Omar el Muctar.*

"Il Popilo di Brescia", Brescia, 16 settembre 1931, *Il capo della ribellione Omar el Muctar catturato dalie nostre truppe.*

"Il Popolo di Brescia", Brescia, 17 settembre 1931, *Omar el Muctar giustiziato a Soluc h.*

"Il Popilo di Brescia", Brescia, 19 settembre 1931, *Ii cerchio diferro si stringe intorno ai ribelli.*

"Il Popolo d'Italia", Milano, 16 settembre 1931, *Omar el Muc tar, capo del ribelli fat to prigioniero.*

"Il Popolo d'Italia", Milano, 17 settembre 1931, *Omar el Muctar giustiziato*

"Il Popolo d'Italia", Milano, 19 settembre 1931, La *ribellione in Cirenaica energicamente stroncata Come Omar el Muctar tortura tore dei nostri soldati, è stato catturato e giustiziato*

"Il Popilo di Roma", Roma, 16 settembre 1931, *La cattura di Omar el Muktar. Dodici armati ribelli rimaSti sul terreno.*
"Il Popolo di Roma", Roma, 17 settembre 1931, *Il ribelle e traditore Omar el Muktar condannato a morte: la sentenza ê stata eseguita.*
"Il Popolo di Sicilia", Catania, 16 settembre 1931, *Il capo del ribelli catturato daile nostre truppe in Cirenaica, ia caduta di un mito*
"Il Popolo di Siciia", Catania, 17 settembre 1931, *Omar el Muctar condannato a morte e giustiziato.*
"Il Popolo Toscano", Lucca, 16 settembre 1931, *Omar el Muctar ultitnonud audace ribelle della Cirenaica catturato dai nostri savari in una brill ante azione verso Slonta.*
"Il Popilo Toscano", Lucca, 17 settembre 1931, *Omar el Muctar giustiziato a Soluch.*
"Il Popolo di Trieste", Trieste, 16 settembre 1931, *Un terribile efiero nemico catturato nella trappola del gen. Graziani.*
"Ii Popolo di Trieste", Trieste, 17 settembre 1931, *Omar el Muctar ii traditore capo ribelle è stato giustiziato alla presenza di trentamila arabi sot tomessi.*
"Ii Popilo di Trieste", Trieste, 18 settembre 1931, *Pacificazione fascista della Cirenaica.* "La Provincia di Bolzano", Bolzano, 16 settembre 1931, *Il capo della ribellione senussita catturato* "La Provincia di Bolzano", Bolzano, 17 settembre 1931, *Omar el Muctarfucilato.*
"La Provincia di Bolzano" Bolzano, 19 settembre 1931, *La pacificazione della Cirenaica dopo la scomparsa di Omar el Muctar.*
"La Provincia di Como", Como, 16 settembre 1931, *Il capo della ribellione cirenaica catturato dai savarz*
"La Provincia di Como", Como, 17 settembre 1931, *Omar el Muctar è stato giustiziato zen.*
"La Provincia di Padova", Padova, 15 settembre 1931, *Brillante azione di polizia in Cirenaica.*
"La Provincia di Padova", Padova, 17 settembre 1931, *La condanna a morte e l'esecizione di Omarel Muctar.*
"La Provincia di Padova", Padova, 19 - 20 settembre 1931, *Comefu catturato Omar el Muctar.*
"Li Regime fascista", Cremona, 16 settembre 1931, *Il capo dei ribelli catturato.*

"Il Regime fascista", Cremona, 17 settembre 1931, *Omar el Muctra condannato a morte.*

"Il Regime fascista", Cremona, 20 settembre 1931, *Come Omar el Muctar ha espiato Un proclama lanciato sul Gebel.*

"Il Resto del Carlino", Bologna, 16 settembre 1931,Il *capo dei ribelli cirenaici cat turato dalle nostre truppe*

"Il Resto del Carlino", Bologna, 17 settembre 1931, *Omar el Muctar giustiziato*

"Il Resto del Carlino", Bologna, 18 settembre 1931, *La pacificazione della* ***Cirenaica dopo la scomparsa di Omar el Muctar.***

"Rivista delle colonie italiane", a. V, n 10, ottobre 1931 (voce Cirenaica della rubrica Cronache coloniali, *La cattura di Omar el Muktar).*

"Il Roma", Napoli, 16 settembre 1931, *Il capo deil ribelli e delegato della Senussia catturato dalle nostre truppe in Cirenaica*

"Il Roma", Napoli, 17 settembre 1931, *Omar el Muctar il capo dei ribelli della* ***Cirenaica è stato giustiziato ieri a Soluch.***

"Il Secolo XIX", Genova, 16 settembre 1931,Il *capo della ribellione cirenaica catturato dopo brillante azione*

"Il Secolo XIX", Genova, 17 settembre 1931, *Omar el Muctar condannato a morte. la señenza èstata eseguita*

"Sentinella d'Italia", Cuneo, 16- 17 settembre 1931, ***La cattura diOmarel Muktar capo dei ribelli senussztz***

"Sentinella d'Italia", Cuneo, 17 - 18 settembre 1931, *Omar el Muktar è statofucilato.*

"Sentinella d'Italia", Cuneo , 19 settembre 1931, *La fine di un mito.*

"La Sera", Milano, 16 settembre 1931, *Il capo della ribellione senussita catturato.*

"Il Solco Fascista", Reggio Emilia, 16 settembre 1931, *Il capo dei ribelli catturato a Slonta*

"Il Solco Fascista", Reggio Emilia, 17 settembre 1931, *Omar el Muctar è stato giustiziato.*

"La Stampa", Torino, 16 settembre 1931, *Omarel Muctar catturato da un reparto disavari cirenaici.*

"La Stampa", Torino, 17 settembre 1931, *Omar el Muctar è statofucilato.*

"La Stampa", Torini, l9settembre 193 1,Jsuperstiti ribelldella Cirenaica invitatiallasottomissione da S.E. Graziani.

"Ii Telegrafo", Livorno, 16 settembre 1931, *Il capo dei ribelli della Cirenaica catturato dopo brillanh azione notturna.*
"Il Telegrafo", Livorno, 17 settembre 1931, *Jlcaporibelle Omar el Muktar giustiziatodavantia 30.000 indigeni.*
"Il Tevere", Roma, 16- 17 settembre 1931, *La cattura di Omar el Muctar capo deiribelli in Cirenaica*
"Il Tevere", Roma, 17 settembre 1931, *Omar el Muctar è stah giustiziato ieri mattina.*
"La Tribuna", Roma, 17 settembre 1931, *Il capo della Ribellione senussita catturato dalle nostre truppe*
"La Tribuna", Roma, 19 settembre 1931, *Comefu catturato Omar el Muctar*
"L'Unione Sarda", Cagliari, 16 settembre *1931.Il capo della ribellione cirenaica cat turato dalle nostre truppe.*
"L'Unione Sarda", Cagliari, 16 settembre 1931, *Il ribelle cirenaico condannato a morte*
"L'Unione Sarda", Cagliari, 25 settembre 1931, *Dopo la caduta di Omar el Muctar un vibrante ordine del giorno di SE Graziano alle truppe*
"La Vendetta fascista", Vicenza, 16 settembre 1931, *il capo senussita Omar el Muctar catturato in Cirenaica.*
"La Vendetta fascista", Vicenza, 17 settembre 1931, *Il capo senussita Omar el Muctar fucilato a Soluch.*
"Il Venero", Padova, 16 - 17 settembre 1931, *La cattura del capo dei ribelli del Gebel cirenaico*
"Il Veneto", Padova, 17 - 18 settembre 1931, *Omar el Muctar giustiziato*
"La Voce di bergamo", Bergamo, 17 settembre 1931,Il *capo senusso traditore e ribelle èstatofucilato.*
"La Voce di Mantova", Mantovs, 16 settembre 1931, *Brillante azione bellica dei savari in Cirenaica.*
"La Voce di Mantova", Mantova, 17 settembre 1931, *Il capo della ribellione senussita con dannato e giustiziato*

الكشاف العام

فهرس الأعلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(د)

(ر)

(س)

(ش)

(ص)

(ع)

(ف)

(ق)

فهرس القبائل والجماعات

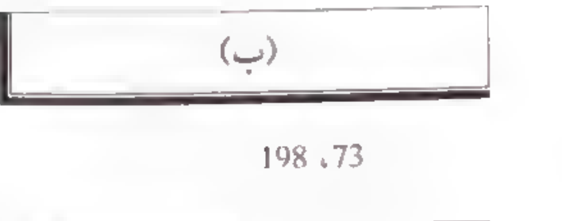
(ع)

(ف)

(م)

فهرس الأحزاب والجمعيات والمؤسسات

فهرس الاتفاقات والمؤتمرات



(ب)



(ر)



(س)



(ع)



(غ)

فهرس الحروب والمعارك

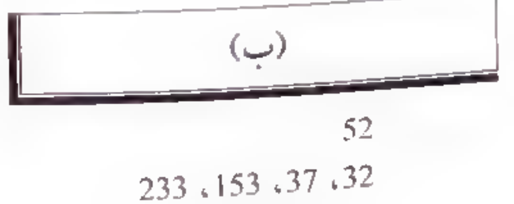
(ج)

(ح)

(و)

فهرس الدول والبلدان والأماكن والمواقع

(أ)



(ب)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(ي)



SANTARELLI-ROCHAT-RAINERO-GOGLIA

OMAR AL MUKHTAR E LA RICONQUISTA FASCISTA DELLA LIBIA



MARZORATI EDITORE

ISBN 9959-23-103-8

مطابع المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية
سوريا - حلب - السلمية - المنطقة الحرة